





المشروع القومي للترجمة

جلال آل أحمد

المستنيرون
خدمة وخيانة

881

ترجمة: سلوى عباس أبو غزال

مراجعة: السباعي محمد السباعي

المشروع القومى للترجمة

المستنيرون : خدمة وخيانة

تأليف : جلال آل أحمد

ترجمة : سلوى عباس أبو غزال

مراجعة : السباعى محمد السباعى



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٨٨١
- المستنيرون : خدمة وخيانة
- جلال آل أحمد
- سلوى عباس أبو غزال
- السباعى محمد السباعى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب

درخمت وخيانت روشنفكران

نوشتهٔ جلال آل احمد

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax :** 7358084.

المحتويات



مقدمة المترجمة

"يجب علينا أن نفكر فى كل كلمة نقولها، لأن كل ما نقوله يجب أن يكون له وزن وثقل بحيث يكون له صدى واسع ودوى مسموع كقطعة القصدير عندما تسقط فى بئر الماء ، وليكن كلامنا وأقوالنا على أساس قوى لا مثل حبة العشب التى تتحرك مع الماء أينما ذهب".

جلال آل أحمد

آرزيابى شتابزده

"كان جلال آل أحمد يؤمن بأن الجهاد الفكرى هو أشد أنواع الجهاد ؛ فهو جهاد مع الفقر والجهل، جهاد مع المستغربين، جهاد مع التقليد والضعف، جهاد مع الذين ينتهزون الفرص، جهاد مع الأصالة والتقاليد الموروثة" (١).

وأكثر ما اشتهر به جلال آل أحمد ولعه بالجدل السياسى واهتمامه بمستقبل وطنه الثقافى والسياسى ، كما أنه أدى دوراً حاسماً فى تكوين فكر جيل كامل من الشباب المفكر، كما ركز على المستنير الإيرانى بصفة خاصة ووضعه منذ أقدم العصور وحتى العصر الحالى وكيف أن هذا المستنير كان فى خدمة مجتمعه أو فى خيانته.

ولد جلال آل أحمد فى طهران سنة ١٩٢٣م ، لأسرة دينية مسلمة شيعية، ودخل عالم الكتابة وهو فى سن السادسة عشرة وأنهى دراساته الجامعية فى مدرسة المعلمين العليا وانتهى من دراساته العالية عام ١٩٤٦م.

(١) شمس آل أحمد ، ازچشم برادر چاپ أول = انتشارات كتاب سعدى تابستان ١٣٦٩ش . صـ ٣٦٩ .

انضم جلال آل أحمد إلى أحزاب سياسية مختلفة منها حزب تودة وكان ذلك منذ عام ١٩٤٣م ، إلا أنه انفصل عن اليسار الإيرانى كله نظراً للألاعيب السياسية التى كانت موجودة آنذاك وعدم اعتقاده بها ، وعلى حد قول جلال آل أحمد "قبَّل السياسة وتركها جانباً".

عاش جلال آل أحمد ستة وأربعين عاماً قضى منها ثلاثين عاماً فى الكتابة خلف بعدها أربعين مؤلفاً ، وقد عبر جلال آل أحمد عن دلائل رفضه للسيطرة الغربية فى كثير من كتاباته مثل "سركذ شت كندوهات = سيرة خلايا النحل عام ١٩٥٠م" ، وكذلك مدير مدرسة عام ١٩٥٨م التى كانت تنتقد الأوضاع البائسة فى إيران. كما ظهر أشهر أعماله الأدبية كتابه عن التغريب "غرب زدكى = معاناة التغريب ١٩٦٢م" وبه يعتبر جلال آل أحمد صاحب مدرسة فكرية حيث يعتبر هذا الكتاب أساسا قامت عليه الثورة الإسلامية فى إيران. كما تحدث أيضاً فى كتابه القيم "خسى درميقات = قشة فى الميقات ١٩٦٥م" عن رحلة حجه وعن مظاهر التغريب الموجودة فى قلب الحرمين المكى والمدنى. (١)

ويلاحظ أن جلال آل أحمد بعد انفصاله عن الجناح اليسارى قدم عدة دراسات تعتبر بمثابة بحث فى عادات الشعب وفنونه ولهجاته (١٩٥٤م: ١٩٥٥م) وهى:

أورازان = منطقة فى الطالقان الأعلى.

تات نشينهاى بلوك زهرا = قبائل التات فى منطقة الزهرا.

درة يتمه جزيرة خارك = جزيرة الخارك درة الخليج اليتيمة. (٢)

كما ظهرت لجلال آل أحمد مجموعات قصصية منها:

ديدوبازديد = تبادل الزيارات ١٩٤٣م.

(١) المصدر السابق . صـ ٣٥٦ .
(٢) جلال آل أحمد ، أدب وهنرامروز در إيران – جلديكم – جب يكم ، شهران ، باير ١٣٧٣ ..صـ ١٧ .

سه تار = السنتور ١٩٤٦م.

زن زيادى = امرأة فوق العدد ١٩٥٠م.

نفرين زمين = لعنة الأرض ١٩٦٥م. (١)

ولجلال آل أحمد مجموعة قصصية أخرى تسمى "بنج داستان = القصص الخمس ١٩٧١م" ، وقد قامت السيدة سيمين دانشور زوجة جلال بنشر هذه المجموعة هى وأخوه شمس آل أحمد بعد وفاته كنوع من تأدية الدين تجاه جلال آل أحمد كما قاما أيضاً بنشر آخر قصصه "سنكى برفورى = حجر على القبر ١٩٨١م".

بالإضافة إلى ذلك قام جلال آل أحمد بترجمة بعض الأعمال القصصية والكتب والمؤلفات الأجنبية عن عدة لغات إلى اللغة الفارسية منها: قما رباز = لاعب القمار لدوستويفسكى ١٩٤٦م، بيكانة = الغريب لألبير كامى ١٩٤٧م، سوء تفاهم لألبير كامى ١٩٤٨، دستهاى آلوده = الأيادى القذرة لجان بول سارتر ١٩٥٠م، بازكشت ازشوروى = العودة من الاتحاد السوفيتى لأندريه جيد ١٩٥٣م، مائدهاى زمين = الموائد الأرضية لأندريه جيد ١٩٥٤م، كركدن = وحيد القرن وهى ترجمة عن اللغة الروسية ١٩٦٥م، عبوراز خط ترجمة عن اللغة الألمانية (٢).

ويمكن القول إنه كان لجلال آل أحمد قدرة سحرية فى مجال كتابة المقال حيث يمكن أن نعتبرها نقطة ذات أهمية فى الأدب الفارسى المعاصر كما يمكن اعتبار أسلوبه النثرى فى مجال كتابة هذا الفن أسلوباً ذا جاذبية خاصة وسهولة وانفعالية الأمر الذى يجعل فكرة الكاتب تصل إلى القارئ بسهولة دون بذل جهد أو مشقة. (٣)

(١) غلام رضا برويز ، كاوش در اثار وآراء وسبك نوشتار جلال آل أحمد طـ ١ - شهران ١٣٧٢ هـ ، ش ، صـ ٢٠.

(٢) شمس آل أحمد ، ازجشم برادر ، مصدر سابق صـ ٢٥١ .

(٣) غلام رضا برويز ، مصدر سابق صـ ١١٠ .

ويعلق الدكتور "على شريعتى" على أسلوب جلال آل أحمد قائلاً:

"كان أسلوبه جادا وصريحًا وموجزًا ، خال من الصنعة يعرض أفكاره بأسلوب مهذب وشجاع ودقيق وقوى ، وكان حواره حوارًا إخباريا مستحكمًا حتى أصبح له تأثير كبير على النثر الفارسى الحديث وعلى الكتاب لدرجة أنه أصبح نموذجًا يحتذى به إلى الحد الذى لا نستطيع أن نجد له منافسًا فى هذا الوقت ، وقد وجد هذا التأثير طريقه إلى درجة كبيرة فى شباب اليوم من الكتاب والمفكرين [1].

(١) على شريعتى : آثار كونا كون ، مجموعة آثار شماره ٣٥ ، بخش أول - جاب دوم تابستان - ١٣٧٢ش صـ ٨٣ ، ٨٤ .

تقديم

لكل مهنة أو صناعة فى أى مجتمع مراتب يندرج فيها الإنسان حسب ما تسمح به استعداداته ومواهبه، فهناك المبتدئ ، ثم المتعلم ، ثم العامل ، فرئيس العمال، فأستاذ مساعد فأستاذ .

وهناك لكل واحدة من تلك المراحل خصوصياتها ودلالاتها على درجة المهارة وعلى ما حصله الشخص من ثقافة. فهى معروفة لسائر أفراد المجتمع وهى واضحة الدلالة لى أنا المعلم وبالنسبة للتلميذ وحتى بالنسبة لبائع النفط أو لرئيس شركة نفط أو لهيئة النفط، وسواء للسجان أو للمسجونين.. هى إذن تعبيرات ومصطلحات لا تنطوى على أى نوع من الغموض ، بل هى حية نابضة، نرددها كل يوم مئات المرات ولها دلالاتها المحددة فى الحياة، وتتعامل بأساليب مختلفة مع كل مرتبة من مراتب هذه الحرف. كأن يكون هناك مثلاً: مدخنة مسدودة، أو باب حجرة يصعب فتحه أو حوض مكسور، فتذهب إلى دكان الحداد أو النجار أو ما شابه ذلك، وتقول: أريد أن ترسلوا صبيكم فلدينا عمل بسيط. وفى هذه الأحوال لا يكون هناك داعٍ لإحضار المعلم.

وفى المجال التعليمى والثقافى كذلك هناك سلسلة من المراتب والدرجات، تبتدئ من الطفل فى الروضة ، ثم التلميذ فى المدرسة الابتدائية، فالمتوسطة (الإعدادية) فالمرحلة الثانوية ، ثم الطالب فى مرحلة التعليم الجامعى... إلخ. فالمعلم فى هذه المراحل معلم له درجاته المهنية التى لا تدل على مستوى المعلومات والشهادات التى حصل عليها فحسب بل وتشير إلى مستوى معيشته وحالته الاقتصادية.

وكما يوجد تشابه لفظى بين الأستاذ الجامعى والأستاذ فى الحرفة. فإنه يجب علينا أن نأخذ فى اعتبارنا الفرق بين هذين اللفظين من الناحية اللغوية. حيث يطلق

على الأول "أستاذ" ، وعلى الثانى "أسطى" ، أو فى سلسلة المراتب الصوفية الذى تبذل جهود كبيرة لكى يجعلوا منه إماماً والباب المرتجى "ولها برنامجها الإذاعى" "باقة ورد" ولها عباراتها الفجة "يا هو - يا حى"(١)

فهناك مدن العشق السبعة التى خاضها العطار (٢) بداية من سلوك وادى الطلب ، ثم العشق ثم المعرفة ثم الاستغناء ثم التوحيد ثم الحيرة ثم الفقر و الفناء ... وكلها مقامات ودرجات معينة ويجب قطعها للوصول من اللاشىء و اللامعنى إلى معرفة الذات ، أو فى سلسلة المراتب الدينية حيث توجد درجات بداية من (مقلد) حتى (مجتهد) و (مرجع) ، وهى درجات بمهام ووظائف لكل شخص فى كل مرحلة من مراحل الشعور الدينى . وحتى أتباع المانوية لها مراتبها من (مستمعين) و (صديقين) و (مقرئين) (٢) . أو فى سلسلة مراتب الباطنيين و الإسماعيليين ... و فى كل جهاز أو بناء ثقافى أو اجتماعى آخر مثل الرياضة (وزن خفيف - وزن ثقيل ... إلخ) أو فى الموسيقى (مائل - مستمع - مهتم - ناقد - مطلع - صاحب رؤية - صاحب بصمة - أستاذ - صاحب مدرسة ... إلخ) وعلى أية حال فإن هذه الدرجات التى ذكرتها منذ البداية لها مفاهيم واضحة و مهام ووظائف محددة لكل شخص فى كل درجة . وإذا كان هناك بعض المقولات الثقافية القديمة غير واضحة فى ذاكرتى فمن أجل التعرف على تلك التدرجات والسمات لكل درجة توجد كتب و مؤلفات ، ويكفى أن نتصفح أحد أوراقها ونلقى نظرة متفحصة ومختصرة لنعرف أية نقطة صعبة وغير واضحة، وتحدد مستوى كل إنسان بالنسبة للمجال الثقافى والاجتماعى الذى ينتمى إليه فهى تضع النقط على الحروف .

ومن هذه المجموعة يمكن الآن أن نذكر أمثالاً كثيرة للتدليل على ما هو فى حوزة المسائل الثقافية و العلمية وما هو فى حوزة المسائل الاجتماعية والسياسية ونحن لم

(١) عبارات يستعملها الصوفية فى إيران وغيرها ويستعيضون بها عن قول : " يا الله أو يا حق أو بسم الله الرحمن الرحيم ".

(٢) الشاعر الصوفى الكبير المعروف : فريد الدين العطار النيشابورى ، واحد من كبار شعراء العصر المغولى لم يبن من مؤلفاته سوى ثلاثين مؤلفاً أهمها : بند نامه أى كتاب النصيحة ، منطق الطير وهى منظومة رمزية ، وتذكرة الأولياء وهو موضع رسائل كثيرة فى العربية منها رسالة د. ناجى القيسى ود. بديع جمعة وأول من عرف به لأبناء العربية د. عبد الوهاب عزام .

نعتد قط على الإبهام أو الغموض أو عدم التحديد الدقيق لأى أمر عدم لا أعرف حقا ما المقصود من مصطلح " المستنير " ماذا يجب أن يكون؟ والأصعب من هذا مع "المستنير" ذاته الذى التصق منذ عصر "المشروطية" [1] وحتى الآن بجذور اللغة الفارسية. دون أن تكون له حدوده المعينة ولاحتى سماته الواضحة ولا مهماته . وفى النهاية ماذا نعنى بـ " المستنير " ؟ ومن هو ؟ وما مكانته ؟ وهل المكانه ثقافية أو سياسية أو اجتماعية أو علمية ؟ وهل هو مجرد شهادة دراسية مثل "الدبلوم والليسانس أم هو مكانة اجتماعية ؟ وفى النهاية سيصل إلى أين ؟ وإلى أية مكانة؟ و أسئلة كثيرة من هذا القبيل .

وإذا افترضنا أن الشكل الظاهرى للكلمة قد يسوقنا إلى عالم الفكر والثقافة والعلم ، فهل يمكن القول إن أى شخص فى البداية يكون جاهلا ثم يصير متعلما ثم يحصل على الدبلومة " الشهادة " ثم يصبح "مستنيرا " ؟ وبعد ذلك يحصل على الليسانس ثم الدكتوراه ، أو أنه يجب أولا أن يحصل على الدكتوراه فى فرع ما حتى يصير مستنيرا وذا قلم ؟ ويجرنا الحديث إلى باب آخر . هل يمكن القول بأن شخصاً ما أكثر تنويراً من آخر ؟ وإذا كان هذا الأمر ممكنا فهل بهذا الدليل يمكن أن نستخدم الصفة التفضيلية بأن فلاناً أكثر اطلاعا من آخر أو استنادا إلى أن أحدا قد سافر إلى بلاد الغرب ؟ أو أنه ألف كتابا ؟ فهل المستنير الحقيقى هو الشخص الذى سافر إلى بلاد الغرب ؟ أو هو الشخص المتأورب وهذا ما أشرت إليه مؤخرا فى كتاب (غرب زدكى)" نزعة التغريب " وقلت إن الأمر ليس هكذا و لكن الأمر نفسه مبهم إلى حد ما إذ إن أى شخص حتى الآن لم يدرك من يكون المستنير الحقيقى إلا أنه فى النهاية يجب أن نوضح العناصر التنويرية و نوضح أيضا معنى هذا التعبير "المستنير" حتى يمكن أن نرى الفرق بين عالم الدين والمستنير ، وهل توجد سمات تنويرية أو مقدمات للتنوير أو لا ؟. وعلى أية حال فإننا قد نرى أن مصطلح المستنير مع غموضه الفعلى فى المعنى و المفهوم لا ييسر لنا الوصول إلى أية نتيجة مقبولة

(١) أى الثورة الدستورية .

فى هذا الشأن . ولنضرب مثالا مرة أخرى نقول أكثر " تعلما " و " أكثر جهلا" أو أكثر جهلا بالعلم أو أكثر غباء و أكثر ذكاء و أكثر فكراً مستنيراً أو أكثر فكراً قاتما فكيف و بأى شكل ؟ ثم هل نستنتج أن " المستنير " مثل " العالم " أو " الجاهل " ؟ مجرد صفة ؟ يوجد باعتبار أننا نمتلك الصفة التى تقابلها ، ولا يمكن اعتبار " المستنير " صفة ، لأننا لا نعثر لها على مراتب ودرجات معنية ؟ أو ثم من المستنير؟ ألا يوجد نموذج ثابت لصفته وكيفيته ؟ أم لا. أليس المستنير تعبيراً عن حالة وكيفية ؟ فما هى هذه الحالة ؟ ما هو موقعها من الإنسان ؟ صفته وكيفيته كإنسان هل هو طول قامته وطراز ملابسه ؟ آداب معاشرته؟ قدرته الفكرية ؟ علمه وثقافته ؟ أو خبرته بأمور الدنيا ؟ لعله أصبح واضحًا أنه لا يوجد علاقة بين التنوير والقد و القامة سواء كان رجلا أو امراة أو شيخا أو شابا . فالتنوير المطلق يدخل فى حوزة المسائل الفكرية و العقلية وفى دائرة الرؤية الإنسانية.. وما تلقاه من ألوان الحياة . وعلاوة على هذا فربما هذا الأمر يسوقنا إلى نقطة ثانية وهى أن المستنير والتنوير أمر نسبى ، بمعنى أنه عندما يكتب أديب ما فى قرية ما عن أسباب الجهل العام لأهالى تلك القرية فهو يعد مستنيراً و متفهماً إلا أن نفس هذا الأديب إذا كتب فى المدينة فهو يعتبر من عوام الناس . و من هنا هل يمكن بهذا التعبير أن نعتبر التجربة الدنيوية من لوازم التنوير أم أنها مرحلة متقدمة ، فمثلا هل الشخص المحنك الذى ذاق حلو الأيام ومرها وخاض تجارب عديدة من أجل تكوين أسرة وأبناء وأحفاد يعد مستنيرا ؟ على اعتبار أنه يستطيع أن يقوم بحل مشكلاته الأسرية بما لديه من خبرات متعددة .

ولنتطرق إلى باب آخر وليكن فى حوزة القضايا الاجتماعية : هل الثقافة درجة اجتماعية ؟ و المثقف عضو فى طبقة ؟ وهل يمكن القول طبقة المثقفين؟ كما هو الحال فى الأحزاب الشيوعية العالمية التى تقر بأن العمال و الفلاحين و المثقفين هم الأركان الثلاثة الرئيسية المشاركة فى البناء الاجتماعى كثلاث طبقات مختلفة لهم أعمال بارزة مختلفة ؟ وإذا كان العمال و الفلاحون الأعضاء فى حزب شيوعى ما و المختارون من بين طبقتهم ، فهل من الممكن أن يطلق على مثقفى نفس الحزب بأنهم صفوة طبقتهم ؟ وربما أن المستنيرين لم يقصروا " التميز" على أنفسهم فى كل مكان ؟ وحينئذ هل يجب أن ينشأ الصراع و المعارضة الدائمان بين العمال و المستنيرين فى الأحزاب الشيوعية ؟ ونرى من قبيل ذلك أسئلة كثيرة.

على أية حال فإنه عندما يمكن تحديد مهمة المستنير و التنوير يمكن الإجابة على كل الأسئلة السابقة وأسئلة أخرى كثيرة . فمثلا إلى أى حد يؤثر المستنيرون فى المسائل المستقبلية فى دولة ما ؟ أو لماذا أصبح المستنيرون فى عصرنا على نفس القدر من عدم التقدير الذى يحظى به الملوك و الدول و الممالك ؟ أو لماذا أهمل المستنيرون المثل العليا ؟ أهو بسبب الطعام و الشراب ؟ وهل المشاركة فى السلطة فى البلدان النفطية تقوم بسلب الحيثية من المستنيرين ؟ ثم ما الشروط اللازمة لاشتراك المستنيرين فى شركات النفط هذه ؟ ثم ما الوضع الذى يجب أن يكون عليه المستنيرون أمام الحكومات فى دولة مثل إيران ؟ وبعد – ما الفروق التى توجد أو يجب أن توجد بين المثقف الإيرانى و الأوروبى – فى مواجهة الحكومة أو فى مواجهة العقيدة الدينية الدين أو الشركات الأجنبية ؟ أو فى مواجهة الاستعمار؟

وأتمنى أن تجدوا جوابا على كل تلك الأسئلة فى طيات هذا الكتاب. ولو على شكل مقترحات عامة و إن لم تجدوا فليس هناك ما يحزن أيضا . لأن أقصى ما نهدف إليه من هذا الكتاب المكتوب وصاحبه هو طرح أسئلة واستفهامات ليس إلا فى كل الموضوعات التى ذكرتها .

الفصل الأول

ما التنوير / ومن المستنير ؟

ما التنوير؟

المستنير تعبير لا أعرف متى وأين و أى شخص وضعه بديلاً عن مصطلح "أنتلكتوئل"(١).

ومن المؤكد أنه بديل خاطئ ولكنه أصبح مصطلحًا . ثم نقول إنه " خطأ شائع " ولابد من أنه مجاز . ولا أحب أن أقول إنه عندما يكون لدينا مسمى خاطئ - أو مفهوم ذهنى خاطئ - فلا مفر من أن تترتب عليه أخطاء أخرى وأعمال أخرى خاطئة فى العالم الخارجي . أو أنه فى أثناء البحث عن مصطلح بديل قد يحدث شيء لم يكن فى الحسبان . ومن الواضح أنه منذ البداية نقلوا لنا مصطلح " المستنير " كترجمة لمصطلح " أنتلكتوئل " ولما كانت ترجمته غير دقيقة فهى بالتالى لن تؤدى بنا إلى نتيجة مهمة. ولما كان حالة هذا المفهوم غير محسومة حتى الآن فليس هناك عجبا لو كانت مهمة ذلك المفهوم غير محسومة أيضا .

ومن هنا تتضح نقطة أخرى وهى أننا لو أردنا تحديداً واضحًا فلابد من البداية أن نتفق على التدقيق فى معانى الأسماء و التعبيرات ثم علينا إذن أن نلقى نظرة على الأصل الغربى لهذا التعبير من أين أتى وما معناه؟ دخلت كلمة " أنتلكتوئل" فى اللغات

(١) ntellectuel.

الأوروبية عن أصل كلمة " أنتلكتواليس"[١] اللاتينية وهى اسم مفعول ، أى صفة تركيبية من "أنتلى جرى " [٢] مصدر لاتينى يعنى الإدراك والفهم والذكاء. ولا شك أن أفضل تعبير يحل محل تعبير " أنتلكتوئل" هو التعبير الفارسى " هوشمند" أى الذكى ، أو " فهميده " أى الفاهم ، مع الأخذ فى الاعتبار أن المفهوم الاجتماعى للكلمة يوحى بالزعامة والريادة والتقدم فيجب أن نضع بدلاً منه كلمات مثل "بركزيده" أى المختار ، أو " فرزانه [٣] أى الحكيم ، أو "بيشاهنك" أى المقدم الطليعى وذلك رغم أن الكلمات الثلاث بعيدة عن أصل الكلمة من ناحية المعنى. ولننتبه إلى كلمة" أنتلى جنسيا[٤]" التى انتقلت إلى اللغات الأوروبية عن طريق الآداب الماركسية الروسية وهى بمعنى "العلماء الأذكياء" و الحكماء الروس الذين اطلعوا على التربية الأوروبية أصبحت لديهم القدرة على الإدراك السريع للأحداث الاجتماعية ، ومقدمات الزعامة والقيادة الذاتية للتعرف على كل تطور سياسى واجتماعى . وعلى هذا النحو انتقلت كلمة " روشنفكر" أى "المستنير" إلى الفارسية، ولأن الكتاب لا يحوى جدالا لفظيا أو لغويا أو إصلاحًا للغة وليس هناك احتياج أصلا إلى تلك الأمور ولما كان تعبير" المستنير " لا يحمل مفهوما خاصا ولا يؤذى سمعنا ولا بصرنا فلابد من أنه قد احتل مكانا فى اللغة وسمح له بالعبور إليها . وعلينا أن نقوم بتحديد ذلك المصطلح من ناحية المعنى وفى العالم الخارجى . والهدف من هذا المكتوب هو تحديد تعريف هذا الاسم من ناحية ، ومن ناحية أخرى تشخيص مسماه ، أى وضع تصور عن ماضى كلمة "روشنفكر" واقتراح لمستقبلها فمن أين جاء ؟ ولماذا وإلى أين سيصل أو يجب أن يصل ؟ ولما كان من الواضح أنه إذا كنا قد وضعنا منذ البداية كلمة " هوشمند" محل كلمة " أنتلكتوئل"

(١) ntellectualis

(٢) Intelligere

(٣) وقد ورد ذكر هذا التعبير فى مجلة " انديشه وهنر " فى العددين السادس والسابع سنة ١٣٤٤ .

(٤) Intelligencia

أو " فرزانه" أى حكيم أو عاقل أو تعبيرات أخرى شبه متساوية لكان الأمر هينًا . و بالرغم من أن المفهوم مازال غامضا فإنه ما زال له إيحاء خاص بالريادة . لكن لم يبق هناك أى غموض فى المعنى الاسمى أو وظائف الشخص المسمى به وحينئذ يستطيع كل عامل – وكل عالم موسيقى – وكل عالم دينى – وكل معلم – وكل سمسار – أو حتى كل وزير أن يكون ماهرًا أو ذكيا أو عاقلاً أو مختارًا أو لا يكون ، وبهذا يكون من الأجدر أن نقول إن شخصا ما أقل من الآخر . ولكن الآن ونحن لدينا مصطلح "روشنفكر" أى " المستنير " فهل من الممكن أن نعتبر أى وزير مثقفا أو أن نعتبر أى بقال أو عطار مثقفًا ؟ وهل للتنوير مكان فى مجال الموسيقى أو الرسم أو من الممكن أن يكون ؟ وكيف يكون لها مكان فى مجال العمارة وسائر الفنون الأخرى غير الكلامية ؟ ترون أن المثقف له مكان فقط فى المسائل المتعلقة بالكلام وبخصوصية أكثر لكل ما هو مقروء أو مكتوب . ومن هنا أعتقد أن الخطوات الأولى هذه قد تقودنا إلى نقطة أو إلى نقطتين أخريين.

عندما نقول "روشنفكر" أى " المستنير" فإننا نستخدم من حيث قواعد اللغة الفارسية صفة مركبة مثل " سفيدرو" ، أى أبيض الوجه أو " سياه دل" ، أى أسود القلب . أى الشخص الذى قلبه أسود أو وجهه أبيض ومن هنا فالمستنير أيضا هو ذلك الشخص الذى يكون فكره مستنيرا. أما كلمة " روشنفكر" أى المستنير تساوى "دارنده فكر روشن" أى ذو الفكر المستنير ، من هنا يتضح عدم الدقة فى ترجمة مستنير إلى " أنتلكتوئل" . وفى النهاية أى ظلم يكون حين يصبح أى شخص ذا فكر مستنير ؟ فمن يا ترى هذا الذى يكون فكره مستنيرًا؟ إذ إن الفكر بمجرد أن ينشط وتتوفر له أسباب الفعل سيكون مصدرًا للفوز والوضوح وتوضيح الموضوعات التى يحاول الفكر معالجتها. وفى هذا الصدد ينبغى أن نصغى إلى حديث آخر " لأفضل الدين كاشى ". (فى الباب السادس فى الحديث عن العلم و العالم والمعرفة) :
" ونحن لا نريد بلفظ " دانش" أى العلم سوى وجود الأشياء الواضحة و الظاهرة. ولا بالمعلوم سوى الشىء الواضح الجلى . ولا نريد بلفظة العالم إلا سبب وضوح وظهور الأشياء . لا نريد بالوضوح و الظهور سوى تمام وجود الأشياء ، لا نريد بالجهل إلا وجود الأشياء الخفية الغامضة ولا نريد بلفظة غير المعلوم إلا الخفى المحجوب داخل

النفوس البشرية فالأشياء فى نفوس البشر إما واضحة و إما غامضة ويقال للشىء البين "معلوم وموجود " ولغير البين " غير معلوم وغير موجود [١]" ولعل بهذا التعبير يصبح من الأفضل أن نستخدم " دانشمند " أى العالم بدلا من " روشنفكر " ولكن سوف نرى أن تعبير " دانشمند" تعبير أكثر انتشاراً ويحتوى على الكثير من الفئات التى قد لا يتوافر فيها شرط من شروط التنوير. وعلى أية حال فبهذه النقطة أيضا يتضح أن " روشنفكر " أى " المستنير " هو الشخص صاحب الفكر. أى من يكون من أهل الفكر . وهذا يعنى أن الشخص فى البداية لابد من أن يتوافر لديه الفكر حتى يمكن أن نعتبره مستنيراً .

وحينئذ فهل أى شخص لديه فكر وذهن يكون مستنيراً بذاته ؟ أو لابد من أن يبلغ حاصل فكره للآخرين ؟ ومن هنا فإن الطريق السليم للتنوير هو التوعية و الزعامة .

من ناحية أخرى لو نظرنا لوجدنا أننا نستخدم مصطلح " كوتاه فكر" أى ضيق الفكر فى لغتنا الفارسيـــة كما نستخدم مصطلح " آزاد فكر " أى ذو الفــكر الحر. والمصطلح الأول مترجم عن لغة أوروبية و الثانى مترجم عن **libre penseur** وفحواه ذلك الشخص الذى له مكان فى المجال الثقافى ومن أجل تعبير أحدث و أسهل سنكتفى بمصطلح " روشنفكر " أى المستنير ونترك جذور هذا المصطلح للغويين و لنلتفت إلى شأننا . فى بداية البحث لابد من أن نتذكر على الفور أن تعبير" روشنفكر " فى الأصل ترجمة لـ " منور الفكر " ذلك المصطلح الذى استخدم فى عصر الدستور وفى نفس الوقت هو الذى رجع بـه أبناء الأشراف من الغرب وقاموا بترجمة القانون الأساسى البلجيكى على أنه قانون أساسى لإيران ، وفى نفس الوقت كان عامة الناس يستخدمون ألفاظًا تقليداً عن علماء الدين ليطلقوها على هؤلاء الأشخاص مثل "فكلى" أى المتميعون"، "مستفرنك" أى "المتفرنجون"، "تجدد خواه" أى المتأوربون – المتجددون – الميالون إلى التجديد فى نفس الوقت كان هؤلاء السادة يطلقون على أنفسهم مصطلح

(١) المجلد الأول من مصنفات أفضل الدين محمد كاشى – من نشريات جامعة طهران – بتصحيح مينوى ومهدوى طبعة ١٣٣١ . صفحة ٥٣ (١٩٧) .

"منور الفكر" ترجمة عن الكلمة الفرنسية Les Eclaires أى الواضحون وعليكم أن تأخذوا فى اعتباركم أنه ليس هناك فرق واضح بين ما نقلته عن أفضل الدين ومصطلح " روشن شدكان " أى الواضحون . بالرغم من أن حضرات المتأوربين هؤلاء لم يهتموا قط بمثل ذلك النص ، ولعل هذا التعبير قد ورد عن " اغا خان الكرمانى " والقائمين على صور إسرافيل و" أيضا فى مؤلفات " ملكم خان " التى احتوت على أحاديث جديدة عن السياسة و الاجتماعيات و كان أكثر اهتمام هؤلاء الكتاب بزعماء القرن الثامن عشر فى فرنسا الذين أطلقوا على أنفسهم Les Eclaires روشن شدكان ، أى الواضحون ، وعلى عصرهم أيضا بعصر التنوير = Siecle De La Lumiere وهذا ما أشرت إليه فى رسالة " غرب زدكى " أى " نزعة التغريب" والذى وضع بشكل معْوّج للاستنارة فى بلادنا [1] . و إذا كان زعماء الفكر فى ذلك العصر فى فرنسا أطلقوا على أنفسهم هذا المصطلح فمن الجائز أن هذا كان بسبب أنهم قد عبروا بالعالم الأوروبى القرون الوسطى المظلمة التى كانت تعيش تحت قهر السلطة المسيحية المتزمتة وربما توفروا على مبادئ العلوم والفنون التى تناولوها وجعلوها موضوعا لدائرة معارفهم . ومن الجائز أن يكون هذا التعبير قد ورد مع آلاف التعبيرات التى جاءت مع عصر النهضة ولكن ليس معلوما لدينا أى من هذه التعبيرات هو الذى دفع رواد الفكر عندنا إلى تقليدهم حتى فى اختيار التسمية فى عصر الدستور ؟ فهل كانوا قد مروا أيضاً بعصر نهضة فنية ؟ أو أنهم وضعوا موسوعة ضخمة فى العلوم؟ ....وهذا البحث سوف يرد الحديث عنه فى موضعه . وعلى الفور أتعرض لهذا الموضوع وهو أنه نتيجة لوجود مصطلح " منور الفكر" أصبح مصطلح "تنوير أفكار " يتصدر العناوين الرئيسية للصحف منذ عصر الدستور وحتى أوائل القرن العشرين . وبعد ذلك أتى مصطلح " بروش افكار " أى "تربية الأفكار " فى القرن العشرين (ألا يوجد ارتباط بين منور الفكر و تنوير الأفكار؟) وأثر المجمع اللغوى فى أذهان حضرات مستنيرى الفكر

(١) ارجعوا إلى صفحة ٣٣ وما بعدها فى كتاب " غرب زدكى " الكتاب الذى طبع بشىء من السرعة وبشكل خفى وقد أثار هذا الكتاب جمع كبير من القراء حتى إنه وجه إليه بعض النقد .

فترجموا كلمة " منور " إلى " روشن" وحذفوا الألف واللام العربية وفجأة انتشر فى بلادنا مصطلح "روشنفكر" بعد "روشن شدكان" هذا من ناحية و من ناحية أخرى فإنه فجأة امتلأت الدنيا بمصطلح "التنوير – المثقفين – المستنرين " وذلك بعد الشهر السادس من السنة الشمسية الإيرانية سنة ١٣٢٠ « شهر يور » (الموافق ٢٣ أغسطس حتى ٢٢ سبتمبر ١٩٤١ م) .

وهناك نقطة أخرى تخص المعنى الأصلى لمصطلح "روشنفكر " يجب أن توضح فى بداية هذا العمل وهى أن إحدى سمات التنوير أو لوازمه فى التعبير الأصلى الغربى وجود حرية التخيل أو حرية الفكر . أى Libre Penseur . وحرية الفكر هذه مما لاشك فيه كانت توجه إلى حد ما للوقوف فى وجه السلطة المسيحية الكاثوليكية و جبروت السلطة البابوية فى روما وما رافقها من محاكم التفتيش وأنواع التضييق على أمثال " جاليليو " أو المذابح التى أقاموها فى جنوب فرنسا فى القرن الثالث عشر الميلادى وتلك الحروب الدينية التى استمرت لمدة مائة وثلاثين عاما بين الفرق المسيحية المختلفة التى ظهرت بعد ثورة " لوثر" فى ألمانيا ، وإعادة النظر فى المعتقدات و الهروب المتكرر من دائرة السلطة البابوية الجبارة ، وقد وصلت حرية الفكر فى عمل السادة المستنيرين الغربيين حتى ذلك الحد الذى أدى إلى الارتداد وخاصة بعد الشعار الماركسى المعروف "إن الدين أفيون الشعوب" الذى أصبح فى حوزة البرامج الثقافية فى الغرب ومعارضته للبابا و الكنيسة و المسيحية ، وهذا يثير انتباهنا إلى أن مستنيرينا أيضا قد يكون لديهم الكفاءة و الاستعداد للارتداد وهم فى هذا الموضوع مقلدون طبق الأصل للمستنيرين الغربيين . وسوف أتحدث عن هذا الموضوع فيما بعد .

عندما نقول "المستنير" يجب الالتفات إلى أن لكل إنسان قدرة على التفكير ضمن حدود معينة. سواء كان مزارعًا يهتم بأمور الماء و الماشية و المزرعة ، أو كان كاتبًا يهتم بموضوعات حيوية وعامة للمجتمع . ثم هل يمكن القول إنه فى داخل كل شخص نطفة من التنوير ؟ أى إذا تفوق فلاح عن غيره من الفلاحين فيما يخص الماء و الماشية والمزرعة فهل يمكن أن يصبح مستنيرا بين زملائه فى المهنة ؟

وقد ترون أننا بمثل هذه الأنواع من الأمثال نبعد عن مقوله التنوير . ولكن سواء كانت الإجابة بالنفى أو بالإثبات فالسؤال نفسة نقطة ارتكاز لنظرة مستقبلية واسعة للتنوير ، ولكن على أيه حال فإن حدود هذه القدرة على التفكير هى حدود العالم الذهنى لأى إنسان . وببساطة فعندما يغلق العالم الذهنى للإنسان فإن العالم الخارجى الذى فى متناول يده يغلق أيضا . و بالعكس . أى أن انغلاق و انفتاح العالم الذهنى لكل شخص يرتبط ارتباطًا مباشرًا بتجربة نفس ذلك الشخص مع العالم الخارجى . وهذه التجربة إما مباشرة على حد قول القدماء " السير فى الآفاق " أو غير مباشرة ، أى مستخصلة عن طريق الكتاب و المدرسة والمعلم و التجربة . وببساطة جدا علينا أن ندرك بالفطنة فى بداية الموضوع أن أساس التنوير فى أى مكان سواء فى إيران أو فى الخارج مرتبط بالمدرسة . وماذا تعنى المدرسة ؟ المدرسة هى أصغر وحدة أو أول وحدة لتحصيل الثقافة و العلوم . وسوف أتحدث عن المدرسة فى الصفحات التالية على اعتبار أنها واحدة من منابت التنوير.

رؤية البصر أم الرؤية الكونية :

بعد هذه المقدمات اسمحوا لى أن أبرز هذه النقطة وهى أنه عندما نتحدث عن "التنوير" فإن أول ما يتبادر إلى أذهاننا هو الحديث عن " روشن بينى" ، أى البصيرة أو "الرؤية النيرة". ومما لا شك فيه أنه ليس المقصود بهذا المصطلح هو ذلك المعنى الذى يطلق على عمل أحد الحواس . مثل " النظر " وبمعناه البسيط (أى كأحد الحواس) أى أن حاسة البصر بمثل النافذة وهم بين الدنيا إلى ذهن الإنسان والعالم . وبلا شك إلى فكره ومن هنا تكون رؤية أى إنسان ضيقة أو واسعة نيرة أو معتمة . وعلى هذا ونحن نعلم أنه من الممكن أن يكون شخصا ما أعمى ولكنه مستنير وبالعكس . كما أن الغرض من البصر (فى أمور الدنيا) ليس فقط رؤية العين ولعل القدماء كانوا يقولون " جشم دل " أى عين القلب ونحن اليوم نقول " جهان بينى " أى التجربة "الرؤية الكونية". وداخل هذا الإطار فإن " ديدن " أى الرؤية هنا مطروحة بأبعاد أوسع، وهى

البصر أو قدرة البصر ". أو " الرؤية " وهى مما لاشك فيه من المقتضيات الضرورية وهى فى الواقع الرؤية والنظرة الثاقبة إلى قضايا الحياة، وهذا بالطبع من المستلزمات الضرورية للاستنارة. وحتى لو كان المقصود من المعنى " ديدن" المعنى البسيط – على أنه أحد الحواس – الذى له أيضا تأثير على أمر التنوير . وعلى كل فإن تأثير " البصر" على تكوين فكر الإنسان له نفس التأثير الذى للعضلات فى بناء الجسد سواء فى اليد أو فى القدم. ولقد رأينا تجارب كثيرة واطلعنا على قراءات لكتب كثيرة لا نعرفها ... وفى أى مجال؟ أهى فى حوزة المسائل الاجتماعية وتقرير الحقائق ؟. " ولننتبه إلى هذا السؤال والجواب كأحد الخطوط الأساسية التى تعين حدود التنوير" . إذا اعتبرنا أن أكثرها يتحدث كل وقت عن إصلاح المجتمع . كذلك فى أى وقت يبتعد فيه الشخص عن الانشغال بنفسه ويندمج مع المجتمع بمعنى أن يرتبط بمنزله ومدينته ولغته وبلده ودينه ويشترك مع الآخرين فى اللغات و الآداب و الثقافات و الأديان المختلفة . أو أن يهتم بأحوال المخلوقات وأسباب وجودها . وأنه بدلا من أن يكتفى بالتصور و التخيل من أجل إيجاد وضع أفضل يجب عليه أن تكون لديه الجرأة من داخله لإيجاد وضع جديد كما يجب أن يقوم بوضع مقاييس ومعايير تاريخية واجتماعية لإيجاد هذا " التغيير " ويختار بناء على هذه المقارنة .

نقطة أخرى : عندما نقول مستنيراً ندرك أن " الفكر " هو ذلك الجزء من القدرة العقلية التى تستطيع أن تسترجع فى أى لحظة ما تحتاجه من خلال مجموعة الحيثيات الذهنية (تخيل – ذاكرة – إحساس – إلخ) وهذا الاستيعاب لهذه الأدوات الفكرية كلما كان سريعاً ودقيقًا ويصل إلى ما يريد تكون القدرة الفكرية حادة وفعالة وحيوية ، ومما لاشك فيه فإن بوادر التنوير تكون أكثر توافراً لصاحب مثل ذلك الفكر إلا أن هذا الاستيعاب بالنسبة لمولود أعمى أو مولود أصم قد يظهر خللاً ما فى عمل سائر القدرات العقلية ، علاوة على أن كليهما لديه قصور فكرى مقارنة بشخص سليم فمثلا الأعمى لا يعرف الألوان وبالتالى لا يعرف كل ما يتعلق بالألوان وبناء على هذا فإن عالم الصور غامض بالنسبة له وعلى هذا النسق ... فإن هذا الاستيعاب ينطبق على شخص ذى جهل بالعلاقة العلمية و الأمور العلمية . أو بالعلاقة الاقتصادية للوقائع السياسية

والاجتماعية. بناء على هذا فإن الخلل التام لجزء من الذهن - يسبب خللاً فى عمل الأجزاء الأخرى أيضا رغم أنها سليمة . وعلى كل فإن كل شخص يكون لديه قصور فإن ردود أفعاله إزاء الأحداث والوقائع تكون بشكل يتناسب مع نضج أو بساطة عالمه الذهنى، اضرب مثالا :

عند حدوث زلزال أو حدوث كسوف للشمس فإن رد الفعل الطبيعى للرجل العادى فى مقابل هاتين الواقعتين هو قراءة صلوات الخوف لأن سبب حدوث الزلزال أو كسوف الشمس أمر غامض بالنسبة له لأن كليهما يأتيان عن طريق عالم الغيب ونحن نعلم أن "الخرافات " ما هى إلا كوة ينظر من خلالها البدوى إلى عالم الغيب " الميتافيزيقى " أو مفتاح فى يده من أجل العبور للعالم الآخر أو " حرز جواد " أى طلسم يدفع به الشر المتوقع حدوثه من ذلك العالم .

إذن فإن رد فعل الرجل العادى فى مثل هذه الأمور رد مترتب على معلوماته التى تلقاها إما شفاهة وإما عن طريق التقاليد المتوارثة . أو ما سمعه من العجائز اللائى بعدن به إلى الحياة البدوية التى كانت عاملاً محركًا للإنسان من الخوف من المظاهر الطبيعية ، إلا أن رد فعل المستنير فى مقابل مثل هذة الأحداث يكون طبقا لما أحاطه من علوم وتجارب ومعرفة دنيوية والاعتماد على معطيات عصر التطور العلمى والآلات الحديثة والاكتشافات الدنيوية الجديدة . وتكون تصرفات الأول مبنية على " التعبد" والتقبل بلا جدال لكل ما تلقاه من خلال المجتمع و الأسرة وتكون تصرفات الثانى مبنية على التجربة والعلم و التحرر من الدين. ولنضرب مثالاً آخر، الحرب فى فيتنام لا يعرف عنها الرجل العادى شيئًا، أو إذا علم شيئًا فإنه يتمنى أن ينتهى بأسرع ما يمكن بدافع من نزعته الإنسانية الخيِّرة. وسيرفع أكف الدعاء تضرعًا لله كى تنتهى شأنه فى ذلك شأن "البابا" الذى لا يمتلك إزاء هذه القضية سوى الدعاء والتضرع.

أما المستنير فسيبحث عن أسباب هذه الحروب وجذورها الاستعمارية والاستعمار الجديد، والرأسمالية العدوانية التى تطل اليوم فى ثياب حقوق الإنسان، لترفع شعارات إشاعة التحضر ومكافحة التوحش، كى تحرك بذلك عجلات مصانع صنع السلاح،

وتهيئ الأرضية لاستهلاك منتجات هذه المصانع (من المعلبات حتى الدبابات والطائرات). وتدفع الفائض من الأيدى العاملة كجنود إلى ميادين القتال وتريح "البيض" من شرور الزنوج الذين سببوا الكثير من المشكلات داخل أمريكا، وتتخلص من شر الفينتكونج [١] وتثبت لها قواعد عسكرية بجوار الصين وتقذف الرعب فى قلوب من يفكر بالتحرر من الشعوب المستعمرة.

وإذا استطعنا أن نقول بتعبير أكثر شمولية فيجب أن نقول إن عصر التنوير هو العصر الذى يصير فيه الإنسان مفصولا عن المؤثرات الطبيعية و ينشغل بذاته و يتحكم فى مصيره . ويواجه قدره بمفرده دون أى مساعدة سماوية أو أرضية ودون أدنى انتظار من العالم الخارجى أو من العالم العلوى ، ويعتمد على نفسه فقط . وبهذا يصبح حرا طليقًا و مسئولاً فى هذه الفترة الزمنية تطورات الحالة الفكرية للبشر على أساس من التجارب والتفاعل الصناعى وانتشرت رؤية جديدة فى كل المجتمعات البشرية وينتهى الخوف من الظواهر الطبيعية .

وواضح أنه عندما تختفى العوامل الطبيعية (مثل الزلزال أو الخسوف و الكسوف وسعد و نحس الأيام و النجوم) من مقدرات البشر فإنه طبقا للتعليم : يصبح تعبير " سرنوشت" أى " المصير " بلا اعتبار فى الدرجة الأولى إذ لابد من أن يصبح بدلاً منه تعبير "سركذشت" أى " الواقع" . وفى الدرجة الثانية ذلك القدر الكامل من الأخلاق والدين والقانون والسياسة والتى تعتمد على العوامل الطبيعية أو ما وراء الطبيعة والتى فقدنا معناها أيضا. فهذا الذى نلقى جثة فى البحر المتلاطم أمواجه لكى تهدأ – أو ما تقوم به من قراءة دعاء معين مائة مرة من أجل أن يزول ألم الصداع – أو أن نصلى ابتهالاً ... إلخ

(١) يشكل السود ١١ ٪ من الشعب الأمريكى ، ومعدلات الولادة فيهم أكثر من البيض ، ونسبة البطالة بين الشباب من السود أكثر . فى عام ١٩٦٥ ، كان ٥٤,٧٪ من السود دون سن الـ ٢٤ عامًا ، و ٤٥٪ من البيض وبالطبع ستلحق نسبة أكبر من السود بالخدمة العسكرية ، ومن البيض الذين يتطوعون فى أمريكا يصبح ١٤,٦٪ منهم ضباطًا ، بينما لا تتجاوز هذه النسبة بين السود ٢,٣٪ ويشكل السود ١٣,٩٪ من الجيش . (مترجم باختصار عن هامش صـ ١٠٢٨ من مجلة Temps Modernes طبع باريس عدد ديسمبر ١٩٦٧م).

و الأهم من هذا كله أنه عندما يشك الإنسان فى تأثير العوامل الطبيعية فى المصير القديم " (بمعنى إحلال الواقع) فإن ذلك القدر من الرواسخ السياسية والأخلاقية والدينية المبالغ فيها فى ظل ما وراء الطبيعة بشىء من الاقتدار سوف يصبح بلا اعتبار أيضا ، أى أن التنوير مرحلة أو عصر تفقد فيها عبارات مثل : " ظل الله" أو " آية الله[1] "

من المثقف ؟

بهذه المقدمات يمكن القول الآن إنه عندما يتحرر الإنسان من القضاء والقدر ويمسك بيده زمام حياته ويحيا واقعه ويصير كلاهما مؤثرًا فإنه بذلك سيخطو قدما فى دائرة التنوير . وإذا كان قد وصل بالتنوير إلى حد حرية الفكر فيجب على المستنير – المتحرر من قيد التعصب أو التزمت الدينى و أيضا المتحرر من التحكم وحكومات العصر– أن يعتبر نفسة مسئولاً عن وجوده ووجود الآخرين ولا يتعلل بالمقدر والمكتوب .

ويصير الأمر أكثر وضوحًا إذا ذكر فى هذا الأمر أن مثل هذا النوع يحدث نتيجة المشاركة أو الرؤية المبصرة للأمور الدنيوية ، ومن الواضح أن هذا النوع من التعامل مع الواقع أو هذا اللون من الرؤية الكونية ، إنما هو "واجب" بالإضافة إلى كونه "خطأ " وذلك بالنسبة لجماعة معينة من المجتمع ، فهى متحررة من أغلال " الذات " إلا أنها مكبلة بحبال الآخرين : بتعبير آخر يمكن القول إن التنوير أيضا من ناحية الحقوق ومن ناحية الوظائف (وكذا الأجر و العمل) تتعلق بمجموعة خاصة من الناس لديهم " الفرصة "و"الإجازة " و " الجرأة " و يتأثرون "باللاهوت" أى عالم الغيب و"الناسوت" أى عالم الحسد أو الواقع . بمعنى أن الفرصة و الجرأة و الإجازة تصبح تأملات فى هاتين المقولتين حيث إن الأمور الربانية و المعتقدات و الأصول تتمثل فى "اللاهوت " ،

(١) انظر " خسى درميقات " ، لنفس القلم ، دار نشر نيل .

و الأمور المتعلقة بالأرض و ناسها وحياتهم و كيفيتهم وكمياتهم تتمثل فى " الناسوت" . وعليكم أن تأخذوا فى اعتباركم أننا وضعنا ثلاثة شروط هى :

الفرصة بمعنى وقت الفراغ .

الترخيص بمعنى الإمكانية والجواز و القدرة الفكرية

والجرأة بمعنى الاتصاف بالجرأة والتأهب للضغوط النفسية وعدم الخوف .

ومن هنا لعله ربما يمكن الآن توضيح أى نوع من البشر لا يمكن أن يندرج تحت قائمة التنوير :

أولا : الشخص أسير الجسد و البطن . أى بمعنى أن نأخذ الطبقات المستهلكة التى تقضى عمرها جريا وراء لقمة العيش و كل همها وحزنها الحقيقى هو إشباع بطونها و أبنائها وذويها . أى بمعنى تلك المجموعة من البشر التى تعتبر قاع المجتمع وبالرغم من أن لديها الفرصة وإمكانية الفكر فإنها لا تؤدى عملاً فكريا . ولنأخذ فى المقام الأول العمال و الزراع و أصحاب الحرف حيث إنهم بحكم حياتهم لا يجدون فرصة قط للتفكير فى " اللاهوت" أى عالم الغيب و " الناسوت " أى عالم الواقع وهذا هو العار الحقيقى للبشر . حيث إن الأكثرية العظمى منهم يضيعون العمر جريًا وراء لقمة العيش ، وكذا الشخص الذى لا يحمل هما والشخص الذى يروق له أسلوب حياته والشخص الذى يقضى عمره طولا وعرضا ... إلخ . ونأخذ فى المرتبه الثانية الشخص الذى لا يجادل ولا يسأل ولا يتعب رأسه ولا يعرف الهم ويأكل ويشرب.

ثانيا : الشخص أسير التزمت . التزمت الدينى أو السياسى . فلو أن التزمت ناقص لواحد أو اثنين من تلك الشروط الثلاثة التى ذكرتها (الفرصة – إمكانية الفكر – الجرأة) فبناء على هذا فإن " مشرعا " فى الدين لا يمكن أن يكون مستنيرا . وأيضا أى عسكرى آثر الطاعة العمياء لأولى الأمر . فمن الممكن أن يكون لهاتين المجموعتين دوافع الزعامة والريادة و بالرغم من أنهما لا يملكان السيطرة فهما على أية

حال من زعماء المجتمع : فهما فى مقولة واحدة معروفة وجهان لعملة واحدة . وهاتان المجموعتان تقضيان عمرهما فقط فى طاعة " الأمر " . فليس هناك فرق سواء كان الأمر من قبل السلطة الحاكمة أو أمرًا ربانيا . وقد أقول قولا أفضل عن هاتين المجموعتين فإحداهما تتحمل الظلم فى سبيل طاعة الأمر الربانى بينما الثانية – مطيعة لأوامر السلطة الحاكمة – أى أنهما عملتان للظلم . أى وجهان لعملة واحدة . على كل فإن الطاعة و التبعية من سلبيات التنوير . إن هذا البحث ليس بحثا فى رفض طاعة " القانون " أو فى رفض طاعة التشريعات الأخلاقية و الدينية . بل إنه بحث فى ضرورة أو عدم ضرورة " الطاعة " فى حوزة التنوير ، حيث إن الحرية و المسئولية وحرية الاختيار سمات يتصف بها الإنسان .

فى هذا البحث لابد من أن نلتفت إلى نقطة فرعية وهى " التعبد " (= الطاعة ، الإنصات للأوامر) فهى مشتقة من " عبادة " (= بندكى " العبودية ") و " عبد" (= بنده " عبد") وعبدالله (= بنده خدا) الذى انتشر بين المسلمين حتى إن اسم عبد الرسول أيضًا اسم إسلامى . حيث كان يوجد قبل الإسلام و فى العصر الجاهلى أسماء مثل (عبد منات) و (عبد اللات) و (عبد العزى) وانتشر بين العرب مع العلم أنه ليس هناك فرق من الناحية اللغوية بين " اللات " و " الله" (سوى " تاء" التأنيث التى أتت فى نهاية الأولى) ولعل اسم عبد الله انتشر بين المسلمين فى صدر الإسلام نتيجة لحذف أسماء الآلهة الأخرى (لات ومنات وعزى ... إلخ) فى العصر الجاهلى واستمر حتى اليوم بشكل تقليدى ، ومما سبق نعلم أن وجود " بنده خدا " أى عبد الله على أنه واحد من أرقى المقامات الإنسانية الأكثر رقيا فى الإسلام . أى شخص يعتنق الإسلام حديثًا كان أول اسم يختارونه له " عبد الله " .

ألا يمكن من هذا الكم من الأسماء أن نعرف أن ما يربط الخالق (خدا) والمخلوق (آدمى) فى الدين الإسلامى هو رابطة المولى " بالعبد " ؟. والحال إن هذه العلاقة فى اليهودية علاقة متنافسين فى الدين اليهودى عن رابطة الرقيبين و الحريفين[1] . وفى المسيحية تعبير عن العلاقة بين الأب و الابن . وفى المذاهب الهندية

(١) ارجعوا إلى قصة مصارعة يعقوب ويهوه فى الإصحاح الثانى والثلاثين عن سفر التكوين – التوراة .

و البوذية عن وحدة الخالق و المخلوق . ومن هنا ودون أن نقصد أية مقارنة ألا يمكن الوصول إلى هذه النقطة وهى : لو كان أصل وأساس التنوير فى حوزة الإسلام غير منظورة أو مشاهدة لكان هذا دليلا على عدم وجود علاقة بين الرب و العبد ؟ سوف أورد شواهد أخرى فيما بعد من أجل تأييد وجهة النظر هذه .

ونعود الآن إلى موضوعنا . وهو " القانون " فهو من وضع البشر من أجل إدارة الأمور البشرية . كما يدخل الدستور و الآداب الأخلاقية و الدينية أيضا فى هذه المقولة . أو القلة ذوات الملكات الأخلاقية أو الذين يفضلون القوانين البدائية التى ليس لها قبول اليوم لدى صفوة الناس . وليس الكلام فى مجال التنوير عن قبولها أو رفضها وإنما الكلام عن البناء الفكرى للإنسان بوجه عام .

لهذا السبب فإن معظم المجتمعات البشرية أو أغلب الخلق يحكمون بشكل فعلى إما بالخوف من القانون الدنيوى أو القانون الأخروى سواء أكان وضعيا أم شرعيا ، إما بالخوف من جهنم أو بحد الصراط أو بالحروب أو بالسجن . إنه بحث فى ذلك الإنسان الذى يقضى معظم حياته ، بالخوف من هذه الأسباب التى ذكرتها أو فى هم المأكل والمشرب و الملبس و المسكن الممهد ، أى الإنسان الخارج عن نطاق الآدمية ويطبق عليه حكم الحيوانات. إذ إنه إن لم يأكل يموت . أو أن يظل يعانى من ألم الضغوط القهرية . تلك هى الخسارة العظمى للسمو الإنسانى الرفيع .

وعلى هذا فلن يسود " التنوير " إلا عندما يستطيع الإنسان أن يفرغ من هم "الابن والخبز و اللباس و القوت " ويقوم بـ السير فى " الملكوت" ، أى التأمل ويقتصد بضع ساعات من اليوم ومن هنا يحصل على الفرصة لمثل ذلك التأمل كما أنه عندما يفرغ من " الأمر " سواء أكان الأمر من قبل السلطة أم كان من قبل السماء ، ويستريح من الخوف من أوامرهما ، فإنه بذلك يحصل على الجرأة لمثل ذلك التأمل أو الإمكانية لمثل ذلك التأمل أيضًا . وربما لهذا السبب الكائن بين أيدينا اعتبر بعض الأجانب نوع العمل الذى يمارسه الإنسان معيارًا لتحديد مقومات التنوير. ونحن نعلم أن كلمة "عمل "

بالتعبير الماركسي عبارة عن ذلك القدر من "الطاقة " أو " القوة التي يجب أن تستنفذ لتصبح المادة الخام سلعة قابلة للاستهلاك " . وهذا " العمل " في إطار الأمور البشرية بالرغم من أنه لم يخرج عن هذين النوعين سواء كان عضليا أو فكريا فإنه في الحقيقة واحد . ومما لا شك فيه فإن الآلة و الحيوان قطعًا يخرجان عن نطاق تلك الأمور البشرية . ولكن في الحقيقة لو أننا دققنا النظر لوجدنا أن عمل الحيوان والآلة أيضا ما هما إلا نتاج لهذين العملين البشريين . أي نتاج العمل العضلي والروحي للإنسان اللذين لا يخرجان حتى الآن عن إطار العون و المعين . مع الأخذ في الاعتبار تلك العيوب الكثيرة التي تنجم عن الآلة وهذا الموضوع ليس مجالاً للبحث هنا .

ولتأييد هذه القضية ، وفي البحث عن معنى " العمل " و " الفكر " وكونهما شيء واحد في آخر تعقيب عليهما اسمحوا لي أن نعود إلى السيد (هايدجر) لربما نصل إلى تعبير أكثر دقة ليكون عملنا أكثر يسرًا في باقي البحث، يقول:

جاء في رسائل ماركس في عهد شبابه التي نشرت بعد وفاته " إن كل ما عرفناه عن تاريخ البشر أو تاريخ العالم ما هو إلا استثمار بشري عن طريق العمل الإنساني وهذا يخلق الفطرة الإنسانية إلى حد ما" (رسائل ماركس المجلد الأول ص٣٠٧) وكثيراً ما يرجع هذا النوع من التفسير لتاريخ العالم [...] إلا أن أي إنسان لا يمكن أن ينفي أن التكنيك والصناعة والتجارة لا تكون إلا عن عمل فعلي مادي لا عن شعور داخلي للإنسان . و اليوم تتحدد جميع أمور العالم الواقعي بصورة واضحة . وتخرج من حدود هذا العالم الفكري مع كل هذه الآراء بهذه الجملة المنقولة عن ماركس :" إن تاريخ العالم = عمل استحصال بشري غير شعوري"

لأن كلمة " عمل " هنا لا تعني نوعية الحركة الموجودة ونتيجتها فقط . ولكنها هنا بمعناها و مفهومها عند " هيجل " الذي يعتبر الفكر و التفكير ما هما إلا مرحلة من المراحل الطبيعية للجدال (ديالكتيكي) و التي عن طريقها تتحقق صيرورة العالم ويكتمل بها الواقع. وعلى هذا كان الاختلاف بين " ماركس " و " هيجل" ، لأنه يرى أن أساس الواقع ليس في الفكر المجرد و الشعور الواعي لذاته، والذي يوفر نفسه وأسباب

بقائه. وهذه القضية عند ماركس دفعته إلى الخلاف فى الهدف مع " هيجل ". وبالرغم من وجود هذا الخلاف ، فإنه ماركس لا يزال مستقرا داخل الإطار الميتافيزيقى لـ هيجل . لأن الحياة وسلطاتها الواقعية عبارة عن تكامل للعمل باعتباره مرحلة منطقية لصراع "ديالكتيكى " ، أى أنها مرحلة من مراحل اكتمال الفكر و التخيل - مهما كان هناك جرم فى تأثير الاستثمار أو الاستفادة فى أى نوع من أنواع الاستفادة - حيث يظل الفكر باقيًا . سواء فى شكل أفكار معقدة وغامضة لما وراء الطبيعة ، أو فى شكل علمى وفنى أو فى شكل مزدوج من كليهما . علاوة على أن كل استثمار ما هو إلا انعكاس داخلى أى = التفكير[١] ، وعلى هذا فإن كل استثمار فكر[٢].

ويحضرنى فى هذا المعنى جملتان أو ثلاث عن " الرجل المتمرد" " ألبير كامى" الذى يقول : من هو الرجل المتمرد؟ هو الشخص الذى يقول " لا" . وهو الشخص الذى مهما اضطهد لا يتراجع [...] و الثورة الفردية **Rebolt** عبارة عن الحركة أى "الفعل" الذى يصل به الإنسان من التجربة الشخصية إلى النظرية السليمة . و الثورة **Revolution** تعنى الكفاح من أجل التطبيق العملى لنظرية ما . وأيضا من أجل طرح نظرية معينة للعالم فى جهاته الأربع[٣] . فقد تلاحظون أن "العمل" و " وجهة النظر " متواليان تواليا مندلقيا و فى النهاية يستقران : الفعل - الفكر . أو بالعكس . وبناء على ما أوضحناه أيضا فإن العمل اليدوى و العمل الفكرى ينتميان لجذور واحدة .

وعلى هذا يمكننا الآن وضع تعريف قد يقترب من الحقيقة فإن لم يكن بالقطع واليقين يكون بالحدس و التخمين و هو أن المستنير هو الشخص المتخلص من أسر الطاعة و التعصب و طاعة الأوامر وهو فى الغالب يقوم بأداء عمل فكرى لا عمل بدنى ،

(١) Reflexion لنفس العادة المعهودة من هايدجر الذى كان يتحقق فى أصل الكلمات لهذين المعنيين " باز تاب = البحث " وأنديشة = الفكر "

(٢) ترجمة مختصرة من ص ٣٣ مجلة أركومان Arguments طبعة باريس العدد ٢٠ السنة الرابعة الفصل الرابع عشر سنة ١٩٦ ، التى كانت أعدادها مختصة بالبحث فى شأن المستنيرين .

(٣) نقل وترجمة (من ص ١٥٢٦، مجلة temps Modernes عدد ديسمبر ١٩٦٦ .

وينصب اهتمامه على المطالبة بالحرية وقليلاً ما يسعى من أجل المصلحة المادية ، أى أن حاصل عمله يقوم على حل المشاكل الاجتماعية أكثر مما يقوم على النفع المادى أو الشخصى . لكن لو قلنا " أغلب " فربما يكون هذا دليلاً على أن قليلاً ممن يستطيعون القيام بعمل يمكن أن يندرجوا ضمن المستنيرين.

وعلى هذا فإن من بين طبقة العمال مثل (النجّار و البناء و الحداد و الحلاق إلخ) أو مالك الأرض أو الصانع فإننا قليلاً ما نجد منهم من يهتم بأخبار التنوير . ولكن يمكن أن نجد من يهتم بالمستنير و التنوير من بين ذلك الجمع من الرجال الذين يقومون بأداء أعمال فكرية مثل الكاتب أو المعلم أو العالم أو الواعظ الدينى . مع العلم أن كل فرد من أفراد هذه المجموعة الأخيرة لايمكن أن نعتبره بالضرورة مستنيراً فالمقومات التى سردتها من قبل ضرورية . ولكن ينبغى ملاحظة العمل الذى يمارسه هؤلاء – لأن معاملاتهم تقوم على " الكلام" – ولأن الفرصة و الإجازة و الجرأة والتأثر باللاهوت " عالم الغيب" والناسوت " عالم الجسد " متوفرة لهم أكثر من غيرهم من العمال والفلاحين.

والقضية التى يجب طرحها الآن هى أن حرية الاختيار فى مجتمع ما لأى من هذه الأعمال اليدوية أو الفكرية التى ذكرتها تكون لكل شخص حر . أى الذى يجب أن يكون حرا . فإذا نظرنا إلى القانون المدنى و المنشور القوميد ... إلخ لوجدنا أنه ليس هناك أى مانع فى العمل من أن يصل العامل البسيط إلى أستاذ فى الصنعة عن طريق كفاحه و خبرته وطيه لمراتب العمل ثم يصل بعد ذلك إلى أستاذ معلم فى الصنعة وربما يصل إلى درجة مهندس مثلا أو خبير . فضلا عن ذلك فإننا قد نجد عاملا فى مطبعة قد يصبح كاتبًا فجأة أو قد نرى أن ابن فقيه يصبح مقرئًا . على أية حال واضح جدا أن هذا التدرج فى مراحل العمل أو التطور فى طبيعة العمل و الحرفة يمكن حدوثه عن طريق اتباع الأسلوب العلمى والتجربة و توافر البيئة المهيئة و الاحتياجات اللازمة لذلك إلا أن الوضع بالنسبة لنا فى إيران صراحة غير ذلك فإن خمسة و سبعين فى المائة من مجتمعنا يعيش بعيدًا عن مدن إيران الكبرى التى لا تزال تتبع الأسلوب الساسانى

ويتوارثون الوظائف بينهم . أى أن المجتمع التقليدى لا يطبق نظام الانتخابات العمالية بل إن توارثهم ذلك قضية يجب طرحها . كما أننا قليلاً ما نجد فى على آباد أو حسن آباد أن ابن مزارع لا يرث مهنة أبيه أو أن ابن فقيه مثلاً لا يعظ . حتى إنه فى أكثر مدن الدولة وضواحيها الفقيرة نجد أن الوضع أيضا يسير على مثل هذا النسق . لماذا؟ لأن مسألة الانتخابات العماليـة ليست فى إمكانهم . أى أنه عنـدما لا توجد مدرسة ولا يكون هناك تخصصات دراسية ولا متطلبات جديدة مثل الحياه التقليدية التى تفنى وهى تمضى بالأسلوب المتخلف للمحراث والإبريق والبوق . وهكذا يكون وضع أبنائنا لفترات زمنية طويلة علاوة على هذا ، فإن نفس الأعمال أو المهن التى يرغبون فى العمل بها هى نفس المهن التى كان أباؤهم يعملون بها . أى أن الحكم العام لمجتمعنا اليوم – باستثناء المدن الكبرى – صورة طبق الأصل للمجتمع الطبقى (الباطل) فى العهد الساسانى .

أفتح فرعا للبحث فى بداية العمل نفسه لهذه النقطة التى بسببها أريد أن أسأل أليست هذه إحدى الدلائل الصماء على محدودية العمل و الوظائف و المعنى الحقيقى للمستنيرين ؟ أى أن المستنير عندما يرى أنه يعيش فى مثل هذه البيئة التقليدية التى لا تتمتع بحرية الانتخابات العمالية و التى كثيراً ما باءت محاولاتها بالفشل فهل من حقه أن يتخيل (وبالطبع خطأ) أنه سيظهر شخص مرموق – من الكتاب و رجال الدين فى العصر الساسانى – الذين كانت مسألة الوصول إليهم أمراً صعباً ؟ وعلى هذا فإن أول مشكلة تواجه المستنيرين فى بلدنا هى أنهم تربوا فى هذه البيئة طبقا لملكات أخرى ومن أجل بيئات أخرى إلا أنهم فى الحقيقة أجبروا على العيش فى هذه البيئة . وسوف أقوم فيما بعد بتحديد مواطن المستنيرين وكيف أن الشباب تربوا تربية غربية من أجل العيش فى مجتمعات غربية تابعة (تبعية سياسية) وأنهم بهذه التربية فصلوهم عن دائرة المجتمعات التقليدية المستعمرة . ونتج عن هذه المشكلة أولا : تشتيت العقول واصطدامها بالعقائد التقليدية ، والنتيجة أن الناس قاموا بتخليص أنفسهم بأنفسهم . ولو أن التنوير استمر فى مثل هذه البيئات التقليدية لأصبح بمثابة خليفة للمستعمر ولأصبح لسانهم الناطق ولا يكون هناك عضو متعلماً فى المجتمع التقليدى .

كما سبق ذكره أن الموطن الأصلى للمستنير هو " المدرسة " على اعتبار أنها أصغر وحدة أو أول موطئ لتعليم الثقافة و العلوم . ومن الطبيعى أن أستبعد الكتاتيب

التقليدية والمدارس الدينية عن دائرة مثل هذا النوع من المدارس فكما ذكرنا أنه من المحتمل أن المدارس الدينية كانت لها مكانة قبل عصر التنوير . لم تكن تخُرج فقط سوى العالم والفقيه والكاتب وكاتب الديوان و الشاعر . وكان أكبر ظلم هو أننا ألقينا أول حجر للتفرقة بين المستنير العصرى و البيئة التقليدية . وهذا فقط على اعتبار أن المفكر اليوم يجلس على الكرسى وخلف المنضدة فى الفصل بينما كان يتعلم بالأمس فى الكتاتيب التقليدية وهو جالس على الأرض . و الهدف من عرض هذه القضية بهذه الصورة المبسطة مع العلم ليس أنه هناك تبسيط وتسطيح أية قضية مهمة ولكن على سبيل التوضيح لهذه النقطة وهى لو أن علاقة التنوير بالعلوم الجديدة ، أى أنه عندما يطرح موضوع التنوير فى مجتمع ما لو كانت ضرورية ذات تأثير وفقًا لعلوم جديدة قوية الأساس فى هذا المجتمع ، أى ستظهر مدارس ومعاهد جديدة فى صورة أعضاء حية فى شخص ذلك المجتمع النشط - إذن فلماذا نلتحق بالمدارس القديمة بدلاً من تعلم العلوم الحديثة كما حدث منذ اليوم الأول فى العصر القاجارى ؟

ولماذا ننشئ مدارس جديدة غيرها من أجل العلوم الحديثة ؟ فهل نكون بهذا قد شطبنا الباطل على جميع المؤسسات الثقافية القديمة ؟ وحتى الآن لم نتعلم فى مدارسنا وجامعاتنا الجديدة الكثير عن الآراء و الموضوعات الجديدة أو الأبحاث أو الخدمات المتعلقة بعالم العلم و المعرفة . وفى نفس الوقت نجد أن مبنى جامعة " كمبردج" تقليد طبق الأصل لمدرسة مادرشاه بأصفهان ، برغم أننا قد حولنا أمثال مدرسة مادرشاه إلى متحف وفتحنا وقتها جامعة أصفهان لكن ماذا تقدم ؟ إنها فقط تمنح شهادة الليسانس . فهل يوجد واحدة من جامعاتنا الجديدة تمتاز حقيقة بالنشاط العلمى؟ فنحن بهذه الطريقة نكون قد قضينا على الأساليب التقليدية وعلى التجديد ونبذنا الأمس دون أن نضمن الحاضر .

وعلى الفور يجب أن نوضح أن تعصب رجال الدين فى تلك الفترة فى أثناء الحكم القاجارى كان أحد أسباب هذا النزاع الكبير وإن لم يكن أهمها . فإننا نجد أن ميرزا حسين خان سبهسالار أنشأ مسجد سبهسالار الظاهرة كفارة عن ذنب إنشاء دار الفنون[1] أو انتبهوا سيادتكم إلى هذا الدليل أو الدليلين اللذين أوردهما:

(١) نقل شفاهة عن حضرة الأستاذ فريدون آدميت .

"اشترط مشير الملك أن يكون درس الفقه من بين المواد الدراسية لطلاب هذه المدرسة (دار الفنون) حتى لا يحرموا من العلوم الإسلامية إلا أن علماء العصر الذين كانوا يعتبرون تعلم الفقه ضمن اختصاص طلاب العلوم الدينية لم يقبلوا أى درس من دروس فقه فى تلك المدرسة [١]" .

أو " قام أحد ولاة كرمان ويدعى "بحر العلوم " بقطع حديث رئيس الوزراء وهو يقرأ لائحة المجلس المنعقد وطالبه بإصرار أن يحذف كلمة متحف ومسرح من نص اللائحة لأن متحف ومسرح مخالفة لأحكام الدين الإسلامى لأنهما غير طاهرين[٢]"

أو " أن السيد محمد مجتهد طباطبائى الذى كان نموذجا رائعا غير عادى فى مجال الزهد فقد كان غالبا ما يقول أشياء تنم عن بعد نظر علماء الدين حول المستقبل وعندما طرحت قضية محاكم العدل أظهر ترددًا بشأن تأسيسها وقال مبتسما بسخرية؛ إنه مع إقامه مثل هذا النوع من المحاكم فأى شيء يبقى لرجال الدين ؟[٣]

مع العلم أن هذين السندين الأخيرين كانا قد وردا فى رسالة " والتر اسمارت " [٤] الذى كان يعمل كاتبًا للسفارة الإنجليزية فى طهران فى ذلك الوقت وكان يحضر جلسات مجلس الوزراء كمشاهد ليرسل بكل دقة وإخلاص تقاريره إلى الخارجية البريطانية، ولم يكن مستمعًا محايدًا بالطبع ويمكن العثور على نماذج مشابهة فى أى كتاب يؤرخ للثورة الدستورية أو العصر القاجارى . لكن لو نظرنا إلى هذا التحيز وانتبهنا أيضا إلى نظرة رجال الدين السيئة فى العصر القاجارى تجاه المتفرنجين وإلى تجربة ميرزا الشيرازى و فتوى تحريم الدخان الذى أدخله ملكم خان رائد التنوير؛ لرأينا أن أساس الخلل فى عملية التنوير كان قد أرسى منذ أزمنة بعيدة منذ الفترات السابقة ، وعلى كل فإن هذة الأحداث كانت أول إثمار للصدام الخاطئ بين الشرق

(١) نقل عن " راهنماى دانسكده حقوق " العدد ١٣٤٦٠٧ صفحة ٢١ طبع كيهان .
(٢) نقلا عن مقالة " تصادم العقائد وتكامل البرلمان فى المجلس الأول " بقلم فريدون آدميت فى مجلة سخن العدد ١٣٤٤ - ص ٧٠٤ .
(٣) من نفس المقالة ص ٧٠٥ .
(٤) Walter Smart

والغرب فى إيران – و التى كانت فى الحقيقة تصادمات بين الاستعمار و المستعمر – وقد ظهرت نتائجها على المستنيرين أنفسهم قبل أن تؤثر على الجميع .

وفى نفس هذه الفترة القصيرة منذ بداية ظهور " المستنيرين" فى بداية الثورة الدستورية والتى انتهت بإهمال المستنيرين فى عصرنا الحالى وتركهم المجال للخبراء والكتاب والتكنو قراط وعلماء اجتماع و علماء الاقتصاد وما شاكل ذلك ... ورغم إهمال المستنيرين التام فى وضع الإطار العام لأنفسهم وأيضًا فى تحديد وظائفهم الفردية و الجماعية ، فإن تلك التصادمات التى ذكرتها من قبل وأيضا بسبب مواقف رجال الدين و المستنيرين ضد بعضهم البعض – فقد تحدد معنى للمستنير فى لغة رجل الشارع العادى وتحدد لهم ضوابط وظهرت لهم سمات .

فأول صورة تطبعها كلمة المستنير فى ذهن الرجل العامى " المتفرنج" و "المتطور " و"المتحضر" و " الطاهر [(١)] " وإلى حد ما " المتفاخر"

و "المدلل" وما شابه ذلك ..... أما فى العصر الحالى فإن المستنير وصل لمعانٍ أخرى :

أولا : الميال إلى التغرب . أى الشخص الذى يرتدى ملابس وقبعة وحذاء أوروبيا ويشرب الخمر ويجلس على الكرسى ويحلق لحيته . ويربط رابطة عنق ويأكل بشوكة وسكينة ويستخدم مفردات أجنبية أو يكون قد ذهب إلى دولة أجنبية أو يريد الذهاب ، وفى كل فرصة يذكر مثالاً أجنبيا أو أمريكيا " أى من التبعية السياسية " المتروبول أو يكون لديه علم بالميكروبات ويرفض كل ما يتعلق ببرودة وسخونة الأطعمة وغير ذلك مما يختص به الطب الهندى و اليونانى القديم ... ويتحدث عن كل ما يتعلق " بالفيتامينات " أو" السعرات الحرارية " ويذهب لدور السينما ويذهب لصالات الرقص وما إلى ذلك .

(١) Desomfecte = الطاهر = ضد .

ثانيا: (عدم التدين) أو من يتظاهر به أو يتساهل فى أمور الدين. أى الشخص الذى لا يعتبر أن الاعتقاد بأى دين أمرا ضروريا . فلا يذهب إلى المسجد أو أى مكان آخر للعبادة . وإذا خطر على باله يوماً الذهاب إلى دار العبادة فإنه يذهب إلى الكنيسة ويفعل ذلك ليدخل (مقر الحكم) الذى بداخلها لذا فهى أفضل من سائر دور العبادة ويعتبر أن الصلاة لغواً إن لم تكن نوعا من أنواع الرياضة الصباحية . كذلك أيضا لو صام فإن صيامه يكون من أجل الرجيم أى أنه إذا انتفى من قلبه الدين فإنه يبدى اهتماماً بالأمور الدينية تمشيا مع مقتضيات العصر و التقدم العلمى فقط[1].

ثالثا: المهتم بالتعليم . وهذا فى رأى العامة آخر شروط التنوير وليس أولها . فالمستنير إما أن يكون قد حصل على الدبلوم أو الليسانس ، إما من هنا أو من بلاد أوروبا وقطعاً لو كان قد أتم تعليمه فى دولة أجنبية أو فى أمريكا يكون فى رأى العامة أكثر تنويراً . أو إذا عرف من تلقاء نفسه كل ما يتعلق ببيئته يعتبر أكثر تنويراً . كما أنه يعرف قدرا يسيرا من علم الفيزياء أو الكيمياء . ولابد من أن يكون على دراية بعلم النفس و" فرويد" و " علم الاجتماع " والتحليل النفسى " . أى أنه يصمد بشدة حتى يتعلم العلوم الطويلة التى تحتاج إلى وقت طويل كى تصبح علوما . ولتفسير أكثر عن هذه السمات ارجعو إلى رسالة " نزعة التغريب".

تلك هى انطباعات العامة عن التنوير وهذا بقصد تبسيط الموضوعات الأخرى التى سوف أذكرها وهى :

أولا : الغربة عن البيئة المحلية و التقليدية بتاريخها ودينها ولغتها وثقافتها . وعدم الاكتراث بكل هذا ، والاهتمام الدائم بعادات التبعية السياسية وتعلقه الدائم بالتبعية السياسية بداية من الآداب و العادات المعهودة حتى تاريخها وعاداتها ولغتها وثقافتها . أى العيش بصورة أجنبية أو أمريكية فى إحدى البيئات المحلية . ويتمنى من كل قلبه أن تصبح بيئته المحلية و القومية على نسق هذه البيئات .

(١) ارجعوا إلى محاضرات " مطهرات الإسلام " بقلم مهندس مهدى بازرجان الأستاذ الجامعى الذى كان له وجهة نظر علمية وأيضا لجميع مؤلفات هذا الكاتب التى تدور حول هذه القضايا ويريد أن يفسر الدين والملة لهذه المجموعة من المثقفين العائدين من بلاد الغرب . أول رئيس للوزراء بعد عودة الإمام الخمينى وانتصار الثورة فى إيران فى ١١ فبراير ١٩٧٩

ثانيا : النظرة العلمية للدنيا وعدم الإيمان بالقضاء و القدر و النظر لأمور الدنيا بنظرة علمية ونقدية وعقد مقارنة فى كل مواضع البحث بشتى صورها مع أن هذه المقارنة غالبا تنتهى لغير صالح المجتمعات التقليدية التى هى مستعمرة أو نصف مستعمرة دائما لصالح المتروبول التى غالبا ما تكون مراكز استعمارية .

تلك هى السمات العامة وغير العامة للتنوير فى إيران . وقطعا فإن هذه السمات التى قابلتنا منذ البداية ستأتى بدلا منها خصائص أخرى تحل محلها . والآن وبناء على ما توصلنا إليه ، فماذا يعنى التنوير بصورة أدق؟

ومن المستنير إذن طبقا لما توصلنا إليه ؟

المستنير فى إيران هو ذلك الشخص الذى يحمل الرؤية (الاستعمارية) التى يطرحها كرؤية "علمية" ، أى أنه يتحدث عن " العلم " و " والديمقراطية " و " التحرر الفكرى" فى بيئة لم يطأها العلم الحديث حتى الآن – وهو لا يعرف أبناء شعبه حتى يعتبرهم جديرين بالديمقراطية – يستخدم حرية الفكر لا للوقوف فى وجه الحكومة بل فقط للوقوف فى وجه الأسس التقليدية من دين ولغة وتاريخ وأخلاق وآداب . وعندما يستخدم حرية الفكر فى مواجهة الحكومة و النظم الاستعمارية وبلاده نصف الاستعمارية يكون الأمر صعبًا بسبب الرقابة على الصحف والمطبوعات . ومن هنا اندلعت الأحداث الكسروية [1] وما تلاها من تكفير رجال الدين ثم انعدام تأثير المستنير فى مجتمعه . وهذا ما يحدث الآن لو سلم المستنير من الحبس أو النفى أو الإرهاب أو الإعدام مثلما حدث لميرزا أغا خان الكرمانى أو آرانى أو فى أمر كسروى نفسه ؛ وهكذا عاش المستنيرون الإيرانيون على مدى ثمانين عاما ونيف من القرن الرابع عشر الهجرى ، أى أنهم قبل أن يعوا بأنهم يعيشون فى إحدى المراكز نصف الاستعمارية كانوا يظنون أنهم يعيشون فى مراكز " التبعية السياسية " أى المتروبول "العاصمة الغربية" ولم يكن هناك أدنى اهتمام بالأهداف الاستعمارية الغربية ولا بالأصول التقليدية والقومية والتى كانت فى الغالب هى الهدف الرئيسى للهجوم الاستعمارى .

(١) نسبة إلى أحمد كسروى الكاتب الإيرانى الذى تحدث عن المعتقدات الدينية بصورة غير لائقة ، فأفتى العلماء بجواز قتله ، وقتل على يد نواب صفوى . وقد ألف كتابا عمدة عن الكمشروطية أو الثورة الدستورية .

إن الفرق الأساسى بين المستنير الإيرانى و المستنير الغربى - على اعتبار أن كليهما يرتويان من ينبوع واحد أو يجب أن يكون ذلك - هو أن المفكر الغربى عاش فى أحضان التبعية السياسية وفى العاصمة صاحبة الريادة ذات الخبرة الفائقة بجميع المؤسسات التعليمية و المعملية و المتحفية التى جاءت عن طريق السلب الاستعمارى . وأن المفكر الغربى استمد هذه القدرة على ذلك عن طريق البحث فيما وراء الطبيعة الجديدة بدلا من البحث فيما وراء طبيعة الأديان القديمة والتى تحتوى على النظرة العلمية القائمة على أساس حرية الفكر . و لكن المستنير الإيرانى الذى عاش فى بيئة نصف استعمارية ولم تتوافر له تلك المؤسسات التى فقدها على أيدى الاستعمار لم يكن له أدنى مشاركة فى عالم يتمتع بحرية الفكر و العقيدة (بسبب جهل الأغلبية) ، ومنذ الوهلة الأولى وهو فى صراع متزايد مع الاستعمار الذى جلب معه آراءه ومعتقداته وآدابه كما جلب منتجاته الصناعية أيضا ، الأمر الذى أدى إلى خروج الأدوات الصناعية البدائية المحلية من ميدان معركة الحياة والأمر الذى أدى إلى ترك وإبعاد الأفكار و العقائد ولم يعد أحد يهتم إن كانت طاحونة المياه بمدينة دزفول [1] تعمل عن طريق المحركات أو لا . وأهم من هذا : فأى شىء سوف يحل محل القيم الأخلاقية لأهالى دزفول ؟ فلم يكن قصد الاستعمار هو الاستيلاء على المواد الخام المعدنية والعقول البشرية فحسب ، ولكنه أراد بهذا الهجوم أيضا أن يستولى على الآداب والموسيقى و الأخلاق و الدين الخاص بهذه البيئات المستعمرة . وهل صحيح أن المفكر الإيرانى قد آزر المستعمر فى جرمه بدلا من أن يواجه هذا الهجوم من كل ناحية؟

فلو أن المستنير اعتبر نفسه من إنتاج الغرب فقط فلزاما عليه فى كل مكان ينزله أن يهتم فقط " بالتبعية السياسية " ويولى وجهه شطر المتروبول (العاصمة الغربية) وبالكعبة التى تربى ونما فيها فقط . فعندما تستطيع الأسماك أن تسبح فى مياه الدول المستعمرة فإنها تحاول جاهدة أن يتحول محيطها القومى إلى مثل ذلك الماء ، لكن ماذا تريد الدول المستعمرة من المحيط القومى سوى المواد الخام المعدنية و الفكر الإنسانى ؟ وما سلوكها تجاه هذه البيئات المحلية سوى حكومات مستبدة تمسك برقاب الثوب ... وهكذا

(١) مدينة فى جنوب غرب إيران .

الاستعمار ؟ علاوة على هذا يكون المستنير أيضا أداه استعمارية . ولهذا السبب فهو ينفصل عن محيطه القومي ولا يهتم بالقضايا القومية و العقائدية . أو قد يكون له اهتمام ولكن ليس بقصد حل المشكلات القومية . وإنما يكتب بقصد نفيها واستنكارها. ولكن من الناحية الأخرى عندما تقوم كل العوامل الإنسانية البيئية و الثقافية والإقليمية و العقائدية التى تصنع الحضارة القومية ويبذل أقصى طاقاتها فى مقابل مجتمع المستنيرين المتأوربين - أى تقاومه - فبذلك ينبذ المستنير المتأورب يوما بعد يوم ويبقى وحيداً ومغلوباً . ولهذا السبب فهو يعتمد فى أغلب الأوقات على المساعدات الغربية (الاستعمار) من أجل كسر عوامل المقاومة المحلية حتى إنه يمهد سبل حياته عن طريقها . وجميع المستنيرين فى إيران منذ هزيمة حرب البترول وما بعدها كانوا هم أساس كل الوظائف الحكومية باستثناء القلة القليلة منهم .

ولكن لو اعتبرنا أن المستنير هو "الوجدان المريض" لأى مجتمع كما فعل " سارت" و " راسل " وآخرون فى شأن الثقافة - فعندما يصرخ ذلك " الوجدان المريض " فى المجتمعات الأوروبية و الأمريكية من الهجوم الاستعمارى ؛ فإن هذا الوجدان المريض يوقظ البلدان المغار عليها ويقول لهم يجب أن يصرخوا من ظلم الاستعمار . أولا بسبب المشاركة غير المتكافئة فى الأسباب . وثانيا بسبب المشاركة غير المتكافئة فى المسببات وعلى هذا إذا كان الأول سوف يمتنع عن الإغارة - فعلى الثانى الامتناع عن وجود المغير ، ولايكون عاملاً مساعداً لمثل ذلك الاستعمار . وبهذا الشكل فى المستقبل ربما بصعوبة يمكننا التحدث عن التضامن بين الأمم للطبقة العاملة - لأن الطبقة العاملة للبلدان التى تقوم بالإغارة وصاحبة بصعوبة عن اتحادات العمال العالمية - لأن عمال البلدان السارقة والمتخمة بالمال والنفوذ ، هم أحد أسباب استعمار العمال فى البلدان المسروقة ، ومازلنا نستطيع أن نتكلم عن الترابط بين الأمم المستنيرة حيث إن عدداً قليلاً من هؤلاء سواء فى أجواء التبعية السياسية أو فى الأجواء المستعمرة ونصف المستعمرة لهم طريق وسلوك واحد فى مقابل الاستعمار .

الفصل الثانى

هل المستنير أجنبى أم واحد منا ؟

١) المستنير من وجهة نظر الغرب وفى الغرب

لقد حان الوقت لكى نبحث عن المستنير الغربى نفسه (الأوروبى والأمريكى) الذى ابتدع التنوير بمعناه الجديد. أو على الأقل يدعى مثل هذا الأمر ولنرى كيف يفسر الغربى كلمة المستنير ويعرفها ؟ فما معنى المستنير من وجهة نظر غربية، ومن هو؟ وما حدوده ؟ وما واجباته ومهامه ؟ تمتاز مراجعة الرأى الغربى بنقطتين إيجابيتين على الأقل. أولاهما أنه فى البداية يوضح الأمور ويطرح حدود تعريفاتها فى أوسع الإمكانيات ، والأخرى أن ذلك يساعد على توضيح أوجه الاتفاق والاختلاف بين المستنير الإيرانى الناطق بالفارسية والمستنير الغربى أيا ما كانت لغته .

أولا: فلنبحث فى المعاجم ، يقول معجم أكاديمى فرنسا المطبوع عام ١٩٣٥: " يطلق مصطلح المستنير على الأشخاص الذين يحكمون عقولهم فى أمورهم الحياتية عن سائر الأمور الأخرى " بمعنى أن كلمة مفكر أو مستنير عادة تطلق على من لا يمارس عملا يدويا[١].

وربما بالارتكاز على وجهة النظر هذه وبقصد تفسير ذلك كتب "إيتامبل" وهو من الكتاب والنقاد والمعاصرين الفرنسيين والذى يجول بقلمه إلى حد ما فى مواجهة " سارتر"

(١) les in tell ectuels. Par louis Bodin (Quesais-je?) Paris, 1962P.9
وقد أخذ معظم موضوعات هذا الكتاب عن عدد خاص لمجلة " أركومان " وقد نقلت منها هذه الموضوعات من ص (٣٧)

كتب " إن المعنى الأكثر وضوحًا للمستنير هو أن المستنير يستخدم فى أغلب الأحوال خلايا عقله وحتى أنسجته العضلية لآداء عمله بغض النظر عن معتقداته الفكرية التى يؤمن بها ، وهذا هو الحال بالنسبة للرسام أو المحامى أو الأستاذ الجامعى أو الكاتب أو ... "(١)

من ناحية أخرى فإن " المؤتمر الاتحادى الدولى للعمال المستنيرين " الذى عقد فى عام ١٩٥٢ فى باريس قَرَّر التفسير التالى لكلمة المستنير وبوجهة نظر أكثر رحابة وهى " إن المستنير شخص يضطره نشاطه اليومى إلى نوع من الجهد الفكرى ، الممتزج بالإبداع وإثبات الشخصية بحيث إن هذا النشاط الفكرى يفوق نشاطه البدنى اليومى "(٢).

ومع أن هذا التفسير لا يزال غير واضح حتى الآن إلا أن هذا المؤتمر ذيل هذا التعبير بفهرس مفسر يشمل أصحاب المهن المستنيرين وينقسم الى أربعة أقسام كالتالى:

القسم الأول: الفنون والآداب ، وتحتوى على فنون التصوير والنحت والأدب ، والمسرح والسينما ، والموسيقى وعلوم النحو وقواعد اللغة .

القسم الثانى : الأعمال الحرة ، تشمل أعمال القضاء ، والطب مع مشتملاتهما والأعمال الحرة المتنوعة .

القسم الثالث : المهنيون المستنيرون الأجراء ويشمل المهندسين والكوادر العليا – هيئة التدريس ، والموظفين المتخصصين الفنيين والمشرفين على الصناعات .

القسم الرابع : المهنيون المستنيرون والشباب ، ويشمل طلاب الجامعة بصفة عامة(٣) .

بناء على ما ورد فى الفهرس السابق وأيضا طبقا للتحقيق الذى أجرته " المؤسسة القومية الاقتصادية للإحصاء والأبحاث الفرنسية " فى عام ١٩٥٤ فإن مجمل مستنيرى فرنسا كانوا على النحو التالى :(٤)

(١) نفس الكتاب ص ٢٠ .
(٢) المصدر السابق ص ١٣ .
(٣) المصدر السابق ص ١٤ .
(٤) المصدر السابق ص ١٢ .

وضع أصحاب المهن المستنيرين الفرنسيين طبقا لإحصائية عام ١٩٥٤

المجال المهنى فى التربية والتعليم	١١٩٧٨٠ رجل	٩٦٧٠٠ امرأة	المجموع ٣١٦٤٨٠ فردا
فى الصحة	٧٥٠٠٠ رجل	٢٨٣٢٠ امرأة	المجموع ١٠٣٧٢٠ فردا
فى الأعمال القضائية	٣٥٠٦٠ رجل	٢٥٤٠ امرأة	المجموع ٣٧٠٠٠ فردا
المديرون ذوو الرتب الإدارية	١٩٩٣٦٠ رجل	٢٦٩٤٠ امرأة	المجموع ٢٢٦٣٠٠ فردا
المهندسون	١١٣٠٦٠ رجل	٢١٤٠ امرأة	المجموع ١١٥٢٠٠ فردا
أصحاب المهن التنويرية	١٩٢٦٠ رجل	٩٣٤٠ امرأة	المجموع ٢٨٦٠٠ فردا
الفنانون	٣٨٤٨٠ رجل	٢٢٥٨٠ امرأة	المجموع ٦١٠٦٠ فردا
فى الأمور الدينية	٥٢٢٢٠ رجل	١٨١٢٠ امرأة	المجموع ١٧٤٣٤٠ فردا
فى الجيش	٢٦٣٤٠ رجل	٢٨٠ امرأة	المجموع ٢٦٦٢٠ فردا
الناشر وبائع الكتاب	٧٧٢٠ رجل	٩٧٤٠ امرأة	المجموع ١٧٤٦٠ فردا
الإجمالى	٦٩٠٧٨٠ رجلا	٤١٦١٠٠ امرأة	المجموع ١١٦٠٦٨٨٠ فردا

أما فى المعجم الفلسفى للروس السوفييت عرف المستنير بهذه العبارة :

" المستنيرون هم طبقة اجتماعية وسيطة مشكلة من أشخاص ينشغلون بأعمال فكرية ، وتشمل هذة الطبقة المهندسين والمتخصصين فى الصنعة (الفنيين) والمحامين والفنانين والمعلمين والعاملين فى مجال العلوم ، وبهذا التعبير فإن " أنتلى جنسيا" أى " مستنيرو الفكر الروسى " بلغ تعدادهم خمسة عشر مليون فردا عام ١٩٥٥م من بين مجتمع يبلغ تعداده فوق مائتى مليون نسمة[1] ، ولكن لكى يكون لدينا جدول قابل للمقارنة بالجدول السابق سوف أقوم بنقل جدول من نفس المصدر السابق فى الصفحة القادمة والذى يشير إلى تعداد مستنيرى الفكر الروسى فى الفروع المختلفة .

(١) يشير إلى نسبة تزايدهم منذ عام ١٩٢٦ حتى عام ١٩٥٦ مع الأخذ فى الاعتبار أن فى السنة الأولى ، أى عام ١٩٢٦ ، كان تعدادهم مائة .

أصحاب المهن التنويرية فى الاتحاد السوفيتى من ١٩٣٦ حتى عام ١٩٥٦

المهن	١٩٢٦	١٩٣٧	نسبة الزيادة	١٩٥٦	نسبة الزيادة إلى ١٩٣٦
الإدارة	٣٥٦/٠٠٠	١/٧٥١/٠٠٠	٪٤٨٠	٢/٢٤٠/٠٠٠	٪٦١٠٪
التقنيون الصناعيون	٢٢٥/٠٠٠	١/٠٦٠/٠٠٠	٪٤٧٠	٢/٥٧٠/٠٠٠	٪١١٤٠٪
التقنيون الزراعيون	٤٥/٠٠٠	٨٠/٠٠٠	٪٣٩٠	٣٧٦/٠٠٠	٪٨٣٠
أساتذة وعمال العلوم	١٤/٠٠٠	٨٠/٠٠٠	٪٥٧٠	٣٣١/٠٠٠	٪١٥٦٠
الأساتذة والطلبة	٣٨١/٠٠٠	٩٦٩/٠٠٠	٪٢٥٠	٢/٠٨٠/٠٠٠	٪٥٤٠
الكتاب والفنانون وباعة الكتب وغيرهم	٩٠/٠٠٠	٤٥٣/٠٠٠	٪٥٠٠	٥٧٢/٠٠٠	٪٥٢٠
الأطباء	٥٧/٠٠٠	١٣٢/٠٠٠	٪٢٣٠	٣٢٩/٠٠٠	٪٥٨٠
الموظفون الصحيون	١٢٨/٠٠٠	٣٨٢/٠٠٠	٪٣٠٠	١/٠٤٧/٠٠٠	٪٨٢٠
رسامو الخرائط والمحاسبون	٦٥٠/٠٠٠	٢/٤٣٩/٠٠٠	٪٣٧٠	١/١٦١/٠٠٠	٪٣٣٠
القضاء	٢٧/٠٠٠	٤٦/٠٠٠	٪١٧٠	٦٧/٠٠٠	٪٢٥٠
الطلبة الجامعيون	١٦٧/٠٠٠	٥٥٠/٠٠٠	٪٣٣٠	١/١٧٨/٠٠٠	٪٧٠٠
باقى المجالات	٥٧٥/٠٠٠	١/١٥٠/٠٠٠	٪٢٧٠	٢/٩٠٦/٠٠٠	٪٤٥٠
المجموع	٢/٧٢٥/٠٠٠	٩/٥٩١/٠٠٠	٪٣٥٠	١٥/٤٦٠/٠٠٠	٪٥٧٠

ولكن فيما يخص أمريكا ، أنقل أولا وجهة نظر "سيمون مارتين ليبست " وهو من أصحاب النظريات الخاصة بالمستنيرين الأمريكيين ، وجاءت هذه النظرية عن مقالة له تحت عنوان " مستنيرو الفكر الأمريكان ووضعهم القائم " التى نشرت فى صيف عام ١٩٥٩ فى مجلة " ديدالوس " (مجلة أكاديمية الفنون والعلوم الأمريكية) وبعد ذلك أيضا سوف أقدم إحصائية فى هذا الشأن والآن أعرض نظرية " مارتين ليبست " :

" نحن نعلم أن المستنيرين هم الأشخاص المبدعون فى مجال الثقافة أو من يروجونها أو من يعملون بها ، وأقصد من الثقافة الدنيا المليئة بالرموز والاستعارات التى تحتوى على الفنون والعلوم والديانات ، وفى داخل هذه المجموعة من المستنيرين يوجد مجموعتان مختلفتان فى المستوى ، أولاهما المبدعون فى مجال الثقافة ، أى العلماء والفنانون والفلاسفة والكتاب وعدد من رؤساء التحرير و المحررين .

وعلاوة على هذه المجموعة ، ففى الدرجة الثانية يصل الدور إلى الأشخاص الذين يقومون بترويج الأشياء التى ابتدعتها المجموعة الأولى ، أى الفنانون وأكثر المعلمين وأغلب المحررين ، فضلا عن هاتين المجموعتين توجد مجموعة ثالثة أيضا والتى تستقر فى جعبة المجموعتين الأوليين ونعتبرهم ضمن المستنيرين ، أى كل هؤلاء الأشخاص الذين يستخدمون الثقافة على أنها جزء ضرورى لأعمالهم أو يروجونها ، وهؤلاء أصحاب الأعمال الحرة مثل الأطباء و المحامين[٢] .

وعليكم أن تأخذوا فى اعتباركم أننا مع كل نظرية وأخرى نخطو خطوات أكثر إلى التوضيح و التحليل . والنقطة التى تشد الانتباه إليها أكثر أنواع التصنيف الخاص الموجود فى كل من الجدولين السابقين (للمستنيرين الفرنسيين والسوفييت) ويمكن بسهولة المقارنة بين أوجه اختلافهم واتفاقهم مع بعض من ناحية ومن ناحية

(١) المصدر السابق صفحة ٦٤ . ٤٥ (من نص الجدول الصفحة التالية) .
(٢) من نفس الكتاب " لوئى بودن " ص ١٧ .

أخرى مع جدول إحصاء مستنيرى أمريكا . الذى أطلعكم عليه وفى هذا الجدول علاوة على إحصاء الجامعات المختلفة للمستنيرين وردت أيضا نسبة تزايد تعدادهم [(١)].

أصحاب المهن التنويرية فى الولايات المتحدة الأمريكية من ١٩٠٠ حتى عام ١٩٥٠

المهن	١٩٠٠	١٩٣٠	نسبة الزيادة قياسًا إلى ١٩٠٠	١٩٥٠	نسبة الزيادة قياسًا إلى ١٩٠٠
المحامون والقضاة (١)	١٠٨/٠٠٠	١٦١/٠٠٠	٪١٤٩	١٨٤/٠٠٠	٪١٧٠
المحاسبون	٢٣/٠٠٠	١٩٢/٠٠٠	٪٨٣٤	٣٩٠/٠٠٠	٪١/٦٩٥
الطب وملحقاته (٢)	١٣١/٠٠٠	١٨٩/٠٠٠	٪١٤٤	٢٣٨/٠٠٠	٪١٨١
صناعة الأسنان	٣٠/٠٠٠	٧١/٠٠٠	٪٢٣٦	٧٦/٠٠٠	٪٢٥٣
الموظفون الصحيون	٥٨/٠٠٠	٣٨٦/٠٠٠	٪٦٦٢	٥٩٦/٠٠٠	٪١/٠٢٧
الأطباء البيطريون	٨/٠٠٠	١٢/٠٠٠	٪١٥٠	١٤/٠٠٠	٪١٧٥
التربية والتعليم	٣٤٣/٠٠٠	١/٨٠٦/٠٠٠	٪٢٤٩	١/٢٧٦/٠٠٠	٪٢٨٨
الكتاب والصحفيون	٣٢/٠٠٠	٦١/٠٠٠	٪١٩٠	٩٣/٠٠٠	٪٢٩٠
والمؤلفون والفنانون					
الملحنون والمعماريون (٣)	١٣٠/٠٠٠	٢٥٧/٠٠٠	٪١٩٧	٢٩١/٠٠٠	٪٢٢٣
المهندسون (٤)	٥٧/٠٠٠	٤٣٥/٠٠٠	٪٥٨٠	١/٠٨٧/٠٠٠	٪١/٤٤٩
المهن الصناعة والعلمية	١٢/٠٠٠	٩٣/٠٠٠	٪٧٧٥	٤٨٧/٠٠٠	٪٤/٠٦٦
الطلبة الجامعيون	٢٣٨/٠٠٠	١/٨٠١/٠٠٠	٪٤٦٢	٢/٦٥٩/٠٠٠	٪١/١١٧

(١) و (٢) و (٣) و (٤) هذا إلى حدود ١٩٥٠ لكن مجلة « تايم » الأمريكية تزعم أنه يوجد اليوم ٢٩ ألف معمارى و ٣١٥ ألف قاضى و ٣١٥ ألف طبيب و ٢٧٥ ألف مهندس مسجل فى أمريكا . نقلاً عن مجلة تايم (Time) العدد ٢ آب ١٩٦٨ ص ٢٥

وفيما يخص البريطانيون ، فلشديد الأسف لم أستطع أن أحصل على نص مباشر لكن من أجل ألا يكون مكانهم خاليا فى هذه المنظومة الأوروبية الغربية أشير إلى نظرية " لجان بول ساتر " التى قرأتها فى كتابه " ما الأدب ؟ " ولو أنه ليس بنص مقنع إلا أن به بعض الانتقادات والكتابات ، كما أنه لايمكن ترك هذا النص الضئيل حتى نحصل على نص أكثر دقة وشمولاً يضم إحصائيات وأعداداً كافية يقول سارتر: " قليلا ما ينفعل المستنيرون فى إنجلترا عنا نحن الفرنسيين مع المجتمع حيث إنهم صنعوا لأنفسهم طبقة غريبة عن العوام . مع قليل من الرعونة وبدرجة من عدم الارتباط المطلق بباقى المجتمع . وذلك بسبب أنهم أصلا لم تتوافر لديهم الفرصة التى أتيحت لنا. لأن الفرنسيين القدامى منا هم الذين أسّسَوا الثورة الفرنسية الكبرى (وهو أمر ليس لدينا القدرة عليه) وبعد مضى قرن ونصف من فناء هؤلاء فإننا دائما ما نذكر الطبقة الحاكمة بهذا الافتخار ، حتى تخشانا قليلاً وبالطبع قليلاً جدا . ولهذا السبب (يمارسون معنا الحيل) أما إخواننا المقيمون فى لندن الذين لم يكن لديهم مثل هذا الافتخار التذكارى لا يحسب لهم أحد حساب . وعامة فهم يعدونهم أناسا مسالمين ، وثانيا لأن الحياة المغلقة التى اتخذها المستنيرون الإنجليز لأنهم فى النوادى الخاصة قلما تتناسب ونشر آرائهم وأفكارهم مقارنة بصالوناتنا نحن الفرنسيين ، وبهذه الطريقة فإن المستنيرين البريطانيين إن لم يتحدثوا مع بعضهم باحترام فإنهم يتحدثون عن العمل والكسب أو عن السياسة أو عن السيدات والخيل فى تلك النوادى . مع العلم أنهم لا يتحدثون، مطلقًا عن الآداب . فى حين أن حتى سيداتنا اللاتى يتابعن القراءة كفن لذيذ مع استقبالاتهن وضيافاتهن فإنهن قد قدمن مساعدات وفيرة للسياسيين و أصحاب البنوك وأمراء الجيش و أصحاب القلم عندنا[٢]

وبعد .. أشير إشارة أخرى لنظرية أخرى : " إن رواد النوادى البريطانيين من أجل الإبقاء على الصداقة والمودة والمحبة استبعدوا الأحاديث السياسية والدينية الحادة

(١) من نفس الكتاب ص ٨٦ ، ٨٧ (نص الجدول ورد فى الصفحة السابقة) .
(٢) Quest. Ce que la litterature ? - J.p. sartre . (Gallimard) Paris 1964. P.204-5 .

جانبًا لفترة طويلة عن السادة ذوى الرتب الرفيعة رواد النوادى وألغوها من حيز السجلات الدائرة بينهم.

وفى هذا الموضوع كتب دبليو – أدن يقول :

" إن الرجل حسن النية من الأفضل له أن يحتفظ برأيه فى قلبه ولايعرب عنه وذلك لأن السلوك الرجولى الشريف فى هذه الأيام دائما يكون سلوكا ظاهريا(١)

وحتى يحين الوقت ونتحدث عن هذا السلوك السلمى والصامت وعن أشراف مستنيرى الغرب عامة (الإنجليز بصفة خاصة) عليكم أن تنتبهوا بالفعل لأعمال المستعمرين السادة الذين ينفق كل واحد منهم عدة سنوات من عمره فى مستعمرة ، حاملاً معه موجة من المتاعب والغضب لتلك الأنحاء ، وعندما يعود إلى دولته يصبح كالحمل الوديع .

بعد هذين التعبيرين اللغويين أو الثلاثة وتعريف سارتر الساخر عن المستنيرين البريطانيين ، اسمحوا لى الآن أن أكون أكثر دقة ، ومن أجل البحث عن معنى أكثر عمقا لمصطلح المستنير من وجهة نظر التيارات المختلفة فعلينا أن نراجع النصوص الأصلية الماركسية .

يكتب " ماركس " و " أنجلز" فى بيان الحزب الشيوعى : عندما يبلغ الصراع الطبقى مراحله الحساسة ، يسود التشتت والتفرق الطبقة الحاكمة وبوجه عام المجتمع القديم عامة، فإنها تأخذ طابعًا عنيفًا بحيث تنفصل أجزاء من الطبقة الحاكمة لتنضم إلى القطاعات الثورية تلك هى النواة التى تحمل المستقبل فى ذاتها . ورأينا مثل ذلك فى (الثورة الفرنسية الكبرى) عندما التحم جناح من الأشراف بالطبقة البرجوازية واليوم أيضا يلتحق جزء كبير من الطبقة البرجوازية بالبرولوتاريا . (أى حكم الطبقة العاملة) ولاسيما تلك الجماعة من أصحاب النظريات البرجوازية الذين يرفعون أنفسهم

(١) Understanding Media . By Marshall Me lu har Ed. Mc. Graw hill paperbacks 1965-P.28 .

إلى مستوى الفكر النظرى فى إطار الحركة الثورية التاريخية . بمعنى أن مستنيرين مثل " ماركس " نفسه " ولنين " بسبب ما يتمتعان به من ذكاء وابتكار وتجارب يستطيعان أن يتحررا من البيئة الاجتماعية الطبقية المنتميين إليها ويلتحقان بالحركة الثورية .(١)

أنطونيو جرامشى " المفكر الإيطالى الشيوعى وعن تعريفه أقول إنه ولد عام ١٨٩١ وتوفى عام ١٩٣٧ فى سجن موسولينى تحت وطأة التعذيب الروحى والجسدى . وإنه أتم فى السجن(٢) أهم أعماله التى كان أكثرها مرتبطا بالقضايا الفكرية والثقافية وأمضى العشر سنوات الأخيرة من عمره فى السجن . وها هى وجهه نظره :

يعتبر " جرامشى" أول ماركسى يرفض تصنيف المستنيرين طبقا لطبيعة أعمالهم أو طبقا لأفكارهم ، ويسعى إلى أن يكون له وجهة نظر خاصة بشأن المستنيرين ووضعهم فى المجتمع ، فهو يقول :

" إن الخطأ فى الأسلوب المتداول فيما أعتقد أن هذا الأسلوب يسعى للبحث عن المستنيرين فى تلك الأشياء التى هى نفسها أنشطة تنويرية ولا يبحث عنهم فى مجموعة الصلات حيث إن هذه الأنشطة تضم فى ثناياها مجموعة من العلاقات الاجتماعية المعقدة (......) حتى فى أى نوع من العمل البدنى – سواء لأكثرهم تقدما أو لأبسطهم – فهو يتطلب نوعا من الحرفية ، أو الفنية ، أى الحد الأقل من النشاط الفكرى المبدع (......) ومن هنا يمكن القول إن كل شخص مستنير . ولكن كل الأشخاص فى مجتمع ما لا يقومون بمهمة المستنير (......) إن كل مجموعة اجتماعية تخلق نوعا من العمل الأساسى فى عالم الكسب المادى ، وفى نفس الوقت الذى تتكون فيه ، تخلق لبنة

(١) نقلا عن صفحة ٢٣ . ٢٤ من كتاب (les noureaax intellectuels) بقلم مشترك M-A- Burai-er,F.Bon طبعة باريس (Edition Gujas) ١٩٦٦ .

(٢) نقلا عن مذكرات دكتور منوجهر هزارخانى والسبب فى هذا الأمر ، أن الفصلين الأولين من الدفتر الذى نشر فى " جهان نو " (عام ١٣٤٥ بإدارة رضا براهنى) كان الدكتور هزارخانى قد ترجمهما عن مؤلفات " جرامشى " على أنهما تكملة لهذين الفصلين ونقوم نحن بنشرها إلا أن الظروف لم تساعدنا على ذلك وخرجنا أنا والدكتور براهنى من مجلة " جهان نو " نتيجة ثورة حدثت فى المجلة إلا أن مقالات هزارخانى نشرها بعد ذلك فى مجلة " آرش " العدد ١٥ و ١٦ – اسفند ٤٦ وفروردين ٤٧ ، وقمت أنا بنقلها فى شكل ملحق لهذا الفصل .

أو عدة لبنات من التنوير حتى تمنح نفسها الشمولية ويكون لها نشاط خاص . وهذا لا يصدق فقط فى ساحة القضايا الاقتصادية بل فى ساحة القضايا السياسية والاجتماعية ، فإن رئيس مصنع ما القائم على أساس الاقتصاد الرأسمالى يحتاج معه متخصصًا فنيا فى المجال الصناعى ، وإلى عالم الاقتصاد وإلى جامع معجم جديد عالم ومبتكر نمط جديد من الحقوق والقوانين ....»(١)

وسوف نرى آراء "جرامشى " بتفصيل فى ملحق هذا الفصل وعليكم أن تنتبهوا إلى أى مدى أثرت نظريته على آراء (رومون آرون) على سبيل المثال الذى سوف أورده فيما بعد ولكن قبل ذلك علينا أن نتعرف على (آرون) . فى الإصدار الأول لهذه الرسالة حيث نشر منه فصلان وربما أكون قد بالغت فى شأنه وقلت إنه اشتراكى وضد الاستعمار.... وإلخ

وقد وصلتنى ترجمة هزار خانى الذى عاش فى باريس عدة سنوات وكان له نشاط فكرى بالترجمة وأضاف لها حواشى وتوضيحات كتب يقول عن (آرون) :

" حصل آرون على لقب أذكى صاحب نظريات رأسمالية من قبل المحافل اليسارية فى فرنسا وهذا اللقب اسم على مسمى ، وآرون كاتب المقالة الرئيسية الافتتاحية لجريدة " لوفيجارو " وهى كما تعلمون لسان حال البرجوازية الفرنسية ، ولم يكن لآرون أى تعاون مع أى حزب أو مجتمع اشتراكى أو يسارى ولو حتى فى أضيق الحدود . وآرون يتمتع بشهرة عالمية ويمكن القول إنه من أصحاب النظريات المهمة للرأسمالية وتقريبا من نوع السيد " راستو" - الأمريكى الذى تعرفونه . فإن جميع آرائه المتعلقة بالمجتمع الصناعى تستخدم لتبرير أنواع الاستغلال الطبقى. وهم يتخذون لأنفسهم موضعا ما فوق الطبقات حتى تصل كلماتهم المزينة بسهولة إلى خلق الله . وقد لقبه مؤيدو سارتر بلقب كلب الحراسة للرأسمالية (٢).

(١) نقلا عن صفحات ٦٤ ، ٦٥ من كتاب " روشنفكران جديد " : الذى ورد اسمه وعنوانه فى فرنسا فى حاشية الصفحة السابقة .

(٢) نقلا عن رسائل دكتور هزار خانى التى أتمنى أن تنشر فى يوم ما فى صورة متكاملة وعنوانه سك محافظ هو فى الأصل عنوان عن أعمال " بل نيران " الكاتب الراحل الفرنسى وصديق سارتر ومؤلف " عربتان " اصطلحت فيما بعد بـ "عربستان "

وعلى هذا فكرت فى أن أحذف الفصل الخاص فى هذا الكتاب، وكنت قد قرأت مؤخرًا شيئًا يخصه فانتابتنى الحسرة قال ريمون آرون ذات يوم (ربما بمناسبة الأحداث الطلابية فى شهر مه عام ١٩٦٨ فى باريس) موجها خطابه لجنرال دوجول :
" إن فرنسا من حين لآخر تقوم بالثورة إلا أنها لا تقوم بحركة إصلاحية مطلقًا".

فرد عليه جنرال دوجول قائلا : إن فرنسا لن تنصلح مطلقًا إلا من خلال ثورة[١]"

ومع الانتباه لكل ما مضى فإننى مازلت أنظر باهتمام إلى ما سأنقله عن آرون لأنه علاوة على وجهه نظر الروس السوفييت فإن ماركس وجرامشى وسارتر جميعهم ينظرون إلى قضية المستنيرين من زاوية معينة حتى أصبح المصطلح بزيادة كلمة واحدة هى (ايزم) أى تندرج ضمن مذهب أو نظرية واحدة ونحن مضطرون إلى أن ننظر إلى القضية من زاوية أخرى. ولاسيما أن نظريته أكثر تفسيرا ودقة وهو الأمر الذى لم " أره لدى الآخرين " و الهوامش التى أوردتها مترجمة عن هذه الصفحات هى بقصد عقد مقارنة فورية بين الوضع فى إيران والعالم الغربى يقول:

" كان لكل مجتمع كُتَّاب[٢] هم الذين يديرون الإدارات الحكومية وكذا أدباؤه وفنانوه الذين كانوا يثرون التراث الثقافى لذلك المجتمع .. ويسلمونه من جيل إلى جيل . وأيضا كان له متخصصون يشرحون النصوص لأمراء ذلك الزمان . وأيضا كان هناك علماء يكتشفون أسرار الطبيعة ويعلمونها للناس ليقهروا بها المرض وكذا العدو (وفى مسألة القتال) إذن فليس أى من هذه النوعيات من مبتكرات المدنية الحديثة[٣] . إننى أريد أن أقول إن أيا من هذه الأعمال لا تستطيع أن توضح سمات المثقف المعاصر الذى له وضع خاص ومكانه عظيمة بين أفراد مجتمعه.

(١) نقلا عن مجلة "نوفل ابزرفاتور" باريس العدد ٢٠٠ من ٩ إلى ١٥ سبمبر ١٩٦٨ .
(٢) مناظرهم الأساتذة والموابذة فى العصر الساسانى من ضمن هذه المقولة مع الأخذ فى الأعتبار أن السلطة فى هذا العصر نتج عنها رئاسة ثنائية على الحكومة ورجال الدين – لأن رؤساء الإدارات (الكتاب) و (رجال الدين) من وجهة نظر الفيلسوف (كانت) يعتبران من طبقة واحدة – وكان لدينا مثل هذا الوضع فى العصر الصفوى فقد كان الشيخ بهائى و " ميرداماد " و " مجلسى "من الأشخاص المقربين للوزارة أو أحيانا الوزراء . ومما يثير الانتباه أن هاتين المرحلتين من الحكم يمثلان أسوأ وأظلم الفترات من الناحية الثقافية والفلسفية والأدبية – وأتمنى أن يأتى دليل على ذلك فيما بعد .
(٣) وعلى ذلك لا يكون هناك احتياج لتلك التفرقة التى حدثت فى إيران إذ إنه جاء فى صدر الثورة الدستورية بين المستغربين ورجال الدين .

" إن توزيع العامل اليدوى بين حرف مختلفة يختلف نسبيا بسبب التغيرات الاجتماعية . فالنسبة المئوية للعمال اليدويين فى الصناعة تزداد يوما بعد يوم. فى حين أن هذه النسبة تقل فى الزراعة يوما بعد يوم[١] . وفى حين أن نسبة من يمارسون أعمالا فكرية تزداد يوما بعد يوم. أى أن تعداد الأشخاص الذين يقومون بكتابة الشكاوى الكيدية التافهة فى إدارة ما إلى من يقومون بتحليل فى مختبر ما أو من يؤدون الأعمال المختلفة بكفاءة متفاوتة يزداد يوما بعد يوم .

إن المجتمعات الصناعية تربى وترعى فى أحضانها من يمارسون أعمالا فكرية أكثر من أى مجتمع معروف آخر . لأن الهيئات و الصناعات و الفنون الإدارية تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم. وعلى النقيض فإن الأعمال اليدوية تصبح أكثر سهولة بالنسبة للعمال يوما بعد يوم[٢] . كذلك فإن الاقتصاد الجديد يجعل من الضرورى وجود " بروليتاريا " (طبقة عمال) تجيد القراءة و الكتابة[٣] . إن المجتمعات المعاصرة التى قلما نراها فقيرة إلى حد ما تنفق مبالغ طائلة لتعليم وتربية شبابها كما أن المراحل الدراسية المتوسطة فيها تصبح أكثر طولاً على مرور الزمن ويتمتع كل جيل جديد بإمكانيات التعليم و التربية بشكل أكثر عن الجيل السابق له . إن تلك الأصناف الثلاثة من ذوى الأعمال الفكرية ، أى الكتاب و الأدباء و المتخصصين ، ولو أنهم ليسوا بنسبة واحدة إلا أنهم على أية حال فى زيادة مستمرة فى المجتمعات المعاصرة . فالإدارات

(١) ولكن بقضية أتوماتيكية أن من آخر تحولات الصناعة حيث يأخذ عكس تلك القضية علاوة على أن مثل هذه النسبة مخالفة أصلا فى إيران ، صحيح أن عدد المزارعين هنا يقل يوما بعد يوم لكن هذا الأمر لا يعود بالنفع على المصانع من حيث زيادة العمال بها لأنه لا يوجد هناك مصانع وإذا كان هناك مصانع فإنها تكون عن طريق " المونتاج " وهو أحد المظاهر الاستعمارية فى الممالك المستهلكة . فالمزارعون الذين يهجرون الزراعة ويذهبون إلى المدن يتحولون إلى نوع من الأسماك المفترسة للبحث عن رفاهية المدن الحديثة بداية من بائع أوراق اليانصيب حتى المحصل . بصرف النظر عن الشحات والدلال والخادم والخادمة وعامل الثلاجات والرمال وقارئة الفنجان ... إلخ .

(٢) وبهذا يصل الأمر نتيجة العمل الأتوماتيكى إلى أن أكثر الناس لا يفكرون طوال حياتهم من كثرة تكرار العمل الذى يقومون به (فى الممالك الصناعية هم العمال) فإن الانحطاط ونزول مقام العامل وقلة السكان تبدأ من هنا وفى النهاية يؤدى إلى سلب الاعتبار من البشر من حيث الابتكار والاختيار والحرية لا سلب التحجر والسكون .

(٣) القراءة والكتابة فقط بحيث يستطيعوا أن يذيلوا الورق بالإمضاء أو يقرأوا النشرات الحكومية وهذا هو المعنى الأصلى للنضال أو الأمية فى أغلب الممالك المستعمرة ما هو إلا شكل ظاهرى فقط .

الحكومية البيروقراطية تعطى مكانًا للكتاب ولو كانوا أكثر جهلاً وأكثر ضعفا من أجل كسب لقمة العيش . علاوة على هذا فإن تصنيف العمال وإدارة الهيئات الصناعية تحتاج يوما بعد يوم إلى متخصصين أكثر وفروع أكثر وأدق (وبالطبع إلى متخصصين أكثر). وعلاوة على هذا فإن زيادة المدارس والمعاهد ووسائل الإعلام والإبداعات الفنية والفنون مثل الراديو والإذاعة والسينما والتليفزيون تزداد عطشا يوم بعد يوم لمتخصصين فى علم الكلام والأدب والفن إذ إنهم جميعا فى الواقع يفهمون العوام المعارف البشرية حتى فى أكثر الأحوال فإن منتجى هذه النوعيات من الأجهزة الإعلامية يحولون الأديب إلى متخصص فقير . أو يحيلون الكاتب الأصيل إلى مقلد......" (١)

ولم تجر العادة أن الأدباء والمتخصصين كانوا دائمًا يكونون لأنفسهم دولة تتمتع بالسيادة الذاتية وتتمسك باستقلالها . إن المفكر والفنان على مر العصور لم ينفصلا قلبًا وقالبًا عن رجال الدين والمدرسين والفقهاء (٢) ونحن نعلم أن ذوى المجموعة الأخيرة كانوا هم أنفسهم واضعى الشرع والعرف لكل مدينة أو مجتمع ، ولو أننا نظرنا نظرة أكثر شمولية من الناحية الاجتماعية لوجدنا أن المتخصصين والأدباء على مر العصور الماضية كانوا ينتمون إلى منظمات كانت تضمن لهم قوت يومهم. أى كانوا منتمين إلى المؤسسات الدينية – إلى البلاطات – إلى حكومات العصر (٣) فى تلك

(١) ارجعوا إلى معظم مديرى وسائل النشر عندنا من : مجلات– إذاعة – تليفزيون.

(٢) ارجعوا إلى المدارس الدينية القديمة ومن ضمنها نظامية بغداد أو نيسابور (وكلاهما من تأسيس خواجة نظام الملك) فقد كانت تلك المدارس بمثابة مرجع دينى وعلمى وفنى وأيضا جامعى . وأيضا ارجعوا إلى " ربع رشيدى " تبريز وكان نوعا من الجامعات ومكان معيشة للفنانين أو إلى مدرسة هرات . أو إلى المؤسسات العلمية والدينية " جندى نيسابور " الساسانية التى كانت من المراكز الأصلية للتعاليم الزرادشتية وأيضا مركز الطب والفلسفة اليونانية أو نرجع إلى الناحية الثانية من العالم (جامعة السوربون) وجامعة باريس أو (جامعة كمبردج) فقد كانوا فى الأصل مدارس دينية مع أخذ حرياتهم فى البحث العلمى التى ضاعت منها الاتجاهات الدينية تدريجيا بسبب الثورات والتغيرات الاجتماعية وتحولت إلى مراكز علمية وبحثية وجامعية صرف . فى ذلك الوقت أنشأنا " دار الفنون " فى مقابلها وأسلوب التدريس بها مختلف عن طريق التدريس بالمدارس القديمة.

(٣) لماذا؟ لأن الناس ليست لديهم القدرة على شراء الإنتاج الثقافى على خلاف اليوم ففى طهران مثلاً يستطيع أن يشترى كتاب صغير باثنين تومان أو أحد النوت الموسيقية أو مجلة ما.. إلخ ، وفى نفس الوقت مازالوا يدعون الرقابة الحكومية وشراء الأدباء والمثقفين ويطالبون برجوع عصر "كيا" فى عصر محمود الغزنوى.

القرون فإن نجاح الفنان أو حتى الفن نفسه كان يرتبط بمن يقوم برعايته وعليه كان هناك فرق . ومن هنا كان لنا فنون دينية وفنون حربية وفنون تجارية .... إلخ .

" ... وعلى أيه حال فإن جميع أنواع الحكومات كانت تهتم بشدة بالأشخاص ذوى القدرة على اللعب بالكلمات والأفكار وتعطيهم أجرا حسنا . وفى عصرنا لم يعد القادة العسكريون يصلون إلى الحكم عن طريق استنادهم على قدرتهم العسكرية والمادية . وفى تلك الأيام فإن الخطباء يصلون إلى السلطة نظرا لامتلاكهم القدرة على تحريك الجماهير أو لديهم القدرة على التحكم فى رأى المنتخبين ، أو مجابهة المجالس التشريعية. ويعلمون كيف يمكن الدفاع بالفصاحة والبلاغة عن اتجاه فكر معين [١] إن الأدباء والكتاب لم يعرضوا مطلقا قانونا ما يظهر سطوة حكومات العصر[٢] ولكن فى زماننا علاوة على هؤلاء فإن الحكومات تحتاج إلى متخصصين أيضا فى فن الكلام والخطابه. يضاف إلى هذه المجموعة بالطبع أصحاب النظريات والإعلاميون . إن سكرتير كل حزب لا يقوم فقط بمهمه تفسير آراء الحزب بل أيضا يقود البلاد والثورة .[٣]

" إن كل من كان أكثر شمولية وأكثر تحررا وأكثر شهرة وأكثر قربا للسلطة فإنه فى نظرى يمتلك السمات العامة والاجتماعية لأولئك الذين يشغلون أعمالا فكرية بصفة عامة . إن الحدود والتعريفات التى ذكرناها لهم ترجع إلى حد ما هذه السمات الكلية . والتعريف الأكثر شمولية لهذه المجموعة هو العمال غير المهنيين (اليدويين) . أما فى فرنسا فإنه لا أحد يعتبر كاتبا فى إدارة ما مفكرا [٤] وحتى إن كان قد التحق بالجامعة وحصل على الليسانس فهو بناء على هذا يقوم بأداء أعمال فى أى إدارة أو شركة .

(١) أو تظاهرهم بشكل بليغ أو فصيح بأى طريقة أو تظاهرهم بطريقة عملية وكنا قد تعلمنا هذا فى ولايتنا .

(٢) فى هذا الشأن كان يجب على السيد الكاتب أن يضيف أنهم دائما مخالفين ومعارضين باستثناء القلة القليلة .

(٣) لاحظوا نماذج خروشوف وماو وقبلهم إلى ستالين وكندى وجنرال دوجول الثلاثة كانوا رؤساء أحزاب وأيضا رئيس وفرد آخر تعدى مرحلة رئاسة الحكومة والحزب بل و ادعى فى كلامه النبوة .

(٤) وعلى العكس فى ولايتنا لأن كل الموظفين الإداريين يعتبرون أنفسهم مستنيرين . لأن من أجل تسجيل خبر معين ونقل أى خبر أو أى حكم يجب أولا أن يقرأ . " أى لابد من أن " يفهم " و " يعرف " وبهذا الأسلوب فإن أغلب عمال صف الحروف أو الطباعة بعد ثلاثة أو أربعة سنوات من الخبرة يتحولون إلى " عمال مستنيرين " يخطون قدما " نحو " العمل التنويرى "

وبمجرد أن يعين شخص حاصل على دبلوم أو ليسانس لأداء أعمال شركة ما أو إدارة ما فإنهم يصرحون له بأنه ليس أكثر من شخص يؤدى عملا يدويا وعدته فى العمل هى آلته الناسخة .... فى حين أن البلاد النامية تعتبر كل حاصل على دبلوم مستنيرا[١] . وهذا الوضع غير منتشر وعندما يأتى شاب عربى إلى فرنسا ويتعلم فإنه يتبوأ فى بلاده نفس المكانة التى يحتلها كاتب غربى مرموق فى بلده". [٢]

والتعبير الآخر الذى لا يتسم بهذه الشمولية ويشتمل فقط على المتخصصين والأدباء حقيقة لا يوجد حد معين بين المتخصصين والأدباء ويمكن تجاوز الدرجات فيما بينهما . وأن بعضا من المتخصصين لهم وضع كوضع الأطباء المستقلين وكذا أصحاب الأعمال الحرة . فى حين أن هناك اختلافا بارزًا بين الأطباء المستقلين والأطباء الذين يعملون فى جهاز حكومى ما أو من يعملون فى خدمة شركة ما من شركات التأمين . ومع أن هذا الاختلاف يتضح فيه أسلوب تفكير هاتين الفئتين من الأطباء . أو من ناحية مواجهتهم المشاكل الاجتماعية . فعلى أيه حال لا يمكن أن نبعد أحداً من هاتين الفرقتين عن حوزة المستنيرين ، وعلى كل هل هناك تضاد أساسى بين المتخصصين والأدباء ؟ وهل يمكن ربطه بنوع العمل غير الرسمى الذى يقومان به "؟ مثل المهندس أو الطبيب اللذين يتعاملان مع الوضع القائم و المادى أو مع المشاكل الحيوية للإنسان .

(١) ولو أن من وجهة نظر رومون آرون بالطبع فإن إيران واحدة من مثل هذه الممالك إلا أننى لا أعتقد أن أى شخص هنا حامل دبلومة يعتبر مستنيرا لأن الدبلومة هنا فى الحقيقة لا تساوى شيئا وبهذه الدبلومة فإن عمله فى إحدى " مراكز العلم " أو " مراكز الصحة " مع كل المعوقات والنقصان الموجود بها - ما هو إلا نوع من الفرج بالنسبة له بعد الشدة . ولو أننا أخذنا فى اعتبارنا أن التنوير هو هم المجتمع وفكره فى اللاهوت والناسوت - الدبلومات التى لا تساوى شيئا - وعلى هذا لا يمكن اعتبار أغلب الحاملين لليسانس مستنيرين . على أية حال فإن حامل الدبلوم هنا هو طفل حديث الولادة إذ يجب عليه أن يرى أى طريق يسلك ويتخرج عندنا كل عام من ٣٠ : ٤٠ ألف من هذه النوعية ومن هنا فهم عامل مساعد على إيجاد أوضاع غير منظمة وغير مرضية وكذلك تساعد على احتمال حدوث الأزمات المستقبلية .

(٢) لأنه يعتقد أن الدراسة فقط تغير موطنه إلى بلاد الغرب - موطنه الذى لم يكن فى الغالب إلا مستعمرا (أو لم يكن) أو تبدل إلى تبعية سياسية أو يجب أن يتبدل ، ومن هنا تظهر قصة هروب العلماء الذين كانوا وجها آخر لعملة الرضاء وهؤلاء العلماء مسلطون على موطنهم بطريقة الاستعمار أو نصف الاستعمار وجلسوا على رأس سفرة الإغارة مع حكوماتهم .

وفى حين أن الكاتب والفنان يتعاملان مع الكلمات والأفكار والنظريات ، أى يتعاملان مع ذلك الشىء الذى يعتبر أساسه ذهنيا لا ماديا .[1] وبهذه الصورة فإن القضاة والمديرين الذين يتلاعبون بالألفاظ وهم سيكونون من ضمن قائمة الكتاب والفنانين . وفى نفس الوقت فإنهم يقتربون يوما بعد يوم من قائمة المتخصصين والمهندسين والأطباء . وعلى كل فمن أجل تجنب التشتت ومن أجل تعريف دقيق للمستنير فإن أفضل وسلية هى البدء بالمكونات الخاصة بالتنوير حتى يمكن بعد ذلك تحديد المواضع المشكوك فيها أيضا .

" إن كتاب القصة والمصورين والمثالين والفلاسفة يشكلون الدائرة الداخلية الأساسية للتنوير . لأنهم يحيون عن طريق التدريبات الفكرية فقط ولأجلها فقط ... وإذا كانت قيمة الأنشطة ترتبط بأصحابها فإننا ندرج فى هذه السلسة بداية من " بلزاك" حتى " أوجون سو" ، ومن " مارسيل بروست " حتى كتاب القصص المسلسلة فى الصحف و المجلات.[2]

أما الدائرة الثانية فيشكلها الفنانون الذين يؤدون عملهم دون أن يبدعوا حرفا أو كلمة جديدة أو فكرة جديدة أو أسلوباً جديداً (أى ليست لديهم القدرة على الإبداع) ومن هؤلاء المعلمون مثل المعلمين والأساتذة والباحثين. ثم يأتى فى المرتبة الدنيا منهم العاملون بالصحافة والإذاعة الذين ينشرون حصيلة جهود الجماعات السابقة أو أنهم الجسور بين جماعات الشعب وأولئك المصطفين بهذه النظرية ، وبهذا فإن دائرة المستنيرين تضم فى مركزها المبدعين ، وبعنوان أكثر دقة ، منطقة غير مخصصة لمن ينقلون الفكرة للعوام . وأغلبهم إما مترجمون أو مفسرون أمناء ولكنهم غير مبدعين . بل إنهم خائنون لكل إبداع فنى وعلمى . لأنهم لا يفكرون بشىء قدر تفكيرهم فى نجاح أكبر وعائد أكثر. وهذا الهدف لا يتحقق إلا عن طريق مسايرة عوام الناس ومراعاه

(١) فى هذا الصدد نرجع إلى وجهة نظر نقلت عن " هايدجر " بشأن اتصال العمل والفكر فى صفحة ٣٦ ، ٣٧ .
(٢) ولو أننا ضربنا المثل على ذلك من إيران أى من صادق هدايت إلى حسينقلى مستعان ومن ملك الشعراء بهار إلى إبراهيم صهبا .

أذواقهم . وبهذه الطريقة فإن المجموعة الأخيرة لا تراعى القيم التى يفرض عليهم عملهم احترامها . (١)

" مثل هذا التحليل المقلق إذ ربما يلقى بظلال النسيان على القضية. القضية الأولى هى المركز الاجتماعى ومصدر الدخل، والقضية الثانية الهدف الفكرى والمادى للنشاط المرتبط بالعمل (٢) ويحتمل أن نعتبر " باسكال "، و " ديكارت " من التنويريين ، مع أن الأول كان برجوازيا ومن أسرة أفرادها ممثلون لمجلس النجباء . و الثانى كان نبيلا. (٣) إذ إنه لم يكن أحد فى القرن السابع عشر يعتبر أن هذين الشخصين سيتم إدراجهما ضمن المستنيرين أو على الأقل سيكون وضعهما فى القرن الثامن عشر على هذه الحالة . وذلك أيضا كان بعد ظهور أشخاص مثل " ديدرو " أو كتاب دائرة المعارف و الفلاسفة أو نظراؤهم (٤) وعلى كل نقر بأن "باسكال" و " ديكارت " من المبدعين فى هذا المجال . ولكن غير محترفين ، وعلى الرغم من هذا فإن هذين الشخصين لم يكونا قط أقل تنويرا من الآخرين الذين كان التنوير شغلهم أو مركزهم الاجتماعى أو مصدر رزقهم . وأساسا ينبغى أن ننتبه إلى أن التنويريين من أصحاب الأعمال الرسمية فى المجتمعات الجديدة يزدادون يوما بعد يوم فى حين أن عدد المبدعين يقل يوما بعد يوم .

(١) و لشديد الأسف فى مملكتنا فى مثل تلك المؤسسات من دور النشر وتوزيع الخبر والثقافة يعملون على تبديل معظم المستنيرين إلى زينة للمجالس . بسبب وجود الرقابة ، ولأن الإعلانات الحكومية مفضلة على أى بيان حقيقى وعلى النحو التالى فإن الصحف والراديو والتليفزيون أحيانا تجعل من ناظم للقوافى شاعرا ومن متملق عالما اجتماعيا – ومن مطرب عالما موسيقيا ومن موظف كاتبا – وبهذا الشكل تتعامل مباشرة على أننا مجتمع مستعمر .

(٢) فى هذا الصدد ارجعوا إلى ما نقل عن " جرامشى " فى صفحة ٥٩ .

(٣) ارجعوا إلى ما نقل عن " ماركس " فى شأن انفصال عدد من الأشراف وعلاقتهم بالتنوير ... إلخ ص ٥٨ .

(٤) وها هو فرق التنوير الذى أسس بمعاونة الكتاب والفلاسفة وبمساندة المكتبة وكتاب دائرة المعارف . على كل فليس هناك اتفاق ، وبالرغم من أنه مازال فى كل العالم وفى كل هذين القرنين أو الثلاثة الأخيرة فإن كل المستنيرين ظهروا فى شكل : كاتب – فيلسوف – واعظ سياسى – لا دينى وكاتب دائرة المعارف . وميرزا أغاخان الكرمانى نموذج لهذه النوعية . ارجعوا إلى كتاب فريدون آدميت : " أفكار وآثار ميرزا أغاخان كرمانى " طبعة طهورى – ١٣٤٦ .

من ناحية أخرى يبدو من وجهه نظرنا أن إطلاق سمة المستنير على أستاذ الحقوق أليق من إطلاقها على المحامى . وهكذا أستاذ الاقتصاد والسياسى أكثر من المحرر الذى يعلق على الأحداث الاجتماعية ، أليس السبب فى ذلك التفضيل أن المحامى والمحرر الذى يعمل لدى شخص أو مؤسسة رأسمالية وأستاذ الحقوق هو موظف ذو منصب رفيع فى جهاز حكومى يقوم على نظام إقطاعى رأسمالى ؟ لا يبدو الأمر هكذا . لأنه من وجهة نظر أخرى فإن المحامى صاحب عمل والأستاذ موظف مرتبط بجهاز . ومع هذا كله فإن الأستاذ فى نظرنا أكثر تنويرا من المحامى . إذ إن الأول لا يتقيد بشىء سوى باتساع المعرفة أو تفسيرها أو العمل بها ، ومع هذا كله فعلينا أن نأخذ فى اعتبارنا أن أصحاب الأعمال الفكرية يزدادون التحاقا بالأعمال الإدارية يوما بعد يوم . والمؤسسات الصناعية والتجارية [1] ولا يزال فى هذه الأيام تظهر نماذج للمبدعين من بين العلماء والفنانين فقط .

" وقطعا هذا التحليل لا يسمح أن نقبل بصورة حتمية أو قاطعة أيا من التعبيرات السائدة لتفسير التنوير والهدف هو طرح التعبيرات والتعريفات المتنوعة . ونظرا للسمات الأساسية للمجتمعات الصناعية فمن الممكن أن نعتبر تلك الجماعة التى تخرجت من الجامعات والمدارس الفنية العليا هى جماعة المستنيرين . وقد حصلوا على المؤهلات الضرورية لتولى الأعمال الإدارية . ومن الممكن أن نضع الكتاب والعلماء والفنانين والمبدعين فى الصف الأول والعلماء والأساتذة والنقاد فى الصف الثانى . ثم نضع من يقومون بنقل الفكر للعامة والمحررين فى الصف الثالث . ثم نستبعد بنفس النسبة الأطباء والقضاة والمهندسين عن دائرة التنوير إذ إنهم بسبب التأثر الفورى للأحداث الجارية أو بسبب مصلحتهم المادية قليلا ما يهتمون بالثقافة والمعارف البشرية .

(١) وهذه المجموعة من المستنيرين تكون فى شكل " علماء التكنوقراط " ولو أخذنا فى اعتبارنا أن " التكنوقراطية " تعنى " حكومة الفن " أو " حكومة التكنيك " فإن هؤلاء السادة هم الذين يديرون المؤسسات الحكومية ويعملون تدريجيا على سلب إرادة وحيثية التنوير بصورة أكبر .

وروسيا السوفيتية تميل كل الميل تجاه التعريف الأول ، أى أن المستنيرين هناك يعرفون بأنهم مجموعة المتخصصين الفنيين . حتى إن الكتاب يطلقون عليهم " مهندسو الروح البشرية[١] " . أما غرب أوروبا فإنها فى الغالب تميل تجاه التعريف الثانى حتى إنهم حديثا يضيقون دائرة التنوير أكثر . وذلك كما جاء فى كتاب " رؤية عن الأوروبيين " بقلم " كرين برينتون " حيث يحصر المستنيرين فى الأشخاص الذين تعد الكتابة مهنتهم الأساسية أو التدريس أو الوعظ أو الخطابة – أو الظهور على خشبة المسرح أو الاهتمام بالفنون المختلفة أو الآداب .

" يبدو أن تعبير " أنتلى جنسيا " استخدم للمرة الأولى فى روسيا فى القرن التاسع عشر . وهذا التعبير يطلق على الأشخاص الذين تخرجوا من الجامعة ودرسوا الثقافة و المعارف الغربية . وهذا النوع من الأشخاص يعد قلة مختارة ومنتخبة خارجة عن النمط المحلى القديم للقيادة الروسية – وظهروا من بين شباب أسر الأشراف أو أبناء البرجوازيين الصغار وحتى أحيانا من بين القرويين ذوى والمكانة ، هذه النوعية المنفصلة عن المجتمع الروسى التقليدى لديها نوع من وحدة الفكر والرأى بخصوص القضايا الاجتماعية و الحكومات المعاصرة بسبب التربية الخاصة و الموحدة التى تلقوها فى تلك الجامعات . إن أسلوب التفكير العلمى و الأفكار الليبرالية دفعت هذا النوع من الأفراد المبتلين بنوع من العزلة الاجتماعية و المنفصلين عن الميراث الروسى التقليدى [٢] نحو الثورة.

(١) أنقل شفاهة عن السيدة " مهرى راهى " (التى كانت أستاذة للغة الروسية) أن " جوركى " كتب أو قال (أين ؟) أى أن مستنيرى الروس سواء كانوا من أى طبقة أو من أى مجموعة استطاعوا أن يكونوا الفرسان الذين تقدموا بعجلة التاريخ الروسى .

(٢) فى هذا الانزواء الاجتماعى والانفصال عن التقاليد ألا يوجد تشابه بين هؤلاء السادة و مستنيرينا ؟ مع هذا الفرق الكبير فى أن كان لديهم فكر وتقاليد ونحن لا نملك هؤلاء ، يقتربون يوما بعد يوم أكثر إلى دائرة السياسة ونحن نبعد عنها أكثر ونصبح غير سياسيين لأن هؤلاء كانوا يعيشون فى مجتمع روسى نصف استعمارى فعانى من مشكلة النفط ومسائل أخرى .. مع العلم أن مثل هذه القضية تصدق مع كل الممالك المستعمرة ونصف المستعمرة . ففى مثل هذه الممالك يؤدى الانزواء الناتج عن البعد عن التقاليد إلى البعد عن الناس ونسيان قضية الاستعمار ويكون اتخاذ الاستنارة وسيلة من أجل الصعود إلى الدرجات العليا فى المجتمع والوصول إلى هرم الزعامة ومن أجل الوصول إلى مثل هذه الأهداف والرضا بالصمت والخنوع للوصول إلى هذه الأهداف .

أما فى المجتمعات التى ظهرت فيها المدنية الحديثة بطريقة ذاتية وباعتبارها مرحلة طبيعية من مراحل النمو التدريجي والتاريخى المختلف . فلم يكن الانفصال عن الماضى والتقاليد شيئا مفاجئا ، كما حدث لدى مستنيرى الروس فى القرن التاسع عشر .

مثلا فى المجتمعات الأوروبية لا يوجد فرق بين حاملى الدبلومات والفئات الاجتماعية الأخرى ولم يكن الفرق موجوداً لديهم ولم يحدث أن المستنيرين يرفضون أو يستبعدون أو يدينون الهيكل الأساسى الاجتماعى الذى هو حصيلة قرون طويلة من التطوير والتكامل . وعلى أية حال لن يحدث . فليس من ضرورات التنوير فى أى مجتمع أن يكون معارضا على الدوام للمؤسسات التقليدية لذلك المجتمع .

إن جميع الأحزاب وجميع العقائد بدءا من المتمسكين بالعادات والتقاليد حتى الليبراليين والديمقراطيين والقوميين الفاشيين والشيوعيين – لكل منهم عقول تنويرية ذاتية وسيظل الأمر هكذا ، وعلى هذا فإن مستنيرى كل طريق ما هم إلا مجموعة من الأشخاص يوجهون ويبررون عقائد تلك الفرقة أو مصالحهم الآنية والآتية [١] وإذا أردنا أن نعطى تعبيرا دقيقا فإن مستنيرى تلك الجماعة ما هم إلا أناس لا ترضيهم الحياة بل يريدون أن يبرروا وجودهم .[٢]

وهذا هو ما كان يجب أن أنقله عن ريمون آرون لتوضيح البحث والتدقيق فيه بشكل أكثر ، وأعتقد بنهاية عباراته هذه أن نكون قد وصلنا فى النهاية إلى تعبير أكثر شمولية وحزما حتى الآن .

وبتعبير أكثر وضوحا فإن : المستنير هو شخص لا ترضيه الحياة بمفرده . بل إنه فى صدد تبرير (ذاته) وبالتالى يسعى تبرير (وجود) الآخرين أيضا . أى البحث عن كينونة الآخرين " أى المجتمع ".

(١) ارجعوا إلى وجهة النظر التى نقلت عن (جرامشى) ص ٦٠ .
(٢) ترجم من ٢١٣ إلى ٢٢٠ من هذا الكتاب .

l'opium des intellectuels. Par : Raymond Aron. Ed. Calmannlevy, Paris 1955

(٢) هل المستنير قومى ؟

بحثنا فى الفصل السابق عن مفهموم التنوير الغربى – وذلك على لسان الغربيين أنفسهم وكان ذلك استنادا على الأدلة المتاحة لكاتب هذه الرسالة . ورأينا سويا إحصاء مختصراً . ورأينا ما هو كم وكيف المستنير فى البلدان الغربية المختلفة . وحان الوقت أن نشير إلى التنوير الذاتى . وهل يمكن أن يكون التنوير قوميا ؟ ومن أجل الإجابة على هذه الأسئلة يجب أن نشير بداية إلى نقطتين أساسيتين :

الأولى : أن المستنير حسب التعريف الذى مر فى الفصل السابق يُعد من منتجات العالم الغربى الذى تكون عبر القرنين الماضيين نتيجة الثورة البرجوازية لسكان المدن والعلوم المتقدمة وفن التسويق ليصل إلى مرحلته الاستعمارية المعروفة . الذى كلما نهب المستعمرات تمكن من توفير ما يلزم مصانعه ومتاحفه ومعامله . وعلى هذا النسق ، نشأ المستنيرون داخل المجتمع . بدليل أن أكثر المجتمعات الصناعية تقدما لهذين القرنين هى المجتمع البريطانى والألمانى والفرنسى وأيضا الأمريكى ، كما شهدت نفس هذه البلاد أكثر العلوم والفنون والآداب تقدما وكذلك أيضا شهدت أكثر العلماء والكتاب والفنانين والفلاسفة والمستنيرين . كذلك فإن معظم متاحف العالم وأعظم جامعاتها وأعظم معاملها ومراصدها ومصانعها .... إلخ موجودة فى هذه البلدان . والمستنير الغربى المتمثل فى كاتب مثل " جان بول سارتر " أو فيلسوف مثل " برتراند راسل " فإنه فى هذه السنوات الأخيرة بدأ يصرخ معترضا بعنوان "الضمير الأوروبى المريض" ضد غارات الاستعمار ومذابح الشعوب المستعمرة ، كأنه قد فاق توا من نوم دام قرنين من الزمان فى فراش النعم المسلوبة من جميع أنحاء آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية .[١]

(١) فى هذه القضية ارجعوا إلى أقوال فى شأن الاستعمار عن أمه سه زر – ترجمة دكتور هزار خانى . دار النشر نيل . وأيضا إلى " ميراث خوار استعمار = وارث الاستعمار " للدكتور بهار – الذى بالرغم من أنه سكت عن قضية الإغارة على إيران فإنه تحدث عن الإغارات الأخرى وتحدث عن الاستعمار فى أفريقيا بطريقة واضحة وكذلك ارجعوا إلى " أهل الجحيم فى الأرض " عن " فرانتس فانون الذى ترجم ونشر عن طريق بعض الطلبة الإيرانيين فى الغرب . المجلد الأول شهر تير ١٣٤٦ وأيضا ارجعوا إلى " جهرة استعمار = وجه الاستعمار " لألبير كامى – له ترجمة غير كاملة قام بها هما ناطق فى مجلة آرش الأعداد اسفند ٤٦ وفرور دين ١٣٤٧ .

والثانية : إنه إذا كان المستنير نتاجًا خاصا للمجتمع الذى يعيش فيه والذى نهض منه إذن فمن أجل تحديد سمات المستنير القومى - وهنا نقصد به الإيرانى أو الناطق بالفارسية - يجب أولا أن نحدد السمات الاجتماعية الإيرانية . وأول نقطة التى هى من البديهيات في هذا الموضوع ، هى أننى عبرت عن إيران فى مقابل بلدان الغرب بأنها عاصمة المدنية والرفاهية فهى بالنسبة لهم " دولة مستعمرة " " متروبل" أو يقع عليها حكم ولاية تابعة . إن لم نقل أنها تعد بصورة غير مباشرة مستعمرة. وفى هذا المجال يمكن أن نقول إن المستنير الإيرانى لا يضع أقدامه فى الطريق الصحيح للتنوير في "إقليمه التابع" ما لم تتوافق آراؤه مع أمثال " برتراند راسل " و " سارتر" ما لم يتخذ مواقف مناهضة للاستعمار.

بعد الإشارة إلى هاتين النقطتين الأساسيتين اللتين هما مجال بحثنا . فعلى أن أسعى الآن لتقويم الطبقات الاجتماعية الإيرانية وتوضيح مكانة وتركيب طبقة حكامها . إذ إنه يجب أن نرى أولا أن المستنير الإيرانى يسبح أو يجب أن يسبح فى أى حلبة من الأخذ والعطاء والنضال والكيفية وفى هذا التقويم الذى لا يعد من تخصص الكاتب سوف ألقى النظر مضطرا إلى نصين (أولهما) من إصدار "الجماعة الاشتراكية فى النهضة الوطنية الإيرانية" عام ١٣٣٩هـ ش/ ١٩٦٠م، وثانيهما نشر من قبل الرابطة الاشتراكية الإيرانية فى أوروبا سنة ١٣٤١هـ ش / ١٩٦٢م مع تنقيح وتعديل لعباراتها .

نعلم أن ٧٥٪ من الشعب الإيرانى يعيش فى القرى إذ إن القسم الأعظم منها مقسم بين الفلاحين تبعا لخطط الإصلاح الزراعى . أى التى بيعت بأقساط طويلة المدى . أى أننا بهذه الوسيلة نخلق طبقة من صغار الملاك التى حلت محل سكان المدن وكبار الملاك - الذين بدلت أموالهم غير السائلة إلى أموال سائلة - ليصيروا سندا للحكومة . أو أساسا لها . وهذه الطبقة الجديدة من صغار الملاك وبلعبة بسيطة واستنادا على أرصدة الاعتمادات الزراعية والقروض التعاونية سوف تتجه فى يسر للشراء من أسواق المدينة وسيقوى ارتباطها تدريجيا بالمدينة . لأن مدننا أصبحت سوقا لتصريف السلع الأجنبية . ولأن تلك الاعتمادات الزراعية والقروض التعاونية تأتى من أموال النفط وهم

بدلا من استثمار رءوس الأموال فى القرية وعلى الأرض وفى البحث عن الماء والزراعات الجديدة ، فإنهم ينفقونها على شراء الراديو وماكينة الخياطة وزيارة العتبات.[1]

وعلى أيه حال فإن التعاونيات القروية لم تستطع الآن أن توفر استثمارات رءوس الأموال للملاك القدامى فيما يخص الزراعة وتوفير البذور والمياه (وهذا العجز نفسه له سببان) أولهما (الروح الانعزالية للفلاح الإيرانى وسوء ظنه بالنسبة للآخرين) وثانيهما (الشكاوى الكيدية والفساد الإدارى للمدينة وهو الحاكم الفعلى للتعاونيات القروية).

وأيضا بسبب أن هذا التقسيم الفعلى للأملاك غير جماعى (بمعنى أنه لم يطبق هذا على جورجان وخوزستان) وهكذا ولأسباب أخرى ليس لها مجال مناقشتها ودراستها فإن الفلاحين يهجرون الأرض يوما بعد يوم ويتهافتون على المدن وهناك ينتمون لصف سكان المدن الصغار الذين لا يتوفر لهم عمل أو ليس لديهم صنعة يتقاضون عنها أجرا . وهذه الطاقة البشرية الكبيرة سوف تدفعه ناحية الفساد والتشرد واليانصيب وأعمال الحيل والسمسرة وتجارة الكمبيالات وسرقة الأراضى . ويصبح مولعا بقليل من الرفاهية المدنية حيث الماء والكهرباء والسينما والتلفاز والتليفون - إذ إن أيا منها لم يصل إلى القرية بعد . وهذه الرفاهية المدنية كلها توابع دخل النفط - إذ إن إيراداته جميعها تحت تصرف تلك الطبقة من التجار والرأسماليين الذين يتعاملون ويعاملون الشركات الأجنبية . وتطلق على هذه الطبقة من الرأسماليين وفقا للمصطلح المناهض للاستعمار الحديث طبقة (المنتفعين) = (الرأسمالية) ووجود طبقه الرأسماليين المنتفعين لها صفات أخرى وذلك أنها تساعد الرأسمالية الأجنبية الذين ينافسون الصناعات اليدوية المحلية (السجاد- الأقمشة - الأحذية ... إلخ) والصناعات الصغيرة التى ينتفع منها العمال بعض الشيء، وهذه المنافسة تقضى بلا شك على الصناعات

(١) فى هذا الشأن ارجعوا إلى أعداد مختلفة "لمجلة مؤسسة التحقيقات الاقتصادية " التابعة لكلية الحقوق . فقد تحدثت الوفود المبعوثة إلى القرى المقسمة بتفصيل عن نوع من الانحطاط فى مسألة تقسيم الأملاك وخاصة الأعداد ٩ ، ١٠ (أبان ٤٣) و ١١ ، ١٢ (شهر يور ١٣٤٤) .

اليدوية المحلية والمصانع الجديدة وصغار المستثمرين المحليين . وتجعل العمال بلا عمل و تجبر التجار على الالتحاق بمؤسسات أكبر (التى تعمل فى صناعة المشروبات الباردة و المطبوعات والزيوت النباتية والصناعات التجميلية) التى هى ذاتها عميل أساسى للاستعمار .

هذه هى الخطوط الأساسية لمحور العمل فى المجتمع الإيرانى : فإن جميع الطبقات والشرائح الاجتماعية التى تعاون فى سير مثل هذه الأجهزه هى القواعد الأساسيه للحكومة ، أى كبار الملاك ذوو الأموال النقدية وغير النقدية – طبقة الرأسمالية – والمتخصصون و الكوادر المرتبطة بالميكنة (الفنيون) – وطبقة رجال الدين الرجعيين – تلك المجموعة من المستنيرين هى التى توجه دوران مثل هذه الأجهزه فى كلماتهم وكتاباتهم – والأهم منهم جميعا ضباط الجيش الموجودون فى الخدمة والمتقاعدون و كل الأشخاص الآخرين الذين لهم فى دوران هذا النظام منافع آنية وآتية . ولا شك فى أن هذه الأنظمة تساعد على الفوضى من خلال اتساع المدن وكذا الميكنة الزراعية [(١)] وأن الحمل الثقيل يقع على عاتق ذوى الدخل المحدود أى العامل و الفلاح الذى يملك و الذى لا يملك وكذا الموظف الحكومى المدنى وتاجر التجزئة نظرا لتنافس الرأسمالية الأجنبية الضخمة مع الرأسمالية المحلية . وهؤلاء يشكلون الطبقة التى تحكمها الحكومة أى

(١) وننظر إلى قول وزير الكهرباء والطاقة : حتى الآن يوجد لدينا ٣٥ ألف قناة (..) القنوات التى ليس لها أهمية فى الاقتصاد المستقبلى لإيران ومسألة جفافها مسألة حتمية ، وجفاف هذه القنوات ، يتبعه تغيير فى الشكل وضَمّها فى شبكات توسيع الزراعة لـ ٣٥ ألف قرية (..) بحيث إنه فى عام ٢٠٠٠ بدلا من أن يكون هناك ٦٨٥٠٠ وحدة قروية حاليه لكل ٩ آلاف هكتار يصبح فى المتوسط حوالى ٢٠٠٠ .
(مجلة اطلاعات – ١١ خرداد ١٣٤٦ صفحة ١١) وهذا سوف يحدث مستقبلا . ويجب أن نسمع الصوت الشديد من رئيس الوزراء الذى يقول : إن الخطة المستقبلية الأخرى التى لدينا هى انتقال القرويين لأكثر من ثلاثين ألف قرية التى يكون عددها أقل من مائتين وخمسين ألف فرد إلى المناطق التى بها ماء بشكل وفير . لأن هذه القرى الصغيرة وبعدد سكانها القليل غير قابلة للتوسعة ويجب أن نزيلها (مجلة آيند كان – أول بهمن ١٣٤٦ . ص ١٢) حقيقة أن هذا الكلام يشبه هذيان رجل متغرّب أكثر ولكن رأينا من أجل الصنم الأعظم للتكنيك (!) كم من المصائب حدثت " لخارك " (در جزيرة خارك – بنفس القلم) وهل من المعقول أن المستنيرين العظام الذين يعملون بالحكومة فقط من أجل إيجاد مكان لاستهلاك المحصولات الغربية – أن يسلكوا هذه الطريق التى لم يسلكها حتى المغول ؟ وإن لم نعتبر أن مثل هذا الأمر هجوم استعمارى فماذا نعتبره إذن ؟

٩٥٪ من سكان الدولة. و المستنيرون فى هذا المعترك طبقتان الجزء الأعظم منهم هم الذين يدورون مع فلك الجهاز الحاكم و يساعدون هذا النظام فكريا و يوجهونه علميا . والمجموعة القليلة منهم يبحثون عن حل لإيجاد مفر من هذا القيد الاستعمارى . وجميعنا يعلم كم هى قليلة تلك المجموعة الأخيرة . وأنا أعبر عن هاتين المجموعتين بمعنى الأقلية والأغلبية للتنوير . إننى أؤمن أن المجموعة الأولى الكبيرة هى التى يتولى كل فرد منها منصبا من المناصب التنويرية وإنى أعتبرها تمتلك الحد الأدنى من الاستنارة حيث إنها تدور فى فلك الحكومة. و المجموعة الثانية تشغل الأغلبية و هذه المجموعة الأخيرة ليست فقط غير راضية عن الحياة لكنها إما بعيدة عن الولاء للطبقة الحاكمة أو تعمل بهدف إرشادها – و فى نفس الوقت فقد شمرت سواعدها لخدمة الطبقات المحرومة – وهذه الطبقه قليلة العدد هى التى أسميها المستنير القومى أما الباقى من المستنيرين إن لم يكونوا عملاء مباشرين للاستعمار فإنهم خدام غير مباشرين لجهاز يدور لصالح الاستعمار . و على الرغم من أن عملى لا ينطوى على نصح وإرشاد فإن أمل كاتب هذه الرسالة هو أن يتخلى المستنير الإيرانى عن الاقتناع بالحد الأدنى من الاستنارة وأن يتجه تدريجيا نحو الحد الأعلى. و الآن ومع الأخذ فى الاعتبار هذه السمات الاساسية الاجتماعية و تقسيم الطبقات لعمل المستنيرين و مع إحاطه النظر الدائمة لمسألة الأقلية والأغلبية للتنوير ، فإننى أقوم بتصنيف أصحاب الأعمال التنويرية فى إيرن.

وإذا افترضنا أن مجموعة المستنيرين فى إيران يغطون فراغ دائرة ما فإننى أعتقد أنه يمكننا أن ندرج فى مركز تلك الدائرة الكتاب والفنانين والشعراء والمتخصصين ذوى المؤهلات العليا . أى بصفه عامة تلك المجموعة التى يمكننا أن نصفهم بأنهم الخلاقون و المبدعون سواء فى المجالات الفنية والثقافية أو فى المجالات العلمية . إن مبدعى الأعمال والأفكار والثقافة والعلوم هم النواة الأساسية للتنوير . وهؤلاء هم العلماء الخلص و المعماريون والشعراء وعلماء الموسيقى والكتاب وكل الأشخاص الذين أوقفوا أرواحهم لخدمة العلم والثقافة والفن دون القصد إلى المنفعة الشخصية أو خدمة الحكومة بصفة مباشرة ، وكما مر سابقا فإننى فى هذه النواة المركزية أعطى الأولوية أيضا لهؤلاء الذين ترتبط أعمالهم "بالكلام "الذى يستلزم "التبليغ "

و "القيادة "[1] وإننا نعلم جيدا أن هذه النواة الأساسية للتنوير كم هى ضيقة . وبصعوبة يمكننا أن نعد فروع هذه النواة الأصلية بعدد أصابع اليدين . وإذا أردت تخمين كل أعضائها فإننى عندما أكون سخى اليد والقلب أعتقد أن عدد هذه النواة الأساسية لا يتجاوز المائة شخص . وهل هذا من الأسباب الكبيرة لعدم توفيق المستنيرين فى إيران ؟ وهذه القلة فى العدد لها الأسباب التى سوف أتحدث عنها بالتفصيل. وأعظم هذه الأسباب يجب أن نشير إليها مباشرة وهى قضيه غياب العقول التى تلكؤها الألسنه فى هذه الأيام – التى ابتكرها إحسان نراقى – ولكن أحداً لم ينتبه أن هذا الغياب هو أحد نتائج أعمال الجهاز الذى يطلب من البلدان غير الصناعية المواد الطبيعية فى صورتها الخام كما يطلب العناصر البشرية فى أنضج صورها .

ولو افترضنا أن لهذه النواة المركزية مدارات قريبة وبعيدة عن مركز الدائرة فإننى أضع فى المدار الأول – أى فى أقرب مدار للمركز الأساتذة والنقاد والقضاة والمحامين والكتاب أى كل الأشخاص الذين يتولون التدريس فى الفصول الجامعية والمدارس العليا والمتوسطة أو يعملون فى محاكم القضاء . أو من يقيمون على صحة وخطأ وجمال وقبح الأعمال والآراء التى تخلق عن طريق النواة المركزية للتنوير . أى كل من يطبقون الثقافة والعلم والقانون على الأشخاص والمؤسسات ولأن عمل هذه المجموعة الثالثة أو الرابعة فى الغالب بعيد عن المنفعة الشخصية وبعيد عن العمالة باستثناء المحامين الذين هدف المنفعة فى أعمالهم شيء ظاهر. وعلاوة على أن الكلام هو أداة عمل كل من الفرق الثالثة والرابعة وكل واحد منهم أيضا له دور بارز فى تنشئة الجيل الشاب وإثراء شخصية وأيضا بسبب أن من بين هذه المجموعة فئة تخرجت من دار المعلمين العليا سابقا ولهذا فإنى أعتبر أن لهم دورا أكبر فى مجال التنوير . إذ إننا يمكننا أن نتعقب آثار أقدامهم دوما منذ الأحداث السياسية للمملكة منذ ١٣١٦ – أوائل عام ١٩٣٧م (تاريخ أول

(١) بصرف النظر عن أهمية أساطير " الكلام ، حيث إنه الخليقة والخ ... فإنه وأسرع وسيلة انتقال للفكر من الفرد للمجتمع أما باقى وسائل أخرى للاتصال (تصوير – الجداول – علامات رياضية وهندسية إلخ ..) فإنه يؤثر فى مجتمع المتخصصين من الفن وليس فى دائرة جماعات كثيرة وهناك فى هذا الجانب تفاصيل لا يمكن التطرق إليها .إلا بعد ترجمة ونشر الكتاب الأخير للمارشال ماك لوهان " وعنوانه Understanding Media الذى ترجم ونشر .

إضراب فى المعهد العالى) وأعتقد أنه لهذا السبب بالذات (تفكيرهم الحر وتطلعاتهم الاجتماعية الكثيرة) تقرّر فى أواخر عام ١٣٤١ وفى عهد وزير الثقافة وهو أحد خريجى المعهد العالى للمعلمين أوائل ١٩٦٣م إغلاق جميع المعاهد وتأسيس جيش المعرفة بالإشراف على الشئون الثقافية(١)

فى المجموعة الثالثة – أو فى المدار الثانى حول المركز – نضع الأطباء وكذا المهندسين (الفنيين) والباحثين وجميع المتخصصين فى الفنون . لعله يبدو فى الظاهر أنه ليس هناك فرق كبير للقيمة التنويرية لهذه المجموعة و المجموعة الثانية. ولكن أولا بسبب أن الأداة الأساسية لعملهم ليست "الكلام " وثانيا بسبب أن أعمالهم لا تحتوى على القيمة التربوية التى تتمتع بها المجموعة الأولى والثانية . ولهذه الأسباب وضعتهم فى المجموعة الثالثة . مع ملاحظة الأهمية العمرانية الكبيرة لهذه المجموعة من مستنيرى البلد لأن المصانع والسدود و المستشفيات المعامل يعود إليهم الفضل فى تأسيسها وإدارتها. ولكننا حسب ظروف التطور التى نعيشها فنحن محتاجون للقيم الإنسانية مثل كل شىء وكذا إعداد الكوادر والواقع أن مهندسا معماريا أو كهربيا أو ميكانيكيا يكون فى الغالب إما مستهلكا أو مصلّحًا للسلع الاجنبية . وأن الطبيب فى الغالب ماهو إلا نوع من الوساطة بين مصانع الأدوية والمرضى . أو بين مصانع وسائل الاختبار (مثل أشعة الصدر والعضم والأمعاء حتى جهاز رسم القلب الكهربائى ... إلخ) وبين الناس أن تشخيص المرض يكون عن طريق المعمل وأجهزة الأشعة وأن الذى يصنع الأدوية هى مصانع "لدرلى" ، "ساندوز"، "روش" – ويرسلونها معلبة أفضل تعليب إلى العالم كله. حقيقة فإنه من الواضح أن قيمة الجراحين بين هذه المجموعة باقية فى مكانها ، إذ إنها قيمة تنويرية ، وذلك فضلا عن تمتعهم بالمهارة اليدوية ولكن مع كل هذا يمكن أن نرى الوضع الحقيقى للأطباء الذين يعملون فى المستشفيات الحكومية والتأمينات الاجتماعية والخدمات العامة فإن لهم قيمة التنوير

(١) ومما يثير الانتباه أن السياسة الثقافية المباشرة أو غير المباشرة مباشرة لحكوماتنا منذ فترة تولى دكتور مهران لمنصب وزير الثقافة وما بعدها كانت تحت رعاية هذه المجموعة من المؤسسات الثقافية مع تشجيع المدارس القومية والخصوصية وتأسيس المؤسسات الثقافية وإلخ .. فى هذه الفترة فقط فى أثناء تولى محمد درخشش وزيرا للثقافة الذى ولد لدى الناس شعور وموقف تجاه هذه القضية .. ولكن هيهات !

الأكثر عن هؤلاء الذين يتكسبون من دخل عياداتهم الخاصة وذلك لأن هذه المجموعة الأخيرة بسبب المنفعة المباشرة يديرون العيادات . وعليه فهم المعارضون المتعصبون المتوقعون لكل نوع من التأمين العام أو المستوصفات العامة والمجانية ، أما تلك المجموعة من الأطباء الذين يعملون فى المؤسسات الحكومية فإن مواقفهم عادة ما تكون إيجابية تجاه هذا النوع من التطورات المستقبلية المتطورة[1] ، لأنهم لا يتكئون على مسند رؤوس الأموال الضخمة التى تتمتع بها المجموعة السابقة ولا على أصحاب المناصب الاجتماعية العليا والإدارية الحكومية ، وفيما يخص الذكر عن الأطباء فلا يجب أن نغفل هذه النقطة أيضا وهى أن بريق عملهم يزدهر فى السنوات التى تتذوق فيها الأمة طعم الرفاهية (بالنسبة لنا منذ عام ١٣٣٢ هـ ش / ١٩٥٣م وما بعدها) أى أن العمل الذى يمارسونه يتعلق بمضمار الصحة والمرض أى الحد بين الموت والحياة ، وفى الحقيقة فإن العمل المطلوب منهم وهو عمل فى حدود " عالم الغيب " ولهذا السبب فهم نوع من خلفاء السحرة فى العهود البائدة ، لأن عملهم يعتبر نوعًا من(القداسة) التى تتجلى فى (الدعاء) إلى أحد أبناء الأئمة الاثنى عشر أو ضريحه أو معبده ، ولهذا السبب فإنه عندما تطأ قدم الطبيب قرية ما فإن مسألة السحر والشعوذة والعلاج القائم على الوصفات البلدية كل هذا ينتفى ويندثر ، وأيضا لا يجب أن نغفل عن ذكر هذه النقطة الأخرى أى أنه مع بداية تعرف المجتمع على تصنيع السلع وتسويقها والتى ستحل محل الصناعات العادية (وبالنسبة لنا منذ حوالى عام ١٣٤٥ ش/ ١٩٦٦م وما بعدها) فسيطغى عمل الفنيين والمهندسين على عمل الأطباء ، فى المجوعة الرابعة – أى فى المدار الثالث حول المركز – فإننى أضع المعلمين والكتاب والإداريين . وبالرغم من أننى يمكن أن أدرج المعلمين أيضا ضمن المجموعة الثانية لأن عملهم يشغل جانبا مهمًا فى جهاز التربية وجانب المصلحة عندهم يقترب من الصفر ولكن بسبب أن النشء يتعامل مع المعلم لعدة سنوات من عمره حيث لا ينتظر منه سوى القيام بالتعليم فى المرحلة الابتدائية فإن النصيب الأكبر فى تنشئة هذا النسل فى تلك السنوات الأولى من العمر يقع تحت مسؤلية الأسرة والبيئة والحارة والراديو والتليفزيون . ولهذين السببين أضع المعلمين أيضا فى رديف الكتاب فى المجموعة الرابعة إلا أننى على الفور أزيد

(١) أيضا سياسة الصحة لحكوماتنا حيث تضع الأمور الخاصة لصحة الناس فى يد العيادات الخاصة مع اشتراك مجموعة من الأطباء بهدف المنفعة مستشفى مهر – عيادة طهران – مستشفى بارس – ميثاقية ... الخ .

بأن ليس قصدى " الكتاب " تلك الفئة الحديثة من سليلات الصون والعفاف الجميلات العائدات من بلاد الغرب واللاتى تزدان بهن غرف انتظار رؤساء شركات البترول وأجهزة التخطيط وسائر المؤسسات الأخرى . فهؤلاء السيدات المتفرنجات اللاتى نشأن من الأسر الأرستقراطية المضمحلة أو من الطبقة البرجوازية الحديثة اللاتى يعشن لفترة من الوقت فى الدول الغربية أو فى أمريكا على نفقات المنح الدراسية الخاصة أو الحكومية ودرسوا الاختزال وتعلموا لغه أو لغتين أجنبيتين والآن تقمن بلعب دور المترجم (أو لوحات جدار) وهؤلاء السادة لا يمكن إدراجهن فى أى مجال من مجالات التنوير . إنما هدفى من " الكتاب " هو ذلك الصف العريض من الكتاب الإداريين الذين تلقوا قدرا ضئيلا من التعليم سواء كانوا من السيدات أو من الرجال الذين يقومون بتدوين المعلومات أو كتابة " دفتر الصادر والوارد " ، حتى مدير والمكاتب والمعانون فى إدارة ما و ... إلخ ، وعلينا أن ناخذ فى الاعتبار أن أبعد فرقة عن مركز الدائرة التنويرية هى تلك المجموعة الرابعة وعلى الرغم من أن أغلبها من موظفى الدولة .

علاوة على سائر موظفى الخدمات العامة فإنه يقع عليهم أكثر من غيرهم خطر الابتعاد عن دائرة التنوير لأن بين هذه المجموعة أشخاص لم يتموا الدراسة الثانوية . إلا أن التجربه العملية و الهمة و القدرة على إنجاز العمل والمدوامة على التعلم و ربما خبرة دينية و قليلا من القواعد و التجارب التى اكتسبوها فى سنوات شبابهم تمنح هذه المجموعة العظيمة مؤهلات بحيث يمكن ذكرهم باعتبارهم أفضل بيئة مهنية لإعداد المستنير . البيئة التى تعد فى الغالب كنوع من منتهى الآمال لجماعة الدارسين فى المدارس الثانوية . فمن الواضح أن فى هذه المجموعة الرابعة أيضا قيمة المعلمين كبيرة جدا من حيث احتمال وجود التنوير فى المستقبل . حتى من أجل الكتاب الإداريين الذين يقومون فقط بضبط وتدوين الأحداث و القوانين و الثقافة و الإحصائيات و الآراء .

فى المجموعة الخامسة – أى فى المدار الرابع حول مركز التنوير ، نضع القصاصين والكتاب ومنفذى برامج الراديو والتليفزيون وأغلب الناشرين والمحررين والمراسلين الصحفيين . أى كل الأشخاص الذين هم من ناحية ، ناشرو الأخبار و من

ناحية أخرى ، مروجو العلم والثقافة والأعمال والآراء . أو فى الحقيقة هم وسطاء بين صناع المجموعة المركزية والمدار الأول (مبدعى الآراء و الأعمال والثقافة والعلم) وعامة الشعب . وعلينا أن ناخذ فى اعتبارنا أنه بسبب أن الهدف الأول من عمل هذه المجموعة هو الفائدة فإنهم دائماً عرضة لخطر التحول إلى مطبلين للسلطات باعتبارهم لسان حال الحكومة .

فى عمل هذه المجموعة من المستنيرين ، التى يكون "الكلام " هو أداه عملهم كلها ولا يوجد فى عملهم شىء من الإبداع أو أنه ضئيل جدا فى عملهم، ليس هذا فحسب بل إن عمل أغلبهم أو القسم الأعظم منهم هو تزييف الحقيقة. لأنهم يعملون فى جو من "الرقابة على المطبوعات " وبالطبع و بصرف النظر عن هذا فإن محركهم الأول هو المصلحة المادية والحالية وتسويق أعمالهم طلبا للشهرة . حقيقة إن الأقلية القليلة جدا من هذه المجموعة أيضا تخطو نحو دائرة التنوير و بشكل نادر، إلا أنه على أيه حال يمكن أن نجد ناشرا أو مراسلا صحفيا ما قد يحصل على الحد الأقصى من التنوير . وحقيقة أنه حتى فى عمل هذه المجموعة أحيانا ما يكون لها قدرة على الابتكار أو تكوين أعمالا لتوعية الناس ، لكن سواء ذلك الابتكار أو تلك التوعية فما هما إلا نتائج فرعية مترتبة على أعمالهم . وعلاوه على تلك الأعمال الكثيرة المترتبة على أعمال الكتاب الأصليين لبرامج الراديو و التليفزيون الذين يظلون دائما خلف الستار أو على عمل الكتاب الذين يعملون دائما خلف الستار أو على عمل الكتاب الذين يعملون دون إظهار أسمائهم أو إمضاءاتهم أو تحت اسم مستعار . وعلى أية حال فإن الفضل هنا لا يعود إلى عمل المنفذين والناشرين والمبدعين – على الجانب الآخر لهذه المجموعة – فإن كتاب الصحافة والمراسلين هم أصحاب الحرف التى تتأثر بالتنوير أكثر من غيرها . لأن التدقيق ضرورى لعملهم – سواء من أجل المطبوعات أو من أجل الراديو والتليفزيون وإن لم يقع فضولهم الحرفى تحت طائلة الرقابة وإشراف المديرين المسئولين فلن يبقى حرمة لأحد ولا يكون هناك خطر من الاقتراب لمسألة ما . وعلى هذا فإن عصر التنوير بتعبير آخر هو عصر هتك الحرمات العتيقة وعصر التدقيق على كل مقولة وعصر هدم كل ملاذ فكرى ومادى يهدف إلى إرهاب الناس وفرض الظلم والضغوط عليهم .

الفصل الثالث

إحصاء تخميني عن أصحاب الأعمال التنويرية في إيران

في نهاية الفصل السابق قمنا بوضع حدود وأطر من أجل تصنيف أصحاب الأعمال التنويرية في إيران. ورأينا أنه لم يكن من المناسب أن نقدم إحصاءً مختصراً عن عدد أصحاب الأعمال التنويرية. وبالرغم من أنه لم يكن لدينا إحصاء دقيق عن هذا النوع فإنه عن طريق إحصائيات عام ١٣٤٥ وعن طريق بحث أو بحثين في شأن خريجي إيران الجامعيين (سواء من داخل إيران أو من خارجها) وأيضًا عن طريق إحصاء شئون الطلاب بالجامعة وعن طريق المجلس الأعلى للثقافة - إلى أن وصلنا إلى أعدادهم. وإذا كنت قد أوردت هذا الفصل في شكل ملحق بسبب أنه لم يكن أي من هذه الأعداد والإحصائيات التي تم نقلها صحيحة مائة في المائة ولأنه كان بها شيء من الافتراض والتخمين فكان من الأفضل أن أوردها في شكل ملحق. ومن هنا كانت هذه المعلومات بشيء من الاجتهاد والتخمين ولم أقم باستكمالها وأتمنى أن يأتي آخرون لاستكمالها.

ولأن لدينا الآن إحصاء دقيق عن الطلاب الجامعيين، سوف أقوم بعرض جدولين أحدهما نقلاً عن الإحصاء الرسمي عن العام الدراسي ٤٢ - ٤٣ والآخر نقلاً عن "تاريخ فرهنك إيران" بقلم الدكتور عيسى صديق.

جدول ١ - إحصاء طلاب جامعة طهران سنة ١٣٤٢ - ٤٣ وخريجى الجامعة فى نفس العام (إحصاء جامعى رسمى)

العدد		تعداد الطلاب			تعداد الطلاب				إحصاء للطلاب خريجى الجامعة		
		بنات	بنين	المجموع	بنات	بنين	المجموع	مجموع كلى بالطلاب	بنات	بنين	المجموع
١	طب الأسنان	٧٣	٢٦٧	٣٤٠	–	–	–	٣٤٠	٥٧	١٠	٦٧
٢	الصيدلة	١٢٥	٢٦٦	٣١٩	–	–	–	٣٩١	٥٨	١٦	٧٤
٣	الكليات الفنية	٩	٨٣٧	٨٤٦	–	–	–	٨٤٦	١٨٤	٣	١٨٧
٤	طب بيطرى	٣٥	٢١٧	٢٥٢	–	–	–	٢٥٢	–	–	–
٥	حقوق	١٥٠	١٦١٦	١٧٦٦	٦	٣٣٩	٣٩٩	٢١٦٥	٢٥٣	٢١	٢٧٤
٦	فنون جميلة	٧٩	٤٨٥	٥٦٤	–	–	–	٥٦٤	٥٦	٨	٦٤
٧	الطب	٢٦٩	١٨٤٨	٢١١٧	٦٥	٢١	٨٦	٢٢٠٣	٥٩	٤	٦٣
٨	الزراعة	١٧	٤٦٦	٤٨٣	–	–	–	٤٨٣	١٣٨	٤	١٤٢
٩	الآداب	٧٣٠	١٠٢٨	١٧٥٨	٦٨٥	١٨٩٣	٢٥٧٨	٤٣٣٦	٣٤١	٢١٤	٥٥٥
١٠	المعقول والمنقول	١	٤٤٠	٤٤١	–	٣٥٧	٣٥٧	٧٦٨	٢٧٢	–	٢٧٢
١١	العلوم	٨٥	١١٣٦	١٣١١	٣٨	٣٣٨	٣٧٦	١٦٧٨	٢٢٦	٧٢	٢٣٨
١٢	المجموع	١٦٧٣	٨٥٩٦	١٠٢٦٩	٨٤٨	٢٩٤٨		١٤٠٦٥	١٦٨٤	٣٥٢	١٩٣٧

جدول ٢ – كل الجامعة والتعليم العالي – في الداخل والخارج

عن العام الدراسي ١٩٤١-٤٢						
	١ – في الداخل				المجموع	(١) في الخارج
جامعة طهران	٢٤٦٠	امرأة	١١٢٠٧	رجل	١٣٦٦٧	في ألمانيا والنمسا ٧٣٦٣
الجامعة القومية	٢٤٧	امرأة	٩٢٩	رجل	١١٧٦	في أمريكا ٤٦٧٧
جامعة تبريز	٣٥٣	امرأة	١٧٣٥	رجل	٢٠٨٨	في إنجلترا ٢٦٨٨
جامعة شيراز	٣٧١	امرأة	١٣٤٥	رجل	١٧١٦	في فرنسا ٦٧٩
جامعة أصفهان	١٩٥	امرأة	١٢٥٤	رجل	١٤٤٩	سويسرا وإيطاليا وبلجيكا ٧٣٠
جامعة مشهد	١٧٩	امرأة	٩٥٤	رجل	١٠٨٤	المجموع ١٦٠٣٧
جامعة أهواز	٣٢	امرأة	٣٥٢	رجل	٣٨٤	
دار المعلمين العليا	٢٨٣	امرأة	١٤٢٧	رجل	١٧١٠	
المعهد الحرفي	١	امرأة	٢٣٣	رجل	٢٣٤	
دار المعلمين العليا الصناعية	–	امرأة	٩٦	رجل	٩٦	
كلية الصناعة	١٣	امرأة	٥٦٣	رجل	٥٧٦	
مدرسة التجارة العليا	٥٩	امرأة	١٠٦	رجل	١٦٥	
المعهد العالي للنفط	–	امرأة	١٦٢	رجل	١٦٢	
المعهد العالي للبريد	–	امرأة	٣٢	رجل	٣٢	
المعهد العالي للموسيقى والرسم	١٦٧	امرأة	١٩٤	رجل	٣٦١	
المجموع	٤٣٦٠	امرأة	٢١٤٠٩	رجل	المجموع الكلي ٢٥٧٦٩ في المدارس العليا في الداخل بإضافة ١٦٠٣٧ في المدارس العليا في الخارج	

مجموع الطلاب الإيرانيين فى الداخل والخارج ٤١٨٠٦ (عن العام الدراسى ١٣٤١ - ٤٢) .

نقل هذا الجدول عن صفحة ٤٩٩ من كتاب (تاريخ فرهنك إيران) بقلم د. عيسى صديق - طبعة طهران ١٣٤٢ .

وقد قامت إدارة العلاقات العامة بوزارة الثقافة بحصر كل الطلاب الإيرانيين المقيمين بالخارج فى السنة التالية أى ١٣٤٢ - ٤٣ ولم تقل كثيراً عن الإحصائية السابقة، أى ١٧٣٧٨ فرد - ولكننا نكتفى (بجدول ٢) للدكتور صديق الخاص بهذا الإحصاء الشامل لتعداد المعلمين والطلاب فى المدارس حتى الجامعة وتقوم هذه الإدارة بوضع تعداد دقيق عن الطلاب الإيرانيين فى مختلف ممالك إيران على هذا الشق:

جدول ٣ - إحصاء بالطلاب الإيرانيين فى الخارج

عن العام ١٣٤٢-٤٣

طلاب إيران فى أمريكا	٥٧٦٠ فـرداً
طلاب إيران فى ألمانيا	٤٧٤٦ فـرداً
طلاب إيران فى إنجلترا	٢٩١٢ فـرداً
طلاب إيران فى	١١٥٢ فـرداً
طلاب إيران فى فرنسا	١١٦٤ فـرداً
طلاب إيران فى إيطاليا	٤٣٠ فـرداً
طلاب إيران فى سويسرا	٤٣١ فـرداً
طلاب إيران فى لبنان	١٦٠ فـرداً
طلاب إيران فى بلجيكا	١٠١ فـرداً
طلاب إيران فى العراق	٦٠ فـرداً
طلاب إيران فى الهند	٣٥ فـرداً
طلاب إيران فى هولندا	٣٣ فـرداً
طلاب إيران فى باكستان	٢٨ فـرداً
طلاب إيران فى اليابان	١٤ فـرداً
طلاب إيران فى أفغانستان	٩ فـرداً
طلاب إيران فى إسرائيل	٧ فـرداً
فى كل من السويد وأندونيسيا	٣ أفراد
فى كل من الدنمارك واليونان	٢ فرد

المجموع الكلى للطلاب الإيرانيين بالخارج ١٧٣٧٨ فرد

والآن اسمحوا لى أن أعقد مقارنة ، للإحصائية السابقة عن الطلاب الإيرانيين فى الدخل والخارج نقلاً عن إحصاء السنوات السابقة :

جدول ٤ – إحصاء الطلاب الإيرانيين فى الجامعات فى الداخل والخارج

العام الدراسى	أى جامعة ؟	أولاد	بنات	المجموع	نسبة الزيادة السنوية
عام ٨-١٣٣٧	جامعة طهران	٩٠٧٨	٢٠٨٧	١١١٦٥	٪ ١٦
عام ٨-١٣٣٧	الجامعات الإقليمية	٢٧٤٨	٥٢٦	٣٢٧٤	٪٦,٨
عام ٨-١٣٣٧	الجامعات الخارجية	–	–	١١٧٤٢	٪ ٦٦
عام ٩-١٣٣٧	جامعة طهران	١١٤٩٧	٢٠٥٤	١٣٥٥١	٪ ٢٠
	الجامعات الإقليمية	٣٧٧٤	٨٤٦	٤٦٢٠	٪ ٤
	الجامعات الخارجية	–	–	١٤٤١٢	٪ ٢٥
					المجموع ٣٢٥٨٣

والنقطة أو النقطتان الفرعيتان المترتبتان على جدول (٤) تشير إلى أنه بالرغم من أن نسبة تزايد الطلاب فى جامعات طهران وسائر الولايات على مدار العام ما بين ٤٪ إلى ٢٠٪ فإنه فى نفس الوقت نسبة الطلاب الذين يدرسون بالخارج تصل فيما بين ٢٥٪ إلى ٦٦٪ بمعنى أنه كلما قلت نسبة التعليم داخل إيران تزايدت فى الخارج.

هذا بالرغم من أننا توسعنا فى إنشاء الجامعات داخل إيران بحيث إنه فى العام الدراسى ١٣٤٧ وصلت تعداد الطلاب إلى حوالى ٥٠ ألف طالب. وأتمنى أن تتحول هذه النسبة إلى العكس – فإنه لو نظرنا إلى هذا النوع من الجامعات فى إيران نجد أن أغلبها لم يكن سوى واحد من النوادى التنويرية التى ورد ذكرها فى نهاية هذا المكتوب.

والنقطة الأخرى أنه للبحث عن نوعية الدراسات التى يتلقاها الطلاب فى الخارج، فقد قمت بمراجعة بحث لـ "جورج بالدرين" الأمريكى فى ١٩٦٠ [١]. وقد جمعه عن طريق استجواب ٤١٤ طالب إيرانى خريج الجامعات الأجنبية وعن طريق استماراتهم الرسمية:

(١) The foreign Educated Iranians. By G.B. Baldwin. In middle East Journal - summer 1963 - pp. 1204 - 78.

١٣٣	فرداً	فى الطب وتوابعة	٨٠	فرداً	فى الهندسة وتوابعها
٤٦	فرداً	فى الحقوق	٤٤	فرداً	فى العلوم الاجتماعية
٤٠	فرداً	فى الزراعة	٣١	فرداً	فى العلوم الطبيعية
١٧	فرداً	فى الإدارة	٩	فرداً	فى التعليم والتربية
١٤	فرداً	فى الفنون المختلفة	١٥	فرداً	فى تخصصات مختلفة

المجموع الكلى ٤٢٩ فردا

كما قمت بمراجعة نتيجة البحث الذى قام به دكتور مرتضى نصفت [١] (بمساعدة اليونسكو ووزارة الثقافة) فى عام ١٣٤٤ .

أى عن طريق الاستمارات الرسمية، وقد أظهرت أن ١١٥٥ طالب إيرانى قاموا بتحصيل علومهم بالخارج، والآن عادوا إلى المملكة وكل واحد منهم يشغل منصباً وكذلك عن طريق استجوابهم، وتحقيق مرتضى نصفت جزء من تحقيق شامل قامت به اليونسكو عن ثلاث دول هى إيران ومصر والهند. وتوزيع الفروع العلمية (والتخصصات) للطلاب كالتالى:

٣٩٠	فرداً	فى الطب وتوابعة	١٩٧	فرداً	فى الهندسة والفنيات وتوابعها
١٥٥	فرداً	فى العلوم	١٥٤	فرداً	فى الحقوق
٧٠	فرداً	فى الزراعة	٦٩	فرداً	فى العلوم الإنسانية
٤٠	فرداً	فى الفلسفة والآداب	١٧	فرداً	فى الفنون المختلفة
٥	فرداً	فى الخدمات الاجتماعية	٥٨	فرداً	فى تخصصات أخرى

المجموع الكلى ١١٥٥ فرداً

(١) عن النسخة الخطية. بعد إذن سيادته.

والمثير للانتباه أنه فى كلا التحقيقين وجد أن توزيع التخصصات جاء على هذا النمط: أولاً الطب - ثم الفنيات والهندسة والعلوم ثم الزراعة - ثم الحقوق - ثم العلوم الإنسانية ثم التربية والخدمات الاجتماعية والفنون... إلخ.

وإن كان هذا يشير هذا إلى أن نسبة تحصيل الطلاب الإيرانيين فى الخارج فى مجال العلوم الإنسانية تقل تدريجيا.

جدول ٥ - إحصاء مديرية التعليم فى إيران سنة ١٣٤٢

أصحاب المكتبات	١٥٦	امرأة	٢١٤	رجلاً	٣٧٠
معلم أطفال	٥٠٢	امرأة	١٠٤	رجلاً	٦٠٦
معلم ابتدائى	١٨٧٥٠	امرأة	٣٧٧٢٩	رجلاً	٥٦٤٧٩
مدرس ثانوى	٣٣٦١	امرأة	١١٢٠٣	رجلاً	١٤٥٦٤
فى العلوم الدينية	-	امرأة	٤٠٤	رجلاً	٤٠٤
فى المعاهد العليا والتربية	٢٢٩	امرأة	١١٨٥	رجلاً	١٤١٤
أستاذ وأستاذ مساعد	١٥٦	امرأة	١٧٠٨	رجلاً	١٩٢٤
فى المدارس العسكرية العليا	-	امرأة	٦٢٩٨	رجلاً	٦٢٩٨
المجموع الكلى	٢٣١٥٤	امرأة	٥٨٩٤٥	رجلاً	٨٢٠٩٩

جدول ٦ - إحصاء مهندسى إيران حتى عام ١٣٤٤
نقلاً عن إحصاء قانون المهندسين (من صديقى مهندس زاوش)

١ -	مهندس زراعى (خريج كلية الزراعة)	فى حدود	٣٠٠٠	فرداً
٢ -	مهندس فنى (من كلية فنية)	فى حدود	٢٠٠٠	فرداً
٣ -	مهندس معمارى	فى حدود	٢٠٠	فرداً
٤ -	بقية أنواع المهندسين	فى حدود	١٨٠٠	فرداً
	مجموعهم	فى حدود	٧٠٠٠	فرداً

جدول ٧ – إحصاء هيئة القضاء في إيران في سنة ١٣٤٤
نقلاً عن دكتور ناصر وثوقي – القاضي

١ –	قضاة الدولة في عام	١٣٤٠	١٥٦٨	قاضي عامل	٣٤٥	قاضي منتظر الخدمة
٢ –	قضاة الدولة في عام	١٣٤٤	١٨٠١	قاضي عامل	١٨١	قاضي منتظر الخدمة
						المجموع ١٩٨٢ فرداً

٢ –	وكلاء النيابة	وكلاء درجة أولى وثانية في طهران	٦٠٠	فرداً
		وكلاء درجة أولى وثانية في آذربيجان	١١٤	فرداً
		وكلاء درجة أولى وثانية في فارس	١٠٤	فرداً
		الولايات الأخرى	٤٦٠	فرداً
		وكلاء لم يرد اسمهم في الفهارس	٤٦٠	فرداً
			المجموع ١٤٠٠ فرداً	

٣ –	الإحصاء التخميني للمحضرين وموظفي الدرجة الثانية للقضاء	٦٠٠	فرداً
		المجموع الكلي لهيئة القضاء ٦٣٨٢ فرداً	

جدول ٨ – إحصاء وزارة الصحة في آخر عام ١٣٤٣
منقولاً عن الإدارة العامة للإحصاء بوزارة الصحة
تحت إشراف دكتور أدهم والدكتور عسكري

كل الأطباء في القطاع العام والخاص	٧٠٩٠	فرداً
أطباء الأسنان	١٢٩١	فرداً
الصيادلة	٢٢٨٢	فرداً
الأطباء البيطريون	٧٥	فرداً
القابلات	١١٣٨	فرداً
الممرضات	١١٤٧	فرداً
المجموع الكلي	١٣٠٢٣	فرداً

وكل واحد منهم نادرًا ما يكون حاصلاً على مؤهل عالٍ فقط، ولكن أكثرهم قام بدراسات عليا منهم مثلاً ٦٨٧ فرد متخصص حاصل على مؤهلات أعلى من الليسانس والدكتوراه من الجامعات داخل إيران و٨٧٥ من الجامعات خارج إيران وعلى سبيل المثال :

ففى مجال الجراحة العامة يوجد ٢٣٤ فردًا من الجامعات داخل إيران و١١٠ فردًا من الجامعات خارج إيران.

فى مجال جراحة النساء والتوليد يوجد ٣١ فردًا من الجامعات داخل إيران و٢٧٤ فردًا من الجامعات خارج إيران.

فى مجال الأنف والأذن والعين يوجد ٦٠ فرد من خريجى الجامعات الداخلية فى إيران و٨ فرد من الجامعات خارج إيران... إلخ .

جدول ٩- إحصاء تقريبى لأصحاب الأعمال الدينية فى عام ١٣٤٤

نقلا عن السيد سيد رضا صدر – أحد علماء حوزة قم

طلاب العلوم الدينية فى الحوزات المختلفة (قم – مشهد – شيراز – طهران... إلخ).

الأساتذة والشيوخ فى المدن	٨٠٠٠	فردًا
شيوخ قرى المدينة	٢٥٠٠	فردًا
قراء الروضة	٣٠٠٠	فردًا
الوعاظ	٥٠٠	فردًا
المجموع الكلي	١٦٥٠٠	فردًا

جدول ١٠ – إحصاء تقريبى لجميع أصحاب الأعمال التنويرية فى عام ١٣٤٤

الطلاب فى المدن الجامعة	٤٢٠٠٠ فردا
فى المؤسسات التعليمية (من المدرس حتى الأستاذ)	٨٢٠٠٠ فردا
فى الخدمات الفنية والهندسية	٧٠٠٠ فردا
فى سلك القضاء والعدل	٦٤٠٠ فردا
فى مجال الصحة والرعاية	١٣٠٠٠ فردا
فى مجال الجيش والأمن	١٥٠٠٠ فردا
المجموع الكلى	١٦٥٤٠٠ فردا

وعليكم ملاحظة أن هذا الجدول ينقصه الكثير، على سبيل المثال فى مجال الإدارة والبنوك والتجارة وكذلك عن وسائل الحصول على الأخبار والمعلومات (مطبوعات – راديو – تليفزيون... إلخ)، كما أنه لا يوجد لدينا أى أعداد تخمينية عن الفنون والعلوم المختلفة. ولاستكمال الجدول يجب أن تطلعوا على مجلد "١٦٨ الخاص لكل الدولة" عن الإحصاء السكانى [١]، وإليكم إحصاء كامل لأصحاب الأعمال التنويرية.

(١) صفحات ج، ج، ح، ٧٤، ٧٥، ٨١، ٨٢، ٨٨، ٨٩ .

جدول ١١ - إحصاء الأعمال التنويرية فى إيران
طبقًا لإحصاء آبان ١٣٤٥ هـ.ش نوفمبر ١٩٦٦م

نوع العمل	تعداد النساء	تعداد الرجال	مجموع الرجال والنساء
أ. مجموع علماء الفيزياء والأعمال المرتبطة بها	٢٠	٣٦٦	٦٨٦ فردًا
علماء الكيمياء	٣	٢٩	٣٢ فردًا
علماء الفيزياء	٢	١٩	٢١ فردًا
علماء الفيزياء خارج الطبقة السابقة	١٤	٢٦٤	٢٧٨ فردًا
الفنيين فى علوم الفيزياء	١	٥٤	٥٥ فردًا
ب. مجموع المهندسين المعماريين والمهندسين بصفة عامة وأصحاب الأعمال التابعة لهم	٤٤٣	١٢٨٤٨	١٣٢٩١ فردًا
المهندسون المعماريون والمدنيون	٣	٢١٧	٢٢٠ فردًا
مهندسو الطرق والإنشاء	٢٦	٢٤٠٩	٢٤٣٥ فردًا
المهندسون الكهربائيون	٩	٩٠٤	٩١٣ فردًا
المهندسون الميكانيكيون	٩	٥٨٧	٥٩٦ فردًا
المهندسون الكيميائيون	٣٦	٥٤١	٥٧٧ فردًا
المهندسون فى مجال استخراج الفلزات وصهرها	١	٣٥	٣٦ فردًا
مهندسو المعادن	٣	٢٥١	٢٥٤ فردًا
مهندسو المصانع	–	٤٤	٤٤ فردًا
المهندسون خارج الفئات السابقة	٢٢٢	١٥٩٤	١٦١٦ فردًا
مهندسو المساحة	٩٢	٢٠١٣	٢١٠٥ فردًا
مصممو المشروعات	١٨٠	١٥٠٣	١٦٨٣ فردًا
الفنيون التابعون لمهندسى الطرق والإنشاء	٦	٨٢٩	٨٣٥ فردًا
الفنيون التابعون لمهندسى الكهرباء	٤	٤٤٣	٤٤٧ فردًا
الفنيون التابعون لمهندسى الميكانيكا	١٣	٣٧٥	٣٨٨ فردًا
الفنيون التابعون لمهندسى الكيمياء	١٦	٩٩	١١٥ فردًا
الفنيون التابعون لمهندسى التعدين	–	١٠	١٠ فردًا

الفنيون التابعون لمهندسي المعادن	–	٤١	٤١ فرداً
الفنيون التابعون لمهندس ولا يمتون للطبقات السابقة	٢٣	٩٥٣	٩٧٢ فرداً
ج. جميع الفنيين التابعين للطيران والملاحة	٣	٥٧٥	٥٧٨ فرداً
الطيارون والضباط البحريون ومهندسو الطيران	٢	٤٢٤	٤٢٦ فرداً
فنيو الملاحة والمرشدون	–	١٢٦	١٢٦ فرداً
مهندسو الملاحة	١	٢٥	٢٦ فرداً
د. مجموع علماء علم الأحياء والفنيين التابعين لهم	٧٦	٤٦٩	٥٤٥ فرداً
علماء الأحياء – علماء الحيوان والتابعون لهم	٦	٢٠	٢٦ فرداً
علماء الميكروبات وعلماء الصيدلة والتابعون لهم	٧	٦٩٥	٣٠٢ فرداً
فنى علوم الأحياء	٤	٢٣	٢٧ فرداً
هـ. مجموع الأطباء وأطباء الأسنان أطباء الأمراض والتمريض والأعمال التابعة لهم	١١٢٤٣	٢٢٠٤٧	٣٤٢٩٠ فرداً
الأطباء	٧٧١	٦٢١٠	٦٩٨١ فرداً
أطباء الأسنان	٩١	٧٦٩	٨٦٠ فرداً
الأطباء البيطريون	١٠	٣٥١	٣٦١ فرداً
المرضون	١٧٧٨	١٩١	١٩٦٩ فرداً
ممرضون لا ينتمون لأى من الفئات السابقة	٥٢٦٠	٣٦٥١	٨٩١١ فرداً
قابلة التوليد	١٢٦٩	٢٤	١٣٩٣ فرداً
فنى البصريات	٤	٥٠	٥٤ فرداً
متخصصو نظم غذائية	٦	١٢	١٨ فرداً
الصيادلة وبائعو الأدوية	١٨٩	١٨٣١	٣٠٢٠ فرداً
فنى الأشعة	١٥٨	٢٦١	٤١٩ فرداً
الفيزيائيون والتابعون لهم	١٣	٢١	٣٤ فرداً
مساعدو الأطباء وأطباء الأسنان والبيطريون	١٣٠١	٨٤٨٥	٩٧٨٦ فرداً

أصحاب الأعمال التابعة للطب ... إلخ	٢٩٣	١١٩٠	١٤٨٣ فرداً
و. مجموع الإحصائيين – علماء الرياضة – المحللون والأعمال التابعة لهم	٤٥	٢٨٦	٣٣١ فرداً
خبراء الأحصاء	٢	٣٤	٣٦ فرداً
علماء الرياضيات والإحصاء	٢١	٩٨	١١٩ فرداً
محللو المناهج	١	٢٨	٢٩ فرداً
فنيو الرياضة والإحصاء	٢١	١٢٦	١٤٧ فرداً
ز. علماء الاقتصاد	١١	٩١	١٠٢ فرداً
المحاسبون (١)	٢٦٢	٧٥٥٣	٧٨١٥ فرداً
ط. مجموع الحقوقيين	٢٩	٤٩٢٤	٤٩٥٣ فرداً
وكلاء النيابة	٩	١٣٣٤	١٣٤٣ فرداً
القضاة	٨	١٥٣١	١٥٣٩ فرداً
.... (٢)	—	٢٠٣٥	٢٠٤٧ فرداً
حقوقيون تابعون	٢٩	٢٠٣٥	٢٠٤٧ فرداً
ك. مجموع المعلمين	٣٨٢٩٤	٧٤٦٣٣	١١٢٩٢٧ فرداً
أساتذة الجامعة والمدارس العليا	٢٤٦	٢٠٤٧	٢٢٩٣ فرداً
مدرسو المدارس المتوسطة	٤٧٨١	١٢٧٤٠	١٨٥٢١ فرداً
مدرسو المدارس الابتدائية	٣١٢٤٠	٥٤٤١٩	٨٥٦٥٩ فرداً
مدرسو الحضانة	٢٤٨	٣٢	٢٨٠ فرداً
المعلمون الخصوصيون	١٧٦	٣٢٩	٥٠٥ فرداً
معلمون لم يرتبطوا بأى طبقة	١٦٠٣	٤٠٦٦	٥٦٦٩ فرداً
ل. مجموع العاملين بالشئون الدينية	١٤٧	١٢٣٠٨	١٢٤٥٥ فرداً
رجال الدين والأعضاء التابعون للشئون الدينية	٢٣	٥٠٠٢	٥٠٢٥ فرداً
العاملون بالشئون الدينية ولا ينتمون لأية طبقة	١٢٤	٧٣٠٦	٧٢٣٠ فرداً

م. مجموع المؤلفين والصحفيين والكتاب	٨٥	٨٠٩	٨٩٤ فرداً
المؤلفون والنقاد	٥٠	١٣٠	١٨٠ فرداً
الصحفيون الذين لا ينتمون لأى طبقة	٣٥	٦٧٩	٧١٤ فرداً
ن. مجموع الممثلين والرسامين والمصورين والفنانين	٧٢٩	٥٠٧٥	٥٨٠٤ فرداً
المثالون والرسامون والفنانون	٢٣	١٢٩٤	١٣١٧ فرداً
الفنانون ومهندسو الرسم الذين ترتبط أعمالهم بالأمور التجارية	٦٦٦	١٠٦٤	١٧٣٠ فرداً
المصورون والفنانون التابعون	٤٠	٢٧١٧	٢٧٥٧ فرداً
س. جميع الملحنين والفنانين الذين يتقاضون أجرا	٢٦٧	٣٨٦٣	٤١٣٠ فرداً
الملحنون والمطربون	٨٥	٣٣٢٧	٣٥١٢ فرداً
مدربو الرقصات والأغانى الجماعية	٣٢	٢٤	٥٦ فرداً
الممثلون وقائدو الأعمال الفنية	٥٦	٢٠٢	٢٥٨ فرداً
موزعو الموسيقى ومنفذو الأعمال الفنية	٥	٩٢	٩٧ فرداً
لاعبو السيرك	١٧	٢٧	٤٤ فرداً
الكومبارس الذين لا ينتمون لأى فرقة (سائر الفنانين)	٧٢	١٩١	٢٦٣ فرداً
ع. جميع الأعمال الحرفية والفنية الذين لم ترتبطوا بطبقة ما	٤٣٦	٣٢٠٧	٣٦٤٣ فرداً
أمناء المكتبات وموظفو الأرشيف ومشرفو المتاحف	١١٥	١١٩	٣١٤ فرداً
علماء الاجتماع	٤	٣٣	٣٧ فرداً

(١) هذا الفهرس الخاص بالأشخاص أصحاب المشاغل التنويرية الذين ترتبط أعمالهم بالعلوم أو بالعلوم الدقيقة، بعد هذا الفهرس أشخاص ترتبط أعمالهم بالأعمال الإنسانية والفنون.

(٢) اسم هذه المجموعة خالى. ولكن الأعداد فى مقابلها وأنا أنقلها فقط.

الأخصائيون الاجتماعيون	١٨	٣١	٤٩ فرداً
المتخصصون فى الأمور .	٢	٥٧	٥٩ فرداً
اللغويون والمترجمون	٢٠٥	٨٥٤	١٠٥٩ فرداً
جميع الفنيين والحرفيين الذين لا ينتمون لأى طبقة	٩٢	٢٠٣٣	٢١٢٥ فرداً
ف. مجموع واضعى القوانين ومديرى أجهزة الدولة	١٤٢	١٨٣٨	١٩٨٠ فرداً
واضعو القوانين المقننون	٦	٢٢٣	٢٣٩ فرداً
مديرو الأجهزة الحكومية	١٣٦	١٦٠٥	١٧٤١ فرداً
ص . مجموع المديرين	٢٤٧	٩٧١٠	٩٩٥٧ فرداً
مديرو الأجهزة والمؤسسات غير الحكومية	٦٢	١٨٢٧	١٨٨٩ فرداً
مديرو التعمير والتنمية	١٩	٢١٣٧	٢١٥٦ فرداً
مديرو البيع والشئون التابعة	٩	٤١٤	٤٢٣ فرداً
مديرو الميزانية والحسابات والأعتمادات	١٢	١٤٣٩	١٤٥١ فرداً
مديرو العلاقات الصناعية وشئون التوظيف	١٢	٣٥٦	٣٦٨ فرداً
مديرو الشئون الإدارية	٣٠	٧٨١	٨١١ فرداً
مديرو المخازن والنقل والمواصلات	٥	٦٢٠	٦٢٥ فرداً
مديرون لم يرتبطوا بأى طبقة (سائر المديرين)	٩٨	٢١٢٦	٢٢٣٤ فرداً
ق. جميع مديرى الدواوين	٢٩١	٨٨٧٩	١٩٧٠ فرداً
ر. مجموع موظفى الدواوين والمستندات والمراسلات (١)	١٠٠٥٩	٨٧٥٨٩	٩٨١٤٨ فرداً
مجموع موظفى الحسابات	٢٠٥١	٦١٤٣٣	٦٣٤٨٤ فرداً
ت. مديرى النقل والعلاقات (٢)	١٦	٢٣٣٣	٢٣٤٩ فرداً
المجموع الكلي لأصحاب الأعمال التنويرية فى إيران	٦٥٣٩٦	٣٢١٨٣٦	٣٨٧٢٣٢ فرداً رجل وامرأة

(١) هذا الصف يشمل الكاتب السريع – كاتب الآلة – مطبعجى... إلخ
(٢) بعد هذا الصف الذى يشمل ٦ مجموعات – صف (العمال الذين يصلون بأنفسهم).

وعليكم أن تلاحظوا أن هذا الجدول ناقص. فمثلاً إحصاء أعداد موظفى البنوك والطلاب والمجندين والخدمات الأمنية لم يرد ذكرهم.

ومن أجل وضع إحصاء دقيق للطلاب يجب أن أقوم بمراجعة أجزاء أخرى عن نتائج إحصاء أبان ١٣٤٥ - ١٩٦٦م، والتى لم أتمكن من الحصول عليها. ومن أجل طرح إحصائية المجندين ومعرفة أعداد الضباط ليس أمامنا سوى الاقتناع بالعدد التقريبى (١٥٠٠٠) شخصًا - على أقل استكمال هذه اللائحة من قبل متخصصين أعلى همة منى .

وفى نهاية هذه الإحصائية ، إذا أردنا أن نقارن إيران بغيرها من الدول (بعد إضافة ٥٠ خمسين ألف طالب جامعى و ١٥ خمسة عشر ألف ضابط إلى المستنيرين الإيرانيين) يمكن القول إن إيران فى عام ١٩٦٦ م - ١٣٤٥ هـ ش ، كان عدد سكانها ٢٥ مليون نسمة ، ولدينا ٤٥٠ ألف مستنير ، مما يعنى أن النسبة المئوية هى ١,٥٥٪ فى حين أن فرنسا على سبيل المثال وكان مجموع سكانها عام ١٩٥٤ م كان عدد المستنيرين بها ١,٣ مليونًا (طبقا لما ورد فى كتاب لويس جودان صـ ١٣) ، أى أن نسبة المستنيرين فيها ٣٢,١٪ ، بينما كان عدد المستنيرين فى الاتحاد السوفيتى (السابق) الذى كان يضم ٢٠٠ مليون نسمة فى عام ١٩٥٦ م حوالى ١٥,٥ مليون نسمة بنسبة ١٣,١ ٪ ، والولايات المتحدة وعدد سكانها ١٨٠ مليون نسمة سنة ١٩٥٠ م كان عدد المستنيرين بها ٧,٣ مليون مستنيراً بنسبة تصل إلى ٢٤,١٪ .

ملحق

ظهور المستنيرين [١] :

أنطونيو جرامشى [٢]

هل يمكن اعتبار المستنيرين فئة مستقلة بذاتها أم أن لكل طبقة مستنيريها؟ سؤال يمكن اعتباره صعدًا بسبب أن ظهور جماعات المستنيرين طوال عهود التاريخ اتخذ أشكالاً وصيغًا مختلفة. وفيما يلى نشير إلى اثنين من أهم هذه الأشكال:

كلما ظهر مجتمع جديد وأخذ له صورة من الحياة فى تلك اللحظة يخلق معه عدداً من المستنيرين بصورة مباشرة وهذه الفئة أو تلك من المستنيرين هم الذين ينقلون الأفكار والآراء إلى قرنائهم فى المجتمع. سواء كان فى المجال الاقتصادى أو المجال السياسى: كأن يكون هناك مؤسسة رأسمالية بما تملكه من متخصصين فى مجالات التصنيع والثقافة والاقتصاد والسياسة وما إلى ذلك – ويجب أن نعرف أن رئيس المؤسسة يعتبر مربيًا [٣] لأنه يجب أن يكون على دراية واسعة بالأمور الثقافية الاجتماعية حتى يستطيع إدارة مؤسسته على الوجه الأمثل. بحيث تصبح لديه القدرة على التصرف فى مختلف الأمور وكذلك العمل خارج محدودية هذه المؤسسة ويكون له فاعليات فى إطار عملهم. وإضافة إلى ذلك فإنه يجب على الأقل أن يكون على دراية بطرق الإنتاج الاقتصادية الخاصة بمجال عمله كذلك يجب أن يتمتع بفنون القيادة

(١) Antonio Gramsci

(٢) كلمة "بيدايش" إذا وضعت مقابل كلمة (Formation) فإنها تكون غير دقيقة لأن كلمة "تشكيل" تؤدى المعنى أفضل . (المترجم)

(٣) كلمة بوروش يقابلها كلمة (Elaboration) السابقة . (المترجم)

ويعرف كيف يجذب العملاء إلى مؤسسته. وينطبق هذا الأمر أيضًا على جميع مديرى المؤسسات سواء كانت مؤسسات حكومية أو مؤسسات خاصة. لأنه يجب عليهم أن يقدموا أحسن الطرق حتى تكون لديهم القدرة على رفع مستوى العمل ويكون لهم القدرة على أن يوجهوا المستخدمين والعمال تجاه عملهم من حيث تحمل المسئولية والارتباط بالعمل وينطبق هذا الأمر على جميع المستنيرين الإداريين الذين يظهرون فى المجتمعات الجديدة ويكون لهم فاعليات لتحقيق متطلبات هذا المجتمع.

فنجد مثلاً ملوك الطوائف لهم القدرة على ترتيب الأمور وتنظيم الجيوش وقد ظهر هذا الأمر عندما انحسرت سلطة الإشراف على المجالات الفنية والعسكرية إلا أن مسألة ظهور المستنيرين فى العالم الرأسمالى هى مسألة يجب أن نبحث فيها على حدة ، وعلى هذا النسق فإنه قد يكون لفئة من الفلاحين دور فى الإنتاج إلا أنه لا يوجد بينهم مستنيرون بالرغم من أن هناك فئات أخرى قد تكون مستنيريهم من الفلاحين فمثلاً نجد بعض المستنيرين التقليديين من الفلاحين.

إلا أن كل طبقة اجتماعية "أصلية" تظهر فى مؤسسة اقتصادية قديمة أو تنبثق من نظام اقتصادى يرجع تاريخها إلى زمن بعيد – وهذه نفسها تعتبر إحدى جهات الرشد لتلك المؤسسة الاقتصادية القديمة – وهكذا وبالبحث فى التاريخ وحتى الآن نجد فئات تنويرية. وهؤلاء المستنيرون يوجدون بصفة مستمرة وعلى مدى التاريخ علاوة على أنها لا تنفصل عن المجتمع حتى فى أصعب الأوقات التى تتغير فيها الظروف الاجتماعية والسياسية. والمثال على هذه الفئة من المستنيرين باباوات الكنيسة الذين كانت تنحصر فى أيديهم معظم الأمور المهمة فى المجتمع مثل الاتجاهات الفكرية والمذهبية أى الفلسفة والعلم بالإضافة إلى التعليم، والأخلاق والعدالة، والخير والشر... ويمكن اعتبار مستنيرو الكنيسة على أنهم مرتبطون بشكل تلقائى بالأرستقراطية الإقطاعية ويحظون بامتيازات إقطاعية وتسهيلات " الحكومة " المرتبطة بالإقطاع ، ولم ينته هذا الاحتكار القروى من قبل رجال الدين دون صدام ودون حرمان الطبقات المستحقة . وعلى هذا النسق نجد أن المجموعات تنويرية كانت تعاونهم السلطة المركزية المستبدة وأيضًا كان للأشراف دخل فى ظهور بعض الفئات التنويرية وكذلك الموظفين الإداريين والعلماء والفلاسفة .... إلخ .

وبهذا الشكل فإن المستنيرين يعتبرون أنفسهم بكافة أشكالهم أنهم أصحاب القدرة والسلطة فى المجتمع وذلك عن طريق سيطرتهم المستمرة على مدى عصور التاريخ كما كانوا يعتبرون أنفسهم فئة مستقلة لها خصائص معينة فى كيفية توجيه الناس ومع هذا كله يجب أن نتذكر أنه إذا كان بابا وات الكنيسة يعتبرون أنفسهم هم الأقرب إلى المسيح والحواريين. كما يعتبر السناتور أنجلى [1] و السناتور بنى [2] أنهم أقرب إلى أرسطو وأفلاطون لأنه لا يمكن إنكار أنه كان لكل واحد وجهة نظر كما كان لأرسطو وأفلاطون وجهة نظر فلسفية (وكان أنجلى وبنى ممثلى الرأسمالية فى إيطاليا. فالأول كان شريكا كبيرا فى شركة "فيات" ، والثانى كان من أكبر الشركاء فى شركة "مونتى كاتينى" إذن ما المقياس الأعلى للفظ المستنير ؟ ألا يمكن أن يكون هناك معيار واحد للمسئولية الواقعة على هؤلاء المستنيرين. وأنا أظن أن معيار التميز يكمن فى عمل المستنير وليس فى مجموعة المؤسسات التابع لها.

وبهذه الطريقة لا يمكن القول أن جميع الناس مستنيرون. ولكن ليس لكل الناس دور فى المجتمع مثل دور مستنير واحد.

وعندما نفصل المستنير عن باقى المجتمع فى الواقع يكون هدفنا هو أن المجتمع يسير بطبيعته بدون وساطة هذا المستنير ومعنى هذا الكلام هو أنه إذا تحدثنا عن المستنير فإننا لا نستطيع أن نتحدث عن غيره لأنه لا يوجد غير المستنير فى المجتمع ولكن ليس هناك تناسب فيما بين الفاعليات الفكرية والفاعليات الجسمانية والعصبية. وعلى هذا النسق يكون لدينا درجات متفاوتة من الفاعليات الفكرية وليس هناك أى عمل بدنى دون أن يكون للفكر دخل فيه وعلى ذلك فإن مسألة إيجاد فئة من المستنيرين الجدد عبارة عن عملية تشجيع الفاعليات الفكرية التى يمتلكها إنسان ولكن بنسب متفاوتة.

(١) Angelli
(٢) Benni

والنموذج التقليدى والنموذج الحديث للمستنير هو ذلك الأديب والفيلسوف والممثل وبهذا الترتيب كل الناس تندرج تحت هذا البند. والصحفيون الذين يعملون فى مجال الأدب والنشر والثقافة يعتبرون أنفسهم أنهم هم المستنيرون فقط. وبهذا المبدأ الخطأ الذى كانت تعمل به الصحيفة الأسبوعية (Ordine) والتى أفسحت المجال للمستنيرين. إلا أن هذا المبدأ كان أبسط الدلائل لعدم توفيق هذه المجلة. فالمستنير يجب أن يكون صاحب علم وخبرة ويعرف كيفية التعامل مع المجتمع ويكون مؤثرًا فيه ولا يكون دوره الوعظ والنصح فقط إنما يجب عليه أن يكون إنسانًا يمارس كل الأدوار فى المجتمع.

وإحدى السمات المهمة لهذه الفئة التنويرية هو استخدامها أسلوب النضال من أجل فرض السيطرة عن طريق تسخير أهداف المستنيرين القدامى وكلما كانت هذه الفئة أسرع فى تحقيق هدفها تكون لها قدرة أسرع على جذب الأنظار كما أن المدرسة وسيلة لصنع المستنير ولكن بدرجات مختلفة والاختلافات والصعوبات التخصصية التنويرية نجدها واضحة فى بلاد كثيرة نتيجة تواجد عدد من المدارس المتخصصة لهذه الدول. بمعنى أنه كلما كان التوسع المدرسى أكثر كلما كانت شهرة هذا البلد أكثر وبهذا القدر يكون عالم الثقافة والتمدن لها أكثر صعوبة. والدليل على ذلك نجد فى المجالات الصناعية أن شهرة الصنعة ودقتها ترجع إلى البلد الذى تنتجها. فمثلاً نجد فى اليابان ماكينة تصنع ماكينة أخرى وهذه الماكينة قد تصنع قطع غيار... إلخ.

كذلك يجب ملاحظة نوعية الإنتاج من حيث الكم والكيف فإذا اتجهنا إلى الكيف فهذا يعنى توقف الأعمال الأخرى. وهذا الأمر ينطبق على المجال التنويرى أيضًا.

فالعلاقة بين المستنير وطريقة الإنتاج علاقة مطردة ، (مثل الارتباط الموجود بين الفئات الاجتماعية الأصلية) فهذه العلاقة المطردة تكون بأشكال مختلفة وتكون بين كل الجهات الاجتماعية والمؤسسات المختلفة بمعنى أن المستنيرين هم صناع هذه الاتجاهات التى تفسر طبيعة التطور لهذه الفئات المختلفة للمستنيرين وعلاقاتهم البسيطة أو الواسعة مع الفئات الاجتماعية الأصلية. ولأجل هذا الأمر يجب أن نقوم بإعداد جدول يتضمن هذه الفئات وأهدافها على أن يبدأ هذا الجدول من أسفل إلى أعلى.

ويمكن تقسيم الجدول إلى قائمتين إحداهما تشمل (المجتمع المدنى) والأخرى تشمل (المجتمع السياسى أى الدولة). ويكون زمام الأمر فى يد فئة معينة منهم وبترتيب معين وتكون قيادتهم للدولة بشكل قانونى - صحيح أن أسلوب إدارة السياسة ووجود قائد فى المجتمع وتسلط الدولة نوع من تقسيم العمل الذى ينتج عنه اختلاف التدرجات الاجتماعية واختلاف الفروع التخصصية وبالرغم أنه قد يكون ليس لأى من هذه التخصصات دخل فى إدارة الحكم - ويمكن وضع العلماء والفلاسفة فى أعلى درجة من السلم ويمكن وضع الموظفين البسطاء والأشخاص الذين يؤدون أعمالاً قليلة الأهمية كما أن أفكارهم قد تكون بالية وقديمة وبهذا يمكن وضعهم فى أدنى درجات السلم والمثال على ذلك أن المؤسسات العسكرية تضع أسس وقواعد للتدرجات المختلفة مثل ملازم ، ملازم أول ، عقيد... إلخ. إضافة إلى المتطوعين.

الاختلاف بين المستنير المدنى والمستنير القروى

المستنيرون المدنيون ، أى أصحاب الرتب الدنيا ارتبطت حياتهم بالإنتاج والصناعة ونستطيع أن نقارن دورهم بدور الضباط والملازمين فى الجيش. أى أصحاب الرتب الدنيا بمعنى أنه ليس لديهم أى ابتكار جديد من أنفسهم.

بشكل عام ، فالمستنيرون المدنيون يشكلون "قالبًا واحدًا". إلا أننا نجد أن مستنيرى القرى، معظمهم "تقليديون ومرتبطون بالفئات الاجتماعية فى القرية وكذلك ببعض البرجوازيين المدنيين.. هذا النوع من المستنيرين يكون وسيلة ربط فيما بين فلاحى الإدارات المركزية المحلية والمحامين والنواب ورؤساء الإدارات ومن هنا فهم يلعبون دورًا سياسيا واجتماعيا مهما. وعلى هذا تكون كل حركة اجتماعية فردية مرتبطة إلى حد ما بدور المستنيرين.

ولكن لو نظرنا إلى مستنيرى المدن لوجدنا أن الموضوع يأخذ شكلاً آخر بمعنى أنه ليس هناك أى دور للعاملين أو المهندسين فى المصانع مع الفئات العمالية.

وهناك قضية أخرى يجب ذكرها وهى قضية ظهور الأحزاب السياسية وكيفية ارتباطها بالمستنير وللبحث فى هذه القضية هناك عدة نقاط :

إن الحزب السياسى لم يكن إلا وسيلة خاصة لظهور المستنير الذى يرتبط بالأوضاع السياسية والفلسفية والعلمية فى المجتمع أكثر من ارتباطه بالإنتاج.

الحزب السياسى هو المهيمن على جميع الفئات الاجتماعية فى المجتمع المدنى وله نفس الدور الذى تلعبه الحكومة فى المجتمع السياسى ولكن بشكل أوسع وأكثر تعقيداً. أى أن هناك ارتباطًا وثيقًا فيما بين المستنير الراسخ فى المجتمع والفئة الحاكمة فيه وبين المستنير التقليدى. وهذا الارتباط يتمثل فى وجود الحزب. وتكون الأهداف الأساسية للحزب هى توصيل أهدافه وآرائه لجميع أفراد المجتمع.

ومن هنا يكون للحزب دور تربوى وفكرى فى تربية عقول أفراد المجتمع ولو تحدثنا عن المستنيرين التقليديين نجد أن هناك ارتباطًا وثيقًا فيما بين العبيد فى الزمن القديم وقضية تحرير العبيد فى اليونان والشرق وقضية التشكيل الاجتماعى لإمبراطورية الروم.

وأتذكر أن تغيير الحياة الاجتماعية للمستنيرين فى الروم منذ العصر الجمهورى وحتى عصر الإمبراطورية (أى منذ نظام الأشراف حتى النظام الديمقراطى) يرجع إلى "سزار" الذى دعا الأطباء وأساتذة الفنون الحرّة إلى الإقامة فى الروم. أى أنه أعطى حق الإقامة لكل من يعملون فى مجال الطب والفنون والمختلفة والتعليم وغيره على أمل أن يستقروا فى الروم إلى الأبد.

وكان يريد (سزار) من وراء هذه النظرية.

أن يجعل من جميع المستنيرين المقيمين فى الروم كتلة واحدة إلى الحد الذى لو أرادوا أن يتركوا الروم فإنهم لا يستطيعون الإقدام على ذلك الأمر ولا يستطيعون أن يشكلوا مؤسسة ثقافية.

أنه جمع أفضل المستنيرين من جميع أنحاء الإمبراطورية إلى مدينة روما وكان يهدف من وراء هذه الطريقة أن يجعل تمركزهم بصورة إيجابية.

ومن هنا انتقلت هذه الفكرة من الروم وامتدت حتى رجال الدين الكاثوليك فى تاريخ مستنيرى إيطاليا وتركت بصماتها بصورة واضحة حتى القرن الثامن عشر.

وكانت فرنسا نموذجًا كاملاً على تماسك جميع القوى الاجتماعية ولا سيما القوى التنويرية وخاصة عندما ظهرت هذه الفئة سنة ١٧٨٩ م وكان لها شكل اجتماعى واضح وتكافح من أجل السيطرة على كل المجتمع دون أن تضطر إلى أية مصالحة سياسية مع الطبقات القديمة بل على العكس تحاول أن تجعل هذه الطبقات تابعة لأهدافها، وقد ظهرت أول الضروب الجديدة من المستنيرين مع أول الخلايا الاقتصادية.

وهذا البناء التنويرى القوى يوضح دور الثقافة الفرنسية فى القرن ١٨ ، ١٩ والذى كان ينادى بالإمبريالية والتفوق العلمى والنزعة الاستعلائية.

فى بريطانيا المسألة مختلفة كانت الانقسامات الاجتماعية الجديدة تحملها الصناعة الحديثة والتى نتج عنها تقدم واضح فى المجال الصناعى والاقتصادى. إلا إن التقدم الفكرى والسياسى كان بصورة بطيئة.

ونفس هذه الظاهرة البريطانية وجدت أيضًا فى ألمانيا ولكن بشكل أكثر تعقيداً وكان لألمانيا أيضًا مكانة فكرية وأساسية فى القضايا الدولية.

ولكن فى روسيا الوضع مختلف كثيرًا حيث كان للمؤسسات السياسية والاقتصادية تأثير كبير نتيجة تأثر دول إسكنديناڤيا بأحداث القرن التاسع نتيجة الحملات الفنلندية. كذلك كانت المؤسسات الدينية فى ذلك الوقت متأثرة كثيراً باليونانيين. إلا أن المرحلة الثانية من تاريخ روسيا كان للأفكار الألمانية والفرنسية دور كبير فى التأثير عليها والتى وضعت أول معول لبناء الهيكل الأساسى لتاريخ روسيا وظروف تشكيلها تشبة إلى حد كبير تشكيل الولايات المتحدة.

وفى الولايات المتحدة الأمريكية نجد أن هناك كثيرا من المستنيرين السود الذين يرتبطون بالثقافة وبالفنون الأمريكية ونجد أن لهم تأثيراً غير مباشر على المجتمعات المختلفة فى أفريقيا وهذا التأثير يجب أن يحقق أحد هذه الافتراضات.

إن هدف أمريكا من هؤلاء المستنيرين السود هى أن تستفيد منهم فى شكل موظفين وعمال من أجل فرض سيطرتها على الأسواق الأفريقية وكذلك من أجل نشر الحضارة الأوروبية (حدث مثل هذا الأمر فى الحقيقة ولكن ليس لدى اطلاع تام على هذه القضية).

وربما يحتد النضال لتوحيد الشعب الأمريكى إلى درجة تدفع السود إلى الهجرة ، ويهاجر معهم أقوى مستنيرهم وأكثرهم أستقلالية لأنهم لن يتحملوا القوانين التى ستظهر للحالة الجديدة والتى ستكون أصعب بالنسبة للسود من القوانين الحالية - وهؤلاء السود أصلاً أصحاب الفكر والقدرة .

وفى هذه الحالة تنشأ قضيتان أساسيتان هما

١ - قضية اللغة : بحيث إن تكون اللغة الإنجليزية فى أفريقيا هى لغة الثقافة وبالتالى تستطيع أن تجذب اللهجات المحلية إليها.

٢ - تكون لهذه الفئة المستنيرة السلطة والقدرة على التوجيه بحيث إنها تجذب إليها الجميع بحيث يغيرون مشاعر الزنوج السلبية اليائسة إلى شعور قومى قوى وتتحول أفريقيا إلى مثال تنوير ووطن مشترك لكل السود.

فى أمريكا الجنوبية نجد أنفسنا أمام الحضارة الإسبانية والحضارة البرتغالية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر التى اتسمت بمعارضة الإصلاحات العسكرية.

وفيما يخص المستنيرين وارتباطهم بالقوى العسكرية بصفة عامة نستطيع أن نرى فى الصين والهند واليابان أنواعًا أخرى من هذه النوعية ففى الصين والهند المستنيرين بعيدين بعدًا تاما عن المجتمع والدليل على ذلك المظاهر الدينية كالمعتقدات الكثيرة الموجود بهما والأساليب المختلفة فى العبادة وخاصة بين رجال الدين والمستنيرين من ناحية ومن ناحية أخرى بين عامة الناس.

ولو أن هذه القضية موجودة فى جميع المجتمعات إلى حد ما ولو أن هذه الظاهرة موجودة بإفراط شديد فى الدول الآسيوية.

أما فى دول البروتستانت نجد أن هناك فروقًا نسبية ولا يهتمون بهذه القضايا كثيرًا. كما أن هذه الظاهرة لها أهمية كبيرة فى دول الكاثوليك ولكن بدرجات متفاوتة.

ففى ألمانيا هذه الظاهرة كثيرة وفى فرنسا أقل وفى إيطاليا وخاصة فى الجنوب ومنطقة الجزر بصور أكبر وفى شبة جزيرة إسبانيا والبرتغال ودول أمريكا اللاتينية أكثر وهذه الظاهرة تأخذ شكلاً أكثر واهتماماً أكثر فى دول الأرثوذوكس ونستطيع أن نقسم هذا المذهب إلى ثلاثة أقسام :

مذهب رجال الدين الكبار.

مذهب رجال الدين البعيدين عن دور العبادة.

مذهب عامة الناس.

وهذه التقسيمات ليس لها أى أساس فى آسيا الوسطى لأنه لا يوجد هناك ارتباط بين مذهب عامة الناس والدين .

الفصل الرابع

مواطن التنوير

البحث عن المستنير الإيرانى فى التاريخ

السؤال هو : هل يمكننا فى إيران التماس جذور للمستنير بالمعنى العام لكلمة المستنير (الذكى الحاذق القيادى المعارض كشكل إيران تاريخيا – وجغرافيا) ، لا بمعناه الخاص الغربى الذى ذكرته فى الصفحات السابقة ؟ وأن أقل فضل لهذا النوع من البحث أنه سوف يوضح لنا هل لدينا أرضية قديمة وتاريخية للمستنير ؟ وإذا كان لدينا فما الأمثلة الرفيعة أو الوضيعة له ؟ وهنا وفى ذلك الوقت ومثل هذا الوضع سوف يشعر المستنيرون هنا (إيران) أنهم أغراب أو أنهم شعاع جاء من سماء الإفرنجة أو من سماء الغرب أو هم عملاء "متروبل" ؟

أول شخص ممكن ذكره كمثال للتنوير فى تاريخ إيران الماضى هو " كئومات " . وهو المعروف فى التاريخ الأكمينى " الهخامنشى " باسم " كئومات الغاصب " ونحن نعلم حتى الآن أنه كان رجل دين " مجوسيا " أى رجل دين زرادشتى . والذى وصل إلى الحكم عن طريق الاستفادة من ظروف الزمان وغياب الشخص الحاكم ووجود أرضية للطبقات المختلفة الثائرة ، وتولى السلطتين الدينية والحكومية ووضع خططًا لإصلاح معيشة الناس وتدبير أمور المجتمع فى تلك الأيام فى إيران ، التى كانت تعيش تاريخا ناصعا ثم تطاول إلى أن خلع عن العرش وحل محله داريوش إثر مؤامرة حاكها النجباء . وهذه خلاصة لما قام به والذى كنا نعلمه حتى الآن . ونعلم أيضا أن "كئومات" بأية صورة لم يترك تأثيراً يذكر فى التاريخ . وإنما وضع حجر الأساس للبناء الذى

ارتفع على يد داريوش . بمعنى إذا كان لداريوش" توفيقات فى تحديد أساس الإمبراطورية الهخامانشية ، فإنها كانت استنادا على الإصلاحات التى وضع أساسها كئومات . من كتاب "تاريخ ماد " الذى كتبه " دياكونوف " والذى انتشرت ترجمته أخيرا والذى نستعين به للوقوف على تفاصيل أكثر حول شخصية هذا المستنير الإيرانى القديم والظروف التى عاشها .

ويكتب " دياكونوف " متسائلاً ما إذا كان فى نجاح " كئومات " وفى استطاعته أن يقنع جميع الطوائف الخاضعة لآل فارس وكذا الفارسيين وجعلهم يرتبطون به ويقطعون علاقاتهم بكمبوجيه ، لاشك أن سوء سمعة الابن المستبد وغير العاقل لكوروش وفشله العسكرى فى الحبشة كان لهما دخل فى هذا الأمر وأنه حسب عادة الفرس فإن القوات الأصلية الحربية والبلاط وقسم كبير من المؤسسات الإدارية المركزية للدولة كانوا يشاركون الملك فى قيادة الجيش وتجهيزه وفى غزواته وحروبه مما أدى إلى تسهيل الأمر للتمرد والعصيان لنجاحه فى مكان آخر. كان كئومات قد وعد بشىء ما للأهالى المسالمين للإمبراطورية ، الشىء الذى كان من المحال أن ينالوه فى عهد سلطنة كوروش وكمبوجيه (..........) ومذكور فى نقوش بهيستون بصورة صريحة أن جميع الأحرار أصبحوا تابعين لكئومات " جميع الناس - ثاروا ، وعصوا وكذا الفرس والماد وسائر البلدان الأخرى انفصلوا عن كمبوجيه وسقطوا فى يد كئومات" . ص ٥٢٣ . هيرودوت (!!!!٦٧) يقول : " مغ " رجل دين زرادشتى .... حكم - بطمأنينة خلال السبعة شهور التى كانت فى نهاية سلطنة كمبوجيه والتى دامت ثمانى سنوات وفى هذه الفترة قدم أعمالا حسنة كثيرة لجميع أتباعه لدرجة أنه عندما قتل تحسر الجميع فى آسيا ما عدا الفرس . أرسل الموبد إلى جميع طوائف المملكة أمرا يعفيهم لمدة ثلاث سنوات من خدمة النظام المالى "الضرائب" . أصدر هذا الأمر بمجرد جلوسه على كرسى عرش الملك ولكن الشعب اطلع على ذلك الأمر فى الشهر الثامن (أى بعد وفاته) ص ٥٢٤ (.................)

ولكن نقش بهيستون يقول التالى (...........) إننى قد عمرت المعابد التى خربها كئومات . وإننى أعدت المراتع (؟) والأموال (المنقولة) والعاملين فى البيوت

إلى النـاس وخصـوصـا أرجع إلى العشـائر فى القرى ما كان ..... إلخ ... وبناء على هذا يتضح من قول هيرودوت أن الموبد [١] كان يتبع سياسة تؤدى إلى تحسين أوضاع عامة الناس . ولكن نقوش بهيستون تقول إنه قد حرم الشعب من بعض حقوقه وكان الشعب يخافه . ولكن فى الواقع وفى نفس الوقت فإن هذين الأمرين لا يمكن أن نعتبرهما متناقضين كلية فنقش بهيستون قد كتب بأمر الشخص الذى قتل بيده كئومات وبديهى أن يكون هناك غلو شديد بخصوص وجود عداوة بين كئومات والناس وقد أورد عن قصد تلك الطبقة من المجتمع التى أصابها الضرر نتيجة إصلاحاته تسمى " الناس " بالمعنى الأشمل للكلمة - وهذا أسلوب قديم لمعارضى التقدم . ومع هذا فلنقش بهيستون أهميته. إذ إنه يكشف البرامج السلبية أو باصطلاح آخر التخريبية لكئومات ص ٥٢٥ - ٥٢٦ وبديهى أننا إذا لم نتفق ونظرية الإنجيل التى تقول "يؤخذ أيضا من المحتاجين " فإننا سنركز على الأخذ من الأثرياء. أصحاب القدرة أو بعبارة أخرى الأغنياء الذين يستطيع كئومات أن يأخذ شيئا منهم، كانوا عبارة عن عموم الجماهير أو أصحاب الدواب والمراتع والأموال غير المنقولة. ونستنتج مما سبق أن القضية فى أحد مستوياتها قضية مراتع ودواب وأقنان فى منازل الشخصيات العشائرية ، وبدرجة أعلى كانت قضية معابد الكبار المحليين المذكورين ص٥٣١ ...... وعلى ذلك فإن كبار القبائل المحلية أصابهم الضرر من إصلاحات كئومات بينما استفاد من ذلك عموم الناس (الأحرار) من مختلف الجماعات. وهذا الاستنتاج يتفق تماماً مع قول هيردوت المبنى على أن كئومات أعفى الشعب من الضرائب لمدة ثلاث سنوات وكذلك من خدمة النظام العسكرى (التجنيد)- وأقدم على عمل كان أكثر نفعا لحال الأحرار العاديين ص ٥٣٢ ." انتهت كتابة دياكونوف" [٢]

ولو أننى قد أطلت الوقوف لرسم سمات أول مستنير فى هذا التاريخ القديم - غير الأسطورى - فذلك لأن الكثيرين من المستنيرين الذين ظهروا بعده فى هذه البلاد كانوا

(١) المغان أو الموبد: رجل الدين الزاردشتى ، وجمعها مؤبدان ، وعربت إلى مؤبد وجمعها (مؤابذة ، المرجع .

(٢) ارجعوا إلى تاريخ الماد . تأليف أ.م دياكونوف . ترجمة كريم كشاورز ترجمة ونشر طهران ١٣٤٥ . ولكن لا تنسوا أن هذا الكتاب لم يحصل على مراجعة دقيقة فى (٣٦ صفحة) أورد دكتور محمد على خنجى فى شكل ملحق فى مجلة راهنماى كتاب السنة العاشرة - العدد الثالث - شهر يور ١٣٤٦

فى هذا الفضاء التاريخى المعين مثل سلسلة فى أحد القصائد الطويلة ، قاموا بتكرار أعمال وحركات كئومات.. وعندما نقول "تاريخنا القديم" أقصد به الإطار الزمنى الذى كانت تطبق فيه الأحكام والعقائد – سواء الشرعية أو العرفية – ودائما كانت تظهر فى شكل "آية " . فى صورة الطاعة المطلقة.. من قبل الناس – والاستبداد المطلق من جانب الحكومات . ولأن الحكومات فى هذه الناحية من العالم من قديم الأزل كانت تواجه منافسًا قويا هو التنوير والمستنير الذى ظهر آنذاك (ولكن فى زى عالم الدين) لذلك اعتبرت نفسها دائمًا ظل الله على الأرض. وأنا بعد ذلك أتحدث عن هذه السلسلة المكررة للتاريخ وإذا كان الشيعة يعتبرون كل حكومة تقوم فى زمن غيبة الإمام المهدى المعصوم حكومة غاصبة. ألا تتصورون أن هذا التشابه لم يأت من باب الصدفة المحضة؟ لقد أطلقت هذه الصفة البغيضة (الحكومة الغاصبة) على الحكومات الإيرانية فى كل الأدوار التاريخية عبر العصر الساسانى والعصر الصفوى. وبنوع من الاتفاق ففى هذين العصرين دخلت السلطة والدين فى رداء واحد ليمنعا باتحادهما من تطور العلوم والآداب والثقافة فى هذين العصرين.

ثم يصل الدور إلى السيد زرادشت (وربما قبل ذلك ؟ لا أعلم بالضبط) ولو أننا نعتبره شخصية تاريخية (إذ إن أكثر المحققين على ذلك النمط) فهو أيضا رجل دين وقام بثورات وكان يريد أن يرتب لإدارة زعامة روحانية فى عصره . نحن نعلم أنه على خلاف كئومات ، فزرادشت لم يعمل عن طريق العرف . ولكن بدأ خطواته عن طريق " الشرع " فقط ولكن باحتمال يقرب إلى الحقيقة . أصبح يحظى بحماية مصدر الأمور العرفية لعصره . فى وجود واحد من الهخمانشيين (أى واحد منهم ؟ مثلا ويشتاسب ؟ – جشتاسب أساطيرى ؟) صحيح أن النصوص الأصلية للدين الزرادشتى لم تدون إلا فى أواخر عصر الاشكانيين . ولم تصبح دينار سميا ومصدرا دينيا رسميا إلا فى العصر الساسانى ولكنها كانت قادرة على أن تلغى تعدد الآلهة لدى الأقوام الآرية البدوية على مدى ٤٠٠ عام ما بين معبودات متعددة (مهروناهيد و أورامزدا و آلهة أخرى أساطيرية). الذين كانوا يعتقدون بالثنائية . وتم هذا بفضل دعم حكومة واحدة ومتمركزة فى كل أنحاء المملكة التى ما زالت آثارها وحضارتها موجودة بداية من معابد النار حتى بقايا القصور الحكومية ، أو الكنوز المكتوبة و حتى بقايا المدن بالكامل ، مثل نيسابور وكازرون .

ثم يأتى الدور على " مانى " الذى حل المشكلة التى كانت قائمة بين (أورامزدا) وأهريمن فى الدين الزرادشتى بأن أدخل " زروان " للحل والفصل بينهما . وكان بإمكانه أن يكون مصلحًا للأصول الزرادشتية إلا أنه للقول بثنائية النور والظلام أغلق كل أبواب الأمل فى وجوه الخلق التى كانت نوع من " البلطجة " ، ولهذا السبب لم يوفق. ودعا إلى نمط من الرياضة والاعتزال. ومع أنه استند هو الآخر إلى دعم القوى الحكومية فى وقته، وكسب دعم الملك الساسانى شابور الأول، إلا أنه لم يهتم بنفوذ رجال الدين الزرادشت وأيضا لم يهتم بنفوذ رؤساء الدين فى المجتمع ولذا استبعد عن مكانه وشنق بعد ذلك. أما أفكاره التى كانت تميل للبوذية – طردت من المنطقة التى كانت تحكمها الزرادشتية – وازدهرت فى بلاد ما وراء النهر وهناك وجدت أرضًا فضاء لنضجها أكثر مما لقيت فى الأرض الإيرانية ، ومن ناحية أخرى انتشرت أفكاره فى طيسفون " المدائن " ثم بغداد ، وبقيت هناك مركزا للمقاومة . وما بقى من المانوية فى طيسفون أصبحت مجالا لمزدك وأعماله فى ذلك الوقت . وما بقى فى أطراف بغداد فى ذلك الزمان أصبح مستمرا وباقيا فى طيسفون ، وأصبح هو الآخر النواة الأساسية لآراء الزنادقة فى العصر الإسلامى . وبغض النظر عن هذا التأثر والتأثير ، فإن مانى هو أول شخصية تاريخية استشهدت فى سبيل التمسك بآرائها . وإن لم يكن مانى هو صانع لتاريخ أو عصر ما ، فهو أول شهداء طريق العقيدة فى إيران . وكم من قصص ألفت عنه فى عالم الفن وبالذات فى عالم الرسم إذ إنه فيما بعد فى العصر الإسلامى أصبح ليس له أية أهمية شأنه شأن الزنادقة الذين كانوا فى الأصل مانويون. كما كانت لأفكاره تأثيرات كغيره على السلطة فى المسيحية ، إذ إن باباوات الكنيسة كانوا فى البداية مانويين ثم انضموا إلى الدين المسيحى وأصبحوا مسيحيين [1]. هذا علاوة

(١) ارجعوا إلى شرح حال (شمعون مجوس) ص ١٨٩ من كتاب (تاريخ كليساى قديم در امبراطورى روم وإيران) طبعة لايزبك المأن – ١٩٣١ . أو إلى الفصل (رسوم بت برستى دركليسا) ص ٢٨٥ من نفس الكتاب (أو إلى سنت أو كستين) الذى كان فى البداية رواقيا ثم أصبح مانويا . ثم تحول إلى الأفلاطونية . وعندما وصل لمرحلة النضوج اعتنق المسيحية (ص ١٣١) كتاب (تاريخ تمدن غرب ومبانى أن درشرق) ترجمة برويز داريوش – تهران – ابن سينا ١٣٣٨ .

على أنه حتى فى نهاية سنوات " أنكيزيستون " أى منذ القرن ال١٢ حتى القرن ال١٤ الميلادى وأيضا مرحلة " آلبى جوا " أى الألبيجويبين فى جنوب فرنسا الذين صمدوا حتى لمحاكم التفتيش التى كانت بمثابة آخر حلقات الزنادقة فقد قتلوا جميعهم بأمر من البابا فى روما؟ (١)

بعد ذلك يصل الدور إلى مزدك . وكان من ألمع الوجوه المعارضة ومن ألمع وجوه حركة التنوير ومن أكثر الوجوه التنويرية محاربة فى تاريخنا . الذى حارب مع كثير من المدعين حتى فى تقسيم الأملاك و الأموال . ومما يثير الأسف أنه لا يوجد لدينا تاريخ دقيق حتى الآن لهؤلاء الكبار الذين سردتهم . ولكن فى بعض مراحل التاريخ نرى أنه يوجد ارتباط بين كنئومات حتى مزدك وإن لم نعتبره تنويرا متكاملا فلا أعلم بأى اسم آخر ممكن أن نسميه . إذا كان "داريوش " مع هذه الإصلاحات التى قام بها فى حياة الناس كان ملك الملوك فى إيران – ابتداء من الاعتراف بالقوميات و الديانات واللغات المختلفة حتى إصلاحات البريد والضرائب – نستطيع أن نعتبره خليفة لكنئومات – إلى حد ما– فقد اقتنع بإجراء بعض التغيرات البسيطة فى آرائه إذ إن عالم " الأمر " و " العرف " كان يتحمل هذا النوع من التغيرات ، ولهذا نستطيع بسهولة أن نطلق على " أنوشيروان " لقب " العادل " الذى أزاح الشر بمساعدة الزرادشتية عن طريق القتل العام لجميع المزدكية ، و أنوشيروان بعد ذلك قام ببعض الإصلاحات القليلة التى كانت من اقتراحات مزدك والتى امتصت مؤقتًا النقمة العامة التى ستنفجر تارة أخرى قبل دخول الإسلام فى إيران ووصل إلى أوج عظمته وقضى على الحكومة الساسانية أما بالنسبة لأسباب سقوط الحكومة الساسانية .فقد سمعنا وقرأنا حتى الآن كثيرا من الأشياء غير المرضية – أحيانا تكلمت أنا فى هذه الأمور(٢) لكن مؤرخينا قليلا ما اهتموا بالناحية الاجتماعية والاقتصادية لذلك السقوط الذى كان سببا فى تأخر

(١) ارجعوا إلى كتاب " ماروطناب " les serpentet la corde من آثار راج رائو Raja Rao الكاتب الهندى المعاصر .

(٢) ارجعوا إلى (غرب زدكى) وإلى (سه مقالهٔ ديگر) " وابتلات مقالات الاقرى " .

المؤسسات الحاكمة فى زمن الساسانيين وسعوا كثيرا إلى أن يوضحوا أن سقوط الساسانيين أمام العرب ، هو نوع من سقوط النور أمام الظلام أو نوع من السقوط القومى فى مقابل البدوى أو الهمجى . وكم حاولوا كثيرا فى أن يمهدوا إلى نوع من حب القومية الشديد المتطرفة الذى يعبر عن سمات القرن التاسع عشر الأجنبى ، إلا أنهم عجزوا عن تقديم مفهوم واضح « الأمة » « والقومية » . وأما من كان ينطق بها فى الإسلام فإن غرضه هو" اتباع المذهب الفلانى " أما : اليهودية أو النصرانية أو الإسلامية . أى اتباع أى من هذه الأديان الثلاثة ، لكن يكفى لو نظرنا إلى حركة مزدك وآرائه التى انتشرت قبل أربعين أو خمسين سنة قبل الهجوم العربى . أو لو ألقينا نظرة على المدنية والثقافة الإيرانية فى زمن السامانيين التى بدأت من القرن الثالث الهجرى ، لنتذكر الأمات التى سببتها الدولة الأساسية ، والازدهار الذى نجم عن اضمحلالها – أولا بسبب كثرة الفساد وثانيا بسبب كثرة الفتوحات – وفى هذا الموضوع الثانى يكفى أن نلقى نظرة ثابتة إلى مقال كتبته فاطمة السياح الذى نشر فى أوائل مجلة سخن[1]. وفى الموضوع الأول يمكن مراجعة كتاب "إيران فى عصر الساسانيين" بقلم أرثركريستتنسن [2].

ويصل الدور الآن إلى العصر الإسلامى . سنكون أمام أمثلة مثل سلمان الفارسى أو أبى ذر الغفارى ، وقبلهما ، فى تصرفات الخلفاء الراشدين (غير عثمان بن عفان) الذين كانوا يعيشون جميعهم نوعًا ملفتًا من الرياضة، والتقشف، ويضيئون سراج بيوتهم من بيت المال، ونحن هنا نواجه نوعًا من الاشتراكية فى أعمالهم ، ويطلبون العدالة بصورتها المثالية التى تستند على الأخوة الإسلامية ، ولم يقصروا فى أى نوع من الفداء أو بذل النفس و العطاء . وهؤلاء العظام الآخرون الذين كانوا فى صدر الإسلام، اتصلوا ببعض الثورات الفكرية فى زمانهم ، واقتبسوا إيجابياتها ووضعوا أساس

(١) مجلة سخن السنة الثانية العدد ١٠ آبان ١٣٢٤ فى مقالة بعنوان (نظريات عديدة فى شأن الشاهنامة وحياة الفردوسى).

(٢) ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب، ونشر بالقاهرة . (المراجع)

تاريخ الحضارة التى لا تخص أقوامًا دون غيرهم كما هو الحال بالنسبة لليهود أتباع "يهوه" الله والذى ليس له أى نوع من الارتباط بأية قومية معينة يتمثل فى عقيدتها الواحدة ، التى تتفرع عنها وحدة الطبيعة والخلق ، ووحدة الأفكار والفطرة الإنسانية وبهذا الشكل اتخذوا طريق، واعتبروا هذه الوحدانية هى المركزية لاعتقاداتهم ، ومنذ البداية بالشهادة فى سبيل الوحدانية و من هنا توحدت الطبيعة وتوحدت الأفكار وتوحد الجنس البشرى وتوحدت البشرية[١]. و الدين الذى لا يوجد فيه أى نوع من الإجبار وعليه لا يكون هناك أى نوع من الوساطة ما بين الخالق و المخلوق.[٢]

و " التاريخ المدون عن الثقافة الإسلامية فى القرون الأولى للهجرة لا نستطيع أن نهمله – أولا لأن السلاسة و البساطة فى هذه الثقافة ، هى التى تربط الإسلام بالواقع وجعلته يحتفظ بنفسه و أمنت التحركات و التوسعات الإسلامية ، وثانيا المجال الاجتماعى الكامل الواسع لهذه الثقافة . و العوامل الخارجية الجديدة فقط – و غالبا فى حوزة المسائل الاقتصادية – هى التى أوجدت عدم التوازن فى هذه الثقافة . لأننا لو اطلعنا على هذه القضايا من قريب سوف نرى أنه فى تاريخ المسلمين (.....) يوجد نوع من الموازاة مابين المنحنى الاقتصادى و المنحنى الثقافى (...) و بعد ذلك نجد أن هذه الثقافة بسبب التمزق الجغرافى واللغوى فى حوزة الإسلام قد أصابها الركود و هذه كانت البداية لعدم التمركز الإدارى و عدم التنسيق فى المؤسسات الاجتماعية وتبلور العقائد القومية و من هنا كان ضياع الثقافة الإسلامية وسقوطها [٣].

وهذه القضايا الأخرى الأخيرة وفى البحث فى أن لماذا وصل الإسلام إلى هذا الحال . فهذا ليس مجال بحثنا هنا . والآن سوف نتحدث عن بدايات ظهور الإسلام .

ولا سيما لو نظرنا إلى المجال الإسلامى منذ البداية حتى أواخر العصر العباسى إذ كانت السلطة تطبق على كل حركة أو ثورة غير مرضية أو أى نوع من التساؤلات أو

(١) ترجم من ص ٢٥، ٢٦ من كتاب (الشخصية الإسلامية) Personnalisme Muslaman بقلم محمد عزيز لحبيبى – طبعة باريس ١٩٦٧ فى نشريات.. Presses Universities de France.
(٢) نفس الكتاب ص ٧ .
(٣) نفس الكتاب ص ٩٣ ، ٩٤.

التـرديدات الفـردية بأنـهـا " زندقـة " وعلى الشـخص الذى يقوم بذلك " زنديق " (وهى كلمة بمعنى الزنديك = وهى المفسّر للمانوية) ولابُّد من أن نلاحظ أيضًا أن جميع من كان من أصـحـاب الملابس البـيضـاء (بقـيـادة المقنع) فـى نـخشب حى أصـحـاب الملابس السـوداء فى خـراسـان (بقيادة طاهر ذو اليمينين) و من بابك خرم دين حتى أسـرة البرامـكة (فـالأول كان مـحاصـرا فى قلاع آذربيـجان والثـانى كان يجلس على عرش الوزارة العباسـيـة) فإننا نجد فى أخبـارهـم و سيرهم فـحوى من المانوية أو ميـلا إلى المزدكية[1] . كل هذه الثورات على الأقل فى مجال قيادتهم ، أوجدت نوعًا من الميل إلى التنوير فى زمـانهم ، ولبـعض منـهـا مثل بـابك أو المقنع كانت ثوراتهم منعزلة. و بعض آخر مثل البرامكة أو افشين المسلح بسلاح زمانه نزلت إلى الميدان بكامل ثقلها لبعض . ومن أكثر المشـاهد هـمـا وحزنا فى هذه العصـور ، المشـاهد التى كان فيـهـا ممثلو هذين النهجين التنويريين مضطرين إلى أن يتصدى بعضهـم لبعض وتـراق دمـاؤهم . وهذا كله يعنى أنه منذ بداية ظهور الحضـارة فى إيران وحتـى استقـرار الحكومة السـامانية – أى على مدى ألف عام من التاريخ – قاموا بنوع من التنوير الفكرى الخفى الذى كان الأسـاس لأفكار مجموعة من المستنيرين كانت أفكارهـم تتعارض أحيانًا إلا أنهم فى الحقيقة كانوا فى حلقات سلسلة واحدة وهى سلسلة التنوير . الذى بدأ مع بداية تاريخ إيران وتواصل حتى التحق بمرحلة ظهور اللغة والثقافة الدرية – التى أنجبت الرودكى والفردوسى اللذين ظهرا فى ذلك الوقت – وبعد ذلك سرت عبر قناة اللغة العربية وكما رأينا أمثال " سيبويه " و"الخليل بن أحمد الفراهيدى [2]" اللذين أوجـدا علوم الصرف والنحو والمعانى والبيـان – وانتشرا فى العالم الإسلامى وصنعا نصف الكنوز القيمة للمعارف الإسـلامية حتى إننى أعتبر أبا ريحان البيرونى بالرغم من أنه لم يكن مريدا إلا أنه اقتفى أثر كئومات ومانى ومزدك – حتى نصل إلى القرامطة أو الإسماعيلية الباطنية الذين كان لهم على الأقل فى مجال قيادتهم جهود كثيرة وصريحة وعملية

(١) ارجعوا إلى (دوقرن سكوت) عبد الحسين زرين كوب . أو إلى (ماه نخشب) لسعيد نفيس .
(٢) ارجعوا إلى مجموعة (إيران كوده) فى آثار ذبيح بهروز محمد مقدم . صادق كيا .

للتنوير فى إطار الخلافة الإسلامية . ويجب أن تلاحظوا أن " البيرونى " كان متهما بأنه كان " قرمطيا " ورودكى أيضا (باحتمال يقرب إلى الحقيقة أنه أصبح أعمى فى إحدى الهجمات ضد القرامطة[1]) . وكذا أبو على سينا وناصر خسرو و حسن صباح الذى كان له هو الآخر مقاما متميزًا فى هذا المجال والشىء الملفت للنظر تشابه الأحداث والأحوال التى مر بها كل واحد من هؤلاء المستنيرين فى زمانهم. فهم رجال مستنيرون وأصحاب قضية ، ويهدفون إلى الإصلاح أو التغيير فى أحوال وأوضاع زمانهم و أصحاب أفكار تنويرية فى مجتمعهم ولهم نفوذ فكرى ورؤى اجتماعية. ولكن بعضًا منهم صبور حليم مثل " زرادشت " وأغلبهم لم يكن كذلك مثل " كئومات و آخرين . و من هذه الفرقة الثانية أشخاص كثيرون و ذلك بسبب بعد الإنسان العادى عن الثقافة فى ذلك الوقت إذ كانوا مضطرين إلى أن يتماشوا مع سطوة الحكومة

ويجلسون معهم (ما عدا كئومات الذى أحكم قبضته على الحكومة و كان هذا مؤقتا) من أجل الإسراع فى تنفيذ ما يريدونه بقوة السلاح والسلطة وهذا ما فعله زرادشت . وكذا مانى ومزدك وبزرجمهر الحكيم وطاهر ذو اليمينين وحسن صباح وأبو على سينا والصاحب بن عباد وحتى علشير نوائى وبكير وببا حتى أمير كبير. وكذلك أصبح طريقا مرسوما فى التاريخ أن أى (أمير) يكون لديه (وزير) مثقف . أى أن كل صاحب (أمر) يختار صاحب (كلام) يكون بمثابة معاون وصديق له أو رفيق حتى يكون لديه الأمر والكلام فى آن واحد. لكن فى عصور بدايات التاريخ حيث كان الفكر والتفكر فقط مندثرًا فقط بدثار الغيب وما وراء الطبيعة وهؤلاء السادة أصحاب الفكر والكلام كان أغلبهم هم الأنبياء. لأنه (فى ظروف ذلك الزمان كان الطريق الوحيد للخلاص هو طريق الدين[2]) بالذات فى دين اليهود الذى استوعب مائة وأربعة وعشرين ألف نبى –

(١) ارجعوا إلى الرودكى جمع وتصحيح سعيد نفيسى .

(١) فريدريك أنكلس . تاريخ عيسويان نخستين ص ٤٢٣, نقل عن طريق ناصر خسرو واسماعيليان أثر . أى . برتلس . ترجمة آريم بور ص ٨١

استطاع بعضهم التربع على عرش السلطة والجمع بين الفكر والأمر مثل داود وسليمان . بعكس زمن موسى الذى نجا قومه من سلطة فرعون بالرغم من أنه كان عصر " التشريع" ووضع الأساس ، ولكنه كان عصر التشرد أيضا – و" المسيح" الذى كان يجب أن يأتى ، ويكون ملكا وكان يجب أن يجلس فى أورشليم على العرش و بالرغم من أنه ظهر ، ولكنهم أجلسوه على الحمار وألبسوه تاجًا من الشوك. وهذا الموضوع كم كان موضعا للأحقاد لمدة ألفىّ عام فى تاريخ البشرية . على أية حال هذا التوارد بين " التنويرى – النبوى " يمثل بدايات التاريخ التى امتزجت بالأساطير . و كيومرث كان لديه أيضا هذا الدور الثنائى (الأمر – الكلام). أوجمشيد – الذى ظهر فيه غرور (الألوهية) وابتلى بسجن ضحاك. وليظهر فريدون عقب ثورة كاوه ويقسم الدنيا ما بين سلم وايرج وتور. وكلما اقتربنا من أدوار التاريخ المعاصر كلما قلت الجاذبية لعالم الغيب ، وينسحب الأنبياء ويسلمون أماكنهم للمفكرين والكتاب والمستنيرين. ونحن نعلم أن هذا "الوزير العالم" نفذ حتى إلى الأساطير العامة . ومنذ ذلك الوقت فى هذا المجال من الفكر والعمل حيث لا يستطيع صاحب الكلام فعل أى شىء دون سند من صاحب الأمر، لن يكون هناك أفكار تنويرية وهنا تبرز أهمية الإسلام . لأن الإسلام يهتم بالأصول الأساسية ويرفض كل "آمر" إن لم يكن له مسند "كلامى" ، أى أن صاحب الأمر لا يعمل بأمر صاحب الكلام فقط ، بل إنه ينفى أيضا كل ما هو عرف ومبدأ وما يقال "إن حاكم العصر مختار من العالم العلوى وهو ظل الله فى الأرض . إذن فهو مطاع[1] " وهنا تبرز أهمية التشيع فى الدين الذى هو بخلاف رأى أهل السنة و الجماعة، أن "أولى الأمر" هم ليسوا أصحاب الأمر فقط ، ولكنهم معصومون ولهم دراية بعالم الوحى وهم مرتبطون به . وأن أى حكومة أو صاحب " أمر " فى غياب أصحاب الكلام يعتبرونه غاصبًا لأنه فى الإسلام لا تقوم علاقة صحيحة بين الإنسان والعالم العلوى– أى ما بين الخالق و المخلوق – إلا عن طريق الوحى وبالتالى "الكلام و الشرع" و ليس عن طريق "الأمر" وقوة العرف . و لهذا السبب نجد أن "الخلافة" كانت

(١) نقلة بنفس المعنى من (سياست نامة) لخواجة نظام الملك .

موجودة لدينا فى أوائل الإسلام التى تجّسدت هذا فى عصر الخلفاء الراشدين فقط . أما الخلافتان الأموية والعباسية فكانت الأولى تقليداً لإمبراطورية الروم والثانية تقليداً للإمبراطورية الساسانية . فى الخلافة الإسلامية الأولى كان الخليفة ينصب بشكل انتخابى لا وراثى . وأمر الحكومة كان قائمًا على" الجهاد" والتبليغ – و الاثنان كان لهما أصل كلامى . ولهذا السبب فإنه بعد عصر الخلفاء الراشدين أصبح التشيع نوعًا من عدم الرضا أو المعارضة وكان فى نظر حكومة العصر نوعًا من أنوا ع الزندقة . ونحن نعلم أنه لم يكن هناك فرق بين تعامل الحكومة المتزمتة مع الزنادقة والرافضين والشيعة . ولم يخف عن جميع المؤرخين أن التشيع كان فى البداية نوعًا من النهضة التنويرية فى حوزة سلطة الخلافة الأموية والعباسية اللتين بدتا فى شكل تقليدى عن الإمبراطورية و الملكية وفى اعتقاد الشيعة أن الخلافة فقط من حق" المعصومين" إذ يوحى هذا المفهوم أنه يجب أن يكونوا من ظهرانية الأنبياء أو الخلفاء الراشدين أى بالاستناد إلى قدرة " الكلام " لا إلى قدرة "الأمر " وعندما تنتهى سلسلة "العصمة " (لكل فرقة من فرق الشيعة : الأئمة الأربعة – الأئمة السبعة – الأئمة الاثنى عشر) ويذهب القائد "الكلامى" إلى الغيب – تبقى الشيعة فى انتظاره وكيف يكون هذا الانتظار! هذا ما سوف أتحدث عنه بتفصيل فى فصل آخر .

من كل هذه المقدمات أريد أن أصل إلى نتيجة مفادها أن مصادر أو منابت التنوير فى تاريخنا كانت تتمثل فى مواقع القوة الخالية من الفكر فقد ظهر التنوير فى كل زمان ومكان حكمت فيه سلطات ابتعدت عن العدالة والإنصاف و"الكلام والحق" ، أى أنها تلقى الظلم على الخلق فى كل مكان . وتسحق فيه مصالح الأكثرية. أو على حد قول ماركس أنه فى كل مكان يوجد اختلافات وصرا ع طبيعى ما بين الفقراء والأغنياء . أى أن هذا فى جميع مراحل تاريخنا . إذن فالمساحة الزمنية لظهور التنوير فى أى البلاد تشمل كل لحظات التاريخ . والمستنير هو العارض دائما للسلطة الخالية من الفكر ، إنه " المشكك ، والمناقش والرافض ، والمطالب ، بأساليب أفضل ووضع أفضل والمتسائل دائما ، غير القانع دائما بكثير من الإجابات ولا لأى شىء إلا لنوع من عالم

الغيب بصورة عامة ، أى أنه لن يقبل أو يرضى بأى شىء أعلى أو أكبر من الواقع الموجود والملموس . وبهذا الدليل يمكن أن نقول إن المستنيرين سائرون على درب الأنبياء . ربما أننا فى مرحلة ختم الأنبياء (وخطأ سيد باب وبهاء الله وبعض المذاهب الأخرى التى ظهرت أخيرا ، أنهم لم ينتبهوا إلى الأمر وهو أننا فى مرحلة ختم لأنبياء) ولا تستطيع الأفكار اليوم ، بل لا نحتاج إلى التدثر بدثار الماروائية والتحدث نيابة عن عالم الغيب ، إذن فالمفكرون والعقلاء والمستنيرون يضعون على أكتافهم حمل النبوة . أى أنهم يحملون الأمانة . وهذا كله دون فخر أو اعتزاز أو حتى تمسح فى عالم الغيب والأسرار أو تنزل آية أو تقليد كتاب سماوى أو وحى . لأن طريق الوحى انتهى من قرون مضت .

يوجد موضوع فرعى يضاف إلى هذا البحث التاريخى- الأسطورى - التنويرى ويترتب عليه . أن المعجزة من ضروريات ولوازم النبوة لأنه فى النهاية من يستطيع أن يراقب ما بين الإنسان والعالم ؟ أى من يستطيع أن يكون شاهدا ومصدقا بين ما يربط " النبوة " وعالم الغيب ؟ إلا المعجزة ؟ أو التى هى بمثابة " الدليل" أو" الشاهد" أو "المؤيد" لارتباط النبى والعالم العلوى ؟ من ناحية أخرى فإن كل نبى بالنسبة للمعتقدات المسيطرة على عصره يعتبر "مرترا" حتى يستطيع أن يكون "نبيا" مثل إبراهيم الخليل . وبغير هذا لا يكون نبيا، فإذا كانت الزندقة و"الارتداد" و"الطرد" هى أول قدم فى التنوير الذى يساعد النبوة فلنعلم أن القدم الثانى فى التنوير هو "المعجزة" . وهما وجهان لعملة التنوير . وإذا لم تكن المعجزة ممكنة فى عصرنا الحاضر أو غير مطلوبة أو غير مقنعة فلذلك لأننا فى مرحلة ختم الأنبياء ، أما "ارتداد" التنوير كما رأينا فهو لا يزال موجوداً. . وبدلا من "المعجزة" حل "الكلام"كما كان موجوداً من قبل . وبالأخص أننا نعلم أن "معجزة" نبى الإسلام هى "الكلام" . على خلاف المسيح الذى كان يبرئ المرضى أو موسى الذى كان يجعل يده بيضاء . حقيقة أنه فى المعتقدات الإسلامية يتحدثون أيضا عن "شق القمر" لكن هذا ليس مجالاً للبحث أو النقاش عن الخرافات ولعبة الخرافات . وكم من الأمثلة نستطيع أن نضربها لتكرار المثلث الذى يشمل "الارتداد - النبوة - المعجزة" سواء فى زمن الزرادشتية أو اليهودية أو المسيحية أو فى الإسلام حتى إن

بعض آباء الكنيسة الأوائل كانوا زنادقة . لكن إذا أردنا أن نطرح هذا المثلث فى العالم المعاصر فلن يكون فى وسعنا أن نكتبه إلا بهذا الشكل "الارتداد – حمل المسئولية – الأمانة – النفوذ الكلامى " وإذا سمحتم فعليكم أن تقبلوا هذا على أنه تعريف آخر للتنوير المجاز الكلام .

والآن نستأذنكم أن نذهب ونستفيد ونستعين بأحمد فرديد [1]– لكى نبحث فى نقاط تخص المتحول التنويرى – ونعود مرة أخرى إلى القرون الأولى للإسلام . لنسوق مثالنا هذه المرة عن خلاف الأشاعرة والمعتزلة. كان "الأشاعرة" أهل إيمان وتعبد ويؤمنون بالتبعية العمياء. أما المعتزلة كان يتبعون العقل والتجربة والمنطق . وهذان هما أول خلافين عظيمين فى المجال الإسلامى والذى يعود إلى التأثر باليونان ونفاد حكمة أرسطو . وفى طرح مثل ذلك الجدال مما لا شك فيه أن إخوان الصفا لم يكونوا بلا أثر وأولئك الأشخاص الذين تخرجوا من دار الحكمة فى بغداد والذين اتخذوا من ترجمة آثار الحكمة والفلسفة اليونانية هدفًا لهم. على أية حال نستطيع أن نقول إن أقدم المستنيرين فى مجال الثقافة الإسلامية هما "المعتزلة " و إخوان الصفا وأحزابهم ممن اتخذوا العقل والحكمة معيارا فى التفكير والعمل بل كانوا يفسرون الدين والأصول العقائدية الدينية على أسس عقلانية وحكمة وبهذا الشكل ظهر علم يسمى " علم الكلام " أصبح أحد العلوم الأساسية فى المعارف الإسلامية ، أى أن إرساء أصول الدين فسرت على أسس العقل والفلسفة والمنطق وكان لاصطدام الدين الإسلامى بباقى الأديان الأخرى وبأنواع الزندقة والإلحاد آنذاك الدور الأكبر والأكيد فى تأسيس هذا العلم الجديد. ولكن على أية حال فإن زمن "التوجيه العقلانى" لأصول وفروع الأديان هو دائما زمن تنكيس "الإيمان " لأنه عندما تشك فى معتقداتك وأصالتك فإنك على الفور تبدأ فى الاستدلال والتوجيه . والشك فى الأصالة معناه بداية السقوط ، ودنيا الإسلام منذ ذلك الوقت وما بعده بدأت فى الانحدار نحو السقوط حتى يصل الدور إلى عصر الإيمان

(١) مفكر وفيلسوف إيرانى معاصر – عرف بتأثره الشديد بآراء هايدجر وبتأثيره على عدد كبير من كبار المفكرين الإيرانيين المعاصرين أمثال "جلال آل أحمد.. هايمدرجر .

فيعمل أصحاب الإيمان دون ليت أو لعل - أى يقصون ويفصلون ويحثون الخطى نحو فلاحهم ويطرحونه . فينفذوا أكثر لكى يبدأوا بتبرير ما يتمنون وهذه لعبة معروفة فى التاريخ. وفى كل مكان ممكن أن نجد أثر هذه اللعبة. وفى هذا المجال بالذات عليكم أن تنتبهوا إلى أن نبى الإسلام كان أميا - أى كان جاهلا لا يقرأ ولا يكتب[1] وكان يتلقى الوحى . لذا إذا كنا نعتبر أن الأمية هى الشرط الأول من أجل " نزول الوحى" بالتالى يبقى " كاتب الوحى " بعيدا عن "الإلهام" يعنى العلم اللدنى يعنى الرسالة والقيادة التى يحققها الارتباط بالعالم العلوى. "والكتابة" تعنى الاكتساب والتنوير وبالنظر إلى المعنى الأسطورى لكل من هذه التعبيرات التى أشرت إليها من قبل . أريد أن أقول إنه مادامت دنيا الشوق والإيمان ودنيا اليقين والعشق فهى دنيا بناءة ومتسعة ولكنها بمجرد أن تصبح دنيا البراهين والمبررات الفعلية والمنطق والعشق تصبح دنيا الأرجل الخشبية. ونفس هذه الآراء موجودة فى مجال العرفان[2] .

٢- نهضتان أصليتان للتنوير :

ليس فى هذا شك أن العرفان والتصوف على مدى التاريخ الإسلامى فى إيران حتى أوائل العصر الصفوى كانا هما مجالا الارتداد والتنوير . وبتعبير أبسط نرى أن جميع العرفانيين والصوفيين الكبار كانوا يتساءلون دائما لماذا وكيف فى مقابل السلطة المتزمتة للفقهاء السطحيين. ولم يطأطئوا رءوسهم لمراجع القدرة "الشرعية". ولكن

(١) بالرغم من أن ماركسيم رودنسن المستشرق المعاصر الذى كان يهودى الأصل وفرنسيًا (فإنه اتجه إلى قضية العرب وإسرائيل وأخذ موقفا تجاه إسرائيل مع العرب فى مقالة - تفسيرية فى عدد خاص (تان مدرن) العدد ٢٥٣ مكرر - سنة ١٩٦٧ - وأوضح أن إسرائيل فى الشرق الأوسط واقع استعمارى) ويقول فى هذا الشأن : إن محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث النجيب الأمى - بالمعنى الذى كان لهذه الكلمة لدى اليهود والنصارى .. ولكن هذه الكلمة أسيىء فهمها لاحقا وتصوروا أن النبى الأمى هو الذى لا يستطيع القراءة والكتابة . ترجم من ص ٢٧٥ كتاب " محمد " بقلم ماكسيم رودنسن - بهذه السمات . .Mohamed - par Maxime Rodinsou . Ed Seuil. Paris 1968

(٢) نهاية الإفاضات الشفاهية للسيد أحمد فرديد التى نقلتها بلغتى .

غالبيتهم كانوا يسكتون عن سلطات الحكومة . وأنا على الفور أسأل ألم يتخذ المستنيرون المعاصرون نفس طريق العرفانيين ؟ .... أما النهضة الأخرى فكانت النهضة الباطنية الإسماعيلية التى كانت كل ثوراتها فقط ضد السلطة القضائية والحكومات(١) . ولم يكن لها أدنى اهتمام بالمرجع "الشرعى" والجميع أطلق عليهم بشدة وبإصرار أنهم "ملحدون" . والطريف أن مثل هذه الصفة لم يلصقها بهم عالم دين فى زمانهم فحسب بل وأطلقها عليهم الوزير السلجوقى خواجه نظام الملك والأغرب من هذا أن كتاب "أسرار التوحيد" فى نفس الوقت ليس فيه أى اعتراض ولو جزئى على الحكومة . لكنه ملىء بالإشارات إلى الزندقة لشخص أبى سعيد ابن أبى الخير الذى كان يطالب بالتسامح وبالتريث المذهبى وسعة الصدر وأن يتحمل الآراء والأشخاص المختلفين والبحث والجدال مع القادة والمفكرين السطحيين . هذا الكتاب إلى جانب ذلك ملىء بأنصاف "المعجزات" – بكرامات الشيخ أبى سعيد – وباقى شيوخ العرفان . وأيضاً كتاب "تذكرة الأولياء" للعطار وعلى نفس النسق أيضا كل كتاب المثنوى لجلال الدين الرومى وبهذا الشكل ألا يتضح من هذا أن الصوفيين الإيرانيين العظام من ناحية هم أول من تناسوا قدرة الحكومة أو رضوا بها ؟ ومن ناحية أخرى هم أول من أوجد علاقة بين "الارتداد" و"المعجزة" ؟ عن طريق إيجاد علاقة بين "الزندقة" و"الكرامة" ؟وبهذا الشكل فإن كل صوفى – وخصوصاً كل واحد منهم ترك وراءه فكراً أو عملاً – نعتبره نوعاً من مستنير عصره الذى قام بالتنوير فقط فى مجال "الشرع" وليس فى مجال "العرف" ولماذا أصبح هكذا ؟ هل يمكن أن يكون السبب أن المعتقدات "الشرعية" كانت تهيئ الأرضية المناسبة لمعتقدات السلطة الحكومية "العرفية" بحيث يكون الحاكم ظل الله علـى الأرض؟ على أساس "أطيعـوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم (٢)"

(١) لكى تعرف أن هذه الثورات والتقلبات التى أدت إلى مشاكل عديدة للخلافة يكفى أن نقول إن بعد القضاء على القرامطة فيما بين النهرين سنة ٩٠٦ كانت فرانة العباسيين فارغة تماما – (وفى الحاشية) من أجل استقرار الثورة صرف ٧٠٦ مليون دينارا من الذهب – بن مسكاوية من ص ٨١ (ناصر خسرو والإسماعيلية) تأليف أثر أى – برتلس – ترجمة أرين بور .

(٢) أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم .

أو بدليل أنهم كانوا مثلنا نحن المتفرنجين لم يكونوا يرون فى الكيان الإسلامى سوى (العرب الغزاة)" ؟ أو بسبب أن اهتمام أغلب الصوفيين فى البداية كان بالهند ؟ وهى البيئة التى لا يوجد بها أى سلطة حكومية فى يوم من الأيام وبسبب كثرة أفرادها واختلاف ألسنتها ودياناتها وآدابها ومناطقها ، ولم تنهض بها مطلقا أية حكومة مركزية قومية لتمنع الطريق على أحد أو تسلب حق التفكير من أحد. على أية حال فإن هذه النقطة قليلا ما اهتم بها فى مسألة دراسة التصوف الإيرانى . ومن هنا فمن الممكن أن نسأل لماذا اتجهوا إلى الهند[1] . وممكن أن نسأل أيضا لماذا ولأى سبب يصمتون أمام السلطات السياسية فى عصرهم؟ من المعروف تاريخيا أنه كان هناك رحلات متبادلة ما بين خراسان القديمة (خراسان وما وراء النهر وبلاد الأفغان) والهند – سواء كان اختيارا على شكل هجرة للقبائل أو للسفر للزيارة أو بالإجبار نتيجة للحروب والجهاد أمثال محمود غزنوى – حتى إن شاعرا مثل ناصر خسرو الذى لم يكن معروفًا عنه حب المال أو الجاه أو الحشم والخدم على الإطلاق إلا أنه كان له "خادما هنديا" يخدمه ، وكان يرافقه فى سفرياته – ومن هنا نستطيع أن نستنبط أن "غلام هندى" الذين كانوا يلجأون إلى خراسان بالجبر نتيجة الحروب أو الحملات ، كانوا يوزعون على أهالى خراسان كخدم إذ يمكن القول إن كل واحد منهم يأتى ومعه شىء من الآداب والديانات المختلفة الهندية وتلك المعتقدات كانت تصل إلى سمع المستنير المعاصر الخرسانى وتحول كل واحد منهم إلى مصدر مباشر لمعرفة هذه المعتقدات التى عرفوها سمعيا مثل آداب الرياضة (اليوجا) والسلوك و تفهم السلوك الصدفى ومعرفة معنى الفيدامتاد (كل هذه معانى صوفية و عرفانية)

والنقطة الأخرى التى لم يهتم بها كثيرا فى هذا الموضوع هو الاختلاف العميق الموجود مابين العرفان الإسلامى فى إيران والعرفان الصينى والهندى . ففى الشرق الأقصى (الصين واليابان) هناك " الزن " zen و فى الهند هناك " اليوجا " ، وكلاهما

(١) فقط برويزداريوش كتب فى هذه القضية فى النقد الذى كان عن (شرح حال العطار) بقلم السيد فروزانفر – فى العدد الأول (كتاب ماه) كيهان خرداد ١٣٤١ .

يستخدم لتوفير التنظيم الفكرى والبدنى للرجل المفكر ، لأن أساس الأديان فى تلك الجهات لا تعتمد على عقاب وعتاب الخالق للمخلوق ولكن على مقدار الأساطير والأخلاقيات التى تصور تعدد الآلهة ، و التى ليس لهم أى تنظيم ، على العكس مما عليه الحال بالنسبة للآلهة فى المذاهب التوحيدية.. و نحن فى هذا المجال بالتساهل العرفانى – الذى يكون أحيانا على شكل اليوجا أو القيام ببعض الحركات الرياضية – نتهرب من النظام الدينى بما فيه من عقاب وعذاب شديدين وتوحيد صارم، ومن التوحيد الذى بدون كيف و لماذا؟ الذى هو نفسه نوع من استبداد العالم العلوى و المثل العليا من أجل استبداد العالم الأرضى.

على أية حال و بصرف النظر عن الكلام الفرعى ، فقد أصبح واضحا أنه مع وجود زنادقة أصحاب كرامات مثل منصور الحلاج أو أبى سعيد أبى الخير أو أبى الحسن خرقانى و كُتاب مثل الهجويرى (صاحب كشف المحجوب) أو عزيز نسفى (صاحب الإنسان الكامل) أو شعراء مثل عطار أو مولانا (الذى يعتبر تجسيماً خارجيا لشمس تبريزى) فجميع هؤلاء كانوا مستنيرى زمانهم ، إن الاهتمام بالعرفان فى القرنين الخامس والسادس الهجريين قد بلغ درجة جعلت حجة الإسلام الغزالى مع كل هيلمانه وتفوق فى الفقه والحديث والكلام، ومع كل هيبته التى كانت لديه فى المدرسة النظامية وما له من مكانة، رفض دعوة الحاكم آنذاك للاشتراك فى "الأمر" "الحكم" ولجأ إلى نوع من التصوف والعرفان حتى إنه ابتعد تماما عن كل هذه المقامات العلمية والمدرسية .

على كل إذا كنا نستطيع أن نقدم نهضتين للتنوير خلال التاريخ الإسلامى الإيرانى فأول نهضة هى النهضة الصوفية التى بدأت بداية من سنائى الغزنوى حتى جلال الدين الرومى ووصلت من اللا نضوج فى الفكر و الكلام إلى النضوج التام . و بهذا الشكل فرضت نفسها فى كل مجالات الأدب الفارسى ، و أيضا على قمة كل تاريخ للفكر و الرأى الإيرانى . وبعد ذلك دخلت دور التسلسل و التكرار منذ القرن التاسع و العاشر الهجرى ثم أصبحت ملجأ لكل أنماط الكسل والخمول. أصبحت سلعة أو بقالة لحفظ الكلام وما تريد ، أصبحت وسيلة للتحذير . والنهضة الثانية هى النهضة

الباطنية الإسماعيلية التى كانت فى البداية اعتراضاً وصرخة من مستنير زمانه فى مقابل الحكومة، لم تجد لها آذانًا صاغية تحولت إلى الفوضى والتهريج أصبحت نوعًا من (الفوضوية) والغوغائية ورغم أنها لم تكن مسموعة فى أدب ناصر خسرو القبادياني فإنها مع وجود خواجه نصير الطوسى أصبحت ظاهرة فاعلة تستند إلى القيادات المغولية للقضاء على الخلافة فى بغداد. وبعد ذلك توقفت هذه النهضة وأصبحت غير ذات أهمية وأصبحت تعانى من ألوان عديدة من اللامبالاة من أصحاب الصوت العالى ومن يشاء - وتحولت إلى شكل مضحك بحيث إنها الآن فى الهند وباكستان يوضع أغاخان المحلاتى وجميع أحفاده فى ميزان ويوزنون بالذهب والجواهر ، وكانت هذه الجواهر نوعًا من الاستثمار فى ظل الوجود الأجنبى وهذه هى "فوائده" . وبعشر أعشارها، يبنى مسجدا أو ضريحا لكى يصبح مزارا لأحد الأئمة السبعة فى الشيعة .

من هاتين النهضتين اللتين كانتا إحداهما ثورية فى باطنها - علاوة على أنها داخلية وتعطى التسلية للنفس وتقوم بدور "الرقيب" على جسد روح الشخص المفكر والأخرى ثورة خارجية - علاوة على أنها خارجية وتقوم بدور "الرقيب" على سلامة المحيط الذى يجب أن يتنفس فيه الشخص المفكر ، أحيانا أيضا ولنفس ذلك السبب تكون مخربة و"إرهابية" ، وقد أفرزت هاتان النهضتان فى نهاية المطاف إنسانًا حاذقًا ذكيًا مثل حافظ الشيرازى فقد كان عارفا وزنديقا فى نفس الوقت وكذا ذكيا . وفى النهاية أصبح هو المنتج للبانوراما الحياتية للإيرانيين وأصبح مجموعة من الأضداد : من الاعتراض والتسليم ، والقيام والقعود ، والبله والذكاء والإيمان والزندقة ، من الاجتهاد والإهمال من الجبر والاختيار . على أية حال فإن هاتين النهضتين التنويريتين كانتا مؤثرتين ، ليس فقط فى بناء الفكر الإيرانى بل إنهما أيضا أثرتا فى بناء التاريخ الإسلامى الإيرانى . قطعا لايجب بالقطع أن أى نهضة تنويرية أخرى أو أى زعيم تنويرى أن ينتسب إلى هاتين النهضتين . لكن عندما نتوجه إلى أى نهضة أو أى شخصية بدون شك يكون لديها نوع من الميول أو الانجذاب إلى هاتين النهضتين .

الآن بدون أى مراعاة لأى ترتيب - سواء من الناحية التاريخية أو الموضوعية - أريد أن أذكر بشكل سريع ما كان موضع اهتمام مستنيرينا القوميين، الذين سبقونا

على طول التاريخ الإسلامى لإيران وأضع خطوطًا سريعة وأطرح لكل واحد سلبياته وإيجابياته نجاحه وفشله الذى كان له دخل فى صنع التاريخ والفكر والشخصية الإيرانية ولهذا الغرض أبدأ من ناصر خسرو . الذى بدأ سلوكا فى عالم الواقع "بسفر نامة" و فى كتابه "زاد المسافرين" بدأ سلوكا فى عالم الفكر . فقد كان مستنيرا عالما بجميع المسائل الدنيوية المعاصرة ، وكانت له بصمة فى طريق النهضة فى ذلك الزمان الذى كان فى ذلك الوقت يعتبر زمن الرقى وأصبح من المبارزين فى طريق القضاء على الظلم والفقر والجهل . لكن للأسف لم يكن المجال مناسبا أو مهيأ لتلك الآراء[١] . ولذا أجبر على البقاء فى "يمكان" وقضى بقية عمره هناك حتى مات وعندما مات أصبح شهيدا وأصبح إماماً[٢] وبنوا على ضريحه بعد الموت مزاراً صار من مزارات الأولياء. وهذا يعنى أن أى رجل مناضل مستنير يجبر على العزلة والسكوت وبعد موته يصنع له الضريح. أى أننا لا نسمع كلمات على نشيدها - لضعفنا وعدم قدرتنا . إذن فكل هذه المقامات وكل هذه المساجد لم نبنيها بدون سبب ! وهذا معناه أننا جميعا آله لصنع الشهداء لإرضاء الشعب الإيرانى الذى يحب الشهداء . وهكذا فنحن لدينا هذا المرض منذ زمن سياووش حتى الآن [٣] . وهذه أيضا إحدى السمات الأساسية للاستبداد والأنانية وحب النفس بحيث إنه عندما ينفرد شخص ما بكرسى السلطة، فالنتيجة تكون أن المستنير الذى لا يستسلم لهذه السلطة،"الأمر" يكون شهيداً. ويبقى على الأقل بذرة صالحة للسماء. وسوف يصبح فى التاريخ إنسانًا عاديا لا أهمية له.

(١) وللبعد عن الثرثرة أطلب منكم أن ترجعوا فى هذه المقولة إلى (ناصر خسروا واسماعيليان) من آثار آى - برتلس - ترجمة آرين بور - نهضة الثقافة الإيرانية - شهر دى ١٣٤٦ - وراجعوها كلها بدقة .

(٢) ارجعوا إلى مجلة يغما ، ١٣٤٦ صفحات ٤٣٨، ٤٧٢ فى مقالة بعنوان " يمكان ووثائق تاريخى فى قضية ناصر خسروا بقلم خليل الله خليلى الكاتب الأفغانى وأيضا ارجعوا إلى (خلفاء الإسماعيليين فى بامير) يقرأون كتاب "وجه دين" لناصر خسرو بنية الشفاء على سرير المريض وبقصد العفو عن أموات القبور . من حاشية ص ١٥٠ - ناصر خسرو والإسماعيليين . بقلم آى . برتلس أيضا ارجعوا إلى صفحات ١١ ، ١٥٤ من نفس الكتاب .

(٣) وسيأووش نفسه هو نوع من المستنير الأسطورى والنموذج العللى أيضا لهذه النوعية (عقدة قتل الابن) التى ذكرها لأول مرة (فريدون هويدا) فى مجلس من مجالس " مؤسسة مطالعات اجتماعى " مع طرح قضية مقتل سهراب - فى ظن سنة ١٣٤٤ - ووضعوه فى مقابل " عقدة قتل الابن " - لأوديب وأيضا يعد نموذجا عاليا آخر من الشهادة .

حقيقة فى هذا الزمن أيضا كان يوجد لدينا السهروردى . كان أيضا مستنيرا مناضلا وكان يهتم بالإشراق . بمعنى آخر كان رابطة بين الهند وأفلاطون وزرادشت[1]. لم يتحملوا وجوده وقتل فى النهاية واستشهد. صحيح أن ناصر خسرو كان من الذين يهتمون اهتماما شديدا بالباطنيين ، والسهروردى كان من زمرة الصوفيين لكننا نراهم يسيرون جنبا إلى جنب فى نفس الطريق . وصحيح أيضا أنه لا السهروردى ولا ناصر خسرو صناع تاريخ، ولكن كليهما جسَّد سياووس على أرض الواقع.

وفى نفس الوقت أيضا كان لدينا الفردوسى ولكننا نجد أن الفردوسى بعد هجوم العرب وتغير الزمن يجلس بكل صبره وبكل ما لديه من قدرة وبكل عظمة لحفظ الأساطير من الضياع ! ويصنع منها تاريخا . نفس العمل الذى قام به جلال الدين الرومى فى أثناء حملات المغول . ونرى هل المستنير المعاصر لديه الجرأة واللياقة ليجلس ويقابل هجوم الغرب الذى يكون أول قدم لهجومه متجها إلى جمع ما هو تقليدى وتاريخى وحضارى ويستطيع أن يحفظها من هجوم الغرب ؟ أو يضع بدلا من الأفكار الغربية شيئًا آخر؟ ولنعد مرة أخرى إلى نهضة الباطنيين وآرائهم التى لم نسمعها عن لسان ناصر خسرو و أيضا عن لسان الآخرين. لكن اعتراضهم على الحكومات وصل إلى حد التخريب "والإرهاب" – حتى إنهم كانوا يخالفون نظام الملك – الذى كان فى ذلك الزمان مثالاً راقيًا للمستنير الذى لديه القدرة على الجلوس على مسند السلطة وهؤلاء الباطنيون الإسماعيلية بعدما يأسوا من التخريب الفردى والمحلى كما سلف ذكره وصل بهم الأمر إلى أن قاموا بإجلاس خواجه نصير الطوسى جنبا إلى جنب مع هولاكو وحقيقة أن الخلافة فى بغداد قد قضى عليها بهجوم المغول لكن يجب ألا ننسى أن الباطنيين كانوا سبب اهتزاز أسس دولة حكام بغداد التى جاوزت ال ٣٠٠ عام و أسقطوها من خراسان حتى مصر ومن قهستان حتى البحرين ، وكما تأسست الخلافة على أيدى طاهر ذى اليمينين الخراسانى انتهت أيضا على أيدى خراسانى آخر .

(١) ارجعوا فى هذا الشأن إلى " عقل سرخ " دار نشر دوستداران كتاب وإلى رسالة فى حقيقة العشق فى مجلة (بيام نوين) الأعداد ٧ و٨ سنة ١٣٢٥ وإلى روابط حكمت أشراف وفلسفة إيران باستان عن هنرى كوربان من نشريات أنجمن إيران شناس .

أشرت فى مكان آخر إلى أهمية خراسان فى تأسيس الثقافة و الحضارة و اللغة فى العصر الإسلامى فى إيران و كان هذا بسبب الرفاهية النسبية لأهالى تلك المنطقة - إذ كانت أبعد منطقة تابعة للخلافة فى بغداد - و كانت أسرع من جميع الأماكن فى رفع علم الاستقلال . و الآن نريد أن نركز على اثنين أو ثلاثة من الخراسانيين الآخرين، من رعيل المستنيرين القوميين . أحدهما الخيام و بالرغم من أنه كان مشهوراً فى زمانه بأنه عالم و رياضى و منجم - فإنه اليوم معروف بأنه شاعر - و السبب أن الخيام كان عالمًا فى مجال العلم وحلقة من سلسلة متكاملة مع بعضها فى تطور علم الرياضيات و النجوم و اليوم مع انتشار العلم بصورة أكبر فنحن غير محتاجين ليكون مصدرا لهذه العلوم[1]. لكن صاحب الاهتمام العميق بقضايا الفكر الأبدية فإننا لا نزال نعرفه ونقرؤه ونقدره حق قدره. والخيام كان مثالا كاملا للمستنير المتخصص فى العلم - دون أن يدعى الرياسة ودون أن تكون له أى مركب يقودها فى عالم السياسة - وكان تاركا أحوال الأرض وناسها ومتجها إلى عمل الأفلاك . وفى أشعاره كان يذكر دائما أننا لسنا بشىء على الإطلاق ، ولا غاية معقولة من وجودنا والوجه الآخر للعملة العبثية عنده هو ما يتمناه فى إحدى رباعياته التى تقول "إذا جعلونى سيد هذا الفلك مثل الخالق سوف أمحو هذا الفلك من الوجود...." و إلخ[٢]

وخلاصة شعره هو الشك والاعتراض والعجز واليأس من العالم العلوى وعالم الغيب "الميتافيزيقى" . وكأن العالم السفلى لا وجود له على الإطلاق، وغير جدير بأى اهتمام. والغم و الهم الموجود فى شعره ناتج عن اليأس. وهذا هو السبب أن رباعيات الخيام أصبحت أبدية و أزلية . وعلى الأخص أنها ترجمت إلى الإنجليزية - ومن الإنجليزية وجدت طريقها إلى جميع لغات العالم - وعندما ترجمت كانت توضح الطبقة البرجوازية المرفهة فى عهد فيكتوريا الإنجليزية التى كانت تبحث أكثر عن نعم الأرض،

(١) نقلته عن أستاذى فى المرحلة الثانوية السيد (محيط طباطبائى) وكان قد أذيع فى حدود العلم فى إذاعة طهران من وبأى عنوان ؟
لم أتذكر ولكن الموضوع بقى فى ذهنى . وهذا السيد طباطبائى واحد من الأساتذة الذين لهم حق كثير على عاتقى .

(٢) ارجعوا إلى (كارنامه سه ساله) بنفس القلم . ص ٢٤٤ نشريات زمان ١٣٤٧ .

والتى كانت تأتى إليها النعم على محمل الاستعمار من الأركان الأربعة للعالم وتقف على باب منزلها . وإذا كان الخيام ينظر إلى الدنيا بهذا الشكل فقد كان لديه حق لأنه فى زمانه كانت الأرض وما عليها ظلا للسماء . إذن إذا كان هناك اعتراض على شىء فهو ليس الاعتراض على هذا الظل ، لكن الاعتراض على منبع النور . على العموم فالخيام يأخذ نفس طريق العرفان ولكن بلغة أخرى وبقصد آخر . ونحن نعلم أنهم اتهموه فى زمانه بالزندقة أيضا وقالوا عنه إنه مرتد. ولابد من الإشارة إلى التأثير الشديد الذى كان لـه على صادق هدايت أحد أبرز رواد الأدب المعاصر من الكتاب بالنسبة لنا ؟ فقد كان يمشى على درب الخيام . وكان هذا الكاتب لديه قيم كثيرة (polyvalant) وكان يعمل فى اللاوجود (إما بقتل أو انتحار أكثر أبطال قصصه أو بانتحار شخصه) وإذا كنا نريد أن نقوم بتحليل سريع لأعماله يمكن أن نقول إنه كان كاتبا لعصر (الاختناق والاستبداد) (بروايته الشهيرة = البومة العمياء) الذى لم يكن يتحمل الفترة التى جاءت بعد ذلك ، أى لم يكن يتحمل ما حدث من فوضى بعد شهر بور سنة ١٣٢٠ (أواخر صيف ١٩٤١م) . وبالرغم من أنه حتى فى انتحاره يمكن أن نعتبره نوعًا من إعادة الاعتبار والحيثية للأشراف التى فقد حثيثها بعد المشروطة .(الثورة الدستورية) والتى كان يجب عليها أن تعطى مكانها للطبقة البرجوازية الجديدة ، ولكن هدايت خسر فى هذه المعركة . وهذا مرد نزوعه للشيوعية المتجسد فى قول ماركس – فى أصعب ظروف الصراع الطبقى يوجد أشخاص من "المثقفين الأذكياء" من الأشراف والطبقة الحاكمة يقطعـــون صلتهم بمنشأهم وينضمـــون إلى صفوف الـ "برولتاريا" أما الـ "برولتاريا" التى كان يجب أن تعرف هدايت وتعرف قيمة أعماله فى ذلك الوقت كانت فى سبات عميق – لأنها ما زالت لا تستطيع أن تقرأه. ولهذا السبب فإن أحسن أعمال هدايت هى قصة "الكلب الضائع" التى ترتبط بعالم آخر وأصحاب آخرين وفى هذا العالم "الواقع" الذى نحن فيه غرباء ومحكومين بالصفعات والتنحى جانبا لأخذ أنفسنا. وهى أكبر استعارة يمكن أن يوصف بها المستنيرون الغربيون فى هذا المجال، فهم يجلسون فى ذلك المحيط القومى لكنهم غرباء ، ودائما يبحثون عن أماكن أخرى ، وعن أشياء أخرى ، ويتخيلون مثل الخيام الذى كان دائما يبحث عن الملكوت .

إننى حين اختار التحليل الأدبى لدراسة موضوع المستنيرين فإننى أعتقد أن الأدب على مر الزمان هو جهاز الاستقبال الذى من خلاله تقرأ لنا الوقائع المستقبلية وأن أى هجوم أو أى سيل أو زلزال يضرب فى أساس المجتمع ويدمره أو يهزه هو الأدب . وهذا القارئ المستقبلى له الأنشطة الثقافية المتعددة فى كل مجال حضارى لأنه يعمل فى صميم الحياة وبلسان الأم ويجب أن يكون أسرع من الأنشطة الثقافية الأخرى بالإحساس بالوجود الأجنبى وحضوره أو فى الهجوم الاحتمالى فى المستقبل (لأنه ينبع من الصميم) . ولكن نرى سواء فى زمن الثورة الدستورية أو بعد ذلك أن الأدب أصبح خاملاً، هل لأنه ما زال يعانى من ركود العصر الصفوى ؟ على أية حال فإن جمال زادة و دهخدا و بهار الذين ظهروا على الساحة الثقافية قبل هدايت – كان الثلاثة يتكلمون بلسان حال الناس العاديين (الأول كان فى قصصه والثانى كان فى كتاب صور إسرافيل – والثالث فى أشعاره التى قالها باللهجة الخراسانية) أى كانوا يريدون أن يتحدثوا للناس بأسلوب من القلب يفهمه أغلب الناس – أما الأول خرج من الدائرة وهرب إلى الخارج ربما لأن حياة أبيه (سيد جمال واعظ) [1] ومصيره كان يراها أمام عينيه ، والثانى أصبح بلا أثر أى بدون تأثير يذكر ولعله تأثر فى ذلك بعزلة الكاتب محمد قزوينى ومذهب المستشرقين وتفرغ فى النهاية لوضع المعاجم اللغوية مثل معجم اللغة العامية. والثالث دخل مجال السياسة فى أوائل عمره وأواخره بينما تفرغ فى منتصف عمره للتحقيق والتفسير ونفى إلى أصفهان حتى إنه نظم سنة ١٣١٣ قصيدة لشركة النفط . والنهاية لماذا شخص مثل بهار يخدع بالمظاهر ؟ وإذا كان هؤلاء الثلاثة لهم مكانتهم فماذا يجب أن نقول عن هدايت وهو صاحب "بوف كور" "البومة العمياء" والتى ما هى إلا تخليد تصور الجو الحاكم بعد شهر يور سنة ١٣٢٠هـ. لكن هدايت فى نفس الوقت كان منفصلا تماما عن الثقافة الإسلامية وربما حاقداً عليها و"علوية هانم" و"محلل" و"المحلل" و"أنيران" لا نجد فى أى من أعماله الكثيرة

(١) كان والد محمد على جمال زاده خطيبًا مفوها فى أصفهان ومن أبرز أنصار الثورة الدستورية ، وكان منددًا بسياسة محمد على شاه القاجارى المعادية للحياة النيابية فى إيران ، واعتقله الملك القاجارى وسجنه حيث مات مسموما فى السجن ، حين كان ابنه محمد على يدرس فى بيروت وتنحدر أسرته من أسرة علوية حتى أسرة الصدرُ بجبل عامل فى لبنان .

أثر العهود الإسلامية بل إن كتاباته أحيانًا كانت تصب لصالح النزعة الزرادشتية التى كانت موجود قبل شهر يور سنة ١٣٢٠ وكان يؤيدها. وحسب هذه الدلائل فلا يمكن القول إنه هو ذاته يشبه إلى حد كبير "الكلب الشريد" الذى تحدث عنه. ومما يثير انتباهنا أيضا الكاتبين "بزرج علوى" و "جوبك" اللذين كانا متأثرين بهدايت ، لأنه كان الرائد فى هذا المجال وكانوا من الكتاب المتفرنجين وبقوا هكذا . وبعض قصصهم كانت مولعة بالسيدات الإفرنجيات مثل ("اسب جوبى = الحصان الخشبى" لجوبك وقصة أو قصتان أخريان عن"جمدان" (الحقيبة) لبزرج علوى) أو كانا يتحدثان فى قصصهم عن أجواء الفساد والرذيلة. وإذا كانا يهتمان بالمجتمع الشعبى بمعتقداته التقليدية فى أعمالهم فلم يكن ذلك يبقى فى حدود من قصة "جراغ آخرأى" المصباح الأخير ، وهو الآخر أشبه بالبيان المناهض للدين.

وإذا صرفنا النظر عن قضية " كركرة بن صرصرة بن فرفرة بن ......إلخ ..." نرى هذه القصة تبدأ بكلمة "أى جلال الدولة" وهو نوع من السخرية للمعتقدات الخرافية لميرزا أغاخان الكرمانى .

بعد هذه النقطة الفرعية نعود مرة أخرى للخراسانيين وأهم شخصية فيهم هو خواجه نصير الطوسى . مستنير صنع التاريخ بعد أن هدمه. وكان مثالا عاليا لطبقة المستنيرين المعتمدين على دعم السلطات من أجل التأثير فى الواقع. والحق أن هذا الرجل ترك أثرًا ملحوظًا فى الواقع وجاء تأثيره فى محله الدقيق. فى بداية نضجه العقلى التجأ إلى الإسماعيلية الباطنية حتى إن اسمه كان مقتبسًا من اسم ناصر الدين إسماعيلى أمير قهستان. أليس السبب أن النهضة الباطنية كانت سيفا فوضويا وعدم النظام يضرب جميع رقاب المؤسسات الحكومية الفاسدة ؟ وإذا كان قد تحالف مع المغول و احتمى بهم وصار وزيرًا لوزارة هولاكو . فلأنه وجد أن هذا الخيار يمثل سوط الغضب الإلهى فى يد هولاكو الذى انهال على الخلافة فى بغداد. ألا يمكن أن نستنبط أن خواجه نصير "الذى قطعا قرأنا عنه بصورة بسيطة !" هذا المثال التاريخى المعروف صاحب المقام المستنير فى القرن السابع الهجرى أراد أن يهدم المؤسسات الحكومية الدنيوية المعاصرة له حتى يضع مكانها شيئا أفضل؟ يمكن أن يلاحظ هذا فى صانع التاريخ، يمكن أن نرى نوعًا خاصا من المستنير المهاجم الذى

يأس من التأثير فى الواقع ، وييئس تماما من "الإصلاح" للأوضاع القائمة ، أو تبديلها ولو حتى جزءا منها ، ويصبح هذا الشخص هو المدد أو الخلاص مثل الزلزال أو السيل يضرب أسس الحكومة ويهدمها . هذا الشخص ضرب بكل قواه نقطة الارتكاز التى كانت الأساس لسقوط الدولة التى حكمت ٦٠٠ سنة فى بغداد ، وإذا نظرنا إلى هذه النقطة الأخرى لوجدنا أن المغول والتيموريين والإيلخانيين ومن جاء بعدهم ، كانوا يهتمون برصد السماء والنجوم وكانت لديهم مراصد كثيرة موجودة حتى الآن من سمرقند حتى مراغه ، وهذا يعنى أنهم كانوا على قناعة تامة بأنهم يعملون فى الأرض طبقًا لدلالات السماء، وكانوا يعملون على أساسها . ألم يتأثر الخيام أيضا بهذه المسألة و كان يرى أن الأرض والأمور الأرضية غير جديرة باهتمامه وإنما كان يئن دومًا من السماء و الأفلاك ومقاديرها ؟ ألم يكتب نظام الملك أيضا أن أى حاكم هو منتخب من السماء على الأرض ؟ . ثم المغول و التيموريون الذين أقاموا أساس حكومتهم هنا و ضربوا المدن و هدموا القلاع وأعطوا أنفسهم الحق على اعتبار أنهم المختارون من السماء. على أية حال لا نشك فى أن جنكيز وتيمور كانا يعتبران نفسيهما سوط السماء على وجه الأرض .

وهدفى من هذه المقدمات، لكن القول ألم يحن الوقت لإعادة النظر فى تقويمنا للمغول وزعمائهم الذين استخدمناهم قرونًا من الزمن غطاءً نستر به عيوبنا ونواقصنا. إن البناء المتصدع منها ينهار وبأقل رطوبة. ثم ما هى حاجاتنا للأنين من زلزال أو سيل؟ أو أى عربة ثقيلة تمشى فى الشارع ؟ و إذا كان مستنير ذلك الزمان ، فى زمن المغول والتيموريين، كان قد رأى فيهم سوط الغضب الإلهى ، فساعدهم فى هجومهم على الأقل وسكت عنهم أو هرب – أى إذا كان لم يقبل وجودهم ويجابههم بالألم والأنين إذن لماذا نحن بعد ٨٠٠ عام نجلس فى عزاء تلك الواقعة ونتخذها شماعة نعلق عليها كل إخفاقاتنا وانحطاطنا وسلبياتنا ، وكم ملأوا أسماعنا بما يشبه هذا الأنين المزيف حول ظهور الإسلام وسقوط الحكومة الساسانية. وأقاموا المآتم وها هى المآتم مرة أخرى لإدانة حملات المغول ! و اليوم فى أى تاريخ رسمى أو غير رسمى أو أى مدرسة أو كلية عندما نفتح الكتب نجدها مليئة بالنواح و البكاء على هاتين الواقعتين ، حتى إننى أيضا فى بعض المقتطفات التاريخية كنت متأثرا من هذا الشيء . لكن فى الوقت الحالى أريد أن أوضح أن النقطة الأولى وهى أن هجوم الأعراب كانت أرضيته المحلية مهيأة له.

وكذلك هجوم المغول أيضا كانت له أرضيته المحلية أيضًا وأحد هذه الأسباب هو نفوذ الأتراك فى قيادة الجيش والجنود الذين كانوا يأتون بشكل اختيارى لا إجبارى إلى جميع أنحاء إيران وحتى فى بغداد منذ أوائل الحكومة الساسانية. ثانيهما التخريب الدائم للباطنيين الإسماعيليين. وثالثهما طريقة الإقطاعيين فى إدارة الأرض – " أو نظام إقطاع الأراضى فى بنية المجتمع وما إلى ذلك من العناصر وبالتالى فإن هناك نوعا من الضرورة التاريخية لتلك الفتوحات. فى كتاب "غرب زدكى = نزعة التغريب" ذكرت أن العالم الإسلامى تعرض خلال القرنين السابع والثامن الهجريين إلى هجوم من ناحيتين. وهذا كان نتيجة تآمر من مدة سابقة ، والآن أريد أن أضيف أنه إذا كانت عوامل السقوط غير موجودة فى الداخل فإنه لم يكن من الممكن أن تؤتى تلك الهجمات المزدوجة ثمارها. إذا كان سعدى لم يتكلم عن هذه المسائل ، وإذا كان شمس قيس الرازى فى مقدمة "المعجم" اشتكى باختصار عن هذه الأشياء فى أثناء شرح فراره أمام سيل المغول ، وإذا كان المؤرخون فى ذلك العهد الذين كانوا ضمن مستنيرى ذلك الزمان بدون شك قد تكلموا عن هذه الوقائع على أنها أمر طبيعى وليس فيها ما يدعى الشكوى – إذن ما شأننا نحن ؟ وعلينا أن ننتبه أننى بعد هذه المقدمة التى كنت أريد أن أقولها فإننى أحمل مسئولية الأحداث على عاتق مستنيرى الوقت . تعالوا وانظروا إلى جهانكشاى [١] وتصفحوه أو أى تاريخ آخر تكلم عن ذلك الهجوم ، تروا أنهم لم يكن لهم سوى قدر ضئيل من الالتزام! بل بالعكس كانوا يقدمون خدمات كثيرة وسوف أضرب لكم مثالا على هذا :

" إنه فى الرابع من شعبان وصل السلطان عز الدين روم فى موتبق الواقعة على حدود تبريز لأداء الاحترام لهولاكو وفى يوم الأربعاء الموافق اليوم الثامن من نفس الشهر جاء السلطان ركن الدين بعده . لكن هولاكو أخذ على خاطره من السلطان عز الدين نظرًا لأنه لم يبد اهتمامًا بـ "بابحونويان (الأمير) وغضب منه . و لكن بعد احتلال بغداد شعر السلطان عز الدين بالذنب تجاه هولاكو و أراد إيجاد حيلة للتخلص من

(١) كتاب تاريخ مُهابن كَشاى " أى فاتح العالم ألفه عطا ملك الحويمى فى ثلاثة مجلدات ونقل إلى اللغة العربية . (المراجع) .

هذه الورطة . وأمر بخياطة حذاء ملوكى نادر جدا وبأن يجعلوا صورة وجهه على أسفل الحذاء، وأهدى الحذاء لـ "هولاكو" فى أثناء الركوع أمامه وحينما وقع بصر الملك على تلك الصورة قبل السلطان الأرض وقال أرجو أن يعظّم الملك رأسى بقدمه المبارك، فأخذت هولاكو الشفقة عليه . و طلبت دوقوز خاتون التى قامت على تربيته أن يغفر الملك ذنبه. فعفا عنه هولاكو . فى ذلك الوقت أوضح خواجه نصير الطوسى أن السلطان جلال الدين خوارزم شاه عندما يئس من الانتصار على المغول ووصل إلى تبريز كان جنوده يتطاولون على الرعايا فى ذلك الوقت . قالوا له لماذا جنودك يتطاولون؟ قال نحن فى هذا الزمن نحتل الأمصار ولا نديرها وليست رعاية حالة الرعية شرطًا فى حال احتلال الأمصار وإذا تحولنا إلى تدبير الأمصار سنأخذ للضعيف حقه من القوى. فى هذا الوقت قال هولاكو: "الحمد لله نحن نحتل الأمصار. وندبرها، نقاتل المتمرد، وندبر أمور المسلمين، ولسنا ضعفاء عاجزين مثل جلال الدين والسلام" (١).

ترون أن جميع الأسماء هنا معروفة والكاتب هو رشيد الدين فضل الله . كاتب جامع التواريخ . وبفضل أمثال هؤلاء المستنيرين فإن أعباء الثقافة ستلقى إلى الأرض فى منتصف الطريق. وبفضل هذا النوع من المستنيرين الذين وصلنا بهم من ذلك الزمان الماضى حتى هذا الزمان الحالى. وبفضل هذا الشكل من المستنيرين نصل للمستقبل.

اسمحوا لى قبل أن أختم هذا الفصل، أن أقدم فى عجالة المجال المستنير الإيرانى بنماذجه المتأخرة للتدليل على أن أسلافا من المستنيرين لم يكن بإمكانهم إنجاب إلا مثل هؤلاء الأخلاف. إن ما حدث فى الدولة الصفوية ذكرته فى عجالة فى كتاب "غرب زدكى" "نزعة التغريب" ويبقى لدى العصر القاجارى وما تلاه. و"قائم مقام" كان شخصية بارزة تنويرية فى هذا العصر . وهو آخر نموذج من كتاب الديوان . وبالرغم من أننا لدينا بعده نماذج أخرى من كتاب الديوان حتى قوام السلطنة فإنه لا يوجد أحد مثله ترك مدرسة (فى النثر على أقل تقدير). والطريف أن قوام السلطنة ذاته كان مقلدا لقائم مقام فى كتابة اللوائح والبيانات . و إذا كان ملك الشعراء بهار

(١) صفحة ٦٦ المجلد الثالث (جامع التواريخ) طبعة باكو ١٩٥٧ . باهتمام عبد الكريم على أوغلى على زاده . من قصص هولاكو خان.

مستنيرًا تاليًا لفترة الثورة الدستورية، فإن قائم مقام النموذج الأكبر لفترة ما قبل الثورة الدستورية، أى مستنير فترة هزيمة تركما نجاى [١] و"بناء عليه" أن الزمان هو الذى يعطى العزة حينا وحينا يأخذها - إلخ .." حتى إن هذا المستنير لم يحاول التعمق فى معرفة أسباب الهزيمة، ولكنه اكتفى بالعزاء والسلوى. ولا يزال مثل الخيام يعتمد على القضاء والقدر . ولعلنا مثله فى كل ممارستنا ؟ وبدلاً من أن نوضح الأسباب والدلائل لما أصابنا نحاول إيجاد المبررات أو تسلية أنفسنا بهذا الدواء أو ذاك - على كلٍ فإن قائم مقام وقاآنى [٢] هما آخر الأمثلة التى نقدمها فى عالم "الكلام" لعالم "الأمر" . وهما أيضا لم يستفيدا من هذه الخدمة فى عالم "الكلام" ولا أفادوا فى عالم "الأمر" . بل إن عالم "الكلام" وعالم "الأمر" تضررا من هذه الخدمة . مع الفرق أن قائم مقام عندما قتل أصبح شهيدا ، أما "قاآنى" فقد مات ميتة طبيعية مع كل قدرته فى الأدب لم يبق عنه أثر (ويقال إنه هو أول شخص كان يفهم الشعر الفرنسى) هل لأن زمنه كان زمنا اختلطت فيه الأشياء وكانت قبيحة ؟ على كل فقد كان آخر الأشخاص المداحين فى الدواوين فقد انتهى عصر مادحى الدواوين بعده. ومن بعده وقع الشعر فى أيدى الناس والصحافة ، وفى قيم تلك المياه الجديدة تعلم دهخدا السباحة و برز بهزله ونظرته الاجتماعية التى أودعها نثره وتجديده. ودهخدا بسبب الوقائع التى حدثت فى أواخر عمره، عزل نفسه وأصبح يكتب فى المعاجم ويعتبر نوعًا آخر من المستنيرين الذين كانت لهم قيم كثيرة . مثل ملك الشعراء بهار الذى كان يبحث عن أساليب جديدة فى عالم الأدب . إلا أن دهخدا كان أكثر ميلاً إلى السياسة والصحافة. وكان آخر خراسانى أعطى لخراسان اعتبارها . فى ذلك الفضاء الذى كانت تنقسم فيه إيران إلى قوميات وإلى أعلام مختلفة قام بتقسيم خراسان إلى ثلاثة أو أربعة أجزاء. مع ميله إلى السياسة أكثر . وكان رئيسا لتحرير عدد من الصحف، كما تأثر برسول زاده فى نثره .

(١) تركما نجاى اسم المعاهدة وقعت بين إيران وروسيا فى أثناء فترة حكم فتح على شاه القاجارى بعد هزيمة الجيش الإيرانى من الروس، تخلت إيران بمقتضاها على مناطق واسعة من حدودها الشمالية مع دفع غرامة كبيرة.. (المراجع)

(٢) أحد شعراء العصر القاجارى.. ١٨٠٧ - ١٨٥٣م ومدح ملوك الدولة القاجارية، لاسيما ناصر الدين شاه. (المراجع)

مع كل هذا فهو من ناحية أول مستنير إيرانى جاء بعد شمس قيس الرازى للبحث عن معايير و أشكال أخرى فى النقد الأدبى وجماليات الكلام . ومن ناحية أخرى فهو آخر الأفراد المستنيرين الذين جاءوا قبل عهد "القدمية" (ويقصد قبل ثورة سنة ١٢٩٩ ش = ١٩٢٠م) والمستنير المعاصر إن لم يكن لديه قدرات الفردوسى وجلال الدين الرومى فهل بإمكانه مجاراة هذين الاثنين المعاصرين؟ صحيح أن بهار على خلاف دهخدا مستغرب و ليس لديه رؤية سياسية أو اجتماعية مستقرة وفى نفس الوقت كان قد قال قصيدة فى النفط وقال قصيدة "بوم وشعر فى الحرب"، على كل فإن شخصيته تحولت من شاعر ارتجالى نتيجة قول الشعر البديهى الذى كان يلقى الشعر فى المطارحات الشعرية فى مشهد، وناظم أبيات لابد من أن تكون فيها كلمات "الديك والعنب والراية والحرب"، إلى شخصية مستنيرة خلاصة فترة تاريخية كاملة. و هى الفترة التى سبقت سنة ١٢٩٩فترة يتلخص فيها ظهور "القدميه". ومع أن بهار كان خلافًا لدهخدا كان آخر أمثلة للتنوير الكلاسيكى الذى اجتذبته السلطة الحاكمة. وكان يجلس إلى جوار الحكومة ، ولكن على أية حال فهم نموذج مغتنم، بالذات أنه كان فى فترة كان فيها ايرج ميرزا يتكلم بلسان جديد و لكن بفكر عتيق، وكان هذا الأمر مرتبطًا بطبقة الأشراف فى العصر القاجارى التى لم يعد لها محل من الإعراب، حتى إنه حين يريد أن يتحدث أو تمثيله دور المتحررين كان يتكلم عن أضرار الحجاب " وكلام المناسبات" أو يقلد سعدى فى الكلام عن الرجولة ومسئوليتها لكن أهمية بهار وضحت أكثر عندما نتكلم مرة أخرى عن عشقى الذى كان لديه لسان لاذع و فكر ثورى يصل إلى درجة الغوغائية. و لكنه جاهل تمامًا بالأفكار السياسية المسلطة آنذاك، لم تكن تفتنه سوى حمرة الدماء. نستطيع أن نعتبر أن عشقى هو آخر فرد من الباطنيين – وهو وارث لمحمد مسعود – الذى ظهر مع بدايات البرجوازية فى الشعر وما فعله محمد مسعود فى النثر. أى أن الاثنين عندما لم يسمع كلامهما اندفعا ناحية الفوضوية ، وما يثير الانتباه أن كليهما كان تحت سيطرة "الشفق الأحمر" ودشتى الآن من الجالسين على مقعد الحكم ومن أعضاء مجلس النيابى .

والآن أريد فى نهاية هذا العرض السريع لطبيعة أنشطة المستنيرين عن كم وكيف عمل مستنيرينا القوميين وأعمالهم على مدى التاريخ المدون لإيران أن أقدم تصورًا مبدئيا لتصنيفعهم وتأثيرهم:

المجموعة الأولى مجموعة "الشهداء" الذين اعتمدوا على الضلع الأول من أضلاع مثلث "الارتداد- حمل الأمانة - إعجاز الكلام" . هؤلاء الجماعة الذين هم مجموعة المثاليين المتشددين والمتعصبين والمقلدين للأنبياء. ولو جاز لنا أن نبدأهم بمانى حسب الترتيب وبدون مراعاة ذكر جميع الأسماء - نصل إلى مزدك والمقنع النخشبى إلى القرامطة الإسماعيليين ثم إلى منصور الحلاج و شهاب الدين السهروردى ، ثم إلى بسيخانيان النقطويين و والشيخية البابية، ثم إلى ميرزا أغاخان والشيخ أحمد روحى ، ثم إلى صور إسرافيل وملك المتكلمين و فى النهاية إلى كسروى . هؤلاء هم جماعة المعارضين الأبديون والساخطون دائما والباحثون عن المستحيل .

المجموعة الثانية منهم هم فريق أصحاب الإعجاز فى الكلام : الذين استندوا أكثر إلى الضلع الأخير. من ذلك المثلث المعهود . أى الاستناد إلى قدرة الكلام . و بالطبع يعملون على جاذبية فكرهم ، وفقط فى المجال النفسى دون ساحة "الأمر" و"الملك". وهذا مما لا شك فيه هو نفسه مثل معجزة، وعلى الأقل نوع من الكرامات . و لأن دائرة البحث الذى نتحدث عنه هو اللغة الفارسية فبالطبع علينا أن نكتفى بالبحث عنهم فى العصر الإسلامى. و نزين صفهم باسم الفردوسى. ونعّرج على ناصر خسرو ثم الخيام و البيهقى و العطار ومولانا جلال الدين و ثم إلى الخاقانى و نظامى و حافظ وجامى و بعد ذلك، نعبر إلى ثلاثة أو أربعة قرون بسرعة حتى نصل إلى بهار ودهخدا و نيما و تلاحظون أننى بذكر هذه الأسماء الخاصة أنظر إلى نقاط العطف . و لا أريد أن أضع نقطة زمنية فاصلة بين ذلك الاسم آخر.

أما المجموعة الثالثة لهم فهم المستندون إلى سلطات زمانهم ، يعنى هؤلاء الذين ليس لديهم القدرة البلاغية و ليس لفكرهم تلك الجاذبية ، والتى تكفيهم لحمل الأمانة بمفردهم . وأيضا ليسوا ممن المثاليين الذين يطلبون النزاهة الصرفة، لتحمل حمل "الزندقة" والارتداد " حتى إن أعمالهم توصلهم إلى الشهادة فى نهاية الأمر. و بالطبع كانوا مضطرين إلى الاعتماد على سند يعينهم فى تأثيرهم، المعين لأجل حمل الأمانة. وإذا بدأنا هذه المجموعة ببزجمهر - لكان علينا أن نصل فى العصر الإسلامى إلى البرامكة ثم إلى حسنك الوزير وببزرجمهر الوزراء الخراسانيين حتى نظام الملك والمثل الأعلى على ذلك خواجه نصير الطوسى . وآخر هذه المجموعة أمير كبير ومصدق .

المجموعة الرابعة منهم هم زينة مجالس "الأمر" . الذين بصرف النظر عن القدرة وضعف الكلام أو الجاذبية والدافع للفكر – أي أنهم ليسوا مهمومين بتغيير الوضع الحالي . وقبلوا الواقع برضاء واستسلام . وكانت أعمالهم فقط مع " الكلام " وكانت هذه حرفتهم أو وسيلة رزقهم . و أعظمهم قيمة كان سعدى و أقلهم مكانة قانى و أمثاله . وما بين هذين الاسمين تبرز الكثير من الأسماء بداية من عنصرى حتى فرخى الذى لم يدخر وسعًا في تأييد مذابح محمود الغزنوى[1] ضد القرامطة ويمكن إلحاق كل مداحى البلاح والأطباء و المؤرخين و المنجمين و ندماء البلاط بهذه الجماعة.

٣- من أين يأتى المستنير العصرى

الآن حانت الفرصة لكى نرى من أين يأتى المستنير العصرى ؟ بمعنى أين موطنه ؟ و من أية طبقة ؟ من أية مدرسة ؟ ومذهب فكره و قبل الوصول إلى إجابة لهذه الأسئلة لابد من أن نراجع بدقة تحديد مفهوم " المستنير العصرى " للمرة الأخيرة ، وأقصد المستنير العصرى " الطبقة الثورية الواقعية ". و كذلك الطبقة الثائرة دوما . ولأن كل طبقة تكون مطمئنة بتأمين أغراضها المادية . إلا أن المستنير لا يحارب من أجل هذه الأهداف . حتى يرضى بتأمينها . فلو كانت القضية قضية متاع دنيوى فإن المستنير عادة يكون من الطبقة التى لا تعيش وضعًا سيئًا من الناحية المادية، وبإمكانه أن يوفر معاشه بشكل من الأشكال. واليوم فإن معظم الحركات الثورية في العالم مرتبطة بالمستنيرين . لأنه من أجل حث الطبقات الأخرى ، فإنه يلزم تحسين الأوضاع والظروف الاقتصادية و الاجتماعية ، أما المستنير فإنه يحارب من أجل حاجة ذهنية. والمناضلون الذين يكافحون فى أطراف الغابات وأطراف العالم. جميعهم لديهم حس تنويرى ولا يحاربون لأجل أى طبقة و ليس لديهم طبقة تحميهم فالمستنيرون يعملون على

(١) ارجعوا إلى ص ٢٠٧ (ناصر خسرو والاسماعيلية) لقتل القرامطة بحيث إن من دمائهم تجرى عيونا من الدماء لعدة سنوات فى صحراء رملية ٢ ، ٣ ، ٤ فى هذه الموارد الثلاث اعتبروا الطبقة (لائحة) إذا الكاتب أهمل فيها . لماذا قالت ولماذا لا تعتبر المستنير (طبقة من الطبقات) .

استقرار الحكومة العادلة تحت أى ظروف اقتصادية أو اجتماعية و غير تابعين لظروفهم الزمانية والمكانية . إنهم يثورون فى آسيا وأفريقيا مثلما يثورون فى أوروبا (.......) والفرق بين المستنير و البرولتاريا هو أن البرولتاريا تتوقف أما المستنير يتقدم . ولهذا فإن المستنير مع أنه من الممكن أن يكون سدا أمام المجادلات الطبقية و لكن يجب عليه أن يعرف أن منافعه الشخصية مستقلة عن منافع كل الطبقات . فبالرغم من أنه على أى حال من الأحوال قام من طبقة فإنه لا ينتمى إلى أى طبقة أخرى . ومستنير مثل غاندى كان لديه مثل ذلك الوضع . ولم يكن يحمى أى طبقة كما أنه لم يكن يريد أن يسقط أية طبقة و يحل محلها طبقة أخرى . و لكنه فقط كان ينظر إلى مجتمعه المثالى و على هذا كانت رؤيته للاستقلال أكمل رؤية ممكنة . و المناضلون الحاليون فى العالم الثالث لا يستند نضالهم على أساس منافع أى طبقة فقط يجاهدون ومن أجل ما فى قلوبهم[1] .

وبغض النظر عن التعارض المحتمل بين النظرة اللاطبقية أعلاه وبعض التعاريف التى سبق أن أوردناها بالنسبة للمستنير – أعتقد أنه الآن من الممكن أن نهتم بمقدمات ظهور المستنير بمعناه اليوم . و نعلم أن هذه المقدمات وجدت بعد أول احتكاك بالغرب دون جدال . و لا سيما فى أثناء قضية هزيمة "تركما نجاى"، فى عصر عباس ميرزا القاجارى . وصدرت أول جريدة على غرار النموذج الغربى سنة ١٢٥٣ هـ ق برئاسة تحرير ميرزا صالح الشيرازى – و بعنوان " أخبار وقائع دار الخلافة طهران ". والجريدة الثانية صدرت سنة ١٢٥٧ هـ ق و عددها الأول باسم " جريدة أخبار دار الخلافة " و ابتداء من العدد الثانى صدرت باسم " جريدة وقائع اتفاقية " و كان رئيس تحريرها ميرزا اجبار تذكره چى (والد ميرزا جواد خان سعد الله) أما الشخص الذى يباشر النشر و يترجم لها فكان يدعى برجيس صاحب . و برجيس صاحب كان من الأوروبيين الذين أتوا إلى إيران فى عصر عباس ميرزا "[2]

(١) نقل من صفحات ٢٢ ، ٢٤ مجلة (نكين) العدد ٣٨ – ٢١ تير١٣٤٧ من مقالة (شبح جديد روشنفكران) بقلم فريدون فاطمى.

(٢) نقل من صفحات ٢١٤ وما بعدها مجلة " بررس هاى تاريخى " العدد الأول اردبيهشت ١٣٤٦ . من مقالة "سيرى در نخستين روزنامه هاى إيران " بقلم إسماعيل رضوانى.

فى نفس عهد عباس ميرزا أسست أول مطبعة فى تبريز . وبعد ذلك افتتحت مدرسة دار الفنون وذلك سنة ١٢٦٨ هـ ق وبعد ذلك صدر أول كتاب لفتحعلى آخو ندزادة (الاذربيجانى) فى سنة ١٢٧٩ . وبعد ذلك سنة ١٢٨٨ ق نشرت خمس مسرحيات أوربية شهيرة والتى قام بترجمتها إلى الفارسية قراجه داغى (الأذربيجانى أيضا) و فى السنوات الباقية للقرن الثالث عشر الهجرى أخذت أعداد المؤسسات الثقافية و العلمية ودور النشر بأسلوب إفرنجى أخذت فى الازدياد بحيث إن ناظم الإسلام الكرمانى يعد لنا ما يقرب من ٧٠ جريدة يومية و ٤٦ مدرسة و عشرين ونيف مؤسسة صناعية و تكنيكية فى الفترة من ١٣١٠: ١٣١٥ هـ ق [1]. وهذه هى أماكن ونشأة وتربية المستنير والتى أضحت أرضية مساعدة لظهور المهدين للثورة الدستورية. ولكن بغض النظر عن تحقيق كيفية انتشار هذا النوع من المؤسسات ونموها المضطرد، وهو ما يلاحظ فى كل كتب التاريخ للثورة الدستورية. اسمحوا لى الآن أن أتوجه بالكتابة عن المنابت الطبقية للمستنيرين المعاصرين وهو ما ندرت الإشارة إليه فى المؤلفات التى تناولتها :

المهد الأول للتنوير هو الأشراف "النبلاء" ويجب على أن أزيد على الفور أنهم أشراف أواسط العهد القاجارى حتى أواخره. وصحيح أن إرسال البعوث العلمية إلى بلاد الفرنجة بدأ بصورة رسمية فى عصر عباس ميرزا (١٢٣٠ هـ ق) ولكن حتى يعود هؤلاء الطلبة ويكونوا جماعة مميزة لها آراؤها الخاصة فإن هذا الأمر يستغرق وقتا طويلا . ولنرَ كيف أعدت مقدمات هذا الأمر :

" كما قال لى جناب موسى (موسيو) كيزو إن دولة إيران العلية تحتاج إلى عدد من أرباب الصناعة فأجبته نعم . قال : أية صناعات؟ قلت حفر القنوات، وصهر الفلزات، وهندسة التعدين، وصناعة الساعات. فقال : أولا هذه الأعمال تحتاج مهندساً جيداً ، ثانياً تحتاج لأسطوات مع أدوات وعمال وكل واحد منهم يحتاج إلى أموال كثيرة من أجل المرتبات ومصاريف السفر . فإذا كنت مأموراً، فإننى أحضر لكم أسطوات جيدين مهرة. ولكننى أرى أنه من الأفضل أن تقوموا بإرسال حوالى عشرين طفلا

(١) صفحات ٤١٠ حتى ٤١٢ " تاريخ بيدارى إيرانيان " طبعة مؤسسة الثقافة الإيرانية ١٣٤٦ .

من أطفال الحرفيين لا من أطفال الأسر المرفهين مع شخص واحد عاقل – كما فعل والى مصر محمد على باشا – على أن يبقى كل منهم خمس سنوات ويعودون إلى إيران وهم أسطوات مهرة ، ثم يأتى عشرون آخرون ويكفى لكل واحد من هؤلاء سنويا مبلغ ١٥٠ إلى ١٨٠ تومان وهذا أفضل . ومثل هذا ما فعله ميرزا يعقوب مترجم الدولة البهية الروسية حيث أرسل ابنه بتكلفة قدرها ١٢٠ تومانا سنويا وهو الآن يجيد اللغة الفرنسية جيدا (......) كذلك فهو مشغول بتحصيل العلوم الهندسية "[١].

انتبهوا إلى ما اتضح فى هذه الوثيقة المتعلقة بعام ١٢٦٤ هـ ق من نقاط خفية :

أ– أن الكاتب (كاتب الوثيقة) كان يعرف جيدا أن سليل الأشراف لن يستفيد من ذهابه وإيابه إلى الفرنجة .

ب – أنه فى هذا الوقت لم يكن هناك أدنى انتباه للقيمة الاستعمارية للخبراء والمستشارين الذين يمكن إرسالهم فى بعثات إلى البلدان المختلفة.

ج – أن " ابن ميرزا يعقوب مترجم الدولة البهية الروسية " هو نفسه حضرت ميرزا ملكم خان .

د– ولكن "موسى كيزو" فى هذا الموضوع كان يعى الأهمية الاستعمارية لتحصيل العلم فى بلاد الفرنجة لذا كان يوصى أن يربى جميع الأولاد مثل على نموذج ابن ميرزا يعقوب الذى يصفه، قبل تخصصه فى أى مجال أو مهنة بأنه يجيد الفرنسية ويدرس العلوم الهندسية" أى أنه مع تخصصه، لابد من أن يكون مترجماً، من المعروف أنه حتى مثل هذا المشروع لم يكتب له التنفيذ. وأول البعثات التى أرسلت إلى بلاد الفرنجة كانوا من أبناء النجباء واستطاعوا فى نهاية العصر القاجارى أن يكونوا من القوة والعدد والعدة بحيث يسيطرون على إدارة الثورة الدستورية وأن يترجموا القوانين الأساسية والمدنية عن المتون الإفرنجية لتطبيقها فى إيران.

(١) نقل عن صفحة ٤٢ كتاب " فكر آزادى " بقلم فريدون آدميت طبعة تهران ١٣٤١ الذى نقله عن سفرنامه ميرزا محمد على خان تحت عنوان " روزنامه سفارت مأمور إيران به فرانسة "

ومع ذلك ففى حكومة الثورة (ذات المائة يوم) ومبادرة السيد ضياء الدين طباطبائى الذى كان بمثابة وسيط سياسى وقام بتفويض الأمر للعسكريين ، وهو نفسه كان رمزا بارزا لهؤلاء الأشراف العائدين من بلاد الفرنجة وإنها لم تكن لائقة بقيادة حتى الزعامة على هذه الديموقراطية المهزوزة. وبهذا الشكل تبددت الأحلام الذهبية للأشراف ذات ليلة وهم يظنون أنهم ما زالوا يستطيعون أن يسيطروا على المناصب وأنهم روّاد الثورة الدستورية حتى إنها أثـرت حتى فى شعراء هـذا الوقت . وهكذا لا أحد يبذل أدنى اهتمام لحكم "الملوك" و"السلاطين" . وفترة العشرينيات بعد الانقلاب كانت فترة تيمور تاش و داور . حيث كان الثانى من أولاد العمال والأول من إقطاعيى القوجان ، ولقب "بالقائد" أو "نائب الملك" وصار نائبًا فى المجلس من دورته الثانية حتى الرابعة وبذلك امتد نفوذه إلى جهاز الحكمة ويكون مع دوار ونصرة الدولة ثلاثياتهم فى خلع يد القاجار من الحكم . والسيد ضياء الدين نفسه الكاتب الصحفى وسليل الأسرة الدينية وهو نموذج لنفوذ المدنية الحديثة فى عالم السياسة. ولكن مثل هذه الصفة المدنية ما كان لها دوام أو استمرارية سوى فى وجود (البقال والعلاف) الذين كانوا يدخلون المجلس الأول حتى الرابع على يد سلالة الأشراف العائدين من بلاد الفرنجة ، كما أن المستنيرين الذين كان من المفترض أن تتشتهم هذه المدينة ، لم يكونوا قد نشأوا بعد بالشكل الذى يؤهلهم لتولى السلطة ، وهكذا فالعسكريون يفوزون . على اعتبار أنهم يحلون محل الزعامة التى لا تأتى من الأشراف ولم تكن لها أرضية فى المدنية الحديثة. فى ذلك الوقت هؤلاء الأشراف الذين رأوا أن الفرصة ضاعت من أيديهم فإن كل واحد منهم كان يغير اسمه على وجه السرعة واجتازوا أخطار التاريخ بظل هدوء وصمت. من اليسير جدا تغيير الاسم حفاظًا على المكانة والأموال والأملاك والحشم والسفارة والوزارة ، ومما يثير الانتباه هذه المرة أن "محتشم السلطنة" كان رئيس المجلس – فى فترة كبيرة من فترة العشرين سنة بعد الثورة – بالرغم من أن الأمور تطورت إلى درجة مُنع معها رئيس مجلس الشورى "عدل الملك دادكر" من دخول المجلس بواسطة شرطى واحد، ولكن ذلك لم يكن يعنى أن الأشراف جميعهم قد خرجوا

(١) " منطقة فى شمال شرقى إيران .

من الميدان . لأن الثورة الدستورية وحتى على اعتبار أنها ثورة مدنية لا تستطيع أن تسلب اعتبارهم "وقد كان القانون الأساسى لسنة ١٢٨٥ هـ ش - ١٩٠٦ م وثيقة محافظة محتاط ومحافظ تسمح بقدر قليل جدا من الديموقراطية . ومفادها هو أنه يحرم مجتمعات المزارعين من استخدام حقوقهم السياسية (كما جاءت فى القانون الأساسى ومع ما منح لأصحاب الأراضى من إصلاح فى قانون الانتخابات فإن ذلك لم يكن يتضمن تغييراً اجتماعيا فكيف يصل إلى ثورة اجتماعية. وإنما تكرر الطابع القانونى والمؤسساتى لحكومة النخبة والطبقة المتوسطة الصغيرة آنذاك [١].

ومع هذا فمنذ خمسين عامًا وأيدى مستنيرى المملكة مقيدة من أجل أى تحرك سياسى واجتماعى وليس "القانون الأساسى" . سوى النص الذى تفسره وتغيره "الحكومة" كل يوم بحسب رغبتها. هذا النص كان قد عفا عليه الزمن حتى بداية ترجمته إلى الفارسية.

على هذا النسق فقد غيّر الأشراف اسمهم ورضوا بالحكومة الثورية ، لتبقى الأمور فى يدها، كما كانت من قبل. ولكى نختصر هذه القضية ولأجل مزيد من المعلومات بهذا الشأن، نراجع بعض النصوص:

" يكتب السيد باستان پاريزى: "كتب السيد تقى زاده فى كتاب تاريخ مجلس إيران : إنجازات المجلس الأول والثانى أنه قلل من نفوذ الأمراء المقتدرين المحليين وبصفتى من أهل كرمان الدولة بحثت فى تاريخ قاجارية بكرمان وقبل ذلك بقليل كنت مشغولا بقراءة مذكرات ناظم الإسلام كرمانى . ووجدت أن هذا الرجل طيب القلب ويكتب بكل صراحة حول انتخابات الدورة الأولى الكرمانية ما يلى:... " ثم يسوق باستانى باريزى[٢] نص البرقية يفيد عن تدخل الأمراء والأشراف والنبلاء فى الانتخابات ثم يأتى بعد ذلك بأسماء ٢٧ أسرة كرمانية والذين كانوا على مدى التاريخ الدستورى بمثابة ممثلين للكرمانيين فى مجلس الشورى ويفهرس بدقة ويشير إلى أن

(١) عن مقالة لداريوش همايون . بعنوان " انقلاب ناتمام إيران " فى الجريدة " أيند كان " ١٢ مرداد ١٣٤٧ .
(٢) نقل شفاهة عن مقالة له بعنوان " آخرين مقاومة استبداد فى مجلة "بامشاد" العدد ١٥ حتى ٢٢ مرداد ١٣٤٧ .

معظمهم كان من الأشراف وأولاد الملوك ويكتب بعد ذلك :"بناء على هذا يمكن القول إن في فترة الستين سنة للدستور منذ عهد الثورة الدستورية لم تخرج نيابة المجلس بكرمان عن دائرة الأسر التى حكمت كرمان طوال مائة وخمسين عاماً، باستثناء بعض الدورات التى ضمت أمثال الشيخ يحيي وبحر العلوم وهاشمى ودكتور بقائى ومهندس رضوى وناظر زاده ودبستانى وأمثالهم. وبهذا الحساب يمكن القول إن أمثال ميرزا أغاخان وشيخ أحمد رومى ورفعت نظام وناظم التجار لهم النصيب الأكبر فى اعتلاء أعواد المشانق [١] والحرق حتى الرماد وتخريب الدستور فى زمان ناصر الدولة وأن أمثال دكتور شادمان وملك زاده ودكتور شيخ قد قطفوا ثمار النيابة. ونستطيع أن نتطلع على أحوال سائر المدن أيضا فى الكتاب القيم "نواب مجلس الشورى الوطنى "تأليف خانم زهرا شجيعى ونرى أن النصيب الأكبر فى فهرس النواب من هؤلاء لسليمان ميرزا وأردلان ويحيى ميرزا والقواد والفاتحين والقراكوزلو والقشقائيين وقواد الجيش والقائد بيروز والقائد سعيد ونختيارى وذو الفقار وبيات وأفشار ووثوقى وأكبر وفولادوند.. فى هذه الأسر نستطيع أن نرى أصنافا فى كل وقت من كل لون ونوع من الشخصيات . من اليساريين مثل مظفر فيروز ومن اليمينيين مثل بيات . فمنهم الدكاترة والمهندسون وأيضا الضباط والقواد والقادة العسكريون . وأيضا منهم المتسولون ومنهم أيضا الملوك لابسو الحرير . وبناء على هذا النمط فلم تخل الساحة قط من البراهين[٢]... " أى لا تخلو من وجود الأشراف . أضيف إلى كتابة باريزى أنه منذ زمن توقيع قرار المشروطة حتى كان جميع الثلاثة والخمسين رئيس وزراء الإيرانيين من الأشراف باستثناء ثلاثة أولوية المجموعة ولكن من هنا فضلا عن ثلاثة أولوية كانوا من العسكريين . من الأزواج من هؤلاء الأبـناء والآباء (مثل آل منصور) وثلاثة أزواج

(١) قدموا شيخ أحمد وميرزا اغاخان وخبيرا الملك فى البداية قطعوا رأس الرجل الروحى بالشيخ أحمد ووضع الجلاد الرأس تحت الرماد الحار فى حضور هذين الفردين بالأصابع الحديدية وبعد ذلك قتل هذين الفردين أيضا بهذه الطريقة وعلى حد قول المرحوم القزوينى كان محمد على شاه تحت شجرة ويشاهدهم وكان يجعلهم يضعون الرءوس فى الرماد الحار حتى يسلخهم ويملأهم بالتبن ويرسلهم إلى طهران حاشية من كتاب "باستانى باريزى " مع تلك المقالة .

(٢) أيضا من نفس المقالة .

من الصـهر أب الزوجة (مثل مصدق ومتين دفترى) واثنين من الأخوة (وثوق الدولة وقوام السلطنة) وبعضهم أزواج الأخت وغير ذلك من العلاقات العائلية..... ومع كل هذا قليلا ما نرى شخصا من الأشراف الذين حكموا إيران طوال خمسين أو ستين عامًا للثورة الدستورية مثل دكتور مصدق أو حتى مثل دكتور أمينى من كفر عن نعمائه وترفه [١] أو يكون له تأثير فى تغيير اجتماعى. ثم إن ما قام به مصدق وأمينى (الأول بتأميم النفط والثانى بإنهاء هذا التأمين) يدخل فى إطار ظاهرة تحول مستنيرى طبقة الأشراف إلى طبقة أخرى، وهو ما تحدثنا عنه سابقًا.

وهذا أيضا فى مجال الدولة والمسائل السياسية أما فى عالم الشعر والأدب فلا ذكر لهم. " وأنا بهذا الشأن قلق جدا. لأننا فى هذه السوق الماكرة لابد لنا من وجود كل أنواع البضائع وأنا حينما لا أستطيع النفوذ إلى الطبقة الأرستقراطية (الأشراف) ففى النهاية يجب أن أكون على اتصال بهم عن لسان كاتب مثل (سيد تقى زاده) حتى أعرف ما يجرى فى هذه الجعبة ؟ و لشديد الأسف فإن كل الكتاب سكتوا عن هذه المسألة وهكذا فالذى أراه أنا أنه لم يجرؤ أحد أن يتدخل فى هذا الموضوع . ويبدو أن الطبقات الحاكمة المتسلطة مطرودة من عالم الأدب والفن . ومما لا شك فيه فإن هذا تحذير فى مكانه المناسب " [٢] إذن فالأشراف لم يشاركوا فى تكوين نواة التنوير بشىء بينما مازالوا يستحقون النصيب الأعظم من الرفاهية والفسحة ولابد من أن يكون الدّين الأكبر للشعوب فى رقبتهم . هناك دشتى – الذى ظهر حديثا من طبقة علماء الدين – ولكنه لم يكن من أهل ذلك المقام ، وكـذلك حجـازى الذى كـان هـو نفسـه منهـم (الأشراف) ولكنه لم يتطرق إليهم على الإطلاق ومع ذلك كان أفضل أولاء وتكلم بلسان حال الطبقات المتوسطة و العالم الدينى وإدارى المجتمع . وهدايت الذى كان يتجاهلهم دائما – ورأينا لماذا – وتحول إلى كاتب ولسان حال رائد "كل بدو"– وداش آكل – وحاجى آقا [٣](على هذا النمط فإن المستنير الذى نشأ من الأشراف فإن أنينه

(١) باستثناء حسن على منصور الذى ضحى بروحه فى سبيل التغريب .

(٢) نقلا عن " ارزيابى شبابزده ص ٢ – ٦١ لنفس القلم

(٣) أسماء أبطال قصص صادق هدايت .

كان أنينا مصطنعا فهو لم يؤسس من أمواله طوال الأربعين أو الخمسين عامًا الماضية مدرسة [(١)] و مسرحًا أو متحفًا أو صحيفة أو مطبعة ولا أى منحة دراسية برغم وجود مشير الدولة بيرنيا وموسوعته التاريخية ، أو فرهاد ميرزا بكتبه المعدودة وأمين الدولة وتأليفاته أو عبد الله مستوفى وأعماله وسيرة حياته وهذه الخمر القليلة لا تكفى للسكر؟ لكن ارجعوا إلى أخلاف الأشراف الذين احتفظوا بمناصب وزارة الخارجية[(٢)] وباقى الوظائف الحكومية إنهم يعملون بنوادى القمار وباقى "أيام الجمع تى دانسان "[(٣)]

ومن هنا فالأشراف مع كل الرفاهية والنعمة والذهاب لبلاد الفرنجة ومعرفة العلم الإفرنجي ليسوا هنا سوى خادم مزدوج المهمة، وقد نشأت هذه الازدواجية نتيجة لقليل من رياح التنوير المستوردة التى هبت عليها فهى من ناحية تخدم الطبقة البرجوازية الجديدة فى هذه الأنواع من النوادى "بولينك" التى سوف أتحدث عنها فى فصل الألعاب التنويرية ، ومن ناحية أخرى تقدم خدمة سخية لكل حكومة . وباستثناء ما ذكرت فإن سمعة الأشراف ملوثة بمعنى أنه بالرغم من أنهم قاموا برعاية التنوير فى يوم وما جاءت به كهدية من بلاد الفرنجة، فإن واقع التنوير وصورته النهائية (كما أسلفنا) رفضت الانتساب إلى مثل هذا الأصل الملوث، وعلى الأخص لو انتبهنا إلى مفهوم الطبقات فى هذه القضية فإننا نتذكر هذه النقطة أن أصحاب الجاه يخرجون عن دائرة التأثير والتأثر الاجتماعى لأنه – وبصرف النظر عن الاستثناءات – فإن كل صاحب جاه مثل طائر جالس على بيضته ويحافظ على هذا الوضع بدرجة أكثر ويرى أن

(١) باستثناء واحدة أو اثنتان مثل دار الفنون أو مدرسة التربية ومكتبها فى تبريز ومن هذا القبيل ولم يكن وهذا الأمر أيضا بقصد التقرب ولكن بقصد البعد عن الفقر والمشاكل وازدحام المحيط . لاحظوا (كنت طفلا فى الرابعة سنة ١٣١٦هـ . ق فى بداية حكم المرحوم رضا على خان رئاسة المرحوم ميرزا على خان أمين الدولة الذى قام بانتفاضة مهمة فى الثقافة الإيرانية . فقد تأسست هيئة باسم هيئة المعارف وكان كل واحد من أعضائها المرموقين يتعهد بأن يؤسس مدرسة على نفس النمط الأوروبى فى طهران فى تلك الفترة كان هناك بعض الناس يفضلون أن يربى أولادهم فى المدن الهادئة والنظيفة ويدرسون فيها منهم من كان يرجح المدارس السويسرية وآخر يرجح مدينة نوشاتل فى سويسرا .. نقلا عن ص ٤٧٩ مجلة " راهنماى كتاب " شهردى ١٣٤٥ عن قصة حياة سعيد نفيس بقلمه .

(٢) ارجعوا إلى كتاب " تحية ، للسيد السفير الكبير " بقلم أحمد نامدار طبعة طهران ١٣٤٣ وبالرغم من أنه كتاب متوسط فإنه يوضح فضيحة الأشراف المعاصريين لوزارة الخارجية .

(٣) نفس الإعلان عن أحد هذه النوادى فى مجلة كيهان ١٤ اسفند ١٣٤٢ .

الوضع الموجود هو أحسن الأوضاع له . وإذا كان غالبية أساتذة الجامعة ، الأطباء ، الإقطاعيون وأصحاب الكوادر العليا فى الأحزاب وشركات البترول والتجار " طبقة كمبرادور " وأعوان الاستعمار - يريدون الوضع القائم - فقد كانت الأرستقراطية فى زمان القارجايين مع تماسكهم فى الموقف حفاظًا على أراضيهم - وأملاكهم ومناصبهم. ومما يثير الانتباه أنه لو أنك نظرت يوما إلى حساب نسب المجموعات التى ذكرتها من قبل لسوف نرى أن النسبة الكبيرة منهم كانت من نصيب أولاد أشراف أواخر العصر القاجارى.

٢- المهد الثانى للتنوير هم علماء الدين . ولو أخذنا فى اعتبارنا أنهم يأتون بعد الأشراف - أو بموازاتهم - الذين كانوا على اتصال دائم بالكتاب والمدرسة ، ولكن بصورة بدائية وتقليدية ، فى المدارس التى تربى طلبة العلوم الدينية مثل مدارس قم والنجف وإلخ...... سنكتشف لماذا نجد فى مهد الروحانية الأرضية المحلية لتربية المستنيرين. وثانيا لماذا نجد تعارضاً شديداً بين المستنيرين ذوى الأصول الروحانية أو ذوى الأصول من الأشراف. وأيضا ما يثير الانتباه أن يكون رجال متشددين أحيانًا فى مسألة حفظ التقاليد والنظرة المتحجرة والمتشددة بالنسبة للفروع (فروع الدين) ، نرى المستنيرين ذوى الأصول الدينية متعصبين للمظاهر التنويرية التى ذكرناها من قبل (إذن لا فرق بين الاثنين فكلاهما لديه إصرار) و لماذا فى عائلة دينية واحدة ، نجد أن أبناءهم لديهم المعلومات الأولية عن التعصب وعدم النضج والتزمت الدينى (و عادة الذكور منهم لأن الإناث عندما تتزوج يكون حكمهن فى أيدى أزواجهن) أو أحيانا يعبرون عن وجهة النظر الضيقة و أعمال الرياء لرجل الدين . و مما لا شك فيه فإن رد الفعل لمثل هذا الرياء و عدم النضج لأولادهم جعلهم أول معارضين لكل مذهب. حقيقة أن أى محيط لأى عائلة روحانية يعتبر مكانا مناسبا من أجل تجربة الأصول و المعيشة معهم و الدفاع عنهم . و لكن حقيقة هذه الأجواء تتضمن أحيانا قدرا من التعصبات المذهبية والاختلافات الشرعية فالأمر يصعب على أولادهم أحيانا فينفذ صبرهم وينكرون كل أصول الدين وفروعه. أنا نفسى كاتب هذه المقالة من عائلة دينية وكنت أعتبر فى شبابى عديم الدين والإيمان لأننى لا أسجد على "التربة" وكنت وقتها أتصور السجود على التربة، نوعًا من الشرك والوثنية التى منع الإسلام أيًا منها ولكن والدى

كان يعتقد أن هذا بداية الخروج عن الدين، و صدقونى عندما يكون الخروج من الدين بهذه السهولة ، و أيضا لو من أجل التجربة فإن الإنسان يعطى نفسه الحق فى التجربة.

والنقطة الأخرى التى يجب ذكرها عن التنوير الناتج من علماء الدين هى أنه لو كان التعليم و التعلم للطبقات الفقيرة عبارة عن وسيلة للصعود الطبقى ، وأن أى ليسانس أو دكتوراه يحصل عليها ابن القروى و ابن العامل و العمال هو نوع من جواز السفر والانتقال من أجل الوصول إلى رأس الهرم الاجتماعى ، و فى هذه القضية كم من الاستسلامات و كم من الأقوال موضوعة مجملة ! و كم من الخدمات التى تنتظرها الحكومة منهم ! و لكن بالنسبة لأولاد العلماء ؛ فإن السند العلمى والشهادة ليس وسيلة لتغيير المكانة . لأن رجل الدين بالرغم من أنه مرتبط بالطبقات الفقيرة إلا أن هذا الارتباط يكون فى دائرة القيادة و إدارة الأعمال وليس من باب المساواة معهم والاتحاد بهم [1].

والنقطة الأخرى فى موضوع التنوير الناتج عن علماء الدين هى أن مفهوم القيادة فى الحياة مفهوم الريادة و الزعامة فى الحياة اليومية أمر يعيشه بعمق كل أفراد الأسرة. و هذه الخاصية التى تحدثنا عنها و هى أن أى مستنير يعتبر زعيما و إماما للمجتمع . و على كل فإننا نرى مسألة حل المشكلات اليومية للناس و لأهل البلدة تقع ضمن دائرة عمل العالم الدينى – بداية من الإمامة فى صلاة الجماعة حتى شرح أمور الاستخارة فى المنزل – و من عقد الزواج و الطلاق (و الزواج العرفى) حتى الوصول إلى أشياء أخرى و الخمس و الزكاة و إلخ .... و الأبناء منذ الطفولة ستنضج فى نفوسهم نحو نزعة الزعامة . وربما كانت هذه العوامل فى مجموعها بالنسبة لمستنيرى أولاد علماء الدين فى العادة تثمر عن أشخاص يتصفون بالغرور و الاستبداد بالرأى وأصوليين. و لو أن أغلبهم لنفس هذه العلة السابقة يتظاهرون بالمعارضة مع الدين أكثر من الآخرين. وهذا بالذات مصدر خطر كبير وهى بالرغم من أن استهتار هذه

(١) فى زمان حياة والدى حدث كثيرا حيث كان يذهب لصلاة الصبح وفى طريقة كان يضرب الحارس بالعصا حتى يوقظة .

المجموعة من المستنيرين سليلى الأشراف الذين درسوا فى الخارج هو النقيض للمبدئية والزهد عن مستنيرى الروحانيين - ولكن النتيجة النهائية هى الموافقة العجيبة التى تظهر من هاتين المجموعتين هى مسألة عبورهما إلى عالم الفوضوية . أى الدخول فى حياة بلا قيم . ولو أخذنا فى اعتبارنا أن أحد الموانع المهمة التى وقفت بوجه السيطرة المطلقة للأشراف فى قضية الدستور ، هى نفوذ علماء الدين المدافعين عن البرجوازية الصغيرة فى البلاد والذين حذروا من إمكانيات الطبقة الحاكمة عبر مشاركتهم فى الثورة الدستورية. ووقوفهم إلى جانب عامة الشعب ومعاداتهم المبادئ للنزعة التغريبية عند الأشراف (الأرستقراطية) مما أفرز ثنائية المشروطة - والمشروعة - كان سببا للاختلاف بين السلطة الدستورية والتشريعية - عندئذ يتملكنا الأسف الشديد حين نرى أن الأخلاف من هاتين الفرقتين أغلبهم يسلكون طريقًا واحدًا باتجاه واحد. الأشراف مع خدمة "الحكومة " والخروج "الاختيارى" والأسوأ من ذلك أن أغلب المستنيرين من ذوى الأصول الدينية من حوزة التأثير " الإجبارى " من دائرة العصر . والأسوأ من ذلك أن أغلب المستنيرين سليلى رجال الدين فى أغلب مواقفهم الفكرية والاجتماعية يتحدون مواقف تساعد الفئة الأخرى من المستنيرين فى نزعتهم التغريبية . ونستطيع بسهولة ذكر الكثير من أسمائهم . تقى زادة وكسروى فهما يمثلان نموذجين بارزين عنهم . على أية حال فإن معظم المستنيرين الذين كانوا فى ال٥٠ أو ال٦٠ سنة للدستور كان لديهم ما يقولونه وكانت لهم عقائد وآراء يدافعون عنها ومبادئ يدعون لها علماء الدين، بيد أن نقطة الضعف التى وقعوا فيها هى سقوطهم فى التغريب ، وسلكوا بشكل أكثر طريق المستنيرين سليلى الأشراف وكانوا فى بحث عن حل سلمى للمجتمع . وكانوا يتكلمون فقط عن المدينة الفاضلة المستوردة ويتحدثون عن تشبههم بالغرب .

٣- المهد الثالث للمستنيرين هو مالكو الأراضى ورؤساء القبائل ، وعلى الأخص لو أخذنا فى (اعتبارنا أن نواب المجلس فى سنوات الثورة الدستورية كان أغلبهم من الملاك الكبار أو من رؤساء القبائل الذين كانوا يأتون طهران كنواب . وكانت لديهم الفرصة لكى يرسلوا أولادهم وأقاربهم للجامعات داخل الدولة وخارجها . ومع الأخذ فى الاعتبار أيضا أن أغلب رؤساء القبائل هؤلاء كانوا من البرجوازيين الجدد بعد اشتراكهم مع البختياريين فى فتح طهران ، وكان لهم نصيب فى الحكم حتى إن الملك

آنذاك قد تزوج منهم وكل هذه الأمور كانت مقدمات لكى يتخرج أولاد رؤساء القبائل من باريس ولندن ونيويورك ومازالت هناك أسماء كثيرة يمكن ذكرها من العائلات القبلية كأساتذة جامعة أو من كبار القضاة أو من قادة الجيش . وهاتان المجموعتان سواء أن كانوا ممن يرتزقون من امتلاك الأراضى الكثيرة أو من أولاد رؤساء القبائل - كانتا تشتركان فى هذه النقطة وهى بالرغم من أنهما كانا يعيشان فى جو قبلى وريفى من قبل فإنهما كانا منفصلين عن الأرض والقبيلة - وتقريبا ليس لأحد منهم دراية عن الماء والأملاك أو أى خبر عن البؤس الذى يعانيــه أفـراد القبيلة اليومى لأفراد القبيلة . حتى إننا نرى أنه لا يستطيع أى منهم أن يركب الخيل . وهاتان المجموعتان من المستنيرين كانتا تعيشان فى رفاهية السيارات والحياة المدنية من ناحية ومن ناحية أخرى فى رفاهية الخدمة القبلية والحشم حولهم . وصحيح أنه ربما كان هؤلاء يدرسون كأمثالهم وأصحابهم و كان لديهم أفكار وأقوال، وكان لديهم خطة فى رءوسهم للإصلاح ، إلا أنهم بمجرد إحلالهم محل الوالد ، وامتلاكهم زمام الأمور يتضح كم هم أناس حائرون ، عاجزون .

لقد كان آباؤهم على الأقل يعـرفون عمدة القرية أو رئيس القبيلة وكان يعرف مسألة الزرع والحصاد وعين الماء . ولكن هؤلاء قد أدمنوا البطالة فى المدينة، والاعتماد على الدخل الوفير من القبيلة أو الأملاك ، وهم من ناحية أخرى يذكرون الأفكار التى فى رءوسهم التى حملوها أيام دراستهم ولكنهم كانوا يقفون حائرين ماذا يفعلون بهذه الأفكار؟ أيرجعون إلى القرية أو القبيلة ؟ ولكن كيف يمكنهم العيش بالطريقة الغربية هناك أو يتركون كل شىء ؟ ثم من أين يعيشون ؟ ...... فى اعتقادى أن هذه المجموعة غير المتجانسة التى كانت سببا لبيع أجزاء من الأراضى بالقسط جاءت نتيجة لهذا الواقع وهو أن هذا المستنير صاحب الأملاك أو القبلى كان حائرا فى أمر نفسه . كان لا يستطيع أن يقنع بدخل قليل من عمله التنويرى ولا يستطيع أن يعيش بأسلوب أبيه فى القرية أو فى القبيلة . الاقتصاد الاستهلاكى يجب أن يكون أيضا فى القرية ويفتح الباب له ويجب أن يجد له طريقا فى القرى وبين أبناء العشائر الصفا ... على كل فإن هذه المجموعة من المستنيرين بدلا من أن يكونوا حلا لأى مشكلة اجتماعية بسيطة كانوا فى أكثر الأحوال يشكلون مشكلة جديدة فوق المشاكل الاجتماعية . وقليلا ما نرى من هؤلاء

شخصا أو عدة أشخاص من استطاع التأثير الإيجابى فى المجتمع القروى أو القبلى من قبيل تأسيس القرية أو المدينة النموذجية ، الإسكان الداخلى للعشائر، أو تطوير أنظمة الرى أو تأسيس حصل ما وما إلى ذلك من الاصلاحات .

٤- المهد الرابع للتنوير هو المستنير حديث العهد بالمدينة مع كل الحرف المختلفة . بداية من الأعمال البسيطة حتى الحرفى والموظف الحكومى . وهذا وبالرغم من أنه ظاهرة محدودة ، إذ تشتمل على أكثر التقارير تقدير ثلاثمائة ألف من موظفى الحكومة وأفراد الجيش وحوالى ٢ مليون من عمال الدولة، فإنه أفضل مكانة للتنوير . فالمستنيرون الذين ظهروا من هذا المكان غير معتادين على ركوب الفرس ولا كرسى الرياسة ووزارات الدولة والممالك (ولم تؤثر فيهم سلبًا عقبها عصبيات الحوارات الدينية فبصارون الدين) حتى يسقطوا من الطرف الآخر ولا يمتلكون شيئا من الميراث وأملاك التجمعات القبلية حتى يظهروا أنهم يعبدون ليتحولوا إلى طفيليات اتكالية . التطفل والتعصب ، وعاشوا فى أسر بحيث إن أباءهم كانوا يعيشون بالدخل المتوسط والمعقول . بحرفة أو شغل أو تخصص أو نوع ما من الأعمال أو وظيفة متوسطة فى جهاز الدولة . وغالبيتهم من ذاقوا أنواع الحرمان دون أن ينحدروا إلى الفقر البغيض وكل واحد منهم تكفل بجانب من الحياة - بداية من العمل فى العطلة الصيفية حتى العمل فى العصر والليل بجانب الوالد حتى استطاعوا أن يلتحقوا بالمدرسة أو الجامعة ،.ويصلوا بعد إلى التخصص والخبرة ونوع والتأهل للقيادة . هؤلاء الذين لا يرتبطون بالإشرافية ولا يقعون فى قيد التعصب الدينى أو ردود فعل ذلك ، وليسوا من المتطفلين من ذوى الأملاك والمعيشة القبلية فهم ليسوا فقط مفتاح حل المشاكل الشخصية أو العائلية بل هم أمل التنوير فى الدولة . وبقدر ما تتسع الحياة فى المدن وبقدر ما تعطى المدارس أعداداً أكثر من الخريجين بقدر ما يزداد عدد هؤلاء المستنيرين . ومما لا شك فيه لو أنهم نحوا التربية الطفيلية جانبا عن المدارس التى تعطى الدبلومات هذا مع وجود وساوس قد تزاحم أذهانهم وتغريهم - مثل العمل فى أجهزة الأمن ، والإعلام والفن - الذين يؤدون عملا قليلا ويحصلون على أجر أكبر . وأيضا لو أنهم يحدوا من انتشار هذا الوباء الأخير الذى أصاب المستنيرين وجعلهم

ييأسون من تغيير الأوضاع القائمة ، ومن إلغاء النظام الطبقى فى المجتمع، فإنهم فى النهاية يقنعون بتغيير الوضع الشخصى لهم من طبقة دنيا إلى طبقة عليا .

ومع كل هذا ، فالمدارس بكل المستقبل المجهول الذى يصادف الخريجين ومع كل التزييف فى تحصيل العلم إلا أنها تعتبر الوطن الثانى لثلاثين أو أربعين ألف طالب أو أكثر يتخرجون منها سنويا . إذ يصل عدد الخريجين سنويا من ٣٠ إلى ٤٠ ألف طالب وهكذا تظهر للعيان قضية التنمية الثقافية كنقطة مهمة جدا تتجسد فى تنمية المدارس والجامعات والمعامل وفى هذا الإطار أيضًا ينبغى الإجابة على السؤال: ماذا يجب أن نفعل حتى تكون المدارس والمعامل والجامعات ملبية ومفيدة لضروريات المجتمع ؟ والنقطة التى تثير الانتباه أنه من الآن نستطيع أن نرى على وجه هذه المجموعة من مستنيرى المستقبل أنهم لم يبقوا أسيرى الحياة المدنية مع كل سماتها الطبقية . فهؤلاء بالرغم من أنهم عاشوا فى هذه المجتمعات ويعيشون فإنهم يفرون منها ويخرجون فى البحث عن دنيا (أى أنهم خرجوا) خالية من التعقيدات الطبقية، والفقر والغنى ، والاستعمار . وبعيدة عن القيود الطبقية والأخلاق البرجوازية . وإذا أردنا أن نلخص الصراعات منذ سنة ١٣٢٠- ١٩٤١م حتى الآن يجب القول عن أمارات بدأت تلوح فى الأفق فى شعر الشعراء الشبان، فى الإضرابات غير المتوقعة من العمال والجامعات ، فى إطار المجموعات التى تديرها الحكومة لإدارة الشباب (والحقيقة فإن أغلبها خطأ وتسير فى مسار خطأ) وما تضمنه من الدعاية للملذات الدنيوية الهابطة الذى يبدونه لهم لكى يعودوا من الغرب، فى قضية فرار العلماء، فى المجلات الحكومية المزوّقة التى يصدرونها للشباب ...... ونستطيع أن نرى مثل هذه العلامات الكثيرة فى أماكن أخرى .

كانت هذه منابت التنوير فى إيران. ولكن هذه المجموعات الأربع للمستنيرين الذين ذكرتهم لا يخرجون عن هذه الدائرة الأصلية التى سبقت الإشارة إليها . فالأكثرية العظمى هم الذين اكتفوا بالحد الأقل للتنوير ولم تحرز منه سوى الوظيفة التى ترتقى بصاحبها إلى الدرجات العليا . والأقلية القليلة توجهوا إلى الحد الأكثر للتنوير . على هذا النسق وبصرف النظر عن هذا الإطار الأصلى فالمستنيرون فى إيران مثل أى مكان آخر هم بذلك كيان متميز عن باقى الشرائح والطبقات الاجتماعية

الأخرى إنهم مجموعة دائمة التزايد بسبب التوسع فى الحياة المدنية وتطور الخدمات الاجتماعية والتعليمات العامة، وهى فى نموها هذا تبحث عن السلطة التى كان الطريق إليها سابقًا وربما حتى الآن يتمثل فى المال والأملاك والمواريث والحسب والنسب ، إنهم اليوم جماعة تحاول أن تصل إلى هذا المقام بجهدها الشخصى وبقدرتهم الشخصية تؤهلها لقيادة المجتمع. ولكن تلك المجموعة الكثيرة من المستنيرين الذين اكتفوا بالحد الأقل للتنوير يستطيعون وبسهولة أو استطاعوا أن يصلوا إلى زعامة المملكة التى تعمل فى حدود شبه استعمارية لأن قدرة الحكومة مع يد مليئة بالثروات النفطية و يد أخرى مليئة بوسائل الإعلام مع الشعب من راديو - صحف وجرائد - تليفزيون هى أفضل من يستقطب طاقات ومواهب المستنيرين الخالفين. وإنما البحث عن رأس تلك المجموعة القليلة من المستنيرين الذين يطالبون بقدر أكثر للتنوير ويريدون المزيد ولا يقبلون الوضع القائم وتبديل الظروف بأحسن منها .

ملحق

تصور النخبة الحقيقية فى علم الاجتماع، والتاريخ:

القيمة الحقيقية للشخص ترتبط بالقضية الخاصة به. وإن لم يكن لهذا الشخص أصالة فهل من الممكن أن نعتبره منفرداً بذاته - ويرى علماء الاجتماع أن النخبة الحقيقية لفئة من المجتمع لم تنتج إلا عن مجموعة من الاحصائيات. إلا أن هذا الحكم له مساوئه كما أن له محاسنه.

ومن هنا أعتقد أنه من الواجب أن يتجاوز علم الاجتماع عن هذا الحد ويضع تعريفاً للنخبة الحقيقية فى المجتمع عن طريق التحقيق فى علم النفس. هناك فروق واختلافات بين الناس : ففى كل عصر وفى كل مجتمع يوجد أقليات ، أفراد هذه الإقليات يوجد بينهم اتفاق واختلاف سواء عن طريق ظلمهم للناس أو على أساس حياتهم الاجتماعية وقوة إقناعهم فمثلاً نقرأ فى كتاب "المجتمع" حكاية شخص ما فى مدينة ما عندما وقعت مدينة فى الخطر كانت له قدرة خارقة بحيث إنه استطاع أن يخرج كل الناس عن دائرة الخطر وعندما زال هذا الخطر انزوى فى زاوية ما.

وهؤلاء العظماء يكونون محل شكر وتقدير الأجيال التالية نتيجة لما قدموه من اختراعات أو ما وضعوه من أسس مهمة لإثراء الثقافة والعلم والفن. ومن أجل هؤلاء أنشئت منظمة الأمم المتحدة للعلوم والثقافة من أجل تكريم هؤلاء الأشخاص.

ولكن كيف نثبت نظرية أن لكل مجتمع نخبة حقيقية ؟ وكيف نثبت أن كل نخبة حقيقية ما هى إلا نوع من البشر ؟ المؤرخون لم يضعوا حلا لهذه القضية. ولكن حاولوا بشىء من الاجتهاد أن يرجئوا هذا الأمر إلى علم الأعداد فمثلاً استخدموا العدد أربعة وكيف أن هذا العدد كان له علاقة بمجموعة من الأخيار وهم المبعوثون الأخيار فقد ظهر

هذا العدد بوضوح فى إنجيل يوحنا أيضًا هناك أربعة أناجيل. وكذلك العدد اثنا عشر وهو عدد المذاهب الاثنا عشر فى المذهب الشيعى، أو الاثنا عشر شخص الذين خرجوا من بنى إسرائيل وعلى هذا المنوال وكذلك العدد أربعين وارتباطه بالأربعين شخصا الأخيار الذين آمنوا بالرسالة المحمدية فى بداية ظهور الإسلام وأن سيدنا عمر رضى الله عنه كان ترتيبه الثامن والثلاثون ونرى اليوم أنه فى أحد المدن السورية عندما يصل عدد مجموعة من الناس من أتباع المذهب النصيرى إلى أربعين فإنهم يشكلون بهم حلقة ذكر. إلى أن يكتمل أربعون آخرون وتشكل حلقة أخرى وهكذا.

وكذلك الرقم ٣١٣ فقد كان عدد الفاتحين فى الإسلام فى غزوة بدر ٣١٣ وكذلك عدد المصارعين الأساسيين فى جدعون عبرانى كان ٣١٣ ويقال أيضًا إن أتباع المهدى المنتظر عندما يظهر سيكونون ٣١٣ .

وعلى هذا فإن رمز الأعداد لن يحكى فقط عن قضية خاصة فى زمن معين وإنما هو ممتد عبر الأزمان وكذلك نجد فى نص القرآن الكريم ما جاء فى الآية (٢٤)من سورة الكهف (١٨) أن عدد السنوات التى قام فيها أصحاب الكهف كان ٣٠٩ وأن هؤلاء الأشخاص قد وصلوا إلى درجة الكمال فى الإيمان فهم بذلك يعتبرون من النخبة الأخيار ، إذن يمكن اعتبار قضية الأعداد وعلاقتها بالنخبة الأخيار قضية مقنعة.

وهناك قضية أخرى وهى قضية ترابط الأسماء بالقضايا وهو ما شرحه أفلاطون فى نظريته الخاصة بارتباط الأسماء بالقضايا فى كتابه (تيماؤس) [1].

ونستطيع أن نرى أيضًا هذا الترابط فيما بين النساء وعلاقها بالقضايا نجده أيضًا فى علاقة حروف الهجاء العربية بالرموز العددية فى الفكر السامى والمثال على ذلك نجد أن هناك علاقة فيما بين سنة ٢٩٠ هـ وما يعادلها من التاريخ الميلادى أى سنة ٩٠٢ م وأن هذه العلاقة ترتبط باسم سيدتين مهمتين فى المحيط الدينى إحداهما هى مريم أم عيسى . (م + ر + ى + م = ٤٥ + ٢٠٠ + ١٠ + ٤٠ = ٢٩٠) والسيدة

(١) هو كتاب فى علم الطبيعة يقول فيه إن الله سبحانه وتعالى أوجد الوجود من العدم. ويستخدم فيه قوانين الطبيعة لسهولة فهم المسائل الرياضية وأن العلاقة ما بين الظواهر الطبيعية وبعضها البعض ليست علاقة هندسية بل إنها ضرورة حتمية. ويقسم العالم إلى ثلاثة أقسام: عالم النجوم – الهندسة – الطب.

الأخرى هى فاطر الذى كان اسم فاطمة بنت الرسول عند الولادة وهى جدة فاطميى مصر (ف + ١ + ط + ر) = ٨٠ + ١ + ٩ + ٢٠٠ = ٢٩٠) فنجد أن اسم مريم يحتوى على قيمة الرموز العددية التى توجد فى اسم فاطمة.

ونجد أيضاً أسلوباً آخر لارتباط الأسماء بالنخبة المختارة حيث كان بعض الأقوام - غير السامية - يقومون بتسمية أولادهم بأسماء الشخصيات العظيمة أملاً فى أن يكون هذا الولد مثل هذه الشخصية التى أطلقوا عليه نفس اسمها تطبيقاً للنظرية الرياضية التى تقول ان (أى كل لن يكون له وجود بدون جزء).

وهناك فلاسفة آخرون أقروا بنظرية الأعداد هذه من أمثال (يونبج) (آرنه تامبسون) وأن هذه الأعداد قد تكون على صلة وثيقة بالصراع الاجتماعى بحيث يتدخل مجموعة من الناس (نخبة مختارة) فى هذه الصراعات وفى النهاية يصبحون أبطالاً ويصبحون عظماء أخياراً والأعمال التى تبرز هؤلاء الناس متنوعة منها (الأعمال الحسنة - الأشخاص العملاء - الهواجس الحقيرة - الكبائر).

والمثال على ذلك فى تضحية إبراهيم عليه السلام. وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى فى هذه التضحية دليلاً على ما بعد الخلود وذكرت هذه التضحية فى كتب التاريخ عدة مرات. وأيضاً مثل إحياء الموتى على يد عيسى عليه السلام.

ومن هنا نتساءل هل يمكن أن نجد شبيهاً لهذه الأعمال التى مضى عليها أكثر من ألف عام ؟ نعم نرى المعنى الحقيقى لهذه القضية فى شخصية (غاندى) ذلك الشخص الذى اغتيل فى سبيل الحق بعد أن تحمل آلاماً كثيرة من أجل الشعب الهندى. ووجود الشعب الهندى على هذه الصورة الآن يرجع إلى عظمة هذا الرجل. كما أن فكره وهدفه قد انتقل إلى بلدان كثيرة وأصبحت فكرته قضية أساسية فى هذه البلدان وأن تضحياته العظيمة ظهرت بوضوح فى استقرار مجتمعه. وأنه لم يكن جهد الإنسان ومشقته صيداً سهلاً للظالمين.



الفصل الخامس

المستنيرون التقليديون : العسكريون ورجال الدين

تحدثنا فى الفصل السابق عن المستنير المتأورب و المستنير القومى ، كما تحدثنا أكثر فى هذا الفصل عن التنوير بمفهومه الغربى. والآن نقوم بتوضيح مفهوم المستنير التقليدى ؛ أى علماء الدين والعسكريين. الذين يتضح أثرهم القيادى جليا على مدى تاريخ إيران المدون.

خلال ما قرأته عن المستنيرين ، قلما رأيت أن الكتاب القوميين أو الغربيين يشيرون إلى أحوال العسكريين أو علماء الدين. كل واحد من الكتاب الغربيين أشار إشارة مختصرة لهاتين الفرقتين وإمكانية قيامهم بدور تنويرى ولم يفصل الموضوع ومر عليه مرور الكرام وربما لأن الكاتب الغربى بسبب وجود الديمقراطية وأيضا بسبب علمنة المؤسسات والخدمات الاجتماعية لم يهتم بهاتين الفرقتين كثيراً. ولأن حدود مهام كل فرقة وحقوقها واضحة أيضا ولا يأخذ فيها شخص مكان آخر و ربما لأسباب أخرى ، وعلى أية حال ففى الإحصائية المختصرة التى ذكرتها عن المستنيرين الغربيين لم يرد لهما ذكر سوى ما يخص فرنسا[1] .

مع كل هذا ففى مثل هذا البحث عن المستنيرين الإيرانيين فلا مفر من تقديم بحث مختصر عن أوضاع هاتين الفرقتين وتعيين سمات التنوير لديهما وخاصة باعتبارهما رواداً اجتماعيين وهى إحدى معانى التنوير، وأن هاتين الفرقتين منذ أقدم العصور

(١) ارجعوا إلى الجدول ص ٥٩

الأسطورية حتى أحدث العصور التاريخية كانتا شاهدتى عيان لأغلب الأحداث وقد ارتبط بوجودهم على الدوام شئون الدنيا والدين . وإذا فتحنا أى كتاب عن تاريخ إيران فإنه لا يخلو مطلقًا من آثار العسكريين وعلماء الدين .

كبداية للبحث لابد من أن أقول على الفور إن رجل الدين و الرجل العسكرى باعتبار كليهما يعمل فى مضمار الطاعة . وبمعنى آخر فهما يحافظان على الوضع القائم ، إذن فإن مجموعة الصفات التنويرية التى ذكرتها فى هذا الكتاب لا تتوفر لكليهما ولكن بصفتيهما يؤديان عملا فكريا– وليس عملا يدويا – وأن لكليهما أيضا آثارا فى ريادة المجتمع ، فبناء على هذا يمكننا البحث عن نوع من التنوير داخلهم. وبغض النظر عن أنه لا توجد فروق كبيرة لهذه الصفات بين هاتين الفرقتين ؛ أى المستنيرين التقليديين والمستنيرين المتأوربين الذين هم ليسوا إلا أشخاصا يحافظون على الوضع القائم فعلا ولا يؤدون عملا سوى ذلك و لكن ومع قليل من الدقة فإن ما يثير الانتباه أن هناك فروقًا بين هاتين الفرقتين من المستنيرين التقليديين ، أى فروق فى العوامل الاقتصادية والسياسية حتى الثقافية والقومية الخاصة التى سادت هذا المجتمع والتى تولد نوعًا من الإرهاصات الكثيرة من أجل أن نتوجه بعناية أكثر لواحدة من هاتين الفرقين أى علماء الدين لابد من أن ندقق فى أثناء البحث عن هذه الفرقة .

عالم الدين هو المحافظ على التقاليد ، والمحافظ على الوضع القائم ، أما العسكرى فهو يتعهد بحراسة ذلك الوضع. و هذا الوضع القائم الذى حللناه فيما سبق هو ماهية تنظيماته و لمصلحة أى مؤسسه يعمل . فالعسكرى أجير لدى الحكومة. و يعتبر من دواعى الاستقرار والأمان فى عالم الواقع ، أى أنه له فعل و رد فعل و يحرس الوضع القائم. أما عالم الدين بمعناه العام و العادى هو شخص يعيش من مال الوقف و النذر و الخمس و الزكاة. و فى مقابل هذا الأجر الذى نسميه اصطلاحا مال الله فهو يحافظ فى هذا المحيط على النظام و الأمن على الرغم من أنه يبدو أن عالم الدين يهتم بعالم آخر غير عالم الواقع هذا بمعنى أن ، إذا كان الرجل العسكرى يحافظ على نظم الشئون الدنيوية فإن رجل الدين يحافظ على نظم أخرى أى النظم السماوية أو التى تحتل مكانا فى الوجدان التاريخى و الدينى لدى الناس ، و كما رأينا من قبل أنه فى هذا النظام على مر التاريخ فإن الحاكم يعتبر دائما ظل الله على الأرض.

مع الأخذ فى الاعتبار أن هذا النوع من الضرائب الشرعية الذى يسمونه مال الله تؤدى برضا و رغبه البشر وأن الضرائب القانونية دائما ما تؤدى بالإجبار والعنف وعلى الأقل ليست عن طيب خاطر، و هذا ما يوضح الاختلاف الأول بين مصدر دخل العسكرى و رجل الدين . حقيقة أن الضرائب الشرعية أى مال الله تسدد نتيجة للخوف من الآخرة والسماء ، والضرائب القانونية تسدد نتيجة للخوف من الدنيا ومن الحكام وأصحاب الأمر وإذا كانت الضرائب القانونية بالنسبة لرجل الشارع العادى تعتبر حاميًا أو حارسًا له من أجل الاضطرابات الموجودة فى عالم الواقع أو من أجل دفع شر مضايقة رجال الحكومة ، فإن الضرائب الشرعية أيضا حارس آخر من أجل دفع شر الاضطرابات فى العالم الروحانى ورفع مضايقة رجال الدين ومع كل هذا فإن الضرائب الشرعية من الأمور الخالدة إلى الأبد عن الضرائب القانونية التى يمتنع الناس عن تأديتها فى أثناء تغيير الحكومات وبهذه الطريقة فإن الدين بكل مؤسساته من مدرسة ومسجد وضريح ، لقرون طويلة موجودة دون أن تستطيع حكوماتنا أن تثبت رقما إزاء نفقاتها فى ميزانيات النفط ومؤسساتها الكبيرة .

وعلى هذا النسق يتضح الاختلاف الأساسى الأول ، بين عالم الدين و العسكرى. العسكرى أجير الحكومة و الحكام و عالم الدين أجير الناس و المولى ؛ فالعسكرى يتغذى على خبز الدنيا و رجل الدين يتغذى على خبز الآخرة –على الرغم من أنه كما رأينا أن الدنيا و الآخرة ما هما إلا وجهان لعملة واحدة – أما العسكرى الذى يتزود من مال الدنيا التى ما هى فى الحقيقة إلا نظام ملىء بالظلم و الولاء للاستعمار و عالم الدين الذى يتزود من خبز الآخرة وورع الناس بالرغم من أنه نظام موجه للعالم الربانى ، ولكن ولشديد الأسف لو دققنا النظر لوجدنا أنه متجه إلى أنظمه أخرى مرتبطة بالفرض الأول . أما هذا الاختلاف فى مصدر الدخل فقد تسبب فى اختلاف الانطباع عنهما فعلى مر التاريخ جعل من العسكرى مأمورا معذورا ومن رجل الدين رجلا مخيفا. و بالرغم من أننا يمكن أن نجد من بين العسكريين أيضا بعض الاستثنائات مثل شخصية " بهرام جوبين " . أما الاستثنائات التى تتعلق بعالم الدين فهى الثورات العديدة التى قامت ضد الحكومات الطاغية و المتوالية و غير هذا لا توجد استثناءات

أخرى و على هذا النسق فإن العسكرى على مر التاريخ لابد من أن يكون تابعا للحكومات أيا ما كانت هذه الحكومة أما رجل الدين فلم يكن هكذا .

وعلى الرغم من أن رجال الدين فى مطاردتهم الأخيرة قد لحق بهم الأذى من جراء مواجهة الطبقات الحاكمة . و لهذا فهم ليسوا فقط حافظى الوضع القائم بل إنهم أيضا حافظو التقاليد العتيقة التى يلزمها جهودا لا عد لها و لا حصر من أجل الحفاظ عليها ولأن عمل رجال الدين فى كل الأحوال ما هو إلا تعبير عن الاهتمام بالعالم السماوى (الميتافيزيقى : عالم الغيب) و من ناحية أخرى فإن لرجال الدين فى المذهب الشيعى سطوة لدى الحكام المعاصرين باعتبارهم نوابا عن الإمام الغائب أى أنهم يعتبرون بمثابة رقباء على الحكام نيابة عن الإمام ، فقد نرى فى بعض الأحيان وبشكل استثنائى حدوث معارضه عنيفة والتى قد تؤدى إلى ثورات من قبل رجال الدين فى مواجهة الحكام إلا أنها فى الغالب قد تكون لها أهداف واضحة و لا تتمثل فى نية التغيير الكلى للوضع الموجود للمجتمع و الحكومة بل كان لها أهداف أصغر من ذلك إلى حد ما ، و لكن على أية حال فإن تكرار وتوالى هذه الانتفاضات والثورات تنبئ عن نوع من الحركة الهادفة للتنوير . ولو أننى أردت أن أعطى نموذجا سريعا فيمكن عد عشرات من هذا النوع من الأحداث منذ أواخر العصر القاجارى . حيث ثلاثة أحداث منها لها أهميه نظرا لأهدافها العظيمة إلى حد ما ، أولا قضية تحريم الدخان ، تليها الثورة الدستورية والأخيرة تأميم النفط . وفى هذه الوقائع السياسية الاجتماعية الثلاثة ، وبإجماع كافة المؤرخين ، فإن النصيب الأعظم من النزاع وقع على عاتق رجال الدين بالنسبة للنماذج الأقل منها عبارة عن مقاومة رجال الدين لمجلس المؤسسين سنة ١٣٠٤ هـ ش ، المعارضة مع قضية كشف الحجاب و قضايا قم ومشهد ومدينة رى ...... سنه ١٣١٤هـ ش التى منيت بالهزيمة .

أما العسكريون فبالرغم من أنهم حقيقة بعد حرب هرات (١٢٧٢ق-١٨٥٧ م) التى كانت أحد توابع التغيير الأساسى للوضع العام للحكومات الإيرانية نجدهم قد أصيبوا بالخمول تدريجيا و بشكل كبير ، لدرجة أنهم فقدوا منزلة الصدارة فى أية حادثة

تاريخية[1] . وأن الأثر الوحيد المترتب على وجودهم هو الاشتراك فى المجادلات بين العامة من أجل حفظ النظام الموجود . وبالرغم من هذا نجدهم يجلسون فى الساحة باعتبارهم خلفاء بلا منازع لجميع القيادات ، ليس فقط فى مديريات الأمن ، ونقطة البوليس ونقطه الحدود أى أماكنهم الأساسية ، إنهم كانوا يقيمون حتى فى نقطة إدارة الشئون الاجتماعية والصناعية والزراعية[2] ، ولو أخذنا فى اعتبارنا أيضا تكتلاتهم فى التعليم والصحة والتعمير وغير ذلك لأدركنا أهمية العسكريين.

ولو نظرنا إلى المجتمع الإيرانى لاتضح لنا الاختلاف الثانى بين رجل الدين والعسكرى الحالى لوجدنا أن ما يقرب من ٨٠٪ من الشعب الإيرانى أميين هذا مع وجود حوالى ٧٥٪ من الشعب الإيرانى قروين وهذا الأمر مع وجود هذا القدر الضئيل من الديمقراطيين ومع وجود القاعدة العريضة التى تنفذ أعمال سطوة أولى الأمر من ناحية عن طريق وسائل الإعلام (الرادى ... إلخ) فإن صلة رجل الدين تجتث الدين يوما بعد يوم عن القرية وتحل محلها كتائب الصحة والثقافة والفروع الأخرى للمؤسسات الحكومية التى يقع أغلبها تحت الرقابة العسكرية ، وعلى جانب آخر نجد أنه على الرغم من أن تربية رجال الدين تتم على أسس تقليدية فى المجامع الدينية التى تعد على الإصبع بقم و مشهد و غيرها .... إلخ. إلا أن إعداد الكوادر القيادية للجيش تتم على أسس غربية وأمريكية و ترتبط بمراكز وصناعة وتصدير العلم والسلاح ، وفى الوقت نفسه يصاب المذهب الشيعى بشىء من الانزواء والتقوقع داخل نفسه تدريجيا وينفصل عن العالم الإسلامى كله ويحيا بلا سند دولى ويبتعد أيضا عن مجال

(١) "الجيش فى جميع التصادمات الداخلية كانت تصدياته لها فى مرتين فقط قليلة جدا . ص ٩٤ كتاب " مصدق ورستا خيز ملت" بقلم المقدم سيد محمود سخانى . طبعة ١٣٣١ - خواندانيها .

(٢) بصرف النظر عن تعدد الوزراء العسكريين منذ ١٣٣٢ وما بعدها وأيضا بصرف النظر عن المسئولين العسكريين للمجموعة الثانية سواء كانوا فى المصالح الحكومية أو القطاع الخاص (وبصرف النظر عن المكاتبات الخطية للوزارات التى توجه إلى المستخدمين العسكريين المتقاعدين عن الخدمة فى الهيئات الصناعية (لم أذكر نص المذكرة فى النهاية) وبصرف النظر عن كمية الأراضى الموضوعة تحت طائلة العسكريين المتقاعدين والتى تقدر بحوالى ١٥٠٠ هكتار وبصرف النظر أيضا عن جرائم العسكريين التى تغاضى عنها الدكتور محمد هدايت وزير العدل حتى قضايا ٢٨ مرداد ١٣٣٢ وبصرف النظر عن أمور أخرى كثيرة .

التفاعل، أيضا نجد أن الإدارة العسكرية فى نفس الوقت تفرض وصايتها بالإجبار على الأجهزة السياسية وتعمل على توفير نفقات الأسلحة التى تأتى على أنها مساعدة خارجية أو عن طريق إعطاء النفط مقابلها ، كما أنها تشرف على العلاقات الدولية والسياسية والعسكرية وبهذا تأخذ وضعها تدريجيا فى مجريات الأحداث العلمية والصناعية والفنية ، والإستراتيجية والنتيجة أنه كلما اقترب تأثير رجال الدين فى المجتمع من الصفر ، فإن نصيب العسكريين يتصاعد إلى المائة ، ويمكن أن نقول إنه أعلى من المائة ، وبناء على هذا لا يكون للمستنيرين فى هذا الخضم أى دور سوى العمل تحت الإشراف العسكرى . وبهذا الترتيب للقوات القيادية الثلاثة للمملكة أى رجال الدين والمستنيرون والعسكريون ، فإن هذه الفئة الأخيرة هى وحدها التى تحدد دور كل فئة و عليه فلهم الحق فى أن يسلبوا أجر المجتمع ويأخذوا أجر كل شىء .

٢- العسكريون والتنوير

بهذا التعبير الشامل و هذا الحد القليل الذى أطلقناه على المستنيرين بأنهم إلى حد ما عمال ذهنيون وليسوا يدويين ، وإن كان واجبا إمكانية البحث عن التنوير فى صفوف العسكريين يجب أن نقوم بالبحث فى صف قادتهم لا فى صف الجنود البسطاء الذين ما هم إلا نوع من العمال اليدويين مع قدر من المهارات فى استخدام السلاح والشئون البرية والمراسلة و الاتصالات والخبرات اليدوية الأخرى ...إلخ..

وبغض النظر عن أن الجندى البسيط يعتبر عامل سخرة أكثر عن كونه عاملاً يدويا لأننا من الناحية الاقتصادية نقول : إن العامل هو الذى يقوم بإخراج المادة الخام فى صورة سلعة قابلة للاستهلاك .

حقيقة أن تأدية الخدمة العسكرية بالنسبة للأشخاص القرويين فى إيران هى تجربة و ربما وسيلة لتعليمه كيف ينقل إلى القرية نظم و آداب المدينة و أن يتعلم

الإسعافات. الأولية وربما عملاً أو عملين يدويين[١] . وفى هذا المجال ربما نستطيع أن نقارن بين جندى بسيط فى مكمنه أو طالب جامعى بقصد أن نرى الخبرات المترتبة نتيجة التعليم ، أى التى تعلمها فقط وعلى كل فسوف تلاحظون أنه لا يمكن أن نعتبر الجندى البسيط حتى مجرد عامل يدوى نظراً لأنه كان مبعداً عن كل نشاط اقتصادى وسياسى وثقافى ولما كان وجود الجندى و العسكرى و حرس الحدود ضروريا لترسيخ دواعى الأمن التى تلزم لكل نشاط . إذن فمن الممكن أن ندرك أن مقدارا من الدخل القومى يصرف على رعاية وتعليم الجندى والشرطى و رجل الدرك إلا أن وضعنا الحالى وبشكل ما يجعلنا مضطرين إلى أن نسأل فى النهاية ما مقدار المصروف من الدخل القومى على هؤلاء ؟ ألا تكفى نسبة ال ١٠٪ أو ١٥٪ الموجودة فى كل مجتمع مستقر وسالم والتى تنفق فى هذا المجال؟ و لماذا يجب صرف نسبه ال ٣٥٪ رسميا والتى قد تصل إلى ٥٠٪ أو حتى ٦٠٪ من الدخل القومى لإيران على رجال الأمن[٢]؟

على العموم فإنه أحيانا (وليس بصورة استثنائية) يحدث أن وحدة من وحدات الجيش تشارك فى فتح طريق مقفول بسبب موجة صقيع أو تشارك فى عمليات إنقاذ فى أثناء حدوث الزلازل والسيول وهذا ما يؤدى على الفور إلى رفع اقتصاد المملكة أو أن.

(١) والطريف أن هذه النقطة موجودة فى كتائب الصحة والتعليم .. وهذه النسبة تصبح معكوسة أى أن كل واحد منهم مع قضاء ١٠:١٤ شهر فى القرى بالفقر القروى والمشكلات الاجتماعية المعروفة ، فإن عندما يعود يجلب معه إلى المدنية مجموعة من القرويين المتمردين على الأوضاع .

(٢) كان مقدار ما ينفق على جيش فى دولة إيران سنة ١٣٣٠ حوالى نصف فى المائة من قيمة الإنتاج القومى ومنذ عام ١٣٣٢ وما بعدها ارتفعت النسبة بشكل سريع ولكن منذ عام ١٣٤١ مع الأخذ بالاعتبار زيادة الإنتاج القومى وأن هذه الزيادة كانت من حيث الكم لا من الكيف وعلى هذا فإن نفقات الجيش ارتفعت سواء من ناحية الكم أو من ناحية الكيف ونجد الأن الدول العظمى تصرف حوالى ١٠٪ من الإنتاج القومى على الجيش أما بالنسبة للدول الرأسمالية الصناعية فإنها تنفق حوالى ٦٪ من الإنتاج القومى سنويا مع العلم أن نسبة ما ينفق على التعليم والصحة (معا) لا يزيد عن ١٪ ولنرى دولا فى مستوانا أو مشابهة لنا فإنها تنفق على الجيش من حصيلة الإنتاج القومى ، أفغانستان نصف فى المائة – باكستان ٢,٧٪ – تركيا ٢,٨٪ – عراق ٧٪ – عربستان ٢,٣٪ – كويت ١,٧٪ – الهند ٣,١٪ – الصين ١,٢٪ – تايلند ٢,٦٪ – فيليبين ١,٨٪ . وهذا كلة نقلته من إحصائية عام ١٩٦٥ (بر آورد اقتصادى آسيا وخاور دور) نشر مؤسسة الأمم المتحدة طبعة بانكوك ١٩٦٦ نقلا عن مقالة (بار نظامى إيران) من مجلة " ما هنامه سوسيا ليسم " ارد بيهشت ١٣٤٧ وطبعة باريس .

تشارك فى ترتيب عرض عسكرى مجانى من أجل الناس أو أشياء أخرى من هذا القبيل .... وبالرغم من كل هذا لا يمكن أن نقبل أن يصل ذلك الجندى البسيط إلى مرتبة العامل اليدوى ولا مناص من قبول مقارنته بطالب يتلقى العلم فى الوقت الحالى إلا أنه يجب على الفور أن نهتم بهدف وبرنامج ومحتوى هذا التعليم ونسأل هل جنودنا الذين يتهيأون للدفاع والمواجهة فى المستقبل أعضاء مفيدون ومنتجون للمجتمع أو أعضاء من أعضاء الآلية المنفصلة عن المجتمع ؟ ولشديد الأسف فإن المجادلات بين العامة. التى حدثت منذ سنوات ١٣٢٠ وما بعدها والعداوات التى نشأت عن ذلك توضح لنا هنا أن الجندى البسيط تتم تربيته على أن يكون عاملا لإيجاد الرعب والخوف .

هذا فيما يخص الجندى وحرس الحدود والشرطى البسيط الذين ليست لديهم على أية حال سمات تنويرية ولكن ما يخص الأمراء والضباط بديهى أن ضابطًا مهندسًا يكون مستنيرًا، وكذا عقيدًا طبيبًا فى الجيش أو رائدًا قاضيًا فى محكمة عسكرية.

وعلينا أن نلتفت فى الحال مرة أخرى إلى مضمون التربية فسواء ذلك الضابط المهندس ، و سواء ذلك الطبيب العقيد وسواء ذلك القاضى الرائد، طالمًا أنهم من خلال موقعهم يحافظون على أمن الدولة ويقومون بتربيه الأفراد فى أثناء تأدية مهامهم اليومية، لذا فهم مستنيرون ، وإلى أن يصلوا إلى حد إيجاد الرعب أو يكونوا عبئًا على اقتصاد دولتهم ، فهم بذلك يصبحوا مبعدين عن دائرة التنوير علاوة على ذلك (وكما أوضحنا من قبل) أن أساس التنوير فى إباحة حرية الفكر والمناقشة ، وإذا كان مقررا فى جهاز الجيش ، أن يكون أساس العمل ، كما هو شائع، هو الطاعة العمياء ، فإن القضية واضحة منذ البداية.

وعلى هذا فإن جميع المستنيرين المرتدين لباس الجندية و فى خدمه مراكز الأمن ، يعملون بداية من تربية الجنود فى المعسكرات وكما هو معروف فإنه عمل تربوى صرف حتى العمل فى إدارة الجواسيس والعمل فى الصف الثانى الذى هو عمل أمنى فقط - بداية من التدريبات الرياضية حتى تعليم قواعد تربية الحيوانات أو حساب المثلثات - فجميعهم بالرغم من أنهم أساتذة و مدرسون عسكريون فإنهم يعملون فى إطار الطاعة العمياء ولا مناص من أن يسقطوا من دائرة التنوير . وعلى ما نظن أن ذلك الشخص الذى يتعلم أساليب إلقاء القنبلة، هو ببساطة يتعلم أساليب التخريب إذن

هناك شك فى أساس تعليمة ويجب أن تعلموا أن لدينا كليات حربية وكليات عسكرية بأساتذة وطلاب ودروس وامتحانات ومسائل وتمارين وكتب وماشاكل ذلك وأن صاحب الرتبة الذى يتخرج من هذه المؤسسات التعليمية دون شك يعتبر من ضمن المستنيرين ولكن ما النتيجة المترتبة على هذا التنوير .

فى الماضى كانت مدن العالم العظيمة تبنى فى موضع المعسكرات الحربية العظيمة التى انتهت بها الحروب أو كانت جسورا للإمداد العسكرى والتموين أو كانت تنشأ على أطراف هذه المعسكرات مدن عظيمة ؛ فالقاهرة والكوفة والبصرة كانت فى الأصل معسكرات الجيش الإسلامى الذى تحرك من خلالهم لفتح العراق وخراسان ، وأن جميع الإسكندريات التى كانت بمثابة محل إقامة لمرافقى الإسكندر الأكبر أو رومية وأنطاكية وشاهبورجان ونيسابور وسلطانية الذين عن طريق أسمائهم . نصل إلى عصورهم التاريخية ، وكل هذا ما هو إلا سمة لعصور حاربت ، فى شكل جهاد أو فتوحات لنشر دين من الأديان أو طريقة من الطرق أو حضارة من الحضارات ثم حل الوقت الذى كانت تنشأ فيه قلاع الحكومة على أبراج من العاج والحديد والفولاذ فى مراكز المدن وعلى أعلى مكان فيها ، ومعها تبنى السجون والخنادق والمنجانيقات والسلاسل وأدوات التعذيب ، التى كانت معدة لكل من يخرج عن آداب المدينة أو يعصى أوامر الحكام كما بدلوا أطلال قلاع يزد وقم وكر مان وتبريز وفلك الأفلاك فى بروجرد وقلعة كريم خانى الشيرازى التى بقيت سالمة بدلوا هذه الأطلال على الفور إلى سجون . تلك هى بعض من سمات عصور ملوك الطوائف . على أية حال فكل منهم له حكاية من الزمان الغابر التى نادراً ما نحتفظ بمعانيها حتى اليوم . إلا أن الوضع اليوم مختلف فى دولتنا إذ إن المعسكرات تبنى إما بعيدة عن المدن وفى شيء من الخفية والسرية مما يؤدى إلى إدخال الرعب فى قلوب الناس الذين يقيمون بالقرب منها (أذكر على سبيل المثال مثالين فقط رضا آباد فى مراغة ووحدة دزفول) وإما أن يكون المعسكر على أطراف المدينة ثم أصبح داخل كردون المدينة بسبب اتساعها العمرانى (مثل باغشاه وعشرة آباد وغيرهما فى طهران) ومع كل هذا فإن المعسكر ينفصل تماما عن حياة عامة الناس ويبقى فى عزلة حيث يعتبر مدينة مستقلة داخل مدينة حسن

آباد فبأى عصر ترتبط هذه الخصائص ؟ أهى مجرد خصائص لعصر تنفصل فيه الحكومات عن الشعب والشعب منفصل عن الحكومات وكلاهما يخشى الآخر ؟ أهى مجرد خصائص لعصر يبدل الجيش إلى آلية منفصلة عن الناس حتى إنهم يتكلمون بلغة أخرى [1]؟و هذه ليست مصيبتنا وحدنا، بل هى مصيبة كل الدول المنتجة للنفط.

انتبهوا سيادتكم لما كتب صديقى حسين ملك :

فى طريقى من حلب حتى البصرة مررت بثلاث دول : سوريا – الأردن – العراق وعلى خلاف أسفارى السابقة التى تجرعت فى جميعها التراب . هذه المرة (......) سرت على الطرق المهدة (......) وعلى طول الطريق يشعر الإنسان وكأنه يسير داخل معسكرات وخاصة فى سوريا . وعندما عبرت من دمشق وبدت الطرق الصحراوية الشاسعة ، فأحيانا تشعر من خلال الجو العام أنك تسير فوق أنابيب نفط وكل ما تقع عليه العين فى هذه الطرق غير البشر ما هو إلا آثار مرتبطة بالنفط أو مرتبطة بتمهيد الطرق أو بحراسة هذه الطرق للحفاظ على هذه الأنابيب. وعند ذلك نتذكر ماهى وظيفة تلك المعسكرات التى رأيتها والتى لم ترها . ففى البداية أنبوبة نفط – طريق للحفاظ عليها – معسكر للحفاظ على الطريق وحكومة لإدارة المعسكر ومثلما يكون احتياج المعسكر والحكومة لبعض المناطق ، يكون للناس نفس الاحتياج لهذه المناطق إما للتقدم

(١) ارجعوا إلى " ماهنامة أرتش شاهنشاهى إيران " – العدد ٥ ، ٦ – ١٣٤٧ ولتروا أى لغة استخدموها الآن وهذا فهرس مختصر عن اللغات الحديثة التى استبدلوها بالقديم .

سنت = ترادار	احتراق = سوختارى	دفاع = بدافند	تعرض = أفند
منطقة تجمع = كمكاه	معنى = جيم	عضويت = هم وندى	حضور = فرستى
كنكدى = روابك	قابليت انعطاف = تابمندى	حاضر = فرست	غايب = نهست
حمل ونقل = ترابرى	تدارك = آماد	مسلسل = تمر بار	حملة = تك
حملة مقابل = باتك	جنك محدود = جنك خرد كران تصميم قبلى = جنك نافراديده ..إلخ .	محدود كرانمند	

للعسكرية أو للعمل ، والقضية المهمة ، هى هذا الانقسام العجيب الذى يشعر به الإنسان بين الناس والحكومة . (١)

وبعد انظروا إلى تلك الدول الحديثة الاستقلال الموجودة فى آسيا و فى أفريقيا التى لم يطرح بعد النتاج الفكرى لمستنيريها بالأسواق والعصر ، عصر العسكريين ثم انظروا الى الانقلابات المتوالية ابتداء من أمريكا اللاتينية حتى فيتنام وأندونسيا والقواد العسكريون الذين هم فى معظم بلدان آسيا وأفريقيا حكام ديكتاتوريون ، أى حكام عتاة لدولهم فى غياب المجالس البرلمانية وحرية الصحافة وأحزاب المعارضة أو الأرجوزات التى وضعت بدلا منهم فجميعهم يجلسون على مائدة فقر التنوير أو يجلسون فى غياب ذلك على مقعد حكومات البلدان وما هى إلا استعمار فى صوره الجديدة مع حفظ النظام والاعتراض لأى مناقشات - إلا أنه فى الشكل الظاهرى خادع - أن يستمر بهذا السلوك الذى سلكه فى المئتى عام الأخيرة هذه. وفى النهاية لماذا هذا ؟ وإذا كان النتاج الفكرى لم يطرح بعد فى الأماكن التى ذكرتها ، فكيف تكون الأوضاع هنا ؟ وللجواب على هذا السؤال نتصفح أوراقا من مجلة العلم والحياة التى توقف إصدارها منذ عام ١٣٣٩ حتى الآن :

لا يمكن اعتبار هذه التدخلات العسكرية ناشئة عن الأفعال الاستبدادية للقوى المسلحة والحكام ، بل إن هذه التدخلات تقريبا حدثت فى جميع الأماكن بسبب الأوضاع والأحوال الاجتماعية التى سأشير إليها الآن ، ففى كل هذه الأوضاع المؤسسات الاجتماعية غير العسكرية الفاسدة و الموظفون و ذوو المناصب السياسية أصبحوا غرباء عن طبقات الشعب. و النتيجة أن المؤسسات إما أنها عاجزة عن العمل أو بالية بشكل عام أو حتى تفقد أهميتها وقيمتها نتيجة السؤال و الوقوع فى الخطر و تفقد مقامها بين الناس بشكل عام لأنه أيا كان شكل الحكومة سواء ديمقراطية أو ديمقراطية كاذبة أو ديكتاتورية فيجب على الأقل أن تكون لها ظهرانية بين الناس

(١) نقل عن مجلة (جهان نو) (برئاسة رضا براهنى) الأعداد ٤ ، ٥ (مشترك شهر يور ومهر ١٣٤٥ - صفحات ٣٣ ، ٣٤).

أو تحصل على الأقل على سكوتهم المقترن بالموافقة (......) . إن إحدى الجذور العميقة لهذا المرض المزمن ، هو عدم كفاءة وتوافق أجهزة هذا النوع من الحكومات و طبيعة المجتمع فى هذه الدول التى يطبق فيها النظام العسكرى (......) أهم من هذا أن الطبقات السياسية العليا لهذه المجتمعات قد تم تأهيلهم فى أوروبا أو أمريكا أو جامعات محلية مقامة من قبل الأوروبيين والأمريكان وأن أسلوب تفكيرهم مطابق لمقاييس وموازيين الغرب بهذا المعنى فإن هذه الطبقة المنتقاة إما أنها تؤمن بوجهة نظر من الناحية الفكرية والسياسية لا تتفق مطلقا والسنن والآداب السائدة بين عامة الناس أو أنها تتفق معها قليلا أو قد لا تتفق مطلقا . بناء على هذا فليس لهذه القوى الاستعمارية بصمة فى الدول المتحررة من قيد الاستعمار.فقط ، بل إن هذه الطبقة المنتقاة من المستنيرين الذين تم إعدادهم وفقا للأساليب الأوروبية قاموا بالتأثير أيضا فى الجهة المذكورة سالفا لأنهم يقلدون طوعا أو كراهية هذه المؤسسات ووجهات النظر والسلوكيات الخاصة بالمجتمعات التى تعتبر مجتمعات متحضرة [١].

ولاحظوا فإن كل هذه السمات موجودة فى إيران فتغريب المستنيرين جعل مؤسسات الدولة بلا معنى ، وفى نفس الوقت حرر مجموعة القيم التقليدية والمحلية ...... إلخ .

وبعد هذا البحث الفرعى الذى طرح بهدف توضيح المكانة الاجتماعية للعسكريين فى هذه الجهة من العالم نعود الآن إلى الموضوع .

واضح أنه فى مجال القوى المعقولة والمتناسبة للأمن ، أى البوليس والشرطة والجيش يكمن نوع من القيمة التنويرية. أى أن أى ضابط إرشادى وقيادى ، يعد مستنيرا . و كذا عسكرى الإرشاد ، يعد عاملا يدويا و يكون مصباح الإرشاد هو أداة عمله، أو أى ضابط شرطى- بشرط أن يتميز بشىء من العدل فى حل القضايا المحلية والبسيطة ويصيغ التقارير ويرسلها من القسم إلى القيادة ومن هناك إلى المحكمة وبالعكس . من المؤكد أنه مستنير. وكذا فإن الشرطى البسيط نوع من عامل حراسة الطريق وواضح أنه فى مجموعة الأحكام التى قدمناها فى شأن العسكريين ، أن

٩

(١) نقل عن مجلة (علم وزندكى) الكتاب العاشر - ١٣٣٩ - عن مقالة بعنوان " قدرت وانضباط در نقش تنظيم كنده " السياسة والجيش فى الدول النامية .

الاهتمام الأساسى يدور حول قربهم أو بعدهم عن الطبقة الطفيلية بالذات فى الأجواء الاجتماعية المنتجة للبترول التى يتقاضى معلمها أو أستاذها ثلاثة أضعاف نظيره الهندى على الأقل .

على أية حال فمع كل ما سبق يمكن الحكم بحذر أن كل ضابط بوليس أو شرطى أو عسكرى ، يعادل أى موظف من موظفى الدولة و يعادل كل من يكون الهدف الأساسى من عمله و النية الباطنية لشخصه هى النظام والتنسيق لحياة المواطنين وتحمل مشكلاتهم أو العمل على ارتقاء شئون الخدمات العامة ، فعلى نفس هذا القدر يكون مستنيرا و بتعبير آخر فإن كل عسكرى ، بقدر ما يعتبر نفسه خادما أو حافظا للنظام الديمقراطى والخالى من الإرهاب فإنه بذلك القدر يكون مستنيرا ، ولكن بقدر ما يكون سببا للنفوذ والإرهاب ورعاية النظام الديكتاتورى و يكون وسيلة لاضطراب الناس فإنه بذلك القدر يصير بعيدا عن التنوير و أن هذه الروح بالرغم من أنها سمه نسبية عامة فى داخل صفوف مراكز الأمن لدولة مثل إيران ، فإنها بالذات فى العشر سنوات الأخيرة ، قليلا ما نجدها بين ضباط الشرطة . وهذا نفسه ربما يكون بسبب احتكاكهم الدائم بالمواطنين من خلال الأحداث اليومية، وأيضا بسبب أنهم لا يعيشون مثل ضباط الجيش و حرس الحدود فى عالم مغلق من الكتائب و المعسكرات و النوادى العسكرية فلا مفر من أنهم قليلا ما يشعرون أنهم من طينة أخرى ، و على أية حال أتمنى أن يكون هذا نفسه أساسا للتغيير لصالح تقدم مراكز أمن الدولة. بشكل عام فإن آخر قضى يمكن ذكرها فى هذا الباب بالنسبة للتنوير العسكرى وبالذات بشأن المستقبل المتوقع لموقفهم الصحيح تجاه أى صدام حاد بالاستعمار (بكل مشاكله وتوابعه) وهذه القضية هى ، بالنظر إلى الجهات الطبقية لهذه القضية فى تلك الظروف بالطبع فإن الأمل الأساسى لهذه المواجهة فقط موجود فى الأفراد الذين يحصلون على رتبة الضباط والذين لا يزالون على رتبة العقيد ولم يصلوا إلى درجة عميد ثانى. لأنه قبل الوصول إلى هذه الرتب يظل العسكرى مرتبطا بمنشأه الأصلى أى بالقرية والمدينة البسيطة[1]، والأمل فيه الآن. إلا أنه بعد الوصول لهذه الرتب يتبدل الوضع الطبقى

(١) ارجعوا إلى الملاحق المترجمة عن أنتونيو جرامشى فى نفس المكتوب وعلى الأخص ص ١١٣ ، وما بعدها .

ويصبح صاحب رتبة عميد ثان فيما فوق ، فلا يعد اسما عضوا من أمراء الجيش فقط ، بل إنـه يصل قلبا وقالبا أيضا إلى الاستقرار فى طبقات جديدة و التى يلزمها الحفاظ على الوضع القائم والدفاع عن عوارض ذلك و توابعه [١]. و هذه الرتب أيضا ليس لها علاقة مباشرة لربط الشعب بالحكومة.

فى حين أن ما يربط القوى الحاكمة و المستعمر هو الشرطى والجندى حيث ينجزان هذه الوظيفة من خلال اتصالهما المباشر و تدخلهما فى الأحداث اليومية المتكررة. وقد تعلم هذا الوسيط جيدا لو أنه امتثل للطاعة لا لأنه مأمور معذور بل لأنه موافق أيضا.[٢]

٣- رجال الدين والتنوير

لقد حان الوقت الآن لتوضيح وضع علماء الدين وتحديد نسبة التنوير لديهم أو بعدهم أو قربهم عن التنوير . فى هذا المجال وإشارة إلى ما ذكرته سالفا فإننى أذكر الحقائق أولا:

الحقيقة الأولى: وهى أن رجال الدين يعملون فى حوزة التعبد أو مضمار الطاعة مثل العسكريين ومثل كل فرقة من المستنيرين المتفرنجين أو الإفرنجيين حيث إن كليهما فى طاعة من نوع آخر.

الحقيقة الثانية : وهى أن رجال الدين هم الحافظون للسنة والتقاليد فلا مناص من أن يكونوا معارضين لكل تطور وتغير ووجهة نظر جديدة وبناء على هذه الحقيقة فهم يطلقون على رجال الدين (أفيون عوام الناس)[٣] ولكن لو اعتبرنا أن هذا ضرورى للحفاظ على السنة ، والمواريث القديمة ، فيمكن معرفة أن رجل الدين لا يحافظ حتى على الوضع الحالى أيضـــا.

(١) ارجعوا إلى نفس المرجع السابق ص ٨٨ من نفس المكتوب .

(٢) ارجعو إلى ص ٣ من (دوز خيان روى زمين) عمل لفرانتس فانون - ترجمة (؟) - طبعة أوروبا شهر تير ١٣٤٦ .

(٣) مثلا رجال الدين الآن لم يرضوا عن مسألة كشف الحجاب ، وعن حق المرأة فى التعبير عن الرأى واشتراكها فى المجتمع . إلخ وقليلا ما تفوهوا عن "الوضع القائم "

الحقيقة الثالثة : هى أن رجال الدين يؤدون عملا تربويا مثل العمل الفكرى للإدارات العسكرية ومثل العمل الفكرى للمستنيرين على الأقل.

نبدأ من الحقيقة الثالثة : إن الإشراف على التربية والتعليم الدينى للناس وعلى أمور معاشهم ومعادهم ، التى حتى الآن ليس للعرف والقانون إشراف عليها ، فهى من شأن رجال الدين . مثل الزواج والطلاق والميلاد والوفاة والفصل بين العقاب والثواب و مجموعة أمور مرتبطة بهذين المفهومين اللذين يشكلان أخلاقيات المؤمن . على كل فطالما أن أهمية رأى المرشد الدينى فى تلك الأمور أهم من رأى مواد القانون أو المحاكم العرفية الفلانية ، أى أنه طالما أن القضايا المتصلة بالعالم الغيبى أو المرتبطة بالعالم العلوى خفية وطالما أن القوانين والمؤسسات العرفية لم تحصل على حق الإشراف على هذه المسائل، سيظل لرجل الدين إشرافه على تربية الوجدان الدينى للناس و على هذا النحو فإن رجل الدين ، إلى حد ما معلم أو مرب. على خلاف العسكرى البسيط الذى يؤدى عملا من الناحية الاقتصادية . و بالذات لو التفتنا إلى نسبة ال ٨٠٪ من الناس الأميين وأيضا بالالتفات إلى أن رجل الدين فتح له مجالا فى وسائل الإعلام و كسب الخبر مثل (الراديو - التليفزيون - السينما) و بغض النظر عن رجال الدين العديدين الذين أشرنا إليهم على مدى التاريخ الذين يرتزقون من غير مال الله و يتكسبون كالآخرين فنجدهم إما زراعا أو أصحاب حرف أو فى الغالب ملاكا لأراضٍ موقوفة أو نظارا عليها وبغض النظر عن أن هذه الموارد العديدة ليس لها أساس من الحكم الذى سنطرحه. وعلى كل لا يمكن أن نعتبر رجل الدين عاملا يدويا أو صاحب حرفة . على أية حال فمن المسلم أن لدينا رجال دين كثيرين أدوا ولا يزالون يؤدون أعمالا فكرية فهم كتاب يتفوهون بالحكمة والفلسفة ، يدرسون الفقه ، وأشياء من هذا القبيل. وإن لم يكونوا أى شىء من هذا . فهم بمثابة معلمين لمكان ما أو قرية ما يفهمون العوام مواضع الشبهات والآداب الدينية ومختصر عن الأخبار والسنة والأساطير الدينية . وعلى هذا النحو فعلى مدى تاريخنا ، سواء كان قبل الإسلام أو بعده ، فرجل الدين حافظ لنوع من العلم والثقافة علاوة على حفظ أصول العقائد والعمل بالفروع والآداب ومتعهد بنشرها .

إن مؤلف "ارداوير افنامه" الذى من المحتمل جدا أن يكون من رجال الدين الزرادشتيين، له نفس القيمة التى قدمها " المعرى أو دانتى" فى أسفارهما الخيالية إلى الجنة والنار مع الفرق وهو أن أحدهما كان يعمل فى مجال الفقه و الآخر فى الحكمة والثالث فى الطب . وهؤلاء جميعا إن لم يكونوا كتابا لدائرة المعارف الإسلامية والشيعية ، فمن يكونون إذن ؟ وكانوا فى عصور لم يظهر بها هذا النوع من كتب دائرة المعارف مثلما كانت مجموعة أعمال ابن سينا تعتبر دائرة معارف للعصر الديلمى . أو إحياء علوم الدين للغزالى الذى كان له نفس هذه المكانة لمدة قرن أو قرنين بعده . أو فى مرحلة بحار الأنوار أيضا بكل ما يحتويه من أخبار ، والذى كان بمثابة دائرة معارف للعصر الصفوى. وجميعها تعتبر مراجع للمستنير العصرى أخذت كلها من السنة حتى الأساطير ومن الدين حتى العلم . ويحتاج إليها المفكرون حتى مستنير العلوم – ارجعوا إلى " تقييم التعاليم الإسلامية الذى سوف يأتى لاحقا – وسنتحدث فيه عن حوالى مائة من المدارس الابتدائية والثانوية التابعة لمجامع التعليم الإسلامية مع حوالى أربعين ألف طالب ، وأيضا سنتحدث عن حوالى مائتى مدرسة قديمة لتعليم الطلبة مع حوالى أربعة عشر ألف طالب فضلا عن أن نسبة كبيرة من الطلاب والمعلمين والقضاة والموثقين يعدون من رجال الدين أو من أبناء رجال الدين . وطالما أن الإسهام الرئيسى لحمل الثقافة حتى الآن فى عهدة المدارس الإسلامية والنشريات المتخصصة الصادرة من المجامع الدينية[1] والمذهبية المنتشرة فى الدولة والمنابر والراديو (فى أيام العزاء) وطالما أن التشيع هو المذهب الرسمى للمملكة وفقا للدستور وطالما أن خريجى المدارس و الجامعات الجديدة لا يمكن أن يحلوا محل رجال الدين ، فلا يمكن تجاهل دور رجال الدين فى اندلاع شرارة الثورات الاجتماعية . و على وجه الأخص أن القانون الأساسى للمملكة الذى تم تعديله لصالح الحكومة فلا يزالون يثرثرون عن مشاركة خمسة من المشرفين الدينيين فى مجالس الشورى.[2]

(١) مجلة " أستان قدس " مشهد – مجلة " مكتب إسلام قم – وأشياء من هذا القبيل .

(٢) الأصل الثانى للقانون الأساسى ، الذى لم يعمل به منذ الثورة الدستورية حتى الآن ، جعل رجال الدين يدعون أن الثورة الدستورية معطلة حتى الآن .

إلا أن المشكلة الأساسية لعمل رجال الدين تكمن فى الحقيقة الثانية . وهى أن الروحانية هى المدافعة عن السنة و باعتبارها مدافعة عن السنة فهى حتى الآن ترضى عن الوضع القائم فى حين أنها ما زالت تتحدث عن خير الجزاء فى الآخرة ، أى أنها تهتم أكثر بالمستقبل المقيد فى قيد الماضى – وذلك عن طريق الطاعة و التى تعد الحقيقة الأولى – وعدم قبول الوضع الحالى و الجلوس فى انتظار الغيب وقليلا ما نبرز هذه النقطة .حقيقة و بسرعة وبشىء من الخفية أيضا، إذ إن الموضوع حساس ولا مجال فيه للثرثرة .

إن مذهب التشيع باعتباره مدافعا عن التقاليد ، لديه نوع من المقاومة ضد الهجوم الاستعمارى الذى يغير أول ما يغير على التقاليد و الثقافة فى كل مكان [١]، و على هذا يصبح الدين سدا فى وجه تغريب المستنيرين و أيضا فى وجه الحكومات المنقادة انقيادا أعمى للغرب والاستعمار الغربى[٢] . وبالنظر إلى هذه النقطة فإن الجناح التقدمى لرجال الدين لا يرضى حتى بالوضع القائم وهذه نقطة قوة تحسب لهم . ومجال اهتمام المستنيرين الذين لا ينظرون من باب التغريب بل ينظرون من كوة الاعتراض على الاستعمار الموجود فى الدنيا ، على وجه الأخص لو انتبهنا لما يقوله رجال الدين فى شأن أولى الأمر [٣].

والمحصلة أن مذهب التشيع لا يعتبر أن أمر الحكومة والتدخل فى السياسة شىء بعيد عن صلاحيتها بل إنه بصراحة يعد منافسا أو رقيبا لكل حكومة ، وادعاء المراقبة

(١) الظلم الاستعمارى لم يكن هدفه الوحيد هو تعقيم دور هؤلاء الرجال وأسرهم بل أيضا يكافح من أجل خروجهم عن نطاق الآدمية ويعدهم عن العادات والتقاليد الأصلية والثقافة الأصيلة . إلخ ، الصفحة السادسة " دوز خيان زمين " فرانتس فانون وأيضا ارجعوا إلى "تحدثت عن بعد المجتمعات عن أصالتها وعن الإطاحة بثقافتها ومؤسساتها المبعثرة وأراضيها المغتصبة ومذاهبها المندثرة وعن ضياع العظمة والرقى واضمحلالها " وارجعوا إلى مقولات فى شأن الاستعمار بقلم أمه سه زر ترجمة هزار خان .

(٢) فى هذا الشأن ارجعوا إلى " غرب زدكى "

(٣) ارجعوا إلى ص ١٦٧ من نفس الكتاب والصفحات التالية له .

لم يتفوه به أصلا المذهب السنى لأن التشيع يعتبر العامل الأساسى لحفظ وحدة إيران القومية فى مقابل خطر العثمانيين منذ العصر الصفوى وما بعده ، والتى تدعى أن لها فى هذه الدولة حق الماء والأرض [1].

هذا عن وجه القوه ، أما عن وجه الضعف فإن نقطة الضعف هى الطاعة .لأن الدين فى مجموعه لديه رؤية عاجزة فى مقابل العالم المعاصر وكل مشكلاته المعقدة وعلاقاته المتشابكة . فى نفس الوقت تزعم أن حسبنا[2] كتاب الله ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين[3] . وأنه فى غياب الإمام المعصوم فإن باب العلم مسدود! فى حين إنهم فى هذا المضمار الدينى أجازوا الاجتهاد وطلبوا الفتوى . ولحل هذه المشكلة يكفى أن نلتفت لوضع كل مجموعة من القوانين الشرعية أو الأحكام الدينية (طبقا السنة والأخبار الموجودة) التى لها حكم الوحى ، أى التى ترتبط بظروف معينة – من الزمان والمكان والإقليم والتاريخ والأدب – والتشريع يجعلها لازمة إلا أن هذه الظروف الآن وبعد مضى أربعة عشر قرنا أصبحت غير موجودة . ومن ناحية أخرى فكما هو معلوم ومعروف أنه ليس هنا فقط ، بل فى أنحاء العالم ، إن الدين يزداد ضعفا وتأخرا يوما بعد يوم . وكلما ازدادت نسبة هذا الضعف كلما ازداد التقدم العلمى . أى كلما رسخت العلوم الجديدة فى عمق المجتمع كلما قل أثر الدين وأربابه وهذا العلم الجديد أصبح فى أبسط صوره من فصل ومدرسة وجامعة ومعمل . وماذا نملك نحن من كل هذا ؟ هل نفذ العلم الجديد فى داخل مجتمعنا ؟ وهذا نفسه موطئ آخر للدين بكل عباداته وسننه . وعلى هذا فإنه سواء رضينا أم أبينا فإن نسبة ال ٨٠٪ الكثيرة من أفراد الدولة ممن ليس لديهم علاقة بالفصل والمدرسة والمعمل والجامعات الجديدة، تقع تحت تأثير الجانبين ، جانب رجال الدين وأهدافه ومؤسساته وجانب الحكومة بكل مؤسساتها ووسائل إعلامها .

(١) إذا كان ملوك العهد الصفوى أنفسهم أطلقوا على أنفسهم " قلب آستان على " والزندية وكيل الرعايا والقاجاريون " صاحبقران " ألم ينبئ هذا عن نوع من خفضهم للجناح فى مقابل ادعائهم المراقبة على رجال الدين وبقصد حمايتهم المستديمة ؟

(٢) " كتاب خدا مارابس است "

(٣) " هيج تروخشكى نيست كه دُر كتاب مبين نيست "

والحيرة الحقيقة لمجتمع دولتنا ناشئة عن هذا الواقع وهو أن المسموعات تصل عن طريق هذين المنبعين لنشر الأخبار والثقافة . وعلى الرغم من عدم تصادمهما بعنف فعلى الأقل لا يوجد بينهما أى نوع من الصلة والوئام وكما رأينا كم قاموا بأعمال وخيمة العاقبة فى أثناء التصدى لبعضهما والتى سوف أسرد نماذج منها فيما بعد. والمستنيرون الذين يجب أن يكون لهم دور أساسى فى محو هذه الخلافات والشقاقات . كما لو كانوا غير موجودين فى هذا الخضم أساسا . بعد أن حللنا القضية السابقة يجب أن نطرح موقف المستنيرين فى مواجهة رجال الدين . وبالنظر السريع إلى ثورة مستنير الدولة فى المائة عام الأخيره ، يمكن أن ندرك أن أهم المجموعات الفكرية بداية من ميرزا آقاخان الكرمانى وحتى كسروى ومن البهائيين حتى حزب توده فإن الجزء الأساسى من نتاجهم الفكرى جاء مخالفا للدين . والقسم الرئيسى لهذه الأعمال ناقص ولم ينشر بعد حتى الآن لهذا السبب أو التى نشرت سرا .

- أغلب أعمال ميرزا آقاخان الكرمانى[١] .
- قصة آفرينش وتوب مرواريد والبعثة الإسلامية إلى البلاد الإفرنجية[٢] لصادق هدايت .
- جندباد آورد ومعراجنامه والأدب الساخر لذبيح بهروز .
- التشيع والتصوف وبقية أعمال أحمد كسروى .
- رعاة السحر والخديعة والعلم والدين ومجلة دنيا وبقية أعمال حزب تودة .
- ومجموعة كتب والألواح والنصوص البهائية .

فى حين أن كل هذه الأعمال لا تعد من الكتب الضالة أو المخالفة للشرع ويوجد فى الجزء الأعظم منها (عدا الأعمال البهائية) مواقف جدية فى مواجهة الحكومات

(١) فى هذا الشأن ارجعوا إلى كتاب فريدون آدميت فى شأنه .
(٢) وردت أجزاء منها فى مجلة " نكين " أواخر سنة ١٣٤٧ – وبدون اسم الكتاب ألم يكن هذا القول تقليداً عن " كفتار خوش يار قلى " أثر للشيخ محمد محلاتى . وحاليا واحد من هذه الأقوال تقليد عن رسالة " هفتاد دود وملت " ميرزا أغانان كرمانى فى الوقت الحالى أيضا واحد من هذه الأقوال تقليد عن " قهوة خانة سورات " أثر " برناردن دوسن بير " من معاصرى روسو (صفحة ٤٩ أفكار ميرزا أغانان كرمانى – آدميت)

الاستعمارية . مثلا في رسالة (أى جلال الدولة)[١] ورجال الدين الذين كفروا هذه النصوص مارسوا عملاً مشابهًا للرقابة الحكومية على المطبوعات . وعلى هذا النحو فإن مذهب التشيع بكل ادعاءاته فى مواجهة الحكومات ، أصبح فى بعض الأوقات أداة لتنفيذ عمل الحكومات أيضا . لأن من عادة رجال الدين العمل بسلاح التزمت والتكفير . كما أن المستنير أصبح أداه أخرى فى يد الحكومات حتى يضعف رجال الدين (هذا المنافس العتيق للقياده) ونتيجة لهذا فإن المستنيرين بدلا من السعى الحثيث لنشر آرائهم و أعمالهم اكتفوا بالانضمام للجمعيات المغلقة والفرق المنزوية غير المؤثرة . ومن ناحية أخرى فإن مجموع هذه الأعمال وبصرف النظر عن الموقف الذى تتخذه فى مواجهة رجال الدين فإن كل واحد من هذه الأعمال يعد نصا من النصوص التى أثرت فى تطور الفكر والكلام والأدب الفارسى بشكل من الأشكال . وكان لزاما علينا أن نحصل عليها جميعا . فنحن الآن لا نمتلك أغلبها . إن سلاسة شعر ذبيح بهروز الذى يحذو فيه حذو ايرج ميرزا أو تعقيد أسلوب كافة الأعمال البهائية التى تعبر عن انحطاط اللغة الفارسية وآدابها ، كان يجب أن يوضح لنا ما لا نعرفه حتى الآن من مطالعة الفهرس الناقص الذى ذكرته.

والسؤال هنا لماذا بدأ المستنير الإيرانى منذ تعرف على بلاد الفرنجة فى مخالفة رجال الدين ؟ هل بتشجيع وحث سرى من الحكومات المعاصرة آنذاك التى كانت تضيق ذراعًا بمنافسة رجال الدين لها فى ودفع قضية الطباق والثورة الدستورية أو حتى ما قبل ذلك[٢] ؟ أو كنوع من تقليد كبار رجال الصوفية الذين ذكرتهم قبل ذلك ؟ أو بسبب

(١) دليل على هذا نقلت ست صفحات من هذا الكتاب على شكل ملحق تحت عنوان أثر عن زعامة المستنيرين اللامذهبية.

(٢) على حد قول حاج سياح فى ادعائة عن السيد جمال الدين أسد آبادى ، كان شخصا مؤثرا على حاكم أصفهان (وربما لعداوتة بالنسة للوالد) ولتنظروا إلى خواطر حاج سياح من صفحة ٢٨٦ وما بعدها وإلى خواطرنا فى أن السيد جمال الدين كون اتحادا ثلاثيا هو وأغاخان الكرمانى وشيخ أحمد روحى ضد الحكومة وضد رجال الدين ، وأيضا فى بداية قضية سيد باب ، سلك معتمد الدولة منوجهر خان حاكم أصفهان ، نفس باب " بقلم اعتضاد السلطنة " الذى نشر فى شهر تير ١٣٣٣ مع توضيحات لعبد الحسين نواى . ونقلت عدة سطور على سبيل النموذج من هذا المرجع الثانى :

معتمد الدولة منوجهر خان كرجى الذى كان يرأس حكومة أصفهان فى ذلك الوقت يظن أن ربما يكون ميرزا على محمد واحدا من عظماء الدين (ص ٧) .. وقد أورد بكل احترام (عدة سطور من أسفل) عندما اتحد معه معتمد الدولة و لم يظهر تغريب حالة (ص٨) .. عندما قرر انعقاد مجلس المناظره امتنع عدد من علماء أصفهان مثل حاج ملا محمد جعفر الآبادى .. علاوة على هذا علمنا أن الكسروى عندما وصل إلى حد نشاطة فى السنوات قبل سنة ١٣٢٠ فإن حكومة الوقت قامت بظلم شديد على رجال الدين .

انفصال السياسة عن الدين وعلمانية المؤسسات الحكومية التى كانت إحدى أسس عقيدة رواد عصر التنوير الإفرنجي ؟ على أية حال وقبل كل ما هو واجب ومحتمل فكما هو واضح فإن المستنيرين الإيرانيين فى هذه المعارضة مع الدين انتبهوا إلى هاتين الواقعتين التاريخيتين إحداهما الثورة الفرنسية الكبرى والأخرى الثورة الروسية . أى من ناحية إلى كتاب و فلاسفة دائرة المعارف مثل ولتر ورسو وديدرو الذين لم يعلنوا الحرية البرجوازية فقط ولم يكونوا الكتاب الحقيقيين لإعلامية حقوق البشر ، بل إنهم الرعاة الرسميون للمستنير أيضا (وفى النهاية تظهر كلمة المستنير المتفرنج بشكل أكثر فى المصطلحات المسيحية عنها فى المصطلحات الإسلامية) ومن ناحية أخرى إلى الاشتراكية الديموقراطية الألمانية والإنجليزية التى كانت مؤسسة للاشتراكية العلمية وأدت فى النهاية إلى أقوال وأحاديث ماركس وأنجلز ولينين والثورة البلشفية.

السؤال التالى إذا كان مثل هذا صحيحًا ، ألا يوجد تشابه بين موقف مستنيرى القرن الرابع عشر الميلادى فى أوروبا ضد المسيحية و الموقف الذى كان يجب أن يأخذه مستنيرو إيران فى القرن الثالث عشر الهجرى ضد التشيع ؟

فمن أجل الرد على هذين السؤالين علينا أن نعلم لماذا ظهر خلاف بين المسيحية ومستنيرى عصر التنوير و ما تلاه ؟ كى يتضح أن مثل هذه التساؤلات حقيقة خاصة بالمستنير الإيرانى الذى عاصر أواخر العصر الفاجارى صادقة أم لا ؟!.

٤- أسباب اختلاف المستنيرين مع رجال الدين

السبب الأول : هو سلوك مستنيرى عصر التنوير المخالف للدين الذى أدى إلى الثورة الفرنسية الكبرى و كذا الثورة الصناعية الناشئة عن تطور العلوم. كان المستنير الفرنسى (و الأوروبى بوجه عام) قد ظهر فى هذه الفترة على أنه عالم متخصص. علاوة على هذا فقد أصبحت (الإنسانية) تحل محل كل الأديان بالنسبة له حيث إن كل الأصول تؤول إلى السماء ، بتعبير آخر فإن المستنير الذى قاد الثورة الفرنسية ، كان

متمرداً على الأوامر الإلهية و يرغب فى أن يختار بنفسه الديانة و كان يعلم أنه بدلاً من الشرائع الدينية من المحتمل أن تكتب قوانين و ضعية مثل الدستور أو يجب أن تكتب. و كان كتاب دائرة المعارف إلى حد ما كتابا للإنجيل الجديد ووضعوا ميثاقًا اجتماعيا بدلاً من القضاء و القدر . فى ذلك الوقت نهض المستنير الإيرانى منذ مائة عام مخالفا للدين و متأثرا مما سلف ، فمتى و أين كان متمتعا بثمار الثورة الصناعية ؟ و أى نصيب من العلوم الجديدة حصل عليه سوى فى نطاق الاستعمار و الاستهلاك ؟

وقد قمنا نحن بترجمة الدستور هذا والميثاق الاجتماعى مؤخرا خلال سنوات ١٣٢٠ حتى ١٣٣٢ و حتى الآن لم نكتب دائرة المعارف الخاصة بنا. و المستنير الإيرانى لعب نفس دور الكتّاب فى الثورة الفرنسية الكبرى و ذلك فى قضية الاعتصام فى زنجان و الذى اتخذ الصفوف الأولى للبابية ولا يزال من أهل الورد وضرب الرمل و الدف و الجبر و حساب الأعداد و الجمل ونحن حتى الآن أيضا بدلا من الانشغال بالعلوم الدقيقة و الأصول التكنولوجية و الفلسفة العلمية ، فإن جميع أبنائنا على وجه التقريب العائدين لبلادنا من بلاد الفرنجة يعودون وهم حاصلون على الدكتوراه فى العلوم الإنسانية.

السبب الثانى : كان ذلك الاختلاف مع المسيحية و ثورة لوثر فى ألمانيا والاعتراض (مذهب الاحتجاج = البروتوستانت) ضد زعامة البابا فى روما التى انتهت إلى رؤية أساسية جديدة فى جميع الاجتهادات المسيحية و قلت قوة عمل المسيحية التقليدية فى أكثر من نصف أوروبا و منحت القوة للكنائس المحلية . و عندما اعتقدنا نحن هنا أنه يمكن إطلاق "لعبة لوثر" فى حوزة التشيع أيضا أرجو أن تسمحوا لى فى هذا الشأن أن أنقل بشىء من التفصيل عن المطبوعات المعاصرة . ولكن عليكم أن تأخذوا فى اعتباركم أنه علاوة على الموضوع الذى سوف أورده، فنحن فى هذا الموضوع تجدونا أحيانا مؤيدين للسيد الباب الذى أصلا لا يعرف ما يريد . أما نتيجة عمله فى البهائية فإننا نرى أنه بدلا من الإصلاح فى التشيع فنحن نؤيد تأسيس مذهب جديد وأن بحث عيوب ذلك الأمر تخرج عن نطاق هذه الرسالة ، وأحيانا نؤيد كسروى

الذى بدلا من الإصلاح أيضا يصيغ دينًا جديداً . وأحيانًا نؤيد شريعة سنجلجى الذى أدت شجاعته الروحية و الفكرية إلى طرح قضية" البعث" إلا أنه تراجع عنها. وفى ظنى أن هؤلاء السادة جميعا قد وقعوا فى الخطأ. وهذا ما سوف تعرفون أسبابه فيما بعد. واسمحوا لى الآن أن نتصفح أوراقا من المطبوعات المعاصرة فى شأن لوثر :

إن جماعة مفكرى الإصلاح المسلمين فى القرن التاسع عشر (!) الذين أرادوا مع تنقية الدين الإسلامى من الخرافات أو إعادته إلى شكله الخالص و الطاهر أن يغيروا مجرى حياتهم نحو هدفهم . و يبدون وجهة نظر ترتبط إلى حد ما بين حركة الإصلاح الدينى و الحضارة الأوروبية و من هذا الاتجاه كانوا يمجدون و بشكل صريح أو غير صريح أفكار مؤسس مذهب البروتستانت و أضرب أمثله : إن السيد جمال الدين أسد آبادى فى نهاية رسالته المشهورة المسماة "حقيقة مذهب أنصار الطبيعة (ناتوراليست) و بيان حال أنصار الطبيعة يحصى ثلاثة شروط لعروج الأمم إلى مدراج الكمال و السعادة التامة و حقيقة الأمة. الأول : ضرورة تطهير عقول الناس من الخرافات المزيفة ، الشرط الثانى: ضرورة تعظيم شخصية الإنسان.الشرط الثالث : ضرورة إحكام الإيمان الدينى على أساس العقل والدليل وتجنب العقائد التقليدية. والسيد جمال مع أنه يعلم أن الدين الإسلامى يشمل كل هذه الشروط الثلاثة ، فإنه يجد بوضوح أن مذهب البروتستانت من المذاهب العالمية التى تتساوى مع الإسلام فيما يخص الشرطين الآخرين ، والشيخ محمد عبده المفكر المصرى العظيم و صديق السيد جمال الدين استفاد كثيراً فى تأسيس حركة الإصلاح فى مصر من أفكار فرنسوا جيزو [١]المؤرخ السياسى البروتستانتى (١٧٨٧-١٨٧٩) و مؤلف كتاب (تاريخ الحضارة الأوروبية) ١٨٢٨ - وميرزا آغاخان الكرمانى المتوفى (سنة ١٣١٤ هـ.ق) فى رسالته (سه مكتوب) يذكر لوثر إلى جوار رجال مثل كاوة آهنجر وفريدون وبطرس

(١) ألم يكن على سبيل الصدقة أن هذه المؤسسة (مؤسسة كيزوت F. Guizot) التى أوردت فى ص ١٩٩ جزءاً عنها نقلته عن مسئول إيرانى وفيما يخص الطلاب الإيرانيين .

الكبير الذين أزاحوا كثيراً من الصعاب والمتاعب من أجل ازدياد شرف أمتهم وفى النهاية عبد الرحيم طالبوف (المتوفى سنة ١٣٣٠ هـ.ق) من مستنيرى بداية عصر الدستور فى إيران ، الذى يعتبر أن الانحراف الدينى لدى الإيرانيين يعد من أسباب التخلف والظلم ، وتتشابه أفكاره وأفكار مصلحى الدين الغربيين إلى حد ما ، بل أيضا الملاحدة الثوريين (الشيوعيين) أو يتحدث مثل آرنست رينان فى أن الدين الحق هو الذى يصدقة العقل ويقره العلم .

أو يهجم على رجال الدين المسيحيين حيث يعتبرون أنفسهم خليفة الله فى أرضة[١]

ولاحظوا أنها أساليب بديلة سيئة.

ربما يمكن أن يكون السيد جمال الدين الأفغانى فى هذا الموضوع صاحب رؤية وشعور أكثر من الآخرين، أما هو بدلا من أن يجلس ويطرح نوعا من الإصلاح فى القضايا الدينية الصغيرة والكبيرة (بفرض أن مثل هذا الإصلاح المأخوذ عن لوثر يكون ضروريا وفعليا فى حوزة التشيع) فقد عمل معظم حياته كمناضل (آجيتاتور) سياسى ودينى وليس كمؤسس لهذا الإصلاح إذ يشرح سلوكه الشخصى آراءه . ولتأييد هذا الموضوع اسمحوا لى أن أذكر وجهة نظر مفكر إسلامى من اليسار الإسلامى حتى نستطيع أن نصل إلى نتيجة :

(إن المصلحين المسلمين ، كانوا ينظرون إلى أوروبا على أنها نموذج وهدف ، ومثل هذا المصلح يكون بهذه الطريقة مرشداً دينيا وزعيماً قوميا ضد الاستعمار وكذا يكون مجدداً فى نطاق القضايا الثقافية . ولهذا السبب فلا عجب من أن نراه يخاطب مشاعر الناس أكثر من عقلهم و يثيرها أكثر إلى حد الإقناع[٢]. وحتى التقاعد .

(١) نقلا من صفحة ٦ : ٨ مجلة نكين ٣١ مرداد ١٣٤٧ – عن مقالة " دين ودنيا " بقلم حميد عنايت .
(٢) ترجمة من صفحة ١٠١ من كتاب الشخصية فى الإسلام ، بقلم محمد عزيز الحبيب

"فنحن شاهد عيان لتراجع طبقة العمال عن الإسلام . لأن الفقهاء لم يستطيعوا تطبيق الإصلاحات الدينية الضرورية على الأعمال الدنيوية ، و لهذا السبب تراجعت النخبة عن الإسلام لأن السلفيين[1] بدلا من التفكير فيما يخص الأحداث الفكرية العظيمة للعالم المعاصر اكتفوا بالحديث دائما عن تعاليم الإسلام ، ومثال ذلك أنه عندما اطلع السيد جمال الدين الأفغانى على المادية كان بهدف رفضها وتناول بعد المادية الداروينية"[2]

السبب الثالث : موقف مستنيرى عصر التنوير تجاه المسيحية التى تجيب على الأسئلة التى طرحت فى السطور السابقة -كانت الكنيسة الكاثوليكية فى روما وكنيسة الأرثوذوكس فى القسطنطينية - (وارثتى إمبراطوريتى الروم الغربية والشرقية) فى الماضى تدعيان سلطتيهما على الدنيا وكانت الدول و الحكومات الصغيرة الأوروبية ولاة من قبلهما . سأضرب لكم مثالاً واحداً فقط على تتويج نابليون الذى لم يهنأ له بال إلا فى حضور شخص البابا. وهذا كله يعنى أن مستنير عصر التنوير كان بمثابة زعيم لسكان المدن الصناعية ، وكان يرى أنه طالما أن قيمة السلطة الدنيوية المسيحية باقية فى عيون عامة الناس فإن كتبه فى القانون ومجالس سن القوانين لن يكون لها أية قيمة ولهذا السبب فقد كان منذ البداية يناضل بلسان "لوثر" ثم بلسان "وولتر" و"روسو" مع السطوة الدينية للكنيسة ليحصل على القوة المحلية والقومية من أجل أهالى وطنه . إذن فثورته ضد المسيحية هى ثوره سياسية والأهم من ذلك أنها اقتصادية وأن استقلال الطبقة التى ينتمى إليها كان سيتحقق فقط عن طريق قطع إشراف البابا على الوجدان الدينى للناس . فى ذلك الزمان كان هناك بابا واحداً وأوروبا واحدة - وبابا آخر لكافه الشرق الأوروبى الأرثوذوكس- فى حين أن كل قطعة من أوروبا، كانت أمه بلغة وأدب ومعنويات منفصلة، وصناعة وتجارة أخرى ، وأصلا وبصراحة يمكن معرفة أن ثورة البروتستانت فى حوزة المسيحية ، هى نفسها ، كانت الثورة

(١) يقصد بالسلفيين جماعة رجال الدين المستنيرين فى مصر ، سيد جمال الدين ، محمد عبده ، رشيد رضا .. وغيرهم.
(٢) ترجمة من نفس الصفحة ونفس الكتاب.

البرجوازية الألمانية من أجل إيجاد الوحدة التى تم الحصول عليها فى النهاية على يد جنود نابليون .

هذا هو وضع مستنير عصر التنوير ، والآن أية مكانة أخذها المستنير الإيرانى فى المائة عام الماضية ؟ هل كانت الخلافة الإسلامية إلى حد ما مفروضة عليه من الخارج ؟ فنحن نعلم أنه حتى السيد جمال الأفغانى كان قد لجأ إلى البلاط العثمانى. أى أنه كان لا يرى أن الباب العالى هو منشأ الخطر. علاوة على أن مذهبه الشيعى كان يعتبر أعظم ند للحكومات الموالية للاستعمار فى ثورة الطباق وبعدها فى الثورة الدستورية . إلخ .

والمستنير الإيرانى بدلا من. أن يستفيد من كل المؤسسات التقليدية الوطنية ، للوقوف فى وجه الاستعمار وعملائه الذين كانوا يحكمون فى ذلك الوقت ، ظل منكس الرأس ولم ير أن الدين مثلا كان إلى حد ما مدافعًا عن المدن و تجار التجزئة والتجار القوميين فى ثورة الطباق ضد احتكار الاستعمار الأجنبى لها . ولماذا؟ لأنه كما سبق ، فإن أوروبا كانت مثالا يحتذى به . وبالطبع فهى أوروبا إبان الثورة الفرنسية وعصر التنوير فى حين أنه فى تلك الأيام السادة الذين توجهوا إلى أوروبا لم يجدوها أوربا الخاصة بالثورة الفرنسية بل هى أوربا صاحبة شركات الهند الشرقية . ولكن المستنير رائد التنوير الشرقى لا يزال يرى عصر التنوير الأوروبى حلمًا جميلاً ولايهتم بالاستعمار . وأصلا لايهتم بتاريخ بلاده . وإلا كان علم أن التشيع منذ عصر آل بويه على هذا الحال حتى العصر الصفوى- منذ عصوره الأولى كان دائما ثورة تحررية ضد الخلافة فى بغداد. وإذا تفوهنا بلغة السياسة والاقتصاد ، فقد كان التشيع بمثابة وسيلة للدفاع عن أفراد الشعب المحليين فى مواجهة هجوم حكام بغداد والرسوم والأعشار والكسور والخراج والجزية التى كانوا يفرضونها عليهم .

السبب الرابع : موقف المستنيرين الأوربيين تجاه المسيحية إذ إنه لم يكن للمسيحية (سواء الكاثوليكية أو البروتستانتية أو الأرثوذكسية) علاقة بأمور الناس الحياتية . أى أنها لم تضع قدمًا فى المجال العرفى بل إنها كانت تعمل فقط فى مجال الدين ولهذا السبب فإن المستنيرين الأوروبيين اقترحوا كل تلك السبل العلمانية فى

البحث عن أفضل وسيلة لإدارة أمور الناس الحياتية . والأخلاقيات التى كانت تشكل المحتوى الأساسى للإنجيل ورسالات الرسل ، لم يكن بها أية إشارات فيما يخص العقود والمعاملات والسياسات. والمستنير الأوروبى الذى أخذ القانون عن الروم والفلسفة عن اليونان فى المقابل كان يرى المسيحية بأخلاقياتها تلك البسيطة تدعى حكم الأرض ، فقد كافح وفى النهاية سن القوانين الوضعية. أما الإسلام وخاصة التشيع، فقد قام بسن قوانين فى كافة الميادين الدنيوية وليس مجالاً للبحث هنا إن كانت كل هذه القوانين الوضعية التى سنت حتى اليوم جديرة بالاهتمام والالتزام أم لا. حيث إننى أشرت إليه من قبل. و ربما لهذا السبب فإن الإسلام و التشيع فى مجال العقود والمعاملات وسياسات الأماكن الأخرى لم يتركا مكانا لكلمة أخرى لمفكرى هذا العالم ولم يحدث مثل هذا حتى نهض المستنير المسلم أو الإيرانى معارضاً فى مواجهة الدين ؟ وبرغم كل وسائل التغريب المسلطة على أمور الناس الحياتية فقد وضعت الآن فصول قيمة عن الحقوق والقوانين المدنية والجزائية لأغلب الأمم الإسلامية طبقا للقرآن والسنة ولكن كيف :

كان التحرر من عبودية الاستبداد ، يتبعه التحرر من قيود الدين ، لأن استبداد واختناق الدين فى القرون الماضية كان سلاحًا واحداً ذا حدين لظلم الناس . وتاريخ القرون الوسطى برهان قاطع على ذلك حيث كانت الجرائم والمذابح تتم باسم الدين ، وكان الجهاز السياسى سلاحا فى يد الكنيسة . ومن هنا بدأت الثورات الأولى ضد ضغط الكنائس وكان رد فعل ذلك روح الإنكار والعداوة تلك للدين والمادية. وعندما كانت المطالبة بالحرية فى الغرب فى المرحلة الأولى هى التحرر من قبضة نواب مسيح الرحمة السفاحين ، فإن هذه الكلمة (كلمة الحرية) وجدت مؤيدين فى كل مكان وأصبح لها نفس المفهوم و ابتلى المسلمون أيضا برد فعل رجال الكنيسة وبعض علماء الدين المسلمين المشابهين لهم [١].

(١) نقلا من حاشية صفحات ٦٧ ، ٦٨ من كتاب الحكومة من وجهة نظر الإسلام بقلم أقاشيخ محمد حسين نائينى . حواشى هذا الكتاب بقلم حضرت سيد محمود طالقا أعيد طبعها فى شهر تير ١٣٣٤ وجمعت الطبعة الأولى للكتاب فى ١٣٢٧ هـ ولم تنشر وهو كتاب فى توجية الثورة الدستورية ، وما حدث لرجال الدين فى قضية الثورة الدستورية من حيث انزوائهم وعزلهم وربما لهذا السبب جمع الكتاب ولم ينشر .

خامس وأهمها هو : تعارض التنوير مع المسيحية فى أوروبا فى القرن الثامن عشر الميلادى وما بعده ، عندما أصبحت أوروبا صناعية ووضعت يدها على المستعمرات وعندما أعطت للمستنير حق الاختيار بمعنى أن المفكرين الأوروبيين لم يكن لهم حتى ذلك . الوقت عدد كبير من القراء كان مخيّرًا أو له الحرية فى أن يلجأ المستنير إلى أى من الأجنحة الثلاثة للهيئة الحاكمة وأن يطرح نتاجه الفكرى لكل من هؤلاء الثلاثة : الحكومة - الكنيسة - المؤسسة . ومن حسن الحظ الحقيقى للمستنير الأوروبى فى هذا أنه على وشك أن يكون له سلطة رابعة المسماة (الناس) من أجل شراء نتاجه الفكرى ، وهو الشىء الذى نفتقده نحن هنا حتى الآن . على أية حال - مع العلم أن تلك السلطات الثلاث - أو الأسس الثلاثة[1] - التى سردتها والتى لم ولن تكن أكثر من واحد فى آخر إحصائية ،إلا أن الثلاثة تهمهم هذه النقطة ولا تزال و هى لو أن المستنير لم يمر مباشرة من كوة الاطمئنان فكم من الأخطار التى سوف تنشأ مثلما حدث فى معظم أرجاء أوربا مع عودة طبقة المفكرين (العاملين) الأوروبيين من الجزائر و إندونيسيا وأفريقيا ،انظروا إلى الثورات الجامعية وإلى الأحداث التى عطلت (العمل) فى هذه السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة من أمستردام حتى روما و من لندن حتى باريس . على أية حال فالمستنير الأوروبى الذى كان قد جلس على رأس مائدة دائرة المعارف وورث من الثورة الفرنسية الكبرى وارتزق من الجعبة المأخوذة من جنود نابليون ، فهو مخير . والناس الذين عرفوا حقوق الإنسان الخاصة بهم (البرجوازيون) أخيرًا . والدين الذى امتلك السلطة فى الفاتيكان و مازالت حتى الآن . و الحكومة التى كانت كالعادة وفى كل مكان دائمًا تمتلك الأموال والمناصب و الصلات والعمل من أجل رعاية المستنيرين ، وأخيرًا مؤسسات العاج والذهب الأحمر والماس والنفط التى كانت تتسول وراء التقدم للعمل ولا تزال تتسول من

(١) قامت الحضارة الأوروبية على ثلاثة أسس أولها العلم وثانيها الكنيسة وثالثها بيوت الدعارة بقول لوى فردينان سليم الكاتب المعاصر والمرحوم الفرتسى نقلا عن صفحة ٦ ، مجلة " نوول بسرواتور " طبعة باريس العدد ٢٥ - ١٩٦٥ومما يثير الانتباه أن هذا الكاتب نفسه عمل كممثل لشركة العاج فى أفريقيا . ارجعوا إلى كتابه "سفر به آخر شب " الذى أتمنى أن تنشر ترجمته على وجه السرعة .

أجل الإشراف على العمل فى أحد فروعها فى آسيا و أفريقيا . وعلى هذا النسق فالمستنير الأوروبى لم يكن يجبر على أن يعرض إنتاجه من (آراء - آثار- أفكار) على مشتر واحد حيث إن المشترى الأوحد دائما يكون محتكراً ودائماً يفرض سعره فالمستنير كان يلجأ من السلطة المسيحية إلى المؤسسة[1] ومن كليهما إلى الحكومة و من الثلاثة إلى الناس فالأمر متعلق بهمته و رؤيته وفحوى كلامه و عندما كانت تحكم الحكومة قبضتها وتكون مراقبة المطبوعات على أشدها فإنه يترك وطنه ويعمل بمثابة ممثل لشركة ما لمدة ثمانية أو عشرة أعوام أما فى الصومال أو روسيا أو الصرب وإذا عادت المياه إلى مجاريها يعود بجعبة مليئة بتجارب مما رآه و سمعه ويكون أكثر نضجا[2]. و إذا أحكم الدين قبضته و حكم عليه بالطرد والتكفير فكان يلجأ إلى الحكومة ، أى الحكومة غير الشرعية و يتجه للاحتماء تحت جناح وزير من الوزراء أو بلاط من البلاطات لكى يوفر لنفسه ملاذا آمنًا وإن لم تسمح له هذه السلطات الثلاث بالتنفس ، فكان يلجأ إلى الصحافة و الناس والمنابر المتعددة التى توفرها له الأحزاب والجماعات السياسية ومجالس سن القوانين . و لكن ما هو الوضع بالنسبة للمستنير الإيرانى هنا ؟ الذى لا تتوافر له مثل هذه الحيل فى الاختيار فهو منذ عصر الدستور حتى الآن أسير مرحلة حمقاء بين الدين والحكومة - تلك القوتين الأساسيتين اللتين يجب أن يحسب حسابهما فى كل خطوة . هنا مازال الناس فى غفلة وحتى الآن ليس لديهم القدرة والسوق الكبيرة لترويج آراء وأعمال المستنيرين حتى يجذبوا أفكار هؤلاء المستنيرين ولم يكن عبثا أن تطلق الكثير من الكتب النقدية والكتب الاجتماعية على

(١) على سبيل المثال ارجعوا إلى شرح حال كوكن نقاش جوزيف كنراد الطاتب - سامر ست موآم - أندره مالرو - فردينان سلين - أندره جيد - وكل الكتاب الأمريكان الذين هاجروا إلى أوروبا منذ عام ١٩٢٠ حتى ١٩٣٠ ، أو إلى أمثال مرجان وهرتسفلة تاجير شمن الذين ارتبط عملهم بشركة النفط فى إيران وحتى أحيانا إلى مكتشفى البترول الأوائل أى إلى حضرت " تيلاردو شارون " الذى كان بمثابة عالم اجتماعى ، وجميعهم كانوا بمثابة ترياق لوجة الصراع الاستعمارى فى هذا الكتاب :
Lavie et l'ame det.de chardin - par Nicolas corts. Paris 1963

(٢) أيضا على سبيل المثال ارجعوا إلى كتاب (عدن عربستان) Aden Arabic بقلم بل نيزان Paul Nizan الذى لم يترجم حتى الأن وأيضا إلى كتاب " كذرى به هند " وهو أثر عن فورستن ترجمة حسن جوادى الذى نشر أخيرا .

مرحلة الدستور بأنه "عصر غافل" أو عصر إيقاظ الأفكار" أو أشياء من هذا القبيل . والشركات أيضا التى تعد اليد اليمنى للاستعمار تعد عنصراً أجنبيا فمن يلجأ إليها. يلقى نفس عاقبة تقى زاده . والدين منذ بداية الأمر كفر المستنير بسبب ولائه للفرنجة ، فلا مفر من أن تبقى فى النهاية "الحكومة" فقط . فمنذ قضية تحريم الدخان و حتى حادثة الخامس عشر من خرداد سنه ١٣٤٢ – وفى نهاية المائة عام الأخيرة هذه – والمستنير الإيرانى حائر بين سلطة الحكومة والعزلة الصوفية ومتعب من تزمت رجال الدين و متعب من جهل العامة و لذا فقد اتخذ جانب الحكومة فى كل الموضوعات الحساسة المتعلقة بالصدام السياسى ، لأن الحكومات وحدها كانت قادرة على أن تمنحه أفضل مقابل لآرائه و ذلك من خلال دخل النفط فكانت أموال النفط تحقق لحياته الرفاهية .

تلك هى الأسباب الأساسية بشأن معارضة المستنير الأوروبى للدين ورأينا كيف أن المستنير الإيرانى لم يلعب دور أى منهم . إذن لماذا هذا الصراع الدائم بين المستنير والدين ؟ خاصة إذا نظرنا إلى الموضوع من وجهة النظر الماركسية . حقيقة إن الدين (أفيون عوام الشعوب) إلا أن خطة العمل الكاملة للأحزاب الشيوعية هى أنهم يريدون أن يغيروا الدين والشرع . ولكن انظروا إلى مواقف غاندى فى الهند الذى هب بمساعدة الدين يناضل الاستعمار . وانظروا أيضا إلى ما فعله البوذيون بفيتنام حيث ساعدوا الفينكونج . وانظروا إلى ما يحدث من فتن فى أوروبا بمساعدة الجناح اليسارى للكنيسة وما حدث فى الجزائر لاجلاء الفرنسيين . وإلى مامر فى دولتنا فيما يخص قضية الطباق والدستور والثورة القومية وفى الخامس عشر من خرداد . وسوف أشير الى كل واحدة منها فيما بعد . ولكن علينا أن نلتفت إلى البنية الأساسية للماركسية حيث تقول إن الأساس هو النضال الطبقى والصراع بين الفقر والغنى والقضايا الاقتصادية هى التى تحرك الثورات الاجتماعية . وأغلب مستنيرينا لا يزالون غافلين عن القضية الأخيرة وعن المفهوم الأصلى للنضال الطبقى وضرورة الاعتماد عليه . وظنوا أن أوامر (!) ولتر و كتاب دائرة المعارف هى التى أشعلت الثورة الروسية . ولهذا السبب فإنهم (المستنيرون الإيرانيون) فى كل ثورة اعتمدوا على معارضة التشيع

والدين. وخطوا خطوة خلف الأخرى .فأصبح واحدٌ ملحدا (ميرزا أغاخان كرمانى) وأصبح الآخر كاتبًا لدائرة المعارف "دهخدا" وحتى"آرانى" الذى كان يعد أول من سعى إلى توضيح الصراع الطبقى فى مجلة "دنيا" فهو لم يغفل أيضا عن مظاهر الإلحاد وحزب توده الذى كان نفسه تابعا للمحرك الذى كان ينشر آراء "ستالين" النرجسية فى كافة أرجاء الدنيا ليس باعتباره حزبًا سياسيا ولكن باعتباره دينا جديدا . وإن لم يقتد بأعمال السيد جمال الدين الأفغانى فذلك لأنه لم يستطع على سبيل المثال أن يحجب عن أغاخان مظاهر الإلحاد فكيف يحجب معارضه السلطة القاجارية المستبدة وبهذه الوسيلة اشترى لهم و لنفسه أيضا طابع التكفير الذى تميز به رجال الدين المتزمتون فى عصرهم وظلت ثورتهم حبيسة متقوقعة ولم تصبح ثورة للجميع ولا أثر لها .

تقويم حركات علماء الدين والمستنيرين

والآن نستطيع أن نقدم وبشكل سريع النتائج التى ترتبت على الثورات الاجتماعية فى المائة عام الأخيرة ونشير إلى أنه كلما كان هناك توافق فيما بين رجال الدين والمستنيرين كلما قل النضال الاجتماعى وبهذا يخطو المجتمع قدمًا نحو الأمام ونحو الرقى. وكلما كان الطرفان فى صراع ومعارضة كلما تقهقر المجتمع وكان رجال الدين والمستنيرون يسيرون فى خطوط متوازية ولا يلتقين وظل الأمر على هذا النحو أحداث قضية تحريم الدخان حيث نجح رجال الدين بمفردهم فى قطع يد الاستعمار عن احتكار الدخان مما أثار الحكومة ومستنيرى الوقت وكانت النتيجة المترتبة على الفوز فى قضية الدخان هى الخسارة فى أحداث امتياز الجمرك والبترول.

وقد اتخذ رجال الدين والتنويرون عبرة مما حدث ولهذا كانوا على تعاون وثيق فى أثناء الثورة الدستورية وبالطبع كانت هناك منافع إلى حد ما. وإذا كان هذا التوفيق البسيط قد حدث فهذا بسبب أن الجناح الحقيقى لرجال الدين انفصل عن الثورة وعلم الجميع سواء الناس أو الحكومة أو المستنيرون ، أن رجال الدين لم يستسلموا فى أثناء الثورة الدستورية.

بعد أحداث الثورة وتغيير السلطة ؛ التى لم يرض عنها رجال الدين. وعلى رأسهم مدرس النائب البرلمانى حتى حاج مجتهد الشيراز الذى لم يلتحق بمجلس المؤسسين إلا أن المستنيرين أعلنوا رضاءهم عن هذا الأمر. وأصبح هذا الأمر سببا فى تشددهم تجاه رجال الدين طوال العشرين عاماً قبل شهر يور.

بعد أحداث شهر يور والفترة المقلبة من تاريخ إيران التى كان يعمل فيها رجال الدين والمستنيرون كل على حده بعيداً عن بعضهما، فإن حزب تودة ومن بعده القوى الثالثة قد أضحيا دون أثر ولو أنه كان لهذين الفريقين دور كبير فى نشر الآراء والأفكار فى المجتمع حيث استفاد المجتمع من هذه الآراء الاستنارية بشكل كبير أكثر مما كان عليه مرحلة فترة العشرين عاماً الماضية. إلا أنه لم يكن يستطع أى منهما أن يرفع الحواجز الطبقية لأن كل طرف منهما كان فى صراع مع الطرف الآخر وكانت هذه القضية أحد الدروس المستفادة للساسة فى ذلك الوقت ثم بعد ذلك أثناء فى تأميم النفط وظهور الجبهة الوطنية بكافة أجنحتها المعارضة لحزب تودة ومثل المعارضة الموحدة لرجال الدين والمستنيرين الليبراليين ضد الاستعمار ومن هنا نهض رجل الشارع إلى أن انتهى الأمر إلى تدخل مباشر فى الأمور من أجل إغلاق المصانع - وحاليا أعتقد أن هذه الهزيمة كانت أحد الأسباب - تحول كاشانى وبقائى عن حكومة مصدق والجبهة القومية.

ولم يحدث بعد هذه القضية سوى ذلك الصدام الذى حدث فيما بين الطبقة المتدنية من الشعب وبدون زعامة أى شخص مع قوات الجيش وذلك فى ١٥ خرداد ١٣٤٢ هـ ش .. وكان رجال الدين يعملون بمفردهم فى ذلك الصدام لأن المستنيرين فى ذلك الوقت كانوا مقتنعين بأن رجال الدين كانوا يريدون العودة إلى الرجعية وإلى نظام الملكية والعودة إلى حجاب النساء وفى النهاية أصيب رجال الدين بالهزيمة. ومنذ ذلك الوقت وما بعده أصبح لكل من المستنير ورجل الدين طريق مختلف إلا أنهم أحياناً كان يوجد بينهم توافق محدود فى بعض الأهداف.

ثار رجال الدين بعد ثلاثمائة عام منذ (العصر الصفوى) فى قضية تحريم الدخان بسبب إهمال الحكومة فى ذلك الوقت وأيضاً بسبب التدخل الاستعمارى المباشر فى

مصنع (رث) وكان ميرزا ملكم خان المستنير الوسيط فى هذه القضية ! فى قضية الثورة الدستورية برز نوع من وحدة العمل والفكر بين المستنير ورجال الدين لمعارضة الحكومات العميلة وما قامت به إلا أن المسألة لم تدم طويلاً لأن رجال الدين شعروا بالكراهية وتنحوا جانبًا. وهذا هو السبب لعدم اشتراك هؤلاء النواب الخمس الممثلين لعالم الشرع فى البرلمان ولو مرة واحدة. والانقلاب المزيف الذى حدث من الحكومة من أجل السيطرة بشكل أوسع ولم يرض هذا الأمر سوى المستنيرين حتى وصل الأمر برجل الشارع إلى أنه أصبح لا يدرك مجريات الأمور . هذا إلى جانب أن أولاده كانوا يتعلمون النشيد الوطنى فى المدارس الحديثة وقد ثار هؤلاء الأبناء فيما بعد فى أثناء الحرب العالمية الثانية وأصبحوا لغمة سائغة للأحزاب اليسارية . وفى أثناء القضية القومية أصبح رجال الدين والمستنيرون فى قافلة واحدة ضد الاستعمار وبمساعدة هؤلاء الأبناء وضعوا أول معول لتقويض بناء الاستعمار. ثار هؤلاء الأبناء فى فترة الحرب العالمية الثانية من الخامس عشر خرداد ١٣٤٢ هـ ش وأضحوا طعام الثورات اليسارية .

تكررت نفس هذه القضية مع السيد إمام الوقت .. الذى كان يعارض رجال الدين معارضة شديدة لعدم تحركهم وأخذهم المواقف لدرجة أن رجال الدين ابتعدوا عنه وهذه القضية تشبة إلى حد كبير قضية السيد مرجع التقليد "بروجردى" (فقد كان لبروجردى مواقف سلبية تجاه حكومة الوقت كما كان لأسلافه مثل هذه المواقف من أمثال أبو الحسن الأصفهانى فى النجف) لأن السيد الإمام كان يرى أن منافعه تتعرض للخطر. ومما يثير الانتباه أن الوضع فى إيران كان دائمًا على هذا المنوال أى فى مقابل سكوت هؤلاء الأشخاص يكون الأمر بالنسبة للمؤسسات والأشخاص وقد نرى فجأة أن شخصًا ما يثور إلا أن ثورته تكون بشكل سريع وقصير لأن مصيره يكون الفناء وبهذا يكون السكوت أفضل (لأن سر السكوت عظيم) والأمثلة كثيرة وتكون النهاية : إما الإعدام أو النفى أو الصمت الإجبارى أو الهروب من الواقع. وهذا الواقع سلاح ذو حدين لأن استمرارية مثل هذا السكوت وهذا السلوك قد يصل إلى شهادة هؤلاء الأفراد أو نفيهم أو فنائهم ليكونوا عبرة لرجل الشارع وللمؤسسات أو يكون سكوتهم مجرد وسيلة لعدم تعرضهم لمثل هذه المواقف .

وإذا كنت قد أطلت عليكم الحديث فى شرح مثل هذه الرموز فإن الغرض من ذلك أن أوضح كيفية التعامل ومعرفة المعايير لتقويم المفاهيم الاستنارية لكل من رجل الدين والمستنير وآرائهم تجاه بعضهم بعضا وعلى أية حال السؤال الآن كيف نستطيع أن نقوم رجال الدين من وجهة نظر المستنيرين مع كل ما يحدث حولنا من تقدم تكنولوجى وتعليمى وظهور النفط والأوامر العليا ومع الأحداث التاريخية السابقة ومع نظرية الشيعة فى قضية الثورة ضد الحكومة ومع المفاهيم الحديثة المسلطة على عقول الناس ؟

السؤال أصبح يحمل معان كثيرة. وبالمناسبة قبل أن أجيب على هذه الأسئلة يجب أن أشير إلى قضيتين مهمتين وهما قضية "الانتظار" و "الاجتهاد" وفى هذا الأمر على وجه الأخص يجب أن يكون المستنير العصرى صاحب قرار ويجب أن يملك زمام أمره وزمام الآخرين فى يده ولا يميل تجاه فكر معين ويجعل من العلم وسيلة لبحث تلك الأخطار والمعايير السائدة وأن ينحى المعايير التقليدية والسماوية جانبًا ويخوض التجربة ويضعها طى النسيان ولو نظرنا إلى هذه الملكات من بين رجال الدين وخاصة فى عالم التشيع – الذين يعتقدون بقضية الاجتهاد والفتوى – لرأينا أن التشيع فى ذاته نوع من التنوير فى أساس الدين الإسلامى الذى أشرنا إليه والآن فتحدث عن النقاط السلبية والإيجابية فى أصل المذهب الشيعى ونقومها .

أولاً الاجتهاد : بمعنى أن عالم الدين مكلف بالفتوى فى غياب إمام الوقت مع مواكبة التطورات الاجتماعية وإبداء الرأى الموافق للنص القرآنى والحديث النبوى وكذلك الرأى العقلانى مع الالتزام بمقتضيات العصر والتقدم والتطور الاجتماعى ، فمثلاً (الأشخاص الذين يعيشون فى المناطق القطبية ما هو تكليفهم فى الصلاة والصوم مع العلم أن يعيشون فى ليل سرمدى أو نهار سرمدى قد تصل إلى ستة أشهر) ومثال آخر (ليس للأرز زكاة) لأن العرب فى الجاهلية كانوا لا يعرفون هذه النوعية من الزراعة. وبغض النظر عن ظاهر الأمر وما يترتب عليه وما وصل إليه فتوى المجتهدين حتى الآن وإلى أى مدى يعمل بها وبغض النظر أيضًا عن الاستناد على النص القرآنى والسنة فى أول الأمر وما ترتب عليه من تنحى للعقل والتجربة جانبًا. فيجب عليه أن يتلمس كل هذه المحتويات الفكرية ويستقرئ أمور البشر ويحل القضايا الاجتماعية بمساعدة

العقل والمنطق ولا سيما أن المدارس الدينية الشيعية تفسر النص القرآنى بنفسها أى أنهم لا يتبعون دستور الشرع كما هو الحال ، عند أهل السنة وخاصة السلفيين .

ولنلقى نظرة إلى هاتين القضيتين المأخوذتين عن أحد الرسائل المذهبية المنشورة حديثًا :

مسألة ٥ : إذا كانت العلاقات التجارية وما يماثلها مع غير المسلمين قد تؤدى إلى الخوف من استيلاء الأجانب وغير المسلمين على أساسيات الأمور فى الإسلام وفى بلاد المسلمين سواء من الناحية السياسية أو غير السياسية التى تؤدى إلى الغزو الفكرى فإنه يجب على جميع المسلمين البعد عن هذا النوع من المعاملات وأن هذه العلاقات تكون محرمة .

مسألة ٩ : إذا تسبب بعض الحكام فى الدول الإسلامية أو بعض ممثلى البرلمان فى تغلغل النفوذ الأجنبى فى الدول الإسلامية سواء كان هذا النفوذ نفوذًا سياسيا أو اقتصاديا - وأن هذا الأمر قد يؤثر على أساسيات الإسلام أو على استقلال وحرية الدولة - فإذا كان هذا الخطر محتملاً ومهما كان منصب هذا الشخص فإنه يعد شخصًا خائنًا ويجب عزله عن هذا المنصب على اعتبار أنه لابد من أن يكون عادلاً فى تصرفاته، ويجب على الأمة الإسلامية محاسبته إما بالابتعاد عنه وتجنبه وعدم التعامل معه بكل الطرق الممكنة أو أن تجتهد الأمة فى إبعاده عن جميع الشئون السياسية وحرمانه من جميع الحقوق الاجتماعية.

ومن الملاحظ حاليا أن رجال الدين لم يهتموا فقط بالقضايا الدينية فى هذه الأمور وإنما يهتمون أيضًا بالقضايا الأساسية لدرجة أنهم أصبحوا يطالبون بالريادة والزعامة كما أنهم غيروا من وجهة نظرهم تجاه قضية تكفير المستنير وألقوا هذا الأمر ، على عملاء الاستعمار. ولو نظرنا بدقة فى هذه القضية وما ترتب عليها فلا يسعنا إلا أن نقول أن رجال الدين مهما كان الأمر فإنهم قد وصلوا إلى درجة من اليقظة نتيجة التجارب السياسية من بعد عام ١٣٢٠ هـ . ش . وحقيقة العالم صاحب الفتوى وقليلاً

ما يهتم بهذه الأمور وغالبًا ما يكون مشغولاً بفرضيات الأخبار والسنة وقليلاً ما يهتم بالضروريات العصرية والأهداف الفكرية بصرف النظر عن الأمثلة التى ذكرتها فإنه غالبًا ما يكون مشغولاً بما هو جائز وما هو غير جائز وهذا هو السبب الحقيقى دائمًا وراء وصول رجل الدين إلى طرق مسدودة. فإذا استطاع مستنير العصر إعطاء الأهمية الأكثر لهذه الأمور الاستثنائية ويقف بجوار رجل الدين ألا تظنون أن يكون لرجال الدين دور أكثر فى المجتمع وتنتهى الاختلافات الفكرية بين رجل الدين والمستنير؟

تحدثنا عن نماذج تخلف رجال الدين من أمثال يجوز ولا يجوز فى القضايا الدينية البسيطة ومعرفة الطهارة والنجاسة وأيضًا وموقفهم تجاه المسائل الأساسية فى عصرهم مثل الثورة الدستورية التى أطلقوا عليها البابية وبعد ذلك موقفهم من تأسيس المدارس الحديثة - وبعد ذلك أيضًا فى مسألة توحيد الزى ولبس القبعة ثم فى قضية كشف الحجاب ووسائل الإعلام وتقسيم الأملاك وأيضًا فى موقفهم تجاه "فيلم حج" الذى أطلقوا عليه "خردجال = حمار المسيح" وإذا كان موقفهم واعتراضهم تجاه قضية توحيد الزى ووضع القبعة وكشف الحجاب نوعًا من الاعتراض على التشبه بالغرب فلم يكن لديهم هدف واضح ومحدد تجاه هذه القضايا سوى الخوف من تغيير فكر العامة وأن هذه الأمور هى التى أدت إلى تدنى قيمة رجال الدين إلى الصفر.

الثانى "الانتظار" : وقد أشرت فى كتاب "نزعة التغريب" إلى هذا المعنى بشىء من الإيجاز والسؤال الآن ما هو الانتظار ؟ بمعنى انتظار ظهور الإمام الثانى عشر آخر شخص من سلالة المعصومين وله حق الأولوية فى الحكم وهو صاحب عصره وما معنى (أعليحضرت ولى العصر) عجل الله فرجه ما هذه المعانى ؟ وهى بمعتقدات الشيعة الشرط الأساسى للحكم على الشعب الإسلامى أى "العصمة". بمعنى أن يكون حاكم الوقت من سلالة الأطهار والمعصومين أى من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم وأولاده وأحفاده من " فاطمة ". وهذه المعتقدات هى نفس المعتقدات التى كانت فى الصدر الأول من الإسلام والخاصة بصاحب "الكلام" والذى نزل عليه الوحى" وكان له الحكم على الناس .

النتيجة الأولى : من هذا المعتقد "الانتظار" وأن كل حاكم فى غياب إمام الأمر يعتبر "غاصبا" والشيعة تعتبر هذا الأمر جرماً من حكومات الوقت وأن خضوعهم لأولى الأمر أمر مرفوض .

النتيجة الثانية : ما هذه الأعداد الكثيرة التى ادعت أحقيتها بالحكم منذ القرن الثالث الهجرى وما بعده وجميعهم هزموا لأنهم لم يكونوا أصحاب أمر.

أما النتيجة الثالثة : وهى الأهم أن رجال الدين الشيعة كان يخطئون فى اعتقادهم هذا وفى أنهم شاركوا فى القضايا الاجتماعية (أزمة التبغ - الثورة الدستورية - تأميم النفط) ونحن نعلم أن معظم رجال الدين لم يشتركوا بالفعل فى هذه القضايا ولكن من ينوب عنهم يشارك مشاركة عامة فى هذه القضايا مثله مثل الرجل العامى فى الشارع واكتفوا بالسكوت ورضوا به. وإذا كان لرجال الدين فائدة مؤقتة فى قضية تحريم الدخان فإن الخسارة الأكبر كانت فى قضية إعطاء امتياز النفط. وإذا كان لرجال الدين دَوْر ما فى تأميم النفط فلم يكن ذلك سوى نقطة سوداء فى جبينهم فى قضية تأميم النفط وما استتبعه من تغلغل للنفوذ الأجنبى وإبعادهم عن الساحة.

وكان اعتقاد رجال الدين فى الثورة الدستورية على وجه الأخص أنهم جزء من هذه الثورة وكانوا يعتقدون أنهم يستردون الحكم من المغتصبين ويسترجعون مكانة (إمام الزمان) أو على أقل تقدير يبدلون الحكومة إلى حكومة شورى ولهم حق التمثيل نيابة عن "صاحب الأمر" ولكن بعد إخراج رجال الدين من الثورة وهذا الأمر كان هو النتيجة الحقيقية للثورة الدستورية نستطيع أن نقول اليوم إن مخالفة الشيخ الشهيد (نورى) للثورة الدستورية كانت صائبة حيث اعترض على هذا الأمر وأنذر رجال الدين فى هذا الشأن لأنه كان يدرك أن الثورة الدستورية كانت تهدف إلى خلع رجال الدين بدلاً من خلع الحكومة المستبدة (السلطة القاجارية) وعلى هذا يجب على رجال الدين أن يعيدوا النظر فى معتقداتهم الأصلية وفى المشاركة بعد ذلك فى الثورات ولو أنهم ظلوا على معتقداتهم الراسخة فإنهم بذلك يمنعون أنفسهم من الاشتراك فى القضايا الاجتماعية والسياسية الملحة.

وهذا عرض مختصر فيما يقال عن قضية الانتظار وإذا نحينا القضايا الدينية جانبًا ونظرنا إلى الأمور على أنها قضايا اجتماعية فإنه يكون لانتظار الفرج الموعود هذا محاسنه ومساوئه التى سوف أسردها.

أول هذه المساوئ هو عدم تكليف الناس فى باختيار الإمام وهو انتخاب المجتهد الأعلم جامع الشروط . وهذا الانتخاب يكون للناس البسطاء الذين لا يعرفون شيئًا حتى فى أبسط الأمور الدينية من حيث الطهارة والنجاسة فكيف يكونون أصحاب رأى فى قضية اختيار الإمام الأرجح والأعلم . وعلى ذلك يجب انتظار وقت طويل بعد موت صاحب الفتوى واختيار العالم الثانى لهذا المنصب حتى يبرز أحد العلماء المرموقين ويحظى بهذا المقام ومن ثم يخضع له الباقون . ويكون له الرأى القاطع فى مسائل العقود والمعاملات .

ليس معلوما ماذا يحسب فعله خلال تلك الفترة ثانى هذه المساوئ : ضعف أصحاب الفتوى فى الأمور الأساسية فى المجتمع وخضوعهم من قبول ورفض هذه القضية وتلك واختيارهم السكوت فى هذه القضايا.

ثالث هذه المساوئ : الانتظار لشىء ما أو شخص ما ليس له وجود أى نسيان الواقع والأمل فى اللاوجود وترك جميع المشكلات لحين ظهوره. ألا تظنون أن هذه القضية هى أهم سبب فى قضية القضاء والقدر ؟ لا نستطيع الخوض فى هذه النقطة الأخيرة ولكن نستطيع التحدث عن القضيتين الأوليين وهما استعراض قضية الشورى والاجتهاد بدلاً عن الإمام الواحد وهو الأمر المقبول من قبل الجناح التقدمى لرجال الدين .

إلا أن محاسن الانتظار فى أول الأمر هو عدم وضع أولى الأمر فى مكانه بدليل غياب الإمام المعصوم وهو الفرد الوحيد المناسب للحكم وأن جميع الحكام فى اعتقاد الشيعة مغتصبون وبهذا لا يكون للشيعة أى التزام تجاه طاعة الحكام وأن هذا الدليل ليس هو الدليل الوحيد لمعارضتهم لهذه الحكومات المستبدة بل إنه يعتبر نقطة قوة تحسب لمنع استقرار الإدارات الحكومية وسند قوى لانجذاب المستنيرين تجاه رجال الدين وتوجد هذه النماذج لهؤلاء الأئمة بكثرة فى حكوماتنا السابقة.

النقطة الثانية : هى أن الانتظار يعنى للشيعة أن الدنيا برمتها تكون عادلة وأن هذا العدل لا يكون فى إيران أو فى الدول التى يعيش فيها الشيعة بل فى كل العالم. ألم تكن هذه النقطة هى نقطة فكرية عالمية فى ضمير كل إنسان عادى ؟ وأليست دليلاً على عدم استسلام أى منا لواقع هش وانتظار الأفضل وعلى أية حال فإن هذه المعتقدات ما هى إلا نوع من الفقر الذهنى للشيعة حتى يدخلوا بها عالم الطموحات والآمال. ولا يمنعه الوضع السيئ الذى يحياه من الطموح إلى آفاق بعيدة.

هذه كانت مساوئ ومحاسن الانتظار وأنتم أصحاب الحكم فى هذه القضية ، وعلى أية حال كان لدينا أحياناً بسبب هذه المحاسن وهذه المساوئ ميرزا الشيرازى وأحيانا الشيخ الشهيد نورى وأحياناً أيضاً الإمام الخمينى.

وكان رجال الدين عادة آلة فى يد الحكومات دون إدراك للقضايا السياسية الملحة ودون أدنى اهتمام بالطبقات الدنيا والعلم بمجريات الأمور.

ومن هنا يكون الحكم على رجال الدين هو نفس الحكم على المستنيرين من حيث إنهم يشبه بعضهم بعضاً .

وعندما أصدر ميرزا الشيرازى فتوى تحريم الدخان وعلى حد قول مؤرخى الثورة الدستورية أن هذه الفتوى كانت سبباً فى انكماش نشاط شركة (رجى) لتصنيع الدخان كما أن هذه الفتوى كانت نقطة سوداء فى تاريخ مستنير عصره (ملكم خان). ولو نظرنا إلى هذه القضية بدقة لوجدنا أنه ظاهريا كان يدافع عن البرجوازية المحلية ويقف فى مواجهة الاستعمار الخارجى المسيطر. وحقيقة أن هذه الانتصارات الأولية كانت سبباً للهزيمة التامة لرجال الدين لأن المصانع والحكومات العميلة وأيضاً المستنير عميل الحكومة كانوا قد عرفوا من هو منافسهم الحقيقى لكى يحدوا من نشاطهم كما كان معروفا لدينا فى الثورة الدستورية.

والآن بالنظر إلى كل ما سبق الذى أطلنا الحديث فيه نوضح مكانة رجال الدين فى المجتمع التنويرى وبصرف النظر عن أن كل عمل من أعمال رجال الدين بداية من صاحب الفتوى حتى قارئ الروضة وإمام المسجد فى القرية – على اعتبار أنها أعمال

تنويرية - على اعتبار أن عمله يقوم على الفكر لأن وظيفته الأساسية هى التدريس والتعامل مع القضايا الكلامية وأعتقد أنه يجب أن توضح مكانة رجل الدين صاحب الفكر المتحضر الذى يفتى ويتعامل مع المجتمع بصورة لائقة . ومن هنا يجب أن نضعه فى المدار الأول بعد النقطة المركزية للتنوير على اعتبار أنه صاحب فتوى وله مؤلفات ولأن عمله يخلو من أى أهداف إعلانية أو أية مصالح شخصية كما أن عمله قد يؤدى إلى إبدا ع جديد.

وأشير إلى اثنتين من الفتاوى فتوى تعليق وسائل الأعلام وأيضًا فتوى الاستثمار فى البنوك الحكومية وعدم الاستثمار فى البنوك الخاصة على اعتبار أنه مفهوم اشتراكى ولو أن هذه الفتاوى لم تثمر شيئًا.

بعد هذه المجموعة من أصحاب الفتوى الذين يعدون على أصابع اليد. فإننا نضع الخطباء والوعاظ ورجال الدين الأوائل فى المدار الثانى حيث إن لكل واحد منهم تأثيرًا. ونماذجهم واضحة فى أشخاص أمثال "مدرس" و " سيد أشرف الدين " نسيم شمال أو فى طباطبائى وكاشانى وآخرين. والنموذج الرفيع لهؤلاء هو ملك المتكلمين.

بعد هذه المجموعة نضع الوعاظ وأئمة الصلاة وشيوخ القرى والمدن فى المجموعة الثالثة على اعتبار أن التربية هى أساس عملهم.

وبعد هؤلاء نضع قراء الروضة والمنابر والمداحين فى المجموعة الرابعة على اعتبار أن الهدف الأساسى من عملهم هو التبليغ.

ومن هنا يجب على الحكومة أن تعطى لرجال الدين أهمية أكثر ومسئولية أكثر وتخصص لهم ميزانية طبقًا لما ورد فى القانون الأساسى أو تكون لديها الجرأة لتغيير القانون الأساسى وتقر بأن إيران دولة "علمانية" وليس بها أى مذهب رسمى وتعترف رسميا بكل المذاهب.

أما الاعتراف بوجود رجال الدين وإعطائهم الحرية فى إبداء رأيهم بالنسبة لقضية كشف الحجاب والتحديث وعدم مقارنة خزائن الدولة ببيت المال ومقارنة الضرائب بالخمس والذكاة أو العكس. فإنهم يبتعدون تدريجيا عن دائرة التأثير والتأثر الخارجى ويتقوقعون داخل التقاليد المتحجرة ويتمسكون بها.

على المستنيرين أيضًا أن يتعاملوا مع رجال الدين ويقفون جنبًا إلى جنب فى مقابل الحكومات حتى يكون لهم تأثير على الأمور الأساسية فى المجتمع وبذلك يصبحون أصحاب قرار فى مجتمعاتهم أو أن يتجهوا إلى أفكار وآراء رجال الدين بأسلوب مباشر أو على الأقل يقتنعون بحالهم هذا وإن لم يتجهوا إلى هذين الطريقين فإنهم يصبحون أو يكونون عاملاً مزدوجًا لإضعافهم وإضعاف رجال الدين لمصلحة الحكومات .



الفصل السادس

١ - أين المستنير الإيرانى ؟

المقارنة بالآخرين

الآن يجب أن نبحث أين المستنير الإيرانى ؟ بالمعنى العامى أين عمله ؟ و بالمعنى الآخر أين يعيش ؟ و لأجل الإجابة عن هذين السؤالين ، بداية يجب أن نعرف أين مكان المستنير بصفة عامة فى عالمنا اليوم ؟ و ماذا يفعل ؟ أو من الأفضل أن نقول ماذا يفعل به ؟ و لأجل كل هذا الذى سوف يأتى بالترتيب فيما بعد فإننا نحتاج إلى توضيح نقطتين فرعيتين .

أولا : من الأفضل بدلاً من أن أقول المستنير الإيرانى أقول المستنير الناطق بالفارسية . لأن السمتين الأساسيتين للتنوير وهما حب الإنسانية وحرية الفكر لا تسمحان أن نضع المستنير فى إطار محدد أو يتبع أى ملة لأن هذا كله من صفات المتمدين حديثا . وكذا المستنير الإيرانى من أذربيجان بلغته الأم التركية ، ومن كردستان بلغته الأم الكردية ، ومن خوزستان بلغته الأم العربية . إلا أن سياسات الحكومات والدول - التى تبين أن الثورة الدستورية هى التى خلقت المفاهيم القومية - كم من جهود بذلتها فى كل هذه الفترة من أجل توحيد اللغة وتوحيد عادات وتقاليد الناس فى جميع أنحاء المملكة . وفى نفس الوقت كم من الأضرار والمنافع نشأت والتى سوف أشير إلى إحداها فى الصفحات التالية وهى منع استخدام اللغة التركية فى المدارس وفى الثقافة العامة .

النقطة الفرعية الثانية و هى بسبب الاختلاف فى اللغات الأم فقد أصيب المستنير الإيرانى بنوع من البلبلة الفكرية ووقف حائرا لإيجاد علاقات أو روابط مع القطاعات

المختلفة من نوعه . ولهذا السبب فإن المستنير الخوزستانى لا يزال يرتبط باللغة العربية والمطبوعات والراديوهات العربية بدلاً من أن يحصل عليها من طهران، و مثل هذا أيضا بالنسبة للمفكرين الكرد الذين يهتمون بالقضايا التى تحدث بين أكراد شمال العراق و المستنير الأذربيجانى كان له اهتمامات أيضا سواء فى قضايا الدستور أو فى أحداث الشارع اليومية أو فى الاهتمام بقضية الديمقراطية الحزبية مع الديمقراطية الاشتراكية القفقازية . و ثورة تبريز فى أثناء الثورة الدستورية كانت فى نفس الوقت نوعًا من ادعاء الازدواجية مع طهران (تبريز مقرولى العهد - طهران مقر الملك) ، و من ناحية أخرى اختلاف المستنيرين المتأثرين بالاشتراكية الديمقراطية القفقازية مع المستنيرين المتفرنجين الطهرانيين ، بمعنى إذا كنا نفتخر بثورة تبريز وقضية ستار خان و باقرخان و الثورة الشعبية والحرب الأهلية - التى حتى نحن الطهرانيين نفتخر بها أيضا - فهذا بسبب ماحدث فى تبريز فقط حين حصلت الثورة الدستورية على معنى الشعبية و معنى التصدى للاستعمار .

فى الوقت الحاضر لو نظرنا لقضية كردستان نرى أن سياسة حكومة طهران مبنية على الحيطة والحذر والمداراة والمساعدات غير المباشرة للثورة الكردية فى شمال العراق . ولهذا السبب نلاحظ أن المستنير الكردى الذى يعيش فى هذه الجهة من الحدود ليس لديه الدليل الكافى لعدم الرضا و أيضا لو نظرنا إلى خوزستان لوجدنا أننا نتعامل مع أقلية (فى حدود ٢٠٠ ألف نسمة) تتحدث العربية أما الذين يتحدثون باللغة التركية فهم فى حدود ستة أو سبعة ملايين نسمة (أذربيجانى- قشقائى - تركمانى) يتبعون إيران ، و سوف أشير فى الصفحات القادمة إلى موضوع منع اللغة التركية و الصفعات التى تلقاها المستنير الإيرانى بسبب منعها فى المدارس و المجالات الثقافية والمطبوعات. تستطيعون تطبيق هذا الكلام على الأكراد والأعراب.

وعلى هذا المنوال لو اعتبرنا أن البلبلة الأولى للمستنير فى إيران ناشئة عن اختلاف المدارس الثقافية . مع اختلاف اللغات - التى يدرس بها المستنير الإيرانى مثل الفرنسية أو الألمانية أو الإنجليزية ... إلخ (وهذه القضية لها محاسنها التى أشرت

وسوف أشير إليها مرة أخرى) بينما البلبلة التى هى ما قبل هذا ناتجة عن اختلاف لغاتهم الأم ، والتدهور الذى وجد بسبب منع اللغات الأم غير الفارسية فى المدارس الثقافية لأهلها .

وهدفى من هذه المقدمة المختصرة أننى لم أكن أريد التحدث عما يجب أو يجوز أن يتحدث به المستنير الناطق بالفارسية " نتيجة اختلاف اللغة الأم ولابد من أن أقر أن الإيرانيين قوم متعددو اللغات . وليست لهم لغة واحدة . وإنى على قناعة بأن مسمى المستنير الإيرانى تعبير غير دقيق وبرجوازى.

والآن سوف نجيب على السؤال الأول الذى طرحناه فى بداية هذا الفصل . وهو أن المستنير بصفة عامة أين مكانه فى الدنيا ؟ يعنى ما هو وضعه ؟ و الذى يهمنا فى هذا الفصل أن نهتم بمستنير المجال الديمقراطى بالمعنى الغربى (الأمريكى - الأوروبى) الذى إن أراد أم لم يرد فهو راكب على هودج الاستعمار رغم وجود الوجدان المريض للمدنية الغربية فهو ذو نصيب من المعاملة الاستعمارية . وقد أشرت إلى هذا فى الصفحات السابقة . وبالنسبة للصين أيضا قدمت بحثا فى أحد الملاحق لهذا الكتاب وبالنسبة للهند و جنوب شرق آسيا ليس لدينا أى خبر إلا أن فيتنام والفيت كوج ظهرت لنا على أنها رمز للمقاومة الاستعمارية . أما عن أمريكا اللاتينية فليس لدينا مزيد من الأخبار . وما يهمنا هو الوصول إلى مكانة المستنير فى فضاء الأمم المجاورة الإسلامية المستعمرة أو غير المستعمرة . و الوصول أيضا إلى مكانة المستنيرين فى الفضاء الديمقراطى القومى والمفترض فيه أن يكون بعيداً عن الاستعمار .

ومن الأمم المجاورة نهتم بداية بتركيا التى كانت حتى الحرب العالمية الأولى مركز الخلافة الإسلامية، إلا أن مستنيرى الأتراك خدعوا قبلنا بدائرة المعارف المكتوبة بأيدى الكتاب الأجانب، وظنوا أنهم يستطيعون تعويض خسارتهم الحربية بتشبههم بالغرب والأوروبيين كانت رؤيتنا الأولى موجهة صوب الدستور وكان هذا يعنى الخروج من دائرة العالم الإسلامى. وبعد ذلك لم يسمع نداء أو صوت الاتحاد الإسلامى من حناجرهم (ووقعت مجزرة الأكراد) و رفع نداء تحيا تركيا مكانه و بهذا النوع من الخداع جاء أتاتورك و غير مصيرهم بشعار أنه" نعم باللاتينية سوف تصلون إلى العلم

سريعًا". لكن مع هذا فإن خمسًا وستين إلى خمسين فى المائة منهم جهلة ! وبعد ذلك رفعت شعارات أوروبا وأمريكا أنه " نعم أنتم قوم أوروبيون وهذا نصيبكم فى الناتو. هذا نصيب آخر فى" السوق المشتركة الأوروبية " وهذا نصيب فى قبرص . وكم من الشعارات الزائفة تكلمت عن شجاعة جنودهم فى كوريا وكم من التمهيد لمنع زراعة الخشخاش فى إيران وذلك لتصدير الحشيش التركى لأسواق أوروبا والفرنجة[1] وكذا بالنسبة للفستق و السجاد ...إلخ . والتنويريون الأتراك الذين ارتدوا رداء الشجاعة الذى أخذوه منا . فإن موقفهم فى الغالب فى قضايا الصراعات الاستعمارية مثل قضية كوريا وفيتنام والجزائر والعرب وإسرائيل فهى إن لم تكن فى صالح الاستعمار فهى وبصراحة لم تكن دفاعا عن مصالح المستعمرين . وهذا بالطبع هو موقف الحكومة التركية . نأمل أن يكون تحت هذا الغطاء المستعار نضال وكلام مؤثر وألا يكون ما تقوله الحكومة التركية وتفعله ما هو إلا وصف للمستنيرين الترك حيث إننا ليس لدينا أية أخبار عن القضايا . وترددنا مع بعضنا البعض ما هو إلا فى حدود تردد الجاميكى مع الفنزويلى . وهاهى نتيجة أخرى من جراء التغريب الذى سيطر على آراء و عقول المستنيرين فى إيران و أكثر منها فى تركيا .

وأما الأفغان فإن شكواهم ماهى إلا نوع من الهواء البارد فى مرتفعات الهمالايا . وبدءوا اللعبة من بدايتها أى لعبة التنوير التى بدأوها بلعبة كشف الحجاب . ومع العلم أن مؤسسة فرانكلين الأمريكية " حتى السنتين أو الثلاث الماضية كانت تطبع كتبها الدراسية فى طهران، وأوجدوا لأنفسهم لغة الـ "بستو" لدرجة أن المستنير الاحتمالى المستقبلى الأفغانى يحيط نفسه بسياج من عدم التفاهم مع جيرانه . وإذ أقول الجيران فهذا باعتبار أن اللغة الفارسية ليست رسمية فقط فى إيران ؟ و لكن موجودة فى

(١) بمناسبة زراعة الخشخاش فى ممالك مجاورة لإيران لم يكن فى إمكان السلطة الشاهنشاهية أن تمنع استهلاك الأفيون بشكل تام ، والسبب أن للتجار منفعة كبيرة مع المهربين وكل عام يدخل الأفيون إيران عن طريق التهريب ويخرج قيمته ذهبا وتمتلئ السجون بالمهربين ولشديد الأسف فإن عددا كبيرا منهم كانوا أشخاص خادعين. من اطلاعات ٢٨ شهر يور ١٣٤٧ عن المقالة الرئيسية " كشف خشخاش " در إيران آزاد مى شود "

تاجيكستان الجارة الروسية الشمالية لأفغانستان وأيضا منتشرة إلى حد ما فى باكستان الجارة الجنوبية لهم ، و أعتقد حاليا أن الأفغان أيضا قد فهموا أن الخطر الذى يأتيهم من جانب إيران هو بنفس قدر الخطر الذى يأتينا من جانب روسيا . وفى هذا الفضاء من الغربة الجيرانية تقوم شركة أمريكية ببناء سد لهم فى الجنوب حتى يجف نهر هيرمند نهائيا والجماعة السيستانية والزابلية المصابة بمرض الفقر تهجر ديارها وبيوتها ومدنها وقراها وتلجأ إلى جرجان . فما هى عاقبة هذا السد ؟ لاحظوا:

لبناء هذا السد، صرف مبلغ ٣٩ مليونا وخمسمائة ألف دولار وإلى الآن وبعد مرور ثمانى سنوات على بنائه لم يستفد حتى الآن من طاقته الكهربائية كما لم يستفد من مياهه فى رى المناطق البور. لأنه اتضح حاليا أن تربة هذه المنطقة غير صالحة للزراعة والحرث ...إلخ (١)

أترون كم هم بديل سيئ لنا مع كل الإفراط والمسرحيات والفقر العام ولعبة السد المكلفة غير مثمرة . يستقطعون من أنفسهم لإرضاء سلطة المؤسسة ، وشخص مثلى يبقى على أمل أن يستطيع التجوال من مدينة بلخ المهدمة والمنسية فى شمال أفغانستان حتى غزنة وقندهار فى جنوبها ولا أظن أن المستنير الأفغانى أيضا ليس لديه هذه الأمنية للتجوال من رى إلى أصفهان.

أما الباكستانيون الذين لم يفرغوا بعد من قضية الاستقلال لديهم عنجهية "لماذا وافقوا على إعطاء السلطة لقبيلة "باثان" وأقول بصراحة إنهم يظنون أن هذا زمان الخلافة الإسلامية وهم مكلفون بالجهاد، وكل يوم يثيرون مشكلة مع الهند – ربما بقصد إيقاظ الروح الوطنية فى الشعب المشغول فى البحث عن قوت يومه والبعيد عن العداءات الوطنية والدينية والقومية – لكنها فى الأكثرية لم تكن سوى غطاء لمشاكل ناتجة عن ثلاثمائة سنة من الاستعمار . ولا أحد من الزعماء يستطيع أن يبوح بها ولنكن منصفين

(١) نقلا عن ص ١٤ العدد ٦٥ " مجلة تهران اكونوميست " ١٨ آذر ١٣٤٣ . ترجمة عن مقالة بقلم " جورج ميدر " ممثل البرلمان الأمريكى من الميشيجان.

من أن وجود شخصيتين أو ثلاث من المستنيرين فى جهاز حكمهم مثل ذو الفقار الذى أوجد الأمل فى أنهم ربما يتعظون من أخطائنا، كذلك حضور الممثلين الباكستانيين فى المؤتمرات والاجتماعات فى العالم الثالث وفتح الحوار مع الصين هى كلها أخبار جيدة، ومن ناحية أخرى فإن الخوف من الهند مع وجود الانشطار الجغرافى وبالنظر إلى أنه ليس لديهم دخل ضخم مثل ما لدينا نحن من النفط ، وبهذا كله نستطيع أن نلمس أن المستنير الباكستانى مع إقبال اللاهورى بسمو فكره ورؤيته الإسلامية للعالم [1] إنما يشكل لنفسه دوراً فى تحديد مستقبل آسيا .

وأما الدولة الإندونيسية – تلك الدولة الإسلامية الكبيرة – التى وقفت فى قضايا المعارضة مع ماليزيا (تلك الحكومة نصف الاستعمارية) وقفة شديدة ومباشرة فى وجه الاستعمار وانسحبت من منظمة الأمم المتحدة، وكانت تريد بمساعدة الصين والآخرين أن تشكل منظمة أمم متحدة أخرى ، مع كل هذا الاقتدار الذى أظهره مستنيروها فى ملء فراغ العمال الهولنديين ومع كل الزعامة التى خلقتها فى المؤتمرات الدولية فى دنيا الدول المستعمرة ، لا أعلم أين أخطأوا (أهو اختلاف وجهة النظر فيما بينهم ؟ أم تمجيد شخصية سوكارنو ؟ أو عدم معرفتهم بمخاوف أمريكا من التوسع الشيوعى الصينى ؟ أم أى شىء آخر) حيث إننا رأينا فى الانقلاب الفاشل أن هناك سباقًا آخر لدرجة أنهم فى خلال عشرة أيام قتل مائة وخمسون شخصاً باسم النضال ضد الشيوعية لدرجة أن الأطفال كانوا يلعبون برءوس القتلى فى الشوارع ! ولكن من وجهة نظرى إذا استطاعت الصين صاحبة السبعمائة مليون بعد ذلك الانقلاب الشيوعى الحارق "لجيان كايشك فى قاطرة بخارية سنة ١٩٢٧ هذه استطاعت فى مدة عشرين سنة أن تصبح دولة شيوعية . وإذا كانت إندوينسيا صاحبة المائة ونيف مليون تستطيع أن تعوض هذه المذبحة فى مدة أقل؛ مع الأخذ فى الاعتبار أن فى واقعة سنة ١٩٢٧ كان الحد الأقصى للقتلى خمسة عشرة ألف من الشيوعيين الصينيين . ولكن فى أحداث إندونيسيا كانوا مائة وخمسين ألف شخص .

(١) الذى شرعت فى ترجمة آثاره إلى الفارسية . بالرغم من أنه بعيد جدا ، ارجعوا إلى " إحياى فكر دينى در إسلام " ترجمة أحمد آرام . و"سير فلسفة در إيران " ترجمة أ.ح. آريان بور وكلاهما من نشريات المؤسسة الثقافية المحلية . '

وبالنسبة للجيران العرب الكويت وقطر والبحرين وعجمان وباقى الإمارات . تلك الدول متناهية الصغر (توضع فى الجبهة أو تحت الإبط) فهى بلا هوية تنويرية وثقافية ودمية فى يد من يدفع أكثر . لذا سوف أضطر أن أتحدث عن الدول العربية (المترويل) التى تصدر حتى المعلم والموظف للإمارات . وقبلهم جميعا سوف أتحدث عن وهابيى السعودية الذين يتمسكون بحرفية اللفظ وظاهره (......) .

وقد أشرت فى مقالة "قذى فى الميقات" "خسى در ميقات" إلى الوضع السيئ للمستنيرين فى هذه البلاد . وأشرت إلى أكثر الحكومات استقلالية بالنسبة للمستنيرين وآخر المساعدات البسيطة التى أعطيت لهم هذه الطريق الطويلة. وأشير أيضا إلى الآتى:

وهكذا فقد أسلمت بغداد والرى ودمشق والإسكندرية وبخارى والأندلس، كما أنه بمجرد دخول الإسلام فيها يجب أن تسرع الميكنة والتحديث من هذه النقاط لمد العون إلى هذه البنوية [(١)].

وبالنسبة لباقى الأعراب فحقيقة أن لنا فقط حدوداً مع العراق إلا أنه ليس لدينا أى صلة بمستنيريها مثل الصلة بين مستنيرى مصر والجزائر . وقد نشاهد الأمر نتيجة للجدار الصلب للوحدة القومية التى فرضت نفسها أو نتيجة للظروف الاستعمارية التى جعلت الصلة بين الجيران مقطوعة وجعلتهم أغرابا . وفى نفس الوقت فإن الحكومة الإيرانية نتيجة قضايا النفط والبحرين وشط العرب والفلوات ومسائل أخرى الناجمة عن التدخل الاستعمارى - فقد اختارت جميع الحكومات العربية أن تكون علاقتها جيدة ومختصرة مع الأردن والسعودية على اعتبار أنهم دولتان ملكيتان وطبقاً للقول السائر "الطيور على أشكالها تقع" والمستنيرون الإيرانيون دائما ما يبحثون عن زملائهم المشابهين لهم فى أماكن أخرى بعيداً عن قاعدتى: نفطى وغير نفطى ، أى المستنيرون فى مصر والجزائر وسوريا ، حيث إن مستنيريهم اعتمدوا على تجاربنا السلبية فى قضية النفط أو أنهم أفادوا أنفسهم من تكرار أخطائنا وهذا لأن لهم

(١) عن " خسى در ميقات " ص ١٢٢ الطبعة الثالثة . رواق - ١٣٥٦

تجارب سابقة فى التصدى للاستعمار قبلنا ولذا لم يكرروا أخطاءنا . ولهذا السبب أغلقوا قناة السويس على الشركات الأجنبية. وطردوا المستعمر بعيداً عن حياتهم السياسية والاقتصادية. وحاليا إذا كان قد حدث لنا هزيمة فإن ما يسعدنا هو أن يستفيدوا من هزيمتنا هذه . وبالرغم من أن إغلاق قناة السويس كان فى بداية الأمر نوعًا من قطع طريق الحياة للاستعمار إلى حد ما ، فاليوم مع وجود القوى العسكرية الإسرائيلية - التى تعتبر قاعدة استعمارية جديدة لأحدث استعمار فى منطقة الشرق الأوسط - والتى حولت ساحلها الشرقى طريق إمداد بحيث إن الأسطول الروسى يأخذ أسلحته بسرعة عن طريقه ويرسلها من تشيكوسلوفاكيا إلى فيتنام ، وبالرغم من أن نتائج حرب السنوات الماضية بين العرب وإسرائيل لم تصب أفكار مستنيرى العرب فحسب، بل إنها أصابتنا بالمثل، ولكننا نعلم جيداً أننا بانتفاضة واحدة فى الشرق الأوسط يمكننا أن نتخلص من هذه القاعدة الاستعمارية الجديدة . صحيح أن المستنير العراقى عاجز عن حل قضية الأكراد وبالطبع مثلنا وأنه مثلنا سلم القيادة إلى العسكرى إلا أن ذلك سائر إلى العدم فى النهاية وصحيح أن فكر الإنسان العادى وعقله فى أرجاء العالم العربى قد استسلم لجماعة آزيتاتور التى جعلت من "إسرائيل غولا لهم أضحى متراساً يحول بينهم وبين نسيان اختلافاتهم الداخلية واضطراب الأوضاع الاجتماعية وفوضاهم فى اتخاذ الخطوات الإصلاحية، لكن أملى فى المستنيرين العرب أكثر من أملى فى مستنيرينا . لأنهم سبقونا فى محاربة الاستعمار . فقط بشرط أن يعرف المستنير العربى ماذا يريد . وقد أشرت إلى هذه القضية وليس فى وسعى أن أقول أكثر من هذا وأكتفى بنقل صفحات عن كتاب "جاك برك" الفرنسى المتخصص فى تاريخ مصر الذى رغم أن له وجهة نظر خاصة بالمستنيرين المصريين ، ولكن ربما نعتبر أن هذا الخطاب موجه لنا أيضا :

فهو يقول : بهذه المشكلات التى لكل منها ظروفها وجوها الخاص بها ، إلا أن مشكلة مصر الأصلية التى أضيفت لها، فى شكل ارتباطها بباقى دول العالم . و الغرب الذى تقبلته مصر على اعتبار أنه معلم " أستاذ " . و كانت أكثر جدية و أكثر سرعة فى هذا التقبل عن بقية الدول غير الأوروبية ، فاليوم خرجت من الحرب العالمية الثانية بشكل مضحك . لأنها فقدت ثقتها بنفسها مرة أخرى . إذن كيف تستطيع أن تبقى

تلميذة للغرب ؟ وكيف يمكن لها أن تقبل غربًا آخر يتحدث عن الديمقراطية و عن السلام. و ما أكثر المصريين الذين يتمنون مثل هذا الغرب. و كثير من هؤلاء الشباب المصريين أكثر من الجميع إدانة للإمبريالية، وهم فى الحقيقة أوفياء للأفكار الغربية باسم الدفاع عن الماركسية الأصلية. وكان هذا يكلفهم الكثير أحيانًا وتكون الخسارة غالية. غالية جدا (......) و أصلا هل يكفى أن نستبدل الغرب المضحك و المزيف بغرب حقيقى؟ يمكن ذكر أشياء كثيرة للإعلان عن عدم الصلاحية هذه. هل يمكن القول أنه يجب الإقدام على هذا الأمر الآخر؟ وهل يمكن قبول أية ثقافة أجنبية اشتراكية أو أى شىء آخر، وسواء نيابية أو غير ذلك ليس الالتزام بها سوى خطر يؤدى إلى فقدان الشخصية؟ أى شىء يمكن أن يعوضها ؟ أو أن يكون بديلا عنها ؟ مهما كان الأمل حتميا لمثل هذا الشاب الشيوعى فإنه لا يستطيع أن يغض الطرف عن الإسلام أو الفكر القومى أو الوفاء للمواريث القديمة التى كم هى عميقة فى سلوك الشخص العادى . و فى النهاية بأى منطق أستطيع أن أعطى هذا الأمل المضاعف لإيجاد شخصية قومية و فى نفس الوقت دينية ، ما الحل ؟ كيف ذلك ؟[١]

تلاحظون أنه يجب أن نعطى ردا على هذا السؤال و هل نستطيع أن نخطو خطوة فى هذا الكتاب للبحث عن إجابة لهذا السؤال بعد كل هذه الثرثرة ؟

والآن سنهتم بمناقشة وضع المستنيرين فى الأجواء الديمقراطية الشعبية . وهنا يكون العمل فيه أكثر سهولة لأننا لسنا مقيدين و لا يمكن الشكوى عن عدم المعرفة وانفصال العلاقات.

وأفضل مرجع فى هذا المجال ترجم إلى الفارسية وهو عن "جيلاد ميلوش" الكاتب الهولاندى (الليتوانى الأصل) كتب سنة ١٩٥١ تقريرًا موجزًا فى هذا الشأن "لمؤتمر الحرية " للثقافة الفرنسية . إلا أنه اليوم مع وجود المتشبهين "بستالين " نجد أن المسائل أخذت شكلا آخر . إما بسبب قضايا أخرى مثل قضية تشيكوسلافكيا فى نفس صيف سنه ١٣٤٧ أو قبلها بفترة فى أثناء محاكمات سينيا فسكى (آرشاك)

(١) مترجم عن ص ٦٨٤ كتاب " مصر - امبرياليسيم وانقلاب " بقلم جاك برك . وهذا هو اسمه بالفرنسية .
L'egypte, imperialisme et re'volution par: jacques Berque Gallimard . Paris 1967 .

ودانيل – فى روسيا نفسها – ومحاكمة ميخائيل ميخائيلاف أو جيلاش فى يوغوسلافيا – ونماذج أخرى كثيرة – ومن هنا يكون للإنسان الحق فى أن يظن أن الأوضاع مازالت كما هى . وهذا ما يقوله جيلاد ميلوش . ولهذا فنحن مضطرون سريعا أن نلقى نظرة على هذه المقالة وأقوم بنقل سطور منها . يقول :

هنا المستنير، ليس رمزا للإبداع و الخلق. بل هو آلة و عدّة فقط من أجل تنفيذ رغبات معينة. وبهذا المعنى فهو لابد من أن يقدم خدمات وفوائد للحكام وكل شخص لا تكون منه تلك الفائدة لا يعد مستنيراً. (ص٤). المستنيرون فى هذه الأجواء الديمقراطية الشعبية يستطيعون أن يشكلوا طبقة جديدة من الأشراف . بشرط أن يكونوا دائما مطيعين ومنفذين للأوامر . فكما يقوم القلب بضخ الدم لسائر الجسد كذا تكون وظيفتهم وهى ضخ مقررات الحزب التى هى عبارة عن نظريات و عقائد الجهاز الحاكم فى بدن المجتمع . (ص ٩).

يجب أن يتوافر مناخ ووضع يمكن المستنيرين من أن يصرخوا ، ويجب ألا نمتنع عن هذا . ويجب أن نوجد المناخ المناسب و ذلك عن طريق إيجاد ضغوط غير محسوسة ونجبرهم على الاستسلام (للصراخ) و هذه القاعدة يمكن أن تصبح مثالاً عاما ينطبق على أى مكان كمثال عام. فمثلا الكاتب الذى يقع تحت ضغط ما، يقول لنفسه:

حسنا ! هذه ليست مشكلة ، لو أننى كتبت المقال الذى يريدونه ، إذن أستطيع أن أكتب الكتاب الذى أريده بالطريقة التى أريدها ولم يكن هناك أى حرج فى هذا .(ص١٠).

الموضوع الآخر الذى يهم النظام الجديد فى نهاية الأمر هو الحفاظ على المؤسسات المعروفة و المحترمة و الاستفادة من هذه الظاهرة . مع الأخذ فى الاعتبار هذه النقطة أنه يجب بالتدريج أن يضع لها محتويات جديدة فعلى سبيل المثال أنهم يستبدلون بالمتحف القديم تدريجيا صالونًا لعرض مبادئهم. أو مثلا لا يغيرون اسم مجلة ما معروفة، وإنما يغيرون مقالتها وموضوعاتها . و على هذا النسق أيضا يغيرون سلوك الأشخاص . يتركون هيئتهم و اسمهم ثابتًا كما هو ، وينحون عقائدهم ونظرياتهم جانبا و يضعون لهم فلسفة جديدة . (ص١١).

وفى أى مكان لا أثر عن عدم رضاء الناس ولكن عندما يبدأ فنان ما، أو كاتب ما أن يمسك قلمه ، أو عندما يمسك رسام ما ريشته فإنه يعكس عدم الرضا عن القوانين. وتستطيعون أن تقرءوا عدم رضا عامة الشعب الذى بلا حدود من خلال خطوط لوحاته . فالسيطرة على المستنيرين هو مفتاح السيطرة على الدولة .(ص١٢)

والحتمية التاريخية أهم دليل يستفاد به فى الأجواء الديمقراطية الشعبية . ففى الأحزاب الشعبية و حتى المسئولين وذوى الرتب العالية لأى حزب ، تجدهم يتحدثون عن الاعتقاد بالضرورة التاريخية بشىء من الإكراه والإجبار . مع كل هذا لا يمكن بسهولة أن نصل إلى الحرية بمفهومها عند " هيجل " أى أن (نجسم الحتمية). وليس للإنسان علاقة بالحتمية . حتى لو عرف أنها حيلة أخرى فليس له سوى الطاعة إذن الحتمية التاريخية هنا ليس لها معنى . وتصبح قانونًا تاريخيا مفروضًا لا أى شىء آخر . ولو أن روسيا السوفيتية انهارت أو سقطت ، فإن الحقد الدينى سوف يصير كسيل جارف . (ص ١٥).

أما الثقافة بهذا المفهوم يصبح لها معنى واحد وهو أنها مؤسسة توزيع العقل . أى كما أن الحكومة، تؤمن الاحتياجات المادية والبدنية للأفراد. فهى أيضا تعطيه احتياجاته الفكرية والثقافية . و فى النهاية تغير التخصصات فى الكتاب، والملحنين والرسامين التابعين لها. وفى هذه الحالة يمكن توجيه أعمالهم للعامة . (ص١٦).

من أجل توضيح الموضوع أكثر يجب أن نرجع إلى تاريخ الشعر فى السنوات الأخيرة . أنا من ناحيتى كنت شاهدًا للتطور والتكامل الذى حدث لأغلب الشعراء الديمقراطيين الشعبيين . وهذا التكامل والتطور يكون ملازمًا بنفس القدر للشاعر الذى يتحدث فى أعماله عن العناصر الاجتماعية المختلفة ، ويمكن قياسه كقوس صاعد . ووجود هذه العناصر دون شك ضرورى فى الشعر وموقف الحياد فى الأدب ليس له فائدة. مع وجود هذا فعندما يصل الشاعر الى درجة الإشباع والاكتمال من القضايا الاجتماعية على الفور يدخل فى دائرة الشاعر السياسى وهنا فجأة ينزل المنحنى . وهذا الفخ الاجتماعى يقع فيه كل شعراء الأجواء الديمقراطية الشعبية . (ص١٧).

إن الكاتب ، أستاذ الجامعة ، الرسام والملحن يجب أن يتطابق فكره مع الأوامر العليا ، وإلا سيفقد مكانته الاجتماعية ... من بين الناس الذين لا يستطيعون أن يتأقلموا و الثقافة الجديدة نجد أصحاب الفكر التقليدى يحتلون المرتبة الأولى، أى الأشخاص كبار السن أو المتدينون. وهذا النوع من الناس لو أراد أن يتأقلم لا يستطيع . فإن هذا التأقلم ليس افتخارا بل هو نوع من الشهامة والشطارة .(ص١٨)

يتراءى لنا فى الدول الإسلامية التى تشكلت فيها الفرق والجماعات المختلفة واحدة تلو الأخرى ، أن المسلم المطلق ليس له وجود ، والوحدة الخارجية أخفت الاختلافات غير المتناهية للعقائد المذهبية . وحتى المذاهب الفلسفية التى فى باطنها لا تقبل الإسلام ، فقد احترمته فى الظاهر. هذا الأسلوب الذى يحافظ على كيان الشخص فى مقابل سوء ظن الناس ما هو إلا عبارة عن إظهار عقائد مخالفة للعقائد النفسية ، التى يسمونها فى الدول الإسلامية " الكتمان "[1] وبعد الاطلاع والتنقيب وصلنا إلى هذه النتيجة بالنسبة لحياة الناس فى الأجواء الديمقراطية الشعبية إن مسألة الكتمان منتشرة فى جميع الأماكن و فى كل الأوقات[2] . (ص١٩)

ولعل هذا يكفى ويمكن أن نرى بسهولة أن حكوماتنا أيضا تتجه قليلا قليلا إلى هذا الأسلوب ومستنيرينا أيضا إن لم يقبلوا الاستعمار فهم مجبرون على خدمة حكوماتنا فى بيئة ما هى إلا تقليد عن الديمقراطية الشعبية .

٢- المستنير ومشكلة الأمية

سبق لنا الإشارة إلى أن مجتمعنا فى الوقت الحالى يمر بدورة ظهور الشخص المدنى حديثا المبهور بالرفاهية والمبهور بالصناعات الأجنبية ، ولكى يصل إلى هذين

(١) والمترجم يرى أن لابد من من أن يطلق عليها " تقية " بدلا من الكتمان .

(٢) نقلا عن صفحات مختلفة ذكرت فى جزء من " وسوسة بزرك يا زندكى دردناك روشنفكران در دموكراسى هاتوده اى " بقلم جيلاد ميلوش . ترجمة على وثوق فى ٢٠ صفحة ، طبعة طهران ، سنة ١٣٣١ من نشريات القوى الثالثة.

الغرضين ، فهو مبهور بشدة بالعلم والنشيد الوطنى والحدود، أى الشخص حديث العهد بالسماع عن مفهوم القومية . أيام كانت العالمية المعاصرة نموذجا يكتب فى الكتب الدراسية فى المرحلة الابتدائية، والمفكر الإيرانى الذى يجب أن يكون حر الفكر ويناقش ويجادل ويكون مُحبا للإنسانية، يجب عليه أن يطرح آراءه التى بدلا من أن تنشر السكينة، تنشر القلق، ومن استهلاك البضائع المستوردة الأجنبية يكتفى فقط بالترجمة . ويدافع عن القومية والعلم والرمز فقط فى الندوات الثقافية والمستنير الإيرانى فى هذا الفضاء حيران ، باق بمفرده . لا الحكومة تقبل منه أى كلمة ولا الناس تقرأ له . والإنسان المتمدين – وأخيرا القروى أيضا – الغارق فى النعيم ليس لديه الفرصة لكى يقرأ فى اللاهوت والناسوت . ورجال الدين أيضا طردوا وكفروا المستنير، لأنهم منذ البداية وضعوا على المستنير خاتم الزندقة . والحكومة أيضا التى تضع رقابتها على الراديو والصحف ووسائل الإعلام الأخرى ونشر الثقافة. أو تضعها فى يد تلك المجموعة من المستنيرين المأجورين. وبهذا فمستنيرنا الحقيقى منفصل عن العالم . وسعادته الوحيدة أن المدارس تزداد عددا يوما بعد يوم . وأن جميع الناس ، يوم بعد يوم يستنيرون أكثر . لكن علينا ألا نغفل أن هذا ليس بصفة عامة ليست فى كل مناحى الناطقين بالفارسية. إنما هو بصفة خاصة. ومن الجهتين . بمعنى أن هذا ينطبق على المستنيرين الذين رضوا بحذف الحكومة لكلامهم والأشخاص المستفيدين من الحكومة. وبمعنى أيضا أنه ليس للندوات وقت أن تسمع آراؤهم . بمعنى أنه لا أحد يشترى كلام المستنيرين . وبهذه الأدلة فإن حوالى ثمانين فى المائة من باقى المستنيرين الذين خرجوا بسلام من احداث ٢٥ ، ٢٦ سنة الأخيرة فإن أغلبهم أصبح من أصحاب أراضى أو من أصحاب جرائد أو من مديرى إدارة محطة إرسال فى راديو . ولماذا ؟ لأن الناس ليس لديهم صبر لشراء الثقافة . خلاصة القول لو اعتبرنا أن عشرين فى المائة من الناس متعلمون (فعليا خمسة عشر فى المائة) أى أن خمسة ملايين إيرانى

متعلمون[1] . أى أن عشرين مليونًا من الناس، لا يفقون شيئًا عن دنيا التنوير، أو أن أكثرهم يجتهد فى أن يتلقى شيئًا عن طريق السمع ، وهم إما عن طريق الراديو (ثمانون فى المائة يتمتعون بالتعليم الشفاهى) أو عن طريق المنبر حيث رجال الدين، يهتمون بما يقال فى شهرى العزاء وحاليا نفس الخمسة ملايين شخص المتعلمين من كثرة ما يتلقونه من صحف ملونة وسهلة الهضم لا يستطيعون أن يهضموا كلام المستنيرين الثقيل الهضم إذن مشكلة الأمية هى مشكلة صعبة .

وهذه ليست مشكلتنا هنا فقط ، بل هى المشكلة العظمى تقريبا لكل بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية . ونحن نعلم أن معالجة الأمية تحتاج لجهود عظيمة . واليونسكو أيضا تساعد فى هذا الأمر وكذا الأمم المتحدة . كما تقدم حكومة إيران مرتب يوم واحد من الجيش لمحو الأمية ولكن لو دققنا النظر لرأينا أن كل هذه الجهود عبث . لأن أى جاهل إيرانى أو عربى أو أفريقى من حقه اقتناء الراديو . وماذا يعنى هذا ؟ يعنى أنه ليس فى حاجة للمدرسة والكتاب والدرس ، وكل ما يلزمه أو الذى تعتقد الحكومة أنه يلزمه ، هو أن يحصل على راديو صغير وأى شىء أفضل من أن نعدد على وجه السرعة وجهتى نظر أو ثلاثة:

أولا : من حيث القضاء على الأمية فإنه لا يحتاج لأموال كثيرة فقط بل يحتاج إلى أوقات كثيرة أيضا قرأت فى مكان ما أنهم حسبوا أن إيران تحتاج إلى خمسة وعشرين سنة على الأقل للقضاء على الأمية . وما مقدار ما سينفق من أموال؟ وما يجب إعداده من سبل؟ وهل يطول ذلك الوقت مدة خمس وعشرين عامًا وهل يتم الصبر عليه؟ فى حين أن هذه المبالغ تعادل مصاريف يوم واحد من التى تنفق على الجيش ؟ مع العلم أن الراديو دخل بسهولة و يمكن للحكومة عن طريق الراديو أن تبث العلم من أجل الأميين فأى غم يصيبنا من الأمية ؟ و من ناحية أخرى فنحن لدينا السينما والتليفزيون ، سواء كانت إيرانية أو مدبلجة أى التى خضعت للرقابة. إذن يجب أن نضغط لكى نوسع شبكة التليفزيون . و بهذه الطريقة ألا تعتقدون أن إحدى دلائل ركود النهضة ضد

(١) فى سنة ١٩٦٥ كان ٧٠ ٪ من مجموع ٢٥ مليون إيرانى متعلم ، ولكن لو أن برنامج محاربة الأمية تقدم على هذا النسق الفعلى ، فإن فى سنة ١٩٧٥ لن يكون فى إيران أمى واحد ، آيند كان – ١٨ شهر يور ١٣٤٧ .

الأمية فى الدول النامية ، سيكون بسبب انتشار شبكات التليفزيون ؟ و فى هذا الشأن ذهب " مارشال مك لوهان " الناقد الأمريكى إلى أكثر من هذا و قال إن الوصول إلى المعاصرة هو نوع من الرجوع إلى البدائية لأنه بها تستبدل القراءة والكتاب و المدرسة و ألف باء إلى الاستماع و الراديو و التوسيع التكنولوجى والأصوات التى يتلقاها[١] . بالذات إذا علمنا أن القراءة و الاطلاع تحتاج لوقت يقل يوما بعد يوم مع وجود التوسع التكنولوجى .

ثانيا : لو اعتبرنا أن كل الناس متعلمون - مع أن هذا الفرض محال - و أن كل الناس تقرأ كتبًا بفرض أن كل إنسان يشترى فى العام عشرة كتب على الأقل ويقرأها[٢] . فإن قيمة هذه الكتب العشر - لو افترضنا أن قيمة كل كتاب فى المتوسط خمسة تومان . فيكون الثمن الإجمالى لها خمسين تومان . و لكن الراديو الترانزيستور قيمته على الأقل مائة تومان .

وإذا أخذنا فى اعتبارنا أننا هنا نعمل فى جو استعمارى - أى إذا أخذنا فى اعتبارنا أن ورق تلك الكتب و كذا الحبر اللازم لطباعتها و كذا ماكينات الطباعة جميعها مستورد - أى لكى ننشر الثقافة المحلية فإن الشركات الأجنبية أيضا تستفيد فاليونسكو تساعد الدول النامية المتخلفة فى محاربة الأمية (!) على أية حال فإن ثمانين فى المائة من الناس فى الوقت الحالى أميون ، وعليه فالشركات الأجنبية أيضا تحقق نفس المنافع. فسواء أن تبيع كل سنتين جهاز ترانزيستور لإيرانى أو أن تصرف لكى يتعلم اثنان إيرانيان فى السنة الواحدة فالاستفادة واحدة . دعونا نراجع حسابنا لو افترضنا أن كل شخص إيرانى متعلم يشترى فى السنة كتبًا بخمسين تومانا ونضربه فى اثنين يكون الناتج مائه تومان. فإن هذا يمثل الحد الأدنى لقيمة جهاز الترانزيستور يشتريه شخص واحد والذى لا يدوم أكثر من عامين . وإذا أخذنا فى اعتبارنا أن

(١) ارجعوا إلى كتاب understanding Media الذى يتمنى الشخص أن يترجمة

(٢) بالاستناد على الكتب الصادرة من دور النشر بإيران (ايرج أفشار) فإن الوضع الفعلى سنويا هو من ٧٠٠ أو ٨٠٠ كتاب مختلفة انتشر فى إيران (فهم كتب المدارس) أى مجموعا ينتشر حوالى ١,٥ مليون نسخة كتاب سنويا فى إيران وعلى هذا يصل لكل ٥ مليون فرد أمى حوالى ثلاثة نسخ ، ليس عشرة نسخ .

استهلاك إيران سنويا حوالى خمسمائة قطعة راديو تباع وتشترى . وبالنسبة للجمارك فمنذ سنة ١٣٢٠ وما بعدها يزداد استهلاك الراديو سنويا بمقدار خمس وثلاثين فى المائة إلى خمسين فى المائة وإذا كان احتياج الناس بهذا الشكل فيجب أن يصل مقدار القطع التى تباع بعد خمس سنوات إلى مليون و خمسمائة[1] .

وقد رأينا فى الصفحة الماضية أن هناك مليون و نصف كتاب ينشر سنويا فى إيران . مع العلم أن متوسط قيمة الكتاب خمسة تومان . أما هنا فكل راديو على الأقل بمائة تومان .

وألا تصدقونى القول فى أن كل الكلام والبيانات الحكومية للقضاء على الأمية ماهى إلا نوع من التظاهر أو نوع من الاستخفاف بالرأى العام ؟ وعلى الأخص أن المثقف الذى يقضى ساعات من يومه فى القراءة مثل قراءة (مجلة أو كتاب أو صحيفة) يقضى أقل وقت فى الاستماع إلى الراديو أو التليفزيون . لكن على النقيض نرى أن الشخص الجاهل دائما جهاز الراديو مفتوح قرب أذنه . والدليل على ذلك أنكم تجدون الباعة الجائلين دائما يضعون الراديو على أذنهم ؟ وإذا كان قصد حكوماتنا هو تعميم العلم بقصد التقرب إلى الناس سيستطيع الفرد العادى على الأقل أن يقرأ القوانين الحكومية والإعلانات والمانشيتات .

ألا تعتقدون أننى بهذا الشكل أجعلكم تشكون فى أهمية العلم عن طريق الراديو أو التليفزيون أو تعتقدون أننى مثل عالم الدين المتزمت أحرّم هذه الأجهزة . مع العلم أن رجل الدين منذ البداية و لأجل غريزة الدفاع عن النفس يعتبر أن هذا منافسًا شيطانيا.

ولكن على أية حال أريد أن أوضح أنه بجانب الاستفادة من هذه الأجهزة إلا أنها لا تخلو من الآثار السلبية و السيئة وهى ليست سهلة و بسيطة كما نظن . وعلى الأخص أن ثلثى البرامج إما أنها مستوردة أو متفرنجة و أيضا أريد أن أوضح أنها تعتبر نوعًا

(١) نقلا عن ص ٢٥ جريدة " كيهان " ٢٩ اسفند ١٣٤٢ عن مقالة بعنوان " باسخ وارد كنتدكان راديوية مونتاز كنندكان - والآن ونحن سنة ١٣٤٧ أى مرور خمسة سنوات على تاريخ الإحصائية المذكورة وعلينا أن نعتقد أن المقالة صائبة إذ يستهلك الآن ١,٥ مليون جهاز راديو سنويا فى إيران .

من المجاملة للاستعمار الذي لا يستطيع بسرعة أن يملأ حفرة الأمية. و على الأخص أيضا إذا علمنا أن الراديو و التليفزيون أيضا أجهزة تعليمية مؤثرة جدا ولكن إذا كان المسئولون عن إدارة هذه الوسائل ليس أكفاء للقيام بهذا العمل فسوف يحولون هذه الشبكات إلى نوع من التفنن أو إلى وسائل لنشر الأكاذيب وخلق الدعايات لخداع الناس . كما هو الحال فى جميع الأمم المستعمرة . لأنهم لا يتركون الحقائق تبتعد عن مقص الرقابة. و لأن المنابع الأساسية لكسب الخبر هى يونايتدبرس و آسوشيدبرس ورويتر . أى أكبر الأيادى الاستعمارية .[1] لأن صدى صوت الراديو من الناحية المعنوية للإنسان الجاهل فى بلدنا يشبه صدى صوته ، عندما يسير فى الظلام .

وخطر هذه الأنواع من الأجهزة الإعلامية فى الأجواء الاستعمارية والديكتاتورية وضحناه بدرجة كافية . دعونا الآن نجلب أنظاركم إلى خطرهم فى الأجواء نصف الاستعمارية . و يشير " جان بلوك ميشيل " الكاتب الفرنسى ضمن بحث له بالنسبة لكتابة القصص ، عن خطر الراديو و التليفزيون :

فيقول : إن الشخصيات البطولية فى القصص الجديدة يتحدثون مثل الشخصيات البطولية فى الراديو أو التليفزيون أو مثل كتاب المقالات الرئيسية فى الصحف الكبيرة . إذن فكل بطل من هؤلاء الأبطال هو انعكاس لعدم الأصالة التى تولد تحت ضغط وسائل الأعلام وتحت ضغط الثقافة العامية . وهذه الثقافة العامية التى تذاع عن طريق وسائل الإعلام تدخل فى كل حركات و سكنات الإنسان العادى وتستولى على أصالته وتشكل له قالبًا معينًا

يضع فيه نفسه برغبته متأثرًا بوسائل الإعلام الحديثة. فهو يمحو تجاربه الشخصية أو أى حادثة مر بها . فهو يحب كما رأى فلانًا يحب فى الفيلم الذى رآه، ويمثل مثلما مثل فلان الذى قرأ عنه فى المجلة، ويكونون رجال عصابات مثل فلان الذى قرءوا عنه فى صحيفة أمس . فترسخ هذه الثقافة العامية فى فهم العامة وتشكل لهم قوالب، بحيث إنها تمنع القارئ أن يضع نفسه مكان البطل الرومانسى الموجود فى

(١) ارجعوا إلى مقالة " نظرى به تاثيرات تلويزيون در انكلستان " مجلة " علم وزندكى " ارد بيهشت ١٣٣٩ – ترجمة لنفس القلم.

القصص الكلاسيكية (......) صحيح أنه بهذا تمحى الأمية يوما بعد يوم و فى نفس الوقت يزداد عدد قراء القصة ، و لكن من ناحية أخرى فهؤلاء القراء نتيجة التأثير الشديد للمجلات و الراديو و التليفزيون يساقون فى قالب واحد(١) .

فى فرنسا لا يوجد مشكلة الأمية و لا توجد أية رقابة لديهم على الراديو والتليفزيون ، فقيسوا كيف يكون الوضع هنا فى مملكتنا القائمة فيها مشكلة الأمية وأيضا مشكلة الرقابة . و صحيح أن فى المجتمعات الصناعية و نصف الاستعمارية مثل هذه المخاطر المترتبة على أجهزه الإعلام حيث تتحول الناس عن القراءة ويصبحون أشخاصًا مستمعين و مشاهدين فقط فإذا كانت إيران التى لدينا فيها فقط ٢٠٪ من الناس متعلمين ، فإن هذه المخاطر موجودة فيها أكثر منهم بمئات المرات وعلى الأخص إذا كنا نضع فى اعتبارنا أن الطريق الصحيح للعلم و التعليم هو القراءة والتجربة وأن ٧٪ فقط هم من النوابغ الذين يستطيعون أن يصلوا إلى ما يريدون من التعليم عن طريق السمع. وقد ثبتت هذه النقطة فى التربية والتعليم. وأيضا على أساس أننا لو أخذنا فى اعتبارنا أن نسبه تأثير الحواس فى تلقى العلم لوجدنا :- من ناحية القراءة فنسبة التلقى تكون خمسة وسبعين فى المائة .

ومن حيث السمع تكون النسبة خمسة عشر فى المائة ، من حيث اللمس خمسة فى المائة ومن حيث الشم ثلاثة فى المائة و من حيث الطعم اثنان فى المائة .

فى مثل هذه الأوضاع يعيش المستنيرون الإيرانيون على أساس أن وظيفتهم أهم مائة مرة عن وظيفة المستنيرين الفرنسيين مثلا . وهؤلاء المستنيرون الإيرانيون هم الذين يجب أن يحددوا نوع الاستفادة من هذه الأجهزة الإعلامية. المستنير الإيرانى هو الذى يجب أن يعين كيف نستفيد من هذه الأجهزة الإعلامية وكيف نعد البرامج وهل هذه الأجهزة الإعلامية مفيدة أو غير مفيدة ولا يسمح أن تكون هذه الأجهزة وسيلة للاستخفاف بالناس واستغفالهم أو تجعلهم حمقى . وهل كل المسئولين عن هذا النوع من الخاضعين لرقابة الحكومات، وأعلم بالمسئولية الخطيرة التى على أكتافهم ؟ ربما

1 - J. Bloch Michel - Le present de L'indicatif. P. 40 - 41 Gallimard 1963 (١)

يمكن القول أن طبيعة الخدمة أو الخيانة التى يقدمها كل مستنير فى دولة مثل إيران تتضح من خلال تصرفاتهم مع هذا النوع من الأجهزة التعليمية والإعلامية والتفننية .

اسمحوا لى أن أنقل لكم جزأً من " ما هو الأدب " لسارتر لتوضيح موضوعات هذا الفصل . يقول :

فى الوقت الذى لا يوجد فيه قارئ بالإجبار فى الوقت الذى يصبح من المستحيل أن يوجد كاتب فى حاشية الطبقة الممتازة للمجتمع ، بالتالى فإن الاختلاف فى الرأى ينتفى . وفى هذه الحالة يكون الأدب مرتبطا بأيديولوجية الطبقة الحاكمة . ويقع الكاتب فى وسط هذه الطبقة ويتجلى اعتراضه وإنكاره داخل الجزيئات[1] .

ولكى نفهم الموضوع أكثر سوف أشير إلى خبر فى مجلة «تايم الأمريكية». وعلى سبيل المثل " أن الشوربة تكون حارة من كثرة ما بها من ملح المائدة أيضا :

إن المدارس الأفريقية التى يؤسسها الأوروبيون هدفها الأول هو تغريب القوميين ، وبعد ذلك تعليمهم . مع العلم أن الحقيقة القائمة اليوم هى أن أغلب القادة السياسيين الأفارقة ضد الغرب وضد الاستعمار ، وهدف الجامعات الأفريقية السوداء لم يختلف كثيرا فأوغندا بتعدادها الذى يساوى ٦٨٤٥٠٠٠ (٦مليون و ثمانى مائة و خمس وأربعون ألف فرد) ودخل سنوى يقدر بثمانية دولار ، فإن طلبة جامعة " ماكه ده ده " المؤسسة على غرار جامعة أكسفورد يرقصون رقصاتهم الغربية . ويحضرون بالملابس الرسمية لتناول الطعام ويلعبون (الإسكواش والكريكت والرجبى). ولا يوجد فى أى مكان فى الكلية ارتباط بالمواريث المحلية الإفريقية ولا تعزف الموسيقى الأفريقية هناك . وعلى هذا فبرامج الكلية إلى هذا الحد ليس لها أى معنى . وبدلا من أن يعلموهم الاقتصاد و الزراعة الإفريقية التى تعمل على تقدم أفريقيا إلا أن جامعة " ماكه ده ده كل دراستها مبنية على التقاليد الغربية ، مثل فلسفة الأخلاق أو الفلسفة اليونانية . وبالرغم أن أوغندا بها عدة لهجات محلية والطلبة يتحدثون الأوغندية، فإن الدراسة بها

(١) ص ١٧ " جنك أصفهان " الدفتر السادس بهار ١٣٤٧ – من الفصل " نويسنده وخواننده " ترجمة مصطفى رحيمى .

باللغة الإنجليزية . قال أحد الأساتذة الذين أصابهم اليأس من هذه الجامعة : هنا يوجد نادى سياحى والذى أصبح كنوع من القرحة فى بدن أفريقيا الجديدة و المستقلة [١].

والآن نستسمحكم فى أن نلقى نظرة إلى جامعة بهلوى فى شيراز التى بنيت بجوار مقبرة حافظ وسعدى وأخلاف د. كوروش وداريوش فى هذه الجامعة يدرسون آدابنا باللغة الإنجليزية ، كما أنهم يرقصون نفس الرقصات ويتكلمون نفس الكلمات ويلعبون نفس الألعاب التى كانت تؤدى فى الجامعة الإفريقية والتى اعتبرتها مجلة التايم شيئًا مضحكًا.

والجامعة فى الحقيقة تعد شعبة من جامعة بنسلفانيا الأمريكية وكم نتفاخر بها وكم نهتم بها .

المستنير ومشكلة اللغة التركية

ما تم ذكره سابقا هو طرح مشكلة المستنيرين الإيرانيين تجاه مشكلة الأمية أو بشكل عام ما بين مشكلة المستنيرين فى كل البلدان المستعمرة وبين الناس الأميين، ويستطيعون فقط أن يروا و يسمعوا . ومشاكل أخرى موجودة . أى المشاكل التى لا تواجه المستنير الأجنبى و الغربى أو مستنير المجال الديمقراطى الشعبى أو التى أوجد حلولا لها منذ فترة ، أو أصلا ليست لها وجود . ولكى نفهم أفضل أين هو المستنير الإيرانى؟ نطرح مشكلة من هذه المشكلات وهى مشكلة اللغة التركية .

قبل هذا أشرت أن من بين مجموع خمسة وعشرين مليون إيرانى يولد على الأقل ستة أو سبعة مليون فرد فى المنطقة التى تتحدث بالتركية كلغة أم ، وينشأون فى هذه المنطقة ولكن ليس لديهم الحق فى استعمال لغتهم الأم سواء فى مجال الفن والثقافة والمطبوعات ووسائل الإعلام والخدمات الاجتماعية ومضطرون لاستخدام لغة أخرى وهى الفارسية وفى محيط بعيد عن محيطه الأم . يعنى فى المدارس ، فى الصحف ، فى

(١) ترجمة عن ص ٤٢ مجلة تايم Time أمريكا . العدد ٢٦ يولية ١٩٦٨ .

الراديو والتليفزيون فى كل التقارير الحكومية حيث إن استخدام اللغة الأم ممنوع بشكل عام ، المسموح به فقط لمدة نصف ساعة يذيع لهم راديو تبريز برامج باللغة التركية . فى حين أننا نجد فى نفس الوقت لا تذاع برامج كثيرة وطويلة باللغة الكردية بل تذاع أيضا باللهجة الجيليكية جزء من البرامج ! والنتيجة الأولى المترتبة على هذه الأوضاع أننا حرمنا ما بين ستة إلى سبعة ملايين شخص فى إيران من أبسط حقوقهم المبدئية وهو استخدام اللغة التى يتكلمون بها أو يريدونها(١) .

لو نظرنا بصورة عامة لوجدنا أنه يوجد فى عالمنا عدة دول بعدة لغات مثل (الهند ، العراق ، لبنان ، يوغوسلافيا ، وسويسرا وغيرهم) وأيضا لو لاحظنا أنه لتوحيد أمة فى منطقة جغرافية واحدة فإنه يجب دراسة السمات الدينية والتاريخية والأدبية والتضاريس الإقليمية وسمات أخرى يجب مناقشتها ، وعلى أية حال فليست هناك مشكلة لو أننا تركنا الشخص الأذربيجانى يستخدم اللغة التركية بحرية (أو التى أطلقوا عليها عن طريق الخطأ الآذرية) والآن اسمحوا لى أن ننظر سويا إلى الأحداث التى حدثت فى الثلاثمائة سنة الأخيرة .

إننى لا أعلم بدقة منذ متى انتشرت اللغة التركية فى أذربيجان . ولو أن السؤال عن هذا الموضوع خطأ ، لأنه لماذا غيرت أية مجموعة كبيرة من الناس لغتها أو دينها أو آدابها ولكننا نعلم أنه فى المجموعات البشرية الكبيرة يوجد تبادل مع مجموعات بشرية أخرى من حيث النواحى المادية والمعنوية بشكل كبير . ومن ضمنها اللغة . ولم تكن أذربيجان وحدها معبراً فقط بل أنها كانت مكانا آمنا ومعبراً أيضا حتى للرحالة والقبائل العديدة من الترك – ابتداء من السلجوقيين حتى هولاكو وفى النهاية أتراك القره قوينلو ، والآق قوينلو – والاحتمال الأقرب والمؤكد أنها بقايا لغة الماديين التى تركوها وأخذوا اللغة التركية هى الآذرية تخلت عنها بمرور الزمن والخلاصة التى يمكن استخلاصها من هذه الواقعة التاريخية هى أن اللغة العربية هى العماد الأساسى لفهم الإسلام لم تستطع أن تحل محل اللغة الفارسية ، ربما بسبب أن التجمعات العربية

(١) المادة الثانية لحقوق البشر تقول "إن كل شخص يستطيع أن يمارس كافة الحقوق والحريات التى وردت فى هذه المذكرة دون أى تفرقة من حيث الأصل أو اللون أو الجنس أو اللغة والمذهب والعقيدة السياسية.

كانت قليلة جدا وبعد مرور مائة عام ذابت فى بحر أهالى إيران الواسع . ولو أن هذا العامل القوى غير موجود فى اللغة التركية ولكنها أخذت مكانها فى إيران لسببين أولهما بسبب الهجوم المتواصل من الأتراك ، والسبب الثانى أن الآذرية كلغة محلية ليس لها آداب ولا شعر ولا مواريث ثقافية مثل الآداب والثقافات الفارسية . علاوة على هذا هناك عامل آخر وهو العامل الجغرافى حيث إن أذربيجان قريبة من النواحى الشرقية التركية مثل قربها من جيلان ومازندران أو كردستان أو من العراق وفارس ، ويمكن القول أن كل ما حدث للتركية من ناحية التاريخ والثقافة واللغة ، دون شك حدث للأذربيجانيين .

بصرف النظر عما يجب وما لابد أن يكون فإن ما نعرفه أن منطقة أذربيجان هى المنشأ الأصلى للحكومة الصفوية . إذن فالتشيع بدأ من هناك و بعد ذلك انتشر فى أنحاء المملكة لأن التشيع كان له وجود من قبل فى كل أنحاء المملكة ؟ و السؤال الآن ألم يكن وجود اللغة التركية فى أذربيجان هو السبب الأساسى للانتشار السريع للتشيع (للمذهب الشيعى) فى المملكة ؟

ولو نظرنا بدقة لوجدنا أن أغلب الأكراد لم يتشيعوا (لم يعتنقوا المذهب الشيعى) ولو دققنا أكثر لانتبهنا إلى أن الصفويين حتى القاجاريين كان ضمن بلاطاتهم عدد كثير من الأتراك .

والذين كانوا يتنقلون إلى قزوين ثم أصفهان ثم طهران ، وربما الدليل الذى لدينا من أجل تأييد هذا الحدس والتخمين هو أن الاختلاف بين الفارسية والتركية كان أحد الأسباب الرئيسية لاستقرار التشيع فى أذربيجان وفى أنحاء المملكة . ولو نظرنا نظرة أوسع لوجدنا أنه بالرغم من أن اللغة التركية لم تستطع أن تصل إلى الحدود الشرقية رغم صراع ألفى عام مع اللغة الفارسية – لأن منطقة خراسان كانت فى مواجهتها بكل عرضها وطولها وتاريخها وجغرافيتها وثقافتها ، وبسالتها ، كانت بمثابة سد منيع – إلا أنها فى النهاية فرضتها علينا . أى فرضتها من ناحية أذربيجان . وهى الآن واقع تاريخى لا يمكن إنكاره سواء رضينا أو أبينا . النقطة الأخرى ، إنه فى كل الحروب التى كانت بين إيران والعثمانيين والروس على مدى تاريخ العهد الصفوى حتى أواخر

العهد القاجارى - أى منذ أوائل القرن العاشر الهجرى حتى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى - كانت أذربيجان على مدى ثلاثة أو أو أربعة قرون دائما فى صراع ونهب وسلب وحروب. وقبل هذا أيضا كانت تبريز وسلطانية عاصمة لها مرات عديدة. على أية حال ففى بداية اصطدامنا بالفرنجة والتكنولوجيا ، فإن أول لطمة تلقيناها تلقتها أذربيجان ، كما أن الخطوات الأولى للمقاومة بدأت مسيرتها من هناك أيضا . فاستخدام السلاح النارى ، تأسيس الصحف ، تأسيس المدارس وكتابة المسرح ، والترجمة من اللغة الأجنبية .. إلخ . وكل هذا إما أن أذربيجان منبعه أو ينتشر منها . أليس لهذا السبب من التقدم والريادة كانت تبريز مقر ولاية العهد على مدار العصر القاجارى ؟ ولتأخذوا فى اعتباركم أن خراسان أثناء الخلافة الإسلامية كانت مقر الولاية عهد للخلافة فى بغداد أو بالعكس ، وهذا الواقع الفرعى ذاته هو الذى منح منزلة جديدة لخراسان فمنها انطلقت أولى ثورات ألاستقلال ضد بغداد ، مع فرق إذا كانت ولاية العهد فى طوس كانت تنتمى إلى بغداد من الناحية الجغرافية إلا أنها لن تستطيع أن تكون مصدر قلق لبغداد وتستطيع أن تكون حامى الإسلام فى مقابل هجوم الأتراك وكان لولاية العهد فى مدينة تبريز نوع آخر من الميل لحكومة طهران فهى أن لم تكن خط أول للجبهة فإنها تحافظ على الحكومة فى طهران . إذن بالنظر إلى كل هذه المقدمات هل ترون أن مفهوم المجالس الدينية والولاية وضع فى القانون الأساسى الإيرانى نتيجة إصرار التبريزيين عليه؟ ولماذا قامت الثورة الدستورية بمعاونة تبريز ؟ ولماذا كانت الثورة القومية وثورة التجار يرمزان إلى شىء واحد فى أذربيجان ؟ وسوف نتحدث عن هذه النقاط فيما بعد النقطة الأخرى وبصرف النظر عما كان وما لابد أن يكون فنحن نعلم أن اللغة الداخلية و التى كانت تستخدم فى بلاط الصفويين والقاجاريين هى التركية مع العلم أن اللغة الرسمية التى كانت تكتب على يد الكتاب والسكرتارية والنطنزى والمحلاتى والآشتيانى هى اللغة الفارسية ، وكم من أشعار ورسائل أرسلت إلى الباب العالى فى استامبول باللغة التركية وكان يصل ردها بالفارسية وإذا كان أكثر المصطلحات الحكومية مثل مصطلحات وزارة العدل ووزارة الداخلية والبلدية كانت متأثرة بالتركية الإستامبولية التى دخلت على الفارسية والتى دخلت عن طريق بعض السكرتارية التى كانت تأتى مع أمير ما لقضاء دورة تدريبية فى

تبريز لكى يكون سلطاناً فى طهران وبهذا الشكل أتوا وأصبحوا أصحاب مقامات فى هذا الوقت . وأكبر مثال على ذلك الحاج ميرزا آقاسى .

والنقطة الأخرى التى يجب أن نعلمها هى أنه بسبب التضحيات و الأولويات وأهم من هذا تآلف اللغة الذى كان موجودا على مدى المائة عام الأخيرة للعصر القاجارى حتى استقرار الحكومة فى انقلاب سنة ١٢٩٩ فإن كل الاتجاه الثقافى والتنويرى الأذربيجانى كان إما من ناحية القفقاز أو من ناحية إستامبول[١] .

ونظرا لهجرة بعض المستنيرين والكتاب إلى إستامبول نتيجة هجوم محمد على شاه على الدستور فإن كتابات آخوندزاده ، وصابر التبريزى ، وطالبوف والآخرين المهتمين بالاشتراكية الديمقراطية فى القفقاز ، كانت مؤثرة إلى حد كبير فى إمثال الثورة الدستورية وفى ثورة أهل تبريز . وفى هذا الوقت وفى هذا المجال من النزاع والمشاكل والإقدامات منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجرى وما بعده فإن حكومة طهران لم تكن تسعى لنشر لغة موحدة فى كل المملكة بل واستخدمت العنف إلى حد ما كما فعل الصفويون لغرض المذهب . من المؤكد أنه قبل انتشار المدارس والثقافة والكتب فإن هذا الاختلاف فى تعدد اللغة كان غير واضح بشكل حاد. لأن الشخص العامى، لم يكن لديه اهتمام بالثقافة والدراسة والقراءة - سوى فى بعض المسائل الشرعية والمدنية وفى هذه الحالة وحدها كان مسموحاً للغة التركية أن تستخدم - مثل قراءة الروضة والنواح التركى . من ناحية بسبب سياسة الوحدة القومية للحكومات التى جاءت بعد الثورة الدستورية ومن ناحية أخرى بسبب الانجذاب تجاه حرية لغات الأقليات التى أقرتها الثورة الروسية والحكومة الانقلابية التى كانت فى البداية معروفة بحكومة لينين ، أدركت هذا وأدركت أنه لابد من تضييق الخناق على اللغة التركية . وقد مضى حتى الآن أربعون وكم سنة (آنذاك) و كل سعى الحكومات فى إيران ليس فقط من أجل الحد من استخدام اللغة التركية بل محوها تماماً . ولهذا سموها باللغة الآذرية ، أو اللغة

(١) فى شتاء ١٣٤٦ أردت الذهاب من اردبيل إلى تبريز وكانت تذكرة الأتوبيس التى حصل عليها صديقى مكتوبة باللغة الروسية والتذكرة التي كانت فى يدى كانت مكتوبة باللغة التركية وبخط روسى . وصديقى فى السفر كان المهندس منجمى حيث ذهبنا سويا إلى مغان وعدنا سويا .

التحميلية وغيروا أسماء المناطق والمدن فى أذربيجان ، وقاموا بإرسال الموظفين والجنود الترك إلى المناطق الفارسية الأخرى وفعلوا عكس ذلك مع أصحاب اللغة الفارسية. إلا أنه ما زالت اللغة التركية قائمة و لم نوفق فى القضاء عليها (١).

بالإضافة إلى أننا أصبحنا منافقين ولكن بصورة خفية ، ما بين الترك والفرس .

ولسوف نرى فى أول فرصة مناسبة أن هناك فرقًا مثل الفرقة الديمقراطية "دموكرات فرق سى " سوف تظهر - وبصرف النظر عن النكات السخيفة التى شاعت والتى نرى نماذجها وقد انتشرت فى بعض الآداب والتاريخ(٢) . والأوضاع أصبحت كالآتى : فبدلا من أن يكون هناك وحدة قومية أصبح هناك نوع من الجدال القومى الذى تتخذه الحكومة كحجة من أجل استقرار نظامها الحالى من العدالة لكى تثبت وجودها و ذلك عن طريق إرسال الموظف والجندى التركى إلى مناطق الفرس ومثلهم ومن المناطق الفارسية يرسلون إلى مناطق الأتراك . ونتيجة هذا نلاحظ الاغتراب فى كل أنحاء المملكة بين الناس والموظف والجندى - أى تلاشى الرابطة ما بين الحكومة والناس - وأن تصرفاتهم هى نوع من التصرفات الاستعمارية التى لا تقام على أساس التفاهم بين الطرفين بل دائما على أساس انتشار الخوف والاغتراب. وأنا متأكد أنه فى هذه النزاعات على مدى الأربعين سنة الأخيرة فى أى حادثة لم يحدث أن فتح أى جندى محلى أسلحته على أهل بلده . ولكن الجندى الفارسى فى أذربيجان والجندى التركى فى طهران هو الذى كان يطلق الرصاص على الآخر نتيجة النكات السخيفة التى كان يسمعها من قبل هذا والتى ولدت فى ذهنه هذه العصبية ، إذن فقد حان وقت الانتقام . وإذا كانت علاقة الحكومة بالدولة ليست سليمة فهذا بسبب سياسة تنقلات الموظفين التى لم يراعى فيها الأمور التى تترتب على هذه التنقلات وهذا بظن منهم أنهم بهذا يقيمون وحدة قومية لكن فى الحقيقة هذه المسألة أدت إلى سوء تفاهم بشكل كبير

(١) وأنا فى " تات نشين هاى بلوك زهرا " ص ١٧ كنت شاهدا بالنسبة لانتشار اللغة التركية فإنهم بالرغم من إخراجها من نطاق المدرسة والثقافة إلا أنها بشيء من مكر الرجل العامى ورجل السوق والقروى لم يمنعها شيء سوى انتشار الثقافة والمدرسة ووسائل الإعلام .

(٢) كنت قد أشرت إلى معارضة المهندس ناطق لعبد الله المستوفى كاتب تاريخ القاجار . ارجعوا إلى مجلة يغما أعداد شهر يور ، مهر - آذر - دى ، ١٣٤٤ .

بين الآمر والمأمور اللذين لا يفهمان لسان بعضهما . والأمر الذى يجب أن نلاحظه أن هذا المأمور البسيط - ليس من المستنيرين ولا حتى حاصل على دراسات عليا أو خريج جامعة أوحتى حاصل على دراسات عليا أو خريج جامعة حتى يستطيع أن يعدل من سلوكه ، ولكن بالنسبة للمستنيرين الذين نشأوا من محيط اللغة التركية فقد رأيت منهم الكثيرين ، وخلال عملى كمعلم لمدة تجاوزت عشرين عاماً وينفا لم أرى طالبًا واحدًا قد صدر منه ما يفيد التكبر أو يخشى من السخرية . ولأنهم أيضا لا يعرفون اللغة الفارسية جيدا وكنت قد سمعت أيضا، أنه بالنسبة للتقدم للامتحان الجامعى فى المملكة كان يقبل ثلاثون فى المائة من الناطقين بالتركية أقل عن المقبولين الناطقين بالفارسية. وكنت أتحدث فى يوم من الأيام مع مدير مدرسة فى بلدة أربيل والذى كان فى الماضى تلميذًا لى كان يقول فى بداية كل عام دراسى علاوة على كتابة اسم الطالب يجب أن يكون لديه صورة وشهادة ميلاد وأى مستندات أخرى وعلاوة على هذا ينظر إلى رأس التلميذ فإذا كان هناك أثر لضربة تحت شعره فإنهم يتريثون فى مسألة قبوله بالمدرسة وبهذا الشكل ألا تظنون أن الوصول إلى قمة التدرج الوظيفى بالنسبة للأتراك أقل بكثير عن الفرس ؟ وألا تعتقدون أن هذه الوقائع تعتبر المحرك الأساسى سواء للشعور بالحرمان أو للعدوات والتى كان آخرها قضية " دموكرات فرقه سى" أى الفرقة الديمقراطة ؟ أو لو نظرنا إلى شهريار الشاعر المعاصر والذى يعد فى مرتبة نيما ، إلا أننا عندما ندرجهم فى اللغة الفارسية فإننا ندرجهم كشعراء من الدرجة الثالثة أو الرابعة وهم الذين درسوا التركية حينما كان لا يوجد هناك تحريم على اللغة التركية وبهذا لن يظهر لدينا قط فى المستقبل شعراء أو أدباء فى هذه المنطقة ولو أخذنا فى اعتبارنا أن لغة الأدب ، هى اللغة الأصلية . وهى اللغة الأم وليست اللغة الثانية هى اللغة الرسمية للحكومة والدولة ، لاستطعنا أن نفهم وضع شهريار. ولكن فى الوقت الحالى ماذا يجب أن يفعل الشاعر الشاب والكاتب المعاصر صاحب اللغة التركية الذى لا يلجأ إلى باكو أو إسلامبول لكى ينشر آثاره [١]؟ وألا تصدقونى القول فى أن عدة عمل التنوير هى الكلام واللغة فنحن بهذا الشكل نسلب قدرة تنوير من ستة إلى سبعة

(١) ارجعوا إلى الأعداد الأخيرة " اينجه صنعت " (هنرهاى ظريف) الأسبوعية و " ليتراتور " الشهرية طبعة باكو مركز توزيع كليهما فى طهران دار نشر دنيا ، نادرى ، وفى تبريز دار توزيع نوبل .

ملايين تركى فى المملكة أو نخرب أصلهم أو حتى لا نسمح بوجود مجال لعرض آثارهم وإن وجد فيكون عن طريق الخطأ ؟ وانظروا إلى كل رموز الإصلاح واللغويين - ابتداء من فتحعلى آخوندوف حتى باغجه بان وكسروى وجميعهم أتراك وأذربيجانيون . والتصور الأقرب إلى اليقين أن أيا منهم لم يفهم لغتنا الفارسية ، واخترعوا لغة فارسية لهم وعرفوها . وانظروا إلى معظم الرجال الأذربيجانيين الذين وصلوا الى أعلى درجات التدرج الوظيفى ، فهم إما أنهم لم يوفقوا أو حادوا عن الطريق أو أنهم أخطأوا فى مسيرتهم[1] أو أنهم أصبحوا خونة . وأيضا انظروا إلى الأيدى المحركة الأصلية داخل حزب (تودت و دموكرات فرقة سى) فهم أيضا كانوا من المهاجرين . وانظروا أيضا إلى المتطرفين من المستنيرين الترك الذين لكى ينفذوا إلى المجال القيادى فإنهم ينخلعون عن جذورهم ويكونوا مقلدين من الدرجة الأولى للغرب.

ويجب الاهتمام أيضا بأن الأذربيجانيين أصبحوا مقتصدين جدا مثل اليهود . لأننا أخذنا منهم النشاط الثقافى وأعطيناهم حرية النشاط المادى . وأهم دليل على هذا هو تواجد قوة العامل التركى الأذربيجانى فى الأربعين سنة الماضية والذى كان العامل الأساسى للنهضة العمرانية فى المملكة . فكل خطوط السكك الحديدية والسدود والعمارات قامت على يد العامل الخلخالى والأردبيلى وكلما كان هناك طريق مرصوف أو أى عمل من أعمال المقاولات فلابد من أن يكون للعامل التركى يد فيه. حتى فى الوقت الحالى فإن مسألة مد أنابيب البترول أيضا تتم على أيديهم . وعندما نمنع مجموعة من الناس من الوصول إلى الكتاب والجريدة والدرس ونحرمهم من الأخذ والعطاء الثقافى والعلمى فإن طاقاتهم إما تترجم الى أفعال بدنية - فى شكل العامل أو الجندى أو أى الأشكال الآخرى. أو تتوجه أذهانهم الى أنشطة غير ثقافية أى يصبح اقتصاديا فكما نرى فإن ثلثى المحلات التجارية فى طهران تحت تصرفهم . وعلاوة على

(١) نقلا عن حديث مع السيد تقى زاده ص ٥٠ مجلة روشنفكر العدد ٦٠٥ - ٢٣ اردبيهشت ١٣٤٤ ، السؤال' ذكر سيادتكم .. فى مقالاتكم عن النقل الأعمى للحضارة الغربية إلى المجتمع الإيرانى . هل ما زلتم تفكرون أن ......؟ جواب . أننى يجب أن أقر أن آرائى وفتواى السريعة والثورية فى الأربعين سنة الماضية فى مجلة كاوة وفى بعض المقالات كان يلازمها شىء من الأفراط بعد الثورة الدستورية كان هناك عدد من المفكرين والعصريين لهذه الفترة قد انبهر بالحضارة الغربية ..... واليوم فإننى قد عدلت عن هذه المعتقدات .. إلخ

حرمانهم السابق فإننا حرمناهم أيضا من الاستماع إلى لغتهم الأم من الراديو ، الأمر الذى يجعلهم يتجهون إلى سماع لغتهم الأم من منطقة أخرى . وفى الوقت الحالى فإن تسعين فى المائة من الأذربيجانيين المقيمين فى المدن ولديهم راديو يستمعون إلى راديو باكو . وبغض النظر عن أن أذربيجان أساسًا تستهلك راديوهات أقل من جيلان ومازندران . وفى قرى أذربيجان قليلا ما نجد فى القهاوى أى راديوهات لأنهم لايفهمون لغته وإذا استمعوا إلى راديو باكو فإنهم يجدون حرس الحكومة يطاردونهم . إذن هذه الوسيلة الكبيرة للاتصالات غير مستخدمة بالنسبة لستة أو سبعة مليون أذربيجانى وإذا كان هناك ارتباطا فإن هذا الارتباط يكون مع طهران وليس مع باكو . النتيجة الفرعية لهذه القضية هى أن الراديو لم يستطع أن يأخذ مكان المؤسسات الدينية فى قرى أذربيجان . ولهذا السبب فإن المؤسسات الدينية فى أذربيجان لا تزال لديها القدرة والقوة كما كانت فى عصر الصفويين لأنهم مازالوا يقرأون الروضة والنواح وإقامة التعزية واللطم بالتركية . وفى أردبيل لا يزال هناك رواج تام لهذه المسائل وفى كل قرية أو نجع يوجد مسجد أو مسجدان وهما من أكبر وأجمل وأبهى وأغلى من المساجد التى تبنى فى المدن كما أننا نرى دائما فى أماكن الضيافة فى أذربيجان القطع الحجرية للصلاة بجانب النافذة، أو فوق المدفأة. وللأسف ليس لدينا إحصاء حتى نقول كم من الطلبة الذين يأتون من المناطق التركية إلى مدينة قم الدينية لأن الأذربيجانيين هم الأكثر تمسكًا بهذه الأشياء . ولا يزال فى خوى وأردبيل وحتى تبريز بشكل أسوأ من قم – فإن السيدات لا يستطعن الخروج إلى الشوارع بدون حجاب. ولا يزال أكبر تجمع يشكل للخروج للعزاء من الأذربيجانيين سواء فى طهران أو فى جميع مدن الشمال ومازندران إذ أن جميع محلاتهم التجارية تحت تصرف الأذربيجانيين وأيضا سواء فى تبريز نفسها وباقى مدن هذه المحافظة توجد هذه الجماعات وعلى عكس هذا، فإن أى أذربيجانى يهرب من أذربيجان إلى طهران أو أى مكان آخر لا يوجد فيه أتراك يعتبر بلا دين ومنحلاً ومقلدًا للغرب أكثر من أى شخص آخر .

وبهذا الشكل يضعف جسد التنوير فى إيران ، ونتاج التنوير الموجود فى المملكة لايصل إلى أذربيجان . أو بالعكس . وأنا أجزم القول بأن أكبر نسبة للأمية فى أذربيجان هى تشكل أول مشكلة فى طريق التنوير – لأنهم محرمون من المدرسة

بسببين أولهما وجود اللغة الفارسية فإذا ذهب إلى المدرسة فسوف يحصل على شيء من التعليم .

ولكن الأذربيجاني التركي علاوة على أن الذهاب إلى المدرسة ليس في متناول يده فهو لا يفهم لغة المعلم الذي يتحدث باللغة الفارسية فهو لا يفهمها ولا يفهم الخط الذي يربطه بالكتاب المدرسي . فالأذربيجاني تعلم منذ طفولته أن يقول للماء "سو" وللخبز "شرك" وعندما يذهب إلى المدرسة يرى في كتابه كلمتين أخريين - يجب أن يتعلمها وهي الماء والخبز بالفارسية فهو بدلا من يصور الكلمة التي آنس لها صوتيا وتنتقل له عن طريق البصر بعد أن تعلمها عن طريق الصوت والسمع ولم يستعملها في حياته اليومية وليس لها مفهوم ذهني عنده . وعلى هذا فعندما يكون باقي التعليم بدون فائدة وهذا هو سوء التفاهم الذي يظل معه على مدى سنوات دراسته وحتى آخر عمره .

وهكذا وبالنظر إلى كل هذه النتائج التي نتوصل إليها ألم يحن اليوم الذي يجب على الحكومة أن تأخذ من مفهوم سياسة التوحيد القومي مفهوماً أعظم و أوسع مما هي تطرحه الآن ؟ وبشكل يتناسب والقرن العشرين ؟ وعلى الأخص أن الخطر السياسي والأيديولوجي الذي يأتي من وراء الحدود ذهب ولم يبق لدينا منه سوى الجاذبية اللغوية . إذن بسهولة نستطيع أن ننشئ في جامعة تبريز مركزا لتعليم اللغة والثقافة التركية لأنه في هذه الناحية بالرغم من أن اللغة التركية لغة رسمية فإنها تكتب بالخط الروسي وفي تركيا تكتب بالخط اللاتيني . مع العلم أنه لا يزال رشيد بهبوداوف المغني القفقازي الذي يأتي إلى إيران كنوع من التبادل الفني غير مسموح له أن يؤدي برنامجه في تبريز كما أن لاعبي كرة القدم الأذربيجانيين يؤدون مبارياتهم في طهران فقط . أو على أوف المستشرق الروسي الذي يتألم من عدم السماح له بقضاء وقت في تبريز[1]. ولكن علينا أن نبحث عن سبب هذه العلة ؟ فإذا كانت حكوماتنا تعرف أن قضية اللغة هي القضية الرئيسية التي تشغل بال الأذربيجانيين وإذا سمحت لهم أن تكون هي اللغة الأولى لهم في هذه الولاية وبعد ذلك تكون اللغة الفارسية هي الإجبارية

(١) هاتان الكلمتان حديثتان عن أم العروس ، أي عن مجلة " ينى كازت " التركية : " التقرير التابع للثقافة التركية في طهران يقر أن دولة إيرانتعمل على محو الشعور القومي التركي فيما بين ١١ مليون تركي .

الثانية ، فسوف تزول جميع هذه المشاكل من الطريق . وأنا إن لم أبالغ فى الأمر أريد أن أقول وبصرف النظر عن بقية العوامل الإقليمية والجغرافية والتأثير السياسى الدولى أن جميع الأزمات الأذربيجانية تنشأ عن طريق اللغة . حقيقة أن أذربيجان هى أكبر ولاية فى إيران بالنظر إلى الثروة القومية التى لديها - من زراعة وتربية مواشى - حتى إنها تستطيع أن تستغنى عن دخل النفط ، ولكن إذا أعطيناها الفرصة لعدم تدخل لغة غير محلية وغير رسمية فى ثقافتها وأن تدير مدارسها وصحفها ومؤسساتها الثقافية بنفسها ، فلن يوجد أى خوف بينهم من الانجذاب الإجبارى إلى ما وراء الحدود علاوة على أن جسد التنوير فى إيران سوف يحصل على ثروة قومية كبيرة .

وأنا أريد أن أقول فى نهاية هذا الفصل إن مشاكل التنوير فى إيران بعد أن وضحت أهميتها وطرحتها بأن أقول بصراحة إنه منذ بداية ظهور القومية أى منذ زمن الثورة الدستورية حتى الآن فان حكومة طهران استعمرت أذربيجان لا من الناحية السياسية والاقتصادية - ولكن حتى من الناحية الثقافية - وأول نتيجة سيئة لهذا الاستعمار الثقافى ، هو قتل الثقافة التركية فى أذربيجان . وبهذه المناسبة سوف أعرض كلاما عن لسان "أمه سه زر" الشاعر الأسود والذى يعانى الكثير من الآلام فى هذا المجال:

إن أى ثقافة لكى تزدهر تحتاج إلى إطار والى بنيان . لكن الشىء المسلم به.

إن العناصر التى تعطى الحياة الثقافية للشعب المستعمر فى النظم الاستعمارية إما أنها تسلب ثقافته أو تفسدها . هذا العنصر حقيقة منذ الوهلة الأولى عبارة عن تشكيلات سياسية (......) والعنصر الثانى هى اللغة التى تخلق نتيجة الاستعمار . اللغة التى يقال لها (علم الاجتماع المتجمد) فاللغة القومية هنا ليست اللغة الرسمية وليست اللغة الإدارية ، ولا المدرسية ، ولا الفكرية وهى دائما فى حالة تدهور ، وهذا التدهور يمنع من تطورها وحتى إنه أحيانا يسوقها إلى العدم ويهددها (......) فعندما رفض الفرنسيون أن تكون اللغة العربية فى الجزائر واللغة الأمازيغية اللغات الرسمية ، فنتيجة هذا منعوا هذه اللغات من أن يكون لهما النشاط اللازم الذى يؤثر فى الثقافة وبهذا الشكل ضربوا الثقافة العربية الأمازيغية(١)

(١) أرجعوا إلى صفحات ٧ - ٨٧ من كتاب : نزاد برستى و فرهنكك " بقلم عليون ديوب ، زاك ولبه مانا نزاراه فرانتس قانون ، امه سه زر ، ترجمة دكتور منوجهر هزار خانى . دار نشر بن سينا ، تبريز ، بهار ١٣٤٧ .

٤- فقر التنوير فى السنوات ١٢٢٩-١٣٢٠

تحدثنا فى الفصول السابقة عن ضيق حدود وتجارب واختيارات المستنير الإيرانى . ولم يكن الأمر فى الحقيقة من أجل أن نأتى بعذر أو بحجج لتوجيهه ولكن بقصد أن نوضح لـه الفروق بين الوضع الخاص بينه وبين المستنير (المتروبولى) . إذ إن الأول يترعرع فى بيئة نصف استعمارية والثانى يترعرع فى نطاق شركة قوية وبعمل مستعمر. لذا فإن تصرفاتهم لم تكن واحدة تجاه الحكومات أو رجال الدين أو تجاه وسائل الإعلام . لأنه باحتمال يقرب إلى الحقيقة فبالرغم من أن "المستنير المتروبل (ذى التبعية السياسية) لديه الحرية الكامنة فى التفكير لأن لديه مجالاً واسعًا وحرا للعمل أو للعب أو للفكر لكى يجرب ويضع تجاربه نصب عينيه . ابتداء من الوسائل الفنية حتى وسائل الترفيه الاجتماعى ولديه ساحة واسعة من المستعمرات ولديه من وسائل الانتقال بساط سليمان . أما المستنير الإيرانى فليس لديه هذا المجال ولن يكون لديه ولكنه مازال بداخله مشكلة الأمية ، وأيضا مازال يعانى من مشكلة اختلاف اللغات مثل (العربية - الكردية - التركية) إن جاء إليه مثلا مغنى أو مقرئ فى أفغانستان أو باكستان أو تاجيكستان فإنه يفرض عليه بالقوة الحدود التى رسمت تحت شعار الوحدة القومية بأيدى السياسات المختلفة، وفى النهاية تمنع انتشار آرائه وآراء الآخرين منه وإليه . مع العلم أن المجال الضيق البسيط الموجود أمام المستنير الإيرانى جعله فى الخمسين سنة الأخيرة أن توسوس لـه نفسه فى الاشتراك أو عدم الاشتراك مع الحكومات التى تأتى وتذهب وجعلته دائما يسأل نفسه هل أشترك أم لا أشترك ؟ وإذا اشترك كيف يشترك وهى حكومات عميلة، مع كل هذه الأصول وهذه الخلفيات وهذه الأرضية الثقافية وإذا لم يشترك ماذا يفعل مع البطالة التى سوف يعانى منها ؟ وعلى الأخص فإن هناك احتياجًا لوجوده ؟ وبهذا الشكل فالمستنير الإيرانى عندما يتقدم به العمر فإنه يترك الأصول والخلفيات التى وضعها لنفسه والتى أتعبته وينفض يده من اللاهوت والناسوت والاستعمار والمستعمرين ويكون مهيأ ويعدونه لكى يكون طوال ما

بقى من عمره موجهًا للحكومات أو أن يكون وكيلاً للوزارة أو وزيرًا أو وأن يكون قادرًا ولو بصورة مؤقتة على قيادة الناس، لأن الإنسان العادى لا يفهم كلامه وإذا كان مطيعًا له فإنها تكون نتيجة الخوف من قدرة الحكومة التى يستند عليها ، ولهذا ففى النهاية ييأس ويترهبن و يترك الدنيا ويذهب الى برج عاجى ويجلس فيه أو يلبس لباس الدراويش ويعيش لنفسه .

وبهذا الشكل أصبح المستنير الإيرانى بالتدريج ليس له جذور فى تراب هذا الوطن ، وكل ما عليه هو أن يلقى نظره إلى الغرب ويتمنى أن يفر إلى هناك . وأصعب المراحل التى مر بها هى فترة العشرين سنة قبل شهر يور التى كان المستنير الإيرانى فيها فى سبات عميق مثل أصحاب الكهف حتى قامت الحرب العالمية الثانية و أثارت معارك و قلاقل و كلام و دعاوى و أوضاع مختلفة . وهنا بدأ المستنير الإيرانى مرة أخرى يسأل نفسه ما الذى نفعله وما الذى لا نفعله ؟ فعندما أهان راديو لندن الطبقة الحاكمة فى هذه البلدان ، لم يستطع المستنير أن يرى نفسه بعيدًا عن المعركة ! أو أنه رأى أن جميع الأشياء تنهار وفجأة وتبدأ من حزب توده وأمور الغربنة واتخاذ الموقف ضد رجال الدين ، ويبدأون مرة أخرى بضرب الدين باسم الارتجاع وبضرب الحكومة باسم الاستعمار ويبدأون الضربات التى تدوم حتى الحل الإجبارى فى قضايا النفط بصورة إجبارية وذلك عن طريق القبض والسجن وماشاكل ذلك . وحتى يأتى المستنير ويفهم ماذا حدث وماذا يحدث يرى نفسه فى عالم آخر من الإعدامات الجماعية حتى يصبح الأمر أنك لا تستطيع أن تبكى فيه لا على الحى ولا على الميت من كثرة القهر والظلم . ولأن خمسة عشرة عامًا مرت على تلك الأيام والمستنير فى أسوأ أيامه فالحكومة ضيقت عليه الخناق وجعلته تحت سطوتها . وأننا إذ نرى أنهم عن طريق أحسن الوسائل المتعارف عليها عالميا سواء فى إسبانيا أو إسرائيل وسواء فى الأجواء الديمقراطية الشعبية – فإنهم كثيرا ما يقطعون رأس المستنير بالقطن وينجرون كل أمر خطير بيد . بحيث إنه نفسه لا يفهم لماذا قتل أو ذهب أو قضى عليه . وهكذا الحال فى الوقت الحالى ولد أو وجد أشخاص يدعون الحرية ويفتحون صدورهم للمتحدثين فى الراديو وكل واحد منهم يحاول أن يأخذ من هذه الغوغاء أو هذه السفرة أى شىء

يستطيع ولهذا نسوا أصول وفروع التنوير وقاموا بأعمال المقاولات وقليلا منهم مازال باقيا على العهد أو فى منفى أو فى السجن أو يصرخ دون جدوى . والناس هكذا دون أى اهتمام ولا مبالاة بمصيرهم ورجال الدين أيضا أصبحوا غير مرغوب فيهم من قبل الحكومة أو الدينيون إما مبعدون وإما صامتون نتيجة سيطرة الدولة من دساتير وأوامر وكل شيء حكومى وقانونى وطبق الدستور .

وأنا لا أعلم أساسا منذ العشرين سنة السابقة لشهر يور ماذا فعلوا بالمستنير الإيرانى بحيث إن سوق التنوير بعد شهر يور كسد وأصبح موحداً وموجهاً . وسيد ضياء الدين الذى حددت إقامته نتيجة حملة من الحملات الإعلانية من حزب تودة إلى أن حدث انقلاب آخر وبقى إلى آخر عمره مقرباً للخاقان فانص بجواد وعليقة .

ظل سيد ضياء الدين يدافع عن حزب إيران الذى هو نوع من الليبرالية البورجوازية وأصبح فجأة على رأس قائمة المقاطعين، والآخرون الذين كانوا من أصحاب القدرة فى أثناء الجبهة الوطنية (القوة الثالثة - المتعصبون الإيرانيين - حركة تحرير إيران)، والتى أصبحت مثل وصول العلاج بعد فوات الأوان ، وأصبح حزب تودة وحده فى كل هذه الفترة له نداء وحركة وجماعة وأصبح له تأثيره، الأمر الذى ترتب عليه كثير من التعديات والتخبط وحتى الخيانات ونحن بهذه الأسباب انفصلنا عن الحزب سنة ١٣٢٦ الأمر الذى سوف نتحدث عنه فى الفصل اللاحق . وفى النهاية لماذا أصبح حزب تودة صاحب الصولات والجولات فى أحداث العشرة أو الاثنتى عشرة سنة الأولى بعد شهر يور؟ و لماذا لم يكن هناك خبر عنه؟ هل مستنيريو العشرينيات كلهم ماتوا ؟ أو أننا ليس لدينا أخبار عنهم ؟ وأنا أظن أنه ربما بسبب أن مستنيرى فترة العشرينات تلك رضوا بما حدث ، وأعلنوا سكوتهم إما بالاستسلام أو بالرضا أو بالتعاون . وبهذه الأدلة أستطيع أن أقول إن قيمة التنوير فى العشرين سنة قبل شهر يور كان شيئًا أكثر من الصفر بقليل . وربما يكون لديهم الحق فى السكوت . فعندما يرون استخدام البلطجة التى عملت عملها وأخرجت "مدرس" بتلك الصورة التى خرج بها من المعركة وكذا "عشقى وفرخى وبهار" بشكل آخر . وعندما تجمع الثلاثة والخمسون شخصا وجدوا أنفسهم فى السجون وقطعت أوصال الدين من جميع الأماكن . ولعل السبب الكبير لمبدأ القضاء على الثقافة والتنوير لهم هو النهضة نصف

الدستورية التى رأيناها من قبل . على كل فإن أغلب هؤلاء فى تلك المرحلة كانوا يرون أن الموضوع كله ومن أساسه هو نوع من البلبلة ونوع من فرد العضلات ولهذا اختاروا السكوت وبالرغم من أنهم لم يرضوا الاشتراك فى ظلم الحكومة واختاروا الانتظار فى زاوية ما ، على أمل أن يستقر النظام الغربى على يد فرق القوزاق وتنتهى لعبة التوسل بالحيل الشرعية ويصبح للناس ثقافة ويقضى على الأمية وفى النهاية سوف تكون المياه مهيأة للمستنير لكى يذهب للسباحة فيها . أيظن أن التنوير نوع من أنواع المخللات بحيث إنها تستطيع الانتظار . وأيضا التجربة التركية قائمة وحية أما مستنير العشرينيات والذى يرى أيضا الخدع الإفرنجية لهؤلاء السادة . وأنا بصراحة أعتقد أن جميع رجال الثورة الدستورية الثانية وجميع المستنيرين الذين رضوا بتغيير النظام فى فترة العشرينيات تلك قبل شهر يور - أما بالسكوت أو بتلميح بسيط أو بالاشتراك فى الأمر - فإنى أراهم جميعًا مقصرين فى هذا البعد التنويرى التافه . لأن هذا الحدث وقع أمامهم وفى حضورهم ونتيجة سكوتهم واشتراكهم الذى كان نوعًا بديلاً للتنوير والدين اللذين كان كلاهما عنصرين حيويين فى صدر الثورة الدستورية . فمن أجل أخذ هذه الحيوية والفاعلية من كليهما ، كم من الحيل الواهية وضعت فى طريقهما . ابتداء من اللعبة الزرادشتية حتى اللعبة الفردوسية واللعبة الكسروية، واللعبة البهائية التى كان لها باع طويل فى هذا الأمر. وأنا سوف أتعرض لهذه الألعاب حيث إن كل واحدة منها كانت إما تعبيراً تنويريا أو دينيا أو تقليديا لكليهما .ولكن قبل ذلك فأنا أرى نفسى مكلفا بأن أوضح سبب الفقر التنويرى الذى وضع النظام العسكرى ميكروبه الأصلى فى الشوربة التى طبخها فى العشرين سنة قبل شهر يور .

وإذا كنا نشاهد فى روسيا موتًا كليا للثروة الأدبية للقرن التاسع عشر والقرن العشرين أو نشاهد أن الألمان بعد الحرب لا يستطيعون أن يكتبوا خمسمائة صفحة كعمل أدبى أصيل قابلا للمقارنة مع توماس مان أو هرمن هسه - وهكذا كله بسبب أن نسل أو نسلين من الأجيال ضاعوا بين الحربين العالميتين سواء فى روسيا أو فى ألمانيا دكتاتورية الحزب للحزب الواحد أو النظام العسكرى وفى وجود الكتب التى تحرق والسجون والنفى للمستنيرين - وفى مملكة إيران بالطبع سوف تكون أكثر راحة و أكثر تهيأة لموت البذرة الأصلية للتنوير تحت نظام الديكتاتورية العسكرية . مع العلم أن

هناك طبعات باقية من آثار كسروى وحافظ . وهذا كله فى بلد لا يعرف فيها عامة الناس سوى كتابات حافظ على اعتبار أنها شيء من الأدب . وأن أكبر حدث أدبى ممكن أن يحدث فى هذا الوقت هو صدور مجلة " مهر " التى كان هدفها الأصلى نبش القبور والتحقيقات اللغوية والترجمة . وبعد ذلك مجلة "پيمان " التى كانت تصدر كل سنة أو سنتين بهدف القضاء على الدين، ثم عدة أعداد من مجلة "دنيا " والتى كانت تصدر لنفس الغرض أيضا ،ولكن برؤية مختلفة . وفى نفس الوقت كان هدايت قد طبع قصته " البومة العمياء " فى الهند وقام بنشرها فى سرية .

وكان دشتى و حجازى صنيعة الثورة الدستورية ، فالأول كان مأموراً من قبل الرقابة الدكتاتورية والثانى كان يقوم بنشر مجلة" إيران اليوم " التى كانت لسان حال الحكومة . ولم نجد خبرا عن محمد مسعود الذى كان يكتب بصورة مبهمة و غير واضحة فى "مسرات الليل " " تفريحات شب " . وجمال زادة ترك الوطن وأصبح يصول ويجول فى ميدان القصة فى سوق حميد . وهذا هو كشف حساب الأدب فى ذلك الزمان (١) .

ومن أجل شغل الفراغ الذى كان سائدا فى ذلك الوقت ، كان المستنيرون مجبرين على أن يلعبوا بعض الألعاب حتى يجذبوا عقول الشباب وسوف أقول لكم هذه الألعاب:-

أولا اللعبة الزرادشتية - فى إطار التصدى لمذهب حكومة العصر وفى إطار التعاليم السيئة لمؤرخى العصر الناصرى الذين وضعوا أول إحساس بالضآلة أمام التقدم والثقافة الغربية وبالطبع كانوا أول الباحثين عن سبب التأخر الثقافى لإيران ، مثلا من ضمن التعاليم السيئة أن الأعراب الذين وطأوا بالأقدام الحضارة الإيرانية أو المغول والأباطيل الأخرى .... فى العشرينيات ظهرت مرة أخرى كلمة (فروهر) وكتبت على الأبواب والحوائط أى أننا قد أحيينا إله زرادشت وأخرجناه من القبر . وبعد ذلك ظهرت أسماء أرباب (رستم وجمشيد) وكل هؤلاء ظهروا بمدارسهم وثقافتهم وندواتهم

(١) نقلا عن " هدايت بوف كور " " هفت مقاله " دار نشر رواق - ص ٦٤ .

ونادوا بتجديد المعابد الدينية الزرادشتية فى طهران ويزد وكل هذا من أجل توجيه الضربة إلى الإسلام ولكن كيف يكون هذا ؟ إنه يتم عن طريق إحياء الأموات وإحياء الدين الزرادشتى وإحياء كوروش وداريوش وتخت جمشيد . ونقلدهم بصورة حمقاء وأنا أتذكر جيدا وأنا فى نهاية المرحلة الابتدائية كم من المسرحيات الكاذبة شاهدناها تحكى عن هذه المجموعة .

وكنت أستمع مجبراً لكل الخطابات التى كانت تلقى لترويج هذه الأفكار ، وذلك عن طريق الندوات التى كانت تقام تحت رعاية "هيئة تربية الأفكار " وكنا فى ذلك طلبة فى مدرسة حكيم نظامى التى كانت تقع فى شاهبور وكان يلتحق بها أولاد سكان شارع الخيام وكنا نذهب إلى هذه الندوات مرة فى الأسبوع ومن كان المتحدثون ؟ كانوا على أصغر حكمت – سعيد نفيسى – فروز انفر – دكتور شفق و حتى كسروى ، وأنا فى هذه السن الصغيرة كنت أفتخر بسماع خطبهم و خاصة الثلاثة الآخرون . وللتعرف على الباقى ارجعوا إلى خطب "هيئة تربية الأفكار "(١) التى كانت تنشرها مؤسسة الوعظ والخطابة التابعة لكلية المعقول والمنقول ! وإذا كنت أريد أن أبين علل الفقر التنويرى يجب أن أمسك واحداً واحداً من هؤلاء السادة خطباء " تربية الأفكار " وأحاسبهم . على كل فترة العشرينيات هذه فالجميع ابتداء من الأدب حتى الهندسة ومن المدرسة حتى الجامعة الجميع كان مشغولاً بلعبة الزرادشتية ولعبة الهخمانشية وأتذكر فى تلك الأيام أن شركة " باير لصناعة الدواء " عندما رسمت خريطة إيران رسمتها فى شكل امرأة شابة مريضة نائمة فى الفراش ورسمت هذه المرأة و هى تضع رأسها فى حضن شاه الوقت وكوروش وداريوش وأردشير وباقى القبيلة ينظرون من السماء ، ونزلوا من السماء و جلسوا لعيادتها وهى تحتضر فى زاوية ما (بحر الخزر) ! وفروهرى رب الزرادشتين فوق الجميع وقد مد ظلاله على الجالسين وفى يد كل واحد منهم سيف وكان منهم المنشقين والمزينيين والمعلمين ، وكان الأمر هكذا حتى إن أسبرين "باير" هو الآخر كان يلعب لعبة كوروش وداريوش وزرادشت .

(١) الفهرس الكامل لأسمائهم جاء بنقل عن نفس المجموعة السابقة .

اللعبة الثانية: هى لعبة الفردوسى . كنا فى ذلك الوقت فى مرحلة طفولتنا وكنا نعانى كثيرا لكى نحصل على مصروف من آبائنا لشراء تذكرة للمساعدة فى مقبرة هذا الرجل العظيم الذى لم تهتم به حتى ابنته وتحزن عليه، وهنا سوف أشير إلى قصة شفاهية تقول إن ركبا من الجمال جاء بهدايا وعطايا محمود غزنوى التى كانت تحقيق لأمل بعد فوات الآوان و عندما وصل إلى طوس كانت جنازة الأستاذ الفردوسى تشيع وابنته صرفت كل أموال و عطايا محمود غزنوى على بناء فندق فى أول مدينة طوس – ولم تصرف شيئا على قبر أبيها ، وهذه المقابر كانت تبنى بهذه الطريقة ، واحد يرى المنام والآخر يجمع المال ، وثالث يبنى مزارا وعندما يبنى المزار فى هذا الوقت يفهم الجميع بأنها كانت لعبة لخداع الناس . وأنا إذ أطلق على هذه القصة " لعبة الفردوسى" فهذا ليس مطلقا بقصد السخرية أو إساءة الأدب لشاعر كبير مثل الفردوسى . ولكنى أنا الفارسى أعلم جيدا أن الفردوسى حى وحاضر إلى الأبد فى الشاهنامة و على لسان النقالين وهو ليس محتاجا لقبر أو إلى من يزوره أو إلى متولى . ولكن تصفحوا " هزاره فردوسى " وهناك سوف ترون أعظم الكتابات الأدبية لتلك الفترة ولسوف ترون كيف أن حرية الفكر فى ذلك الوقت وأفكار المستنيرين والكتاب والشعراء كانت تروج وتطرح وتتلألأ تحت رعاية الحكومة . وبعد ذلك اذهبوا إلى مقبرة هذا الشاعر الكبير فى طوس ، فسوف ترون كيف أن هذا البناء وضع كأثر من الآثار الفنية للأجيال فى المستقبل[١] . وهو نموذج منفرد من أشكال المعمار الدكتاتورى – الاستعمارى – الزرادشتى – الهندى . والأهم من المقبرة إدراك أى أساس وضعوه فى ذلك الزمان من أجل هذه اللعبة الأخرى ، وهى أن تكتب هذه الشاهنامة على شكل كتاب تاريخى وتدرس فى المدارس[٢] .

٣– اللعبة الثالثة لعبة كسروى . حاليا البهائية أصبحت فرقة متفرقة أو بمعنى أصح تقوقعت على نفسها و لم تثمر أية أعمال أخرى ، لماذا لم نؤسس فرقة جديدة ؟

(١) والتى إلى هذا الحد لم يكتب لها الدوام

(٢) ارجعوا إلى " سه مقالة – ديكر " لنفس القلم فى مقالة بلبشوى كتابهاى درسى (در نشر رواق – ص ٨١ وما بعدها)

وهناك استفادوا من وجود مؤرخ عالم و محقق دقيق ، وجعلوا منه نبيا كاذبًا ، ونسبوا له الأباطيل و أنزلوا لـه الآيات ، حتى أعدم على الفور فى منطقة شرب اليهود بعد العشرين من شهر يور فى حضور قاضى العدل . ونحن الآن بقينا بحسرتنا ، لأن كاتب التاريخ الوحيد الصالح لهذا الزمان قتلوه من قبل أن يتم عمله، على أكمل وجه قبل أن يضع نقطة الختام على القصة المخجلة لرجال الثورة الدستورية نتيجة للتعصب الجاهلى الذى كان يعتبر أن المستنيرين هم المعارضون للمذهب (قتلوه لعدة أسباب) منها أولا بدليل أن من ٧٠ إلى ٨٠ فرداً منهم من العامة قد أصيبوا بمعاداة الدين من قراءاتهم للكتب الكسروية من قبل و ثانيا بدليل أنه فى ذلك الوقت أعطوا لكسروى الحرية المطلقة و تركوا لمجلة بيمان الصدور بحرية فإنهم كانوا يريدون تهيئة المجال للإصلاح فى الدين و كانت هذه التغيرات تلاقى معارضة من طبقة علماء الدين . إذن لابد أن نقول هنا إن المجال هيئ لتكون النتيجة بعد شهر يور هى الهدف الذى يريدونه وهكذا لم يكن الهدف هو ضرب الدين أو إحلال شىء محل التنوير ، و مجلة بيمان هى الأخرى لم تستطع مثل باقى المجلات أن تدخل فى صندوق " محرم على خان " و لم تجد الفرصة للانتشار ، و حكاية المذهب الجديد لم تكن واردة بهذه الطريقة وكسروى لم يكن سيئًا إلى هذا الحد حتى يلقى هذا المصير السيئ ، و شباب المملكة أيضا لم يلقوا مصيراً أسوأ من الركود التنويرى و على الأخص أننا نعيش فى زمن يثقل علينا فيه كثيرا فقدان كسروى العالم والمؤرخ والمحقق عالم اللغة ، لأنه كان رجلاً صاحب نظرية ومدققًا شديد التدقيق بعيداً عن الرياء والكذب ولم يكن متعلقا بالدنيا ويكفيه أن كتاباته عن تاريخ الثورة الدستورية هى خلاصة النتاج الأدبى والتاريخى والحقيقى لمرحلة العشرين عاماً.

وعلى أية حال فمجموعة الألعاب هذه التى كانت بمثابة بديل للتنوير فى تلك الفترة لم تترك أى مجال للتنوير بينهم أو مع باقى مدن العالم لتبادل الآراء والأفكار . لأنه لم يكن هناك حزب ولا مجتمع و لا حرية صحافة ولا وسائل تربوية ولاشورى ولا إيمان . ولكن كانت توجد فكرة واحدة . وهى فكرة إيران الحضارة . والشوق إلى كوروش وداريوش وزرادشت . والشوق إلى الماضى قبل إيران الإسلامية . وبهذه الكلمات قطعوا ارتباط الشباب مع الأحداث الأولى للثورة الدستورية وتغيير النظام وأيضا بالعهد

القاجارى وبعد ذلك مع كل العالم الإسلامى . كأن فترة ما بعد الساسانيين حتى ظهور الحكومة الانقلابية كانت يومين ونصف حيث كانوا جميعا فى سبات عميق .

إن هذه الحركات كان هدفها الأصلى هو أن يقولوا إن حملة الأعراب (أى ظهور الإسلام فى إيران) كانت نكبة وكل ما لدينا هو ما كان قبل الإسلام (...) وكانوا يريدون من أجل إيجاد اختلال فى الشعور التاريخى للأمة ، أن يلغى العهد القاجارى بالكامل وأن تلصق ليلة الانقلاب بعهد كورش و أردشير كأنما لم يوجد بينهما ألف وثلاثمائة عام . وعليكم أن تعلموا أن أساس هذا الأمر فقط كان عن طريق هذا وعن طريق إيجاد تخلخل فى المجال الثقافى – الديني للإنسان المعاصر وتهيئة المجال للغزو الغربى ، الذى شاهدناه اليوم فكشف الحجاب ، والقبعات الغربية ، منع المظاهرات الدينية ، وتخريب تكية الدولة، وقتل التعزية ، والتضييق على رجال الدين من كل جانب. كانت هذه الوسائل كلها ترجمة لتلك السياسة [١]

فحقيقة الأمر فإن الاهتمام بالتاريخ وتذكره ، هو أحد الطرق لإيقاظ الإحساس القومى . ولكن بالإضافة إلى هذا فإن الهدف الأساسى من هذه القضايا هو اختلال الشعور التاريخى ونحن نعلم أن التذكر والاهتمام بالتاريخ إذا كان هو الدواء لعلاج آلام الإحساس القومى و الوجدان المريض النائم . فلا مناص من أنه يحتاج إلى مراحل وخطوات كبيرة (إن الطريق طويل) فمن أجل التخريب يكفى أن ننحنى و نرفع حجر الأساس . ولكن من أجل البناء فإنه كان يجب علينا أن نستخدم السلم التاريخى ونضعه بالمقلوب فى عمق الشعور لألفين وخمسمائة عام فإن هذا السلم يجب أن يكون له درجة أولى ، ثم درجة ثانية وهكذا ... فإن لم تكن الدرجة الأولى من درجات السلم فى مكانها إذن فنحن نسقط فى حفرة عميقة بدلا من أن نصل فى قاعها إلى الإحساس التاريخى فإننا نصل إلى رؤية عزرائيل (الموت)[٢] .

وهو الذى وصلنا إليه الآن فى حضور النظام العسكرى القائم ..

(١) كار نامه سه ساله . لنفس القلم

(٢) كار نامه سه ساله . لنفس القلم . صـ٢٠

الفصل السابع

نماذج أخرى للتنوير

قضية الانفصال وخليل ملكى

حتى الآن نسجت العموميات ، اسمحوا لى فى هذا الفصل أن أتحدث بصراحة وأتكلم عن خواطرى الشخصية وتجاربى مع المستنيرين المعاصرين يعنى عن تجربتى مع حزب توده والقوة الثالثة والجبهة الوطنية ، وجميع المستنيرين الذين كانوا يدورون حول هذه النهضات الثلاث اليسارية. وقبلهم جميعا أتكلم عن تجاربى الشخصية مع شخصية خليل ملكى والذى لا أعتبره أستاذى الشخصى فقط فى القضايا الاجتماعية ولكن هو أيضا أستاذ كثير من المستنيرين المعاصرين ، بل هو منفرد بذاته كنموذج تنويرى متواجد فى الأربعين سنة الأخيرة وبالرغم من أنه فى ظاهر الأمر كان دائما غير موفق فإن الفوز والمكسب الأصلى كان حليفه دائمًا.

خليل ملكى و أتباعه الذين حوكموا فى أواخر سنة ١٣٤٤ والذى سمحت لى الظروف أن أذهب إلى جلسات محاكمته الخاصة ! غرفة خمسة فى سبعة فى إحدى زوايا المحكمة القديمة العسكرية ، مليئة بالمناضد والكراسى ومكبرات الصوت والجنود وأربعة أفراد فى رتبة مقدم كانوا هيئة القضاة واثنان نيابة عامة ، واثنان سكرتارية وثلاثة جنود للحراسة . كل واحد منهم يقف فى ركن من الغرفة ويمسك فى يده السلاح ، والمتهمون أربعه أشخاص هم : خليل ملكى - رضا شايان - مير حسين سرشار - على جان شانسى . والمتفرجون؟ لم يزيدوا عن المجموعة الموجودة فى أى يوم من الأيام وبدأت المحاكمة منذ السادس عشر من بهمن سنة ١٣٤٤ وبعد خمس جلسات لم نعرف لماذا توقفت ثم بدأت مرة أخرى فى الخامس من اسفند سنة ١٣٤٤ وفى ٢٤ اسفند

انتهت ، والنتيجة ؟ حوكم على ملكى بثلاث سنوات سجن ، شايان وشانسى بثمانية عشر شهراً وسرشار باثنى عشر شهراً . فى هذا الجو كنت شاهدا لقضية لمدة شهر والتى كانت عبارة عن حوار غير متكافئ الطرفين مابين القوى العسكرية للدولة والقوى التنويرية لها(1). و يبدو فى ظاهر الأمر، أنهم كانوا يحاكمون ثلاثة أشخاص مستنيرين وعامل واحد ، إلا أنهم فى الحقيقة كانوا يحاكمون الاشتراكية والحرية . فالضباط الذين كانوا على رتبة مقدم أى ضباط القضاة كانوا صامتين ومؤدبين وبعيدين عن عقدة الأوامر . لكن قاضى الجيش - وبمساعدة الدعوى التى كتبت بقلم أحد أعضاء حزب توده السابقين - أحيانا كان يصول ويجول وأحيانا كان ملكى يثور ويهيج وأما شايانى كان يهاجم ويدافع بحرص شديد مستخدماً المواد القانونية والتبصرة والشروح والتوضيحات على تلك المواد ، وبأسلوب يليق والمحكمة ، وشانس كان يتكلم عن تعذيبه و أنا كنت أتعلم منهم جميعا . لأنه فى النهاية هذا جمل نائم فى بيوتنا جميعا . ودائما فى النهاية كنت أقول لنفسى لماذا لم يتواجد أى من هؤلاء الطلبة وعلماء الاشتراكية الذين علمهم ملكى فى كل هذه السنوات كى يتعلموا من آخر درس له ؟

صحيح أن الحضور فى جلسات المحاكمة تلك كان أمرا صعبًا وكل يوم يريدون تصريحا ، بحيث إنه لا يذهب إليها أحد لصعوبة الإجراءات كما حدث . وصحيح أن كل إنسان كان يتنفس الخوف مع كل نفس يتنفسه أيضا . لكن إذا كان من المقرر أن نفس الخوف يضيق لدرجة أنه لا يريد الحصول على تصريح دخول بعض الاشتراكيين جلسة المحاكمة . إذن لماذا أجهد ملكى نفسه فى الكلام والنطق فى هذا المجال ؟ ولماذا ثلاثون عاما قضاها مابين هذا السجن و ذاك وهذه المحاكمة و تلك ؟ من سجن قصر و ثلاثة وخمسين نفرا إلى فلك الأفلاك بعد الثامن والعشرين من مرداد ومن هناك إلى سجن قزل قلعة؟... كنت بأسئلتى هذه أنقب عن أسباب خلو هذا المجلس من تواجد أى شخص ؟ هل حقيقة مضى زمن هذه الأقوال ؟ وإذا كان الدخول إلى المحاكمة تجربة و ليس هناك أى خوف من هذا فماذا كان يحدث؟ هل حقيقة جميع المستنيرين ذهبوا وراء خيل وعليق النفط ؟

(1) ارجعوا إلى ملاحق هذا الفصل .كتبت رسالتان بواسطة مدير " خواند نيها " التى لم تطبع قط وأيضا إلى ارجعوا مجلة " خواندنيها " العدد ٦ أرديبهشت ١٣٤٥ - التى أبرزت شيئًا عن الرسالة الأولى .

فى أيام المحاكمة تلك كان بعض الأصدقاء المشتركين يتلقون الأخبار عن طريق التليفون لأنهم كانوا بالتأكيد قلقين . أو يخجلون من ضمائرهم . إلا أنهم ليس لديهم بال طويل - أو ليس لديهم وقت - حتى يذهبوا بأنفسهم ويشاهدوا هذه القضية المرة والحزينة . نتكلم عن الأصول سنين طويلة وفى المحكمة لم يرض لنفسه أن يكون متفرجًا على المسرحية . وهل حقيقة كل شىء أصبح بلا معنى ؟

المشاهد أو الحاضر الوحيد فى اليوم الأول الذى كنت فيه متفرجا دخل سرشار وقال : إذا لم تأت أنت كان من الممكن أن تعلن المحكمة سرية . ألم يكن أفضل ؟ فكثيرا ما لمت نفسى لماذا ذهبت ؟ كنت تريد أن تكون شاهدا وهو الأمر الذى يخافه الجميع (وهل هذا امتياز؟ ولمن ؟ أم هى وسيلة للتفاخر ؟ و بماذا؟) و هذا الخوف له معنيان ، أحدهما الخوف من الاشتراك فى محاكمة أشخاص قالوا مرة أخرى : لا، ونتيجة ذلك ذهبوا للسجن . وهذا كان واضحا منذ بداية التورط فى أحداث السابع والعشرين مرداد سنة ١٣٤٤ . وثانيهما الخوف من يقظة الضمير .

أحد هؤلاء الأصدقاء المشتركين و هو على أصغر خبر زادة قال لى تليفونيا: أليس من الأفضل ألا تعذب نفسك ؟ ما الفائدة من حضورك هذه الجلسات ؟ وماذا بوسعنا أنا و أنت أن نعمله ؟ ليس المهم بماذا أجبته ؟ لكن المهم أن مستنير الدولة ظن أنه إن لم يحضر هذه القضايا فهذه القضايا إذن ليست موجودة . مثل النعامة التى تدفن رأسها فى الرمال، و تقول لا أحد يرانى على الأقل سوف يبقى الضمير مستريحا و فى غفلة عن أن القضايا خارج نطاق الخوف و هدوء المستنيرين هو كما كان. أو كما كان يكون. وما دمت أريد نفس الشهادة فالأمر عبثى . أليس كذلك ؟

و أنا أقر على الفور أنه حتى نهاية المحاكمة فنحن لم نفهم و لا المحققون ولا حتى المحامون المدافعون عن ملكى (منذ ١١-١٢ أسفند سنة ٤٤ حتى إنه فى النهاية أصبح ضمن المشهورين) لماذا و بأية جريمة كان يحاكم هؤلاء ؟ أهو بجريمة الاعتقاد فى الاشتراكية ؟ التى تتكلم عنها الحكومة كثيرا ؟ أو أية جريمة أخرى حيث ألصق عليها كلمة ضخمة تملأ الفم وهى الثورة على الحكومة ؟ لكننا بصفة خاصة كنا نعلم أن هذه

الحاكمة ما هى إلا نوع من الرعب لخنق الجبهة الوطنية فى نطفتها التى كان ملكى والمجتمع الاشتراكى المحركين الأصليين لتشكيلها. وقد انتشر البيان الفعلى لها بمساعدة جميع الأحزاب المرتبطة بالنهضة الشعبية فى شهر تيرماه سنة ١٣٤٤ وهذا البيان انتشر خفية وكان معه رسالة مفتوحة إلى "أوثانت "؟ وكتبت هذه الرسالة عن اغتصاب حقوق الناس وهتك الحريات السياسية و قضايا أخرى[1] ...

وعندما نشرت الأقوال المحرفة عن دفاع ملكى[2] عن نفسه فى الجرائد والمجلات كان الشىء الذى يثير الانتباه هو ردود فعل المستنيرين ! وأحد الشباب الذين كانوا من أتباع ملكى و كان اسمه داريوش شورى كان يقول :

إن الخطأ الأصلى لملكى فى هذا أنه وضع كلمة الاشتراكية فى فم الحكومة و هى إشارة إلى جميع ماكتبة ملكى فى كتبه و تراجمه و بالأخص فى مجلة (علم وزندكى = العلم والحياة) سنة ١٣٣٩ . كما تكلم عن القضية القومية قضية تأميم الماء و الأرض بدلا من تقسيم الأملاك و أشياء أخرى . و كان يقول أعتقد أن ملكى كان عليه أن ينشر الرجعية لا الاشتراكية . ولم يكن يهتم إن كانت هذه الكلمات قد سرقتها الحكومة من أمثال ملكى ؟ لأنه إذا كانت الحكومة تتظاهر بتقسيم أملاك أراضى الإقطاعيين واشتراك العمال فى أرباح المصانع و حرية السيدات فالسبب الأساسى لهذا التظاهر أنها تقطع يد المبدعين الأصليين للاشتراكية من الحكومة و تشكك فى كلماتهم .

أما الآخر - منوچهر تسليمى - الذى هو الآن وكيل وزارة فى إحدى الوزارات يقول :

إنهم يريدون أن يعظموا من شأن ملكى و لهذا أعطوه الميكروفون - أكيد هو مرشح لمنصب ما .

(١) نص هذا الخبر والرسالة يمكن الاطلاع عليهما فى مجلة "سوسيا ليسم " الشهرية طبعة باريس العدد ٥ المرحلة الثانية آبان ١٣٤٤ أو فى العددين ٢٢ ، ٣٠ تير ١٣٤٤ المجلة الشهرية " إيران آزاد " الجبهة القومية فى أوروبا .

(٢) الثلث الأول للنص الكامل لهذه المرافعات نشر فى المجلة " سوسيا ليسم " الجماعة الاشتراكية الإيرانية فى أوروبا العدد ٧ مهرماه ١٣٤٥ من ص ٣٦ : ٥٦ علاوة على النص الكامل لدفاع على جان شناسى نشره أيضا هؤلاء السادة فى شكل أجزاء .

والآخر معلم فى معهد التربية – واسمه حسين آرزم – يقول :

لماذا لم يستأنف حكم المحكمة ؟

وآخر كان فى يوم ما من الانفصاليين – ولا أذكر اسمه يقول :

إن زمان هذه الكلمات انتهى . وملكى يجعل من نفسه شهيدا بدون مبرر. . وكلام كثير و جميعهم كانوا يقولون لماذا تذهب ؟ والمحرك الأصلى لهذه الكلمات من ؟ أهم الذين بنوا حول وجدانهم و ضمائرهم جداراً صلباً حتى لا تنفذ إليهم صرخات الحق ، و لا تؤذيهم . أما أظرف التعليقات كانت لدكتور صيدلى – دكتور رسولى – من منطقة تجريش – قال :

الموضوع أنك فى السياسة يجب أن لا تنهزم لأن السياسة تعنى ترك أثر فى عالم الواقع . فإذا انهزمت معناه أن كلامك أو مذهبك السياسى يكون غير مناسب لهذا الزمن فعندئذ يكون من حق الإنسان العادى أن يضع حمل هذه الهزيمة على أحد . ولانستطيع أن نغلق أفواه الناس .

وأما جوابى أنا ؟ فبالرغم من أننى ليس لدى شىء أقوله للآخرين ، إلا أننى كان لدى رد لهذا الشخص و قلت له :

ماذا تقول فى شأن تروتسكى الذى بعد ثلاثين سنة و أكثر ، يرجعون إلى كلماته وآرائه ؟ و ماذا تقول لكل من قالوا كلاما لا يتناسب و عصرهم إلا أنهم فى المستقبل عادوا إلى كلامهم و أقوالهم ؟ قال :

– هذا مجرد أمل المهم أن هذا مثل " القدرة التى لا تغلى من أجلى فى الحال " ..
أما التعليق الأخير فكان يتعلق بأحد رجال الأمن و اسمه حسين زاده أو عطابور ؟ فى تلك الأيام كان دائما فى أثناء المحاكمة يسألنى لماذا تحضر المحاكمة و ما هدفك وأسئلة كثيرة من هذا القبيل. وكان هو نفسه يقوم بالسؤال عن ملكى وأعوانه فى بداية الأمر و كان يتكلم كثيرا و يمن كثيرا و كان يقول دائما لهم أنا فى خدمتكم و أنا تحت أمركم و ......إلخ . إلا أنه ذات يوم خرج الكلام الحقيقى من فمه و قال إننا سوف

نفضح ملكى ...... إلخ كان هذا هو الهدف الأساسى من تلك المحاكمة . على أية حال فالمفاهيم المختلفة من المحاكمة جعلتنى أفكر كثيرا وكنت أرى أن الأمور تسير بهذا الشكل فى الولاية إما بسطوة الحكومة أو من الخوف من أن تسرى فى أمور البشر ، وتنفذ فيهم ، أو بقدرة الكلام والحب والفداء .

وهذه كانت حروف قديمة و عتيقة . حتى إنه فى يوم ما فى إحدى دفاعات ملكى سمعته يقول :

الناس تعودوا أن يعملوا حسابا للقوى والظالم (ص٥٢ من نص الدفا ع) أى أنهم اعتادوا على الخوف. أى أن ملاك عمل الإنسان العادى هو الخوف ، إما من الحكومة أو من الصراط المستقيم أو من جهنم أو أى سلطة أخرى . وعندما تخاف تفقد الابتكار ، وعندما تعمل فإنك دائما تنتظر آية أو دستور أو أمر . تلك الدائرة المغلقة الملتفة حول تاريخنا و جغرافياتنا، وفى هذا رأيت أن الله هو الله الذى فى عالمنا وفى عالم التوفيق والجميع أيضا فى طاعته . وإذا أراد مفكر أن يخرق العادة ويقطع دابر الحكومة ففى هذه الحالة عليه أن يتسلح بسلاح الدين . لأننا فى النهاية نعيش فى مملكة لا تزال القوى الأرضية تعتبر نفسها قوة سماوية وتعرف نفسها بذلك . وأشير هنا إلى جميع المذاهب القديمة والجديدة بداية من المذاهب الباطنية والنقطية حتى مذاهب سيد باب وكسروى و الذين بسبب عدم استطاعتهم الوصول إلى هدفهم فى الأرض ، طرقوا أبواب السماء . وهم غافلون عن أنهم سيسحقون يوم القيامة . فعندما نعتبر قدرة الأرض وقدرة العمل والحكومة وتسيير أمور البشر من مقدرات السماء ، إذن يكون لهؤلاء الحق فى أن يحاربوها ويتخذوا المعونة من بعضهم والحق أن أساس هذه الأفكار كلها خطأ و خراب . فيجب أن نجد طريقة بحيث إن الرجل العادى يقوم بغلق الباب فى وجه ذكرياته المخيفة ، ومن أجل البحث عن قوته عليه أن ينظر إلى الأرض ويعتمد على نفسه ولا يبحث دائما عن آية أو يستمع إلى أمر أو دستور . وكل هذه الأمور هى كل ما قاله ملكى وكتبه على مدى عشرين عامًا وأكثر . وهى فى ذاتها خطاب للشخص العادى العامى أى الذين يشكلون أكثرية الناس . لكن المستنير كيف

يكون ؟ والذى يجب أن يجعل ملاك عمله العقل الحكمة و الإرادة ؟ وإذا كان الشخص العادى العامى ينظر فقط كيف يحكم فلان وهل لديه برهان أم لا - أى إلى أية سياسة ينتمى ومن أى قدرة تنبع أفكاره - ثم هل يمكن أن نخشى منه أم لا؟ أم أن نكون فى حمايته وهل نستطيع أن نستفيد منه من الناحية المادية أم لا؟ فإذا قلنا إن كل هذه أسئلة وأفكار العامة. فهل يمكن أن لا تكون هذه هى أفكار المستنيرين ؟ وألا تظنون أن القدرة تكون فقط فى يد عالم الفعل والأمر والنهى ! وألا يجب أن تكون هناك دنيا أخرى أى دنيا القوة و الإمكانية والمستقبل والعقائد وتكون أيضا غير ذات قيمة فى نظر المستنيرين ! لأن ملكى بهذا الشكل ، خسر المعركة . ومن هنا لم تكن مقولة رئيس المحكمة العسكرية عبثا عندما قال له :

سيد ملكى ! لسنا فى حاجة لوجودك مرة أخرى !

فى ظل هذه الظروف ، حقيقة هل هناك احتياج لملكى مرة أخرى ؟ فى الوقت الحالى قمنا بتقسيم الأملاك وأعطينا للمرأة حرية الرأى والبلد أصبحت مثل الجنة، وجميع أنواع الحرية تمارس فيها حقوق الأمة من النفط تصل إليها على أكمل وجه والاستعمار مضى عليه زمن وتدثر بسبعة أكفان . إذن ماهى الحاجة لشخص دائما يؤذن أذن الناس أيها السادة ! إنهم يعزفون فى الناى بطريقة معكوسة . بعد المحاكمة بفترة كنت فى ضيافة أحد المستنيرين . فى هذه الضيافة دخل أحد الضيوف والذى كان فى شبابه صاحب أفكار ملتهبة وكان من ضمن أعضاء حزب توده وكانت له قصص وروايات ، إلا أنه فى الوقت الحالى يسعى إلى كسب عيشه حتى أنه نسى "القراءة" قائلا :

- لماذا ملكى ضيع نفسه ؟

فسألته ماذا فعل ملكى ؟ قال :

لماذا لا يتنحى عن حزب توده حتى الآن ؟ ألا يعلم أن مفهوم الانقلاب ومفهوم حزب توده مترادفان بالنسبة للشخص العادى ؟ قلت صحيح ! إذن فأنت مازلت فى

الحب الأول . وبالصدفة فإن حزب توده هذا هو الذى لا يريد أن يتخلى عن ملكى . وفى الحقيقة أن لعن و تكفير حزب توده هو الذى جعل من ملكى شخصية وهو الذى جعل له هذه الظروف العقلية للنشاط السياسى. وبالصدفة فإن قاضى المحكمة العسكرية أيضا قال نفس كلامك وسأله لماذا انفصلت عن الحزب ؟ وبأمر من فعلت هذا ؟ قال هذا لملكى وسأله هذه الأسئلة بشىء من القسوة . فمثلما يحتاج العمل السياسى إلى أوامر من فوق . ومثلك فإنه يحاسب ملكى حتى الآن عن انفصاله .

وعندها قطع كلامى وقال :

اذن لماذا توافق على أن ينشر دفاعه ؟

وأساسا هل هذا هو وقت تصفية الحساب مع حزب توده ؟

قلت له : أولا إن أقوال ملكى قد حرفت وثانيا الحكومة اعتقدت أنه بما أنها تتعامل حاليا مع الروس فى بناء مصنع للحديد والصلب إذن فليس سيئا أن تنشر ما دافع به ملكى عن نفسه فى الاستجوابات وفى نفس الوقت تضرب به حزب تودة حتى لا تعتقد هذه الجماعة الدنيوية أن حكومة إيران ذهبت ووضعت نفسها تحت قيادة هؤلاء السادة ومن هذا القبيل .... وعندها قطع كلامى أيضا وسألنى لماذا لم يستأنف ملكى ؟ وإلخ ..... قلت :- أصلا إذا كنت مكانه فماذا كنت تفعل ؟ وأصلا ملكى ماذا كان يجب عليه أن يفعل لكى يرضيك؟ وإذا حكم عليه بالإعدام كيف ؟ و هنا وقف حائرا . وكنت قد أمسكت بطرف الخيط . قلت له اسمع يا عزيزى ، فبالنسبة لشخص مثلك ليس مهما كيف تتخلص بأى شكل من الأشكال من مسئولية التكليف التى وضعت فى رقاب المستنيرين ؟ والأمر المهم بالنسبة لك هو كيف تتلص بأى شكل من الأشكال من مسئولية التكليف التى وضعت فى رقبتك . وعلى هذا فإن الشخص الذى يتمسك بمبادئه أو يؤدى وظيفته فأنت تكرهه . وإن إدارة القيادة الحزبية التى كانت تأخذ معتقداتك فى شبابك لنفسها قامت بتخزينها فى مكان بعيد. أى أنها لم تخرجها إلى عالم العمل أساسا بل أيضا غيرت من معالمها . إذن بقيت أنت وحدك . و يكفيك أن تتسلى فى ذهنك بذكرى الشهداء . و تريد "توروزبه" أو كيوان أو "منزوى" .

وجميعهم كانوا هكذا وعلى نفس النسق ، وكانوا أمواتا وشهداء . وأنا أصدقك القول أن كل واحد من هؤلاء الثلاثة إذا كان حيا و كان فى مكان ملكى لكان سوف يقول هذه الأقوال (مثل فروتن و قاسمى - آخر المنفصلين من الحزب - يقولون هذه الأقوال) وأنت كنت سوف تكون فى نفس هذا الوضع أيضا . لأنك نفسك تعبد الشهداء . لأنه لا يمكن سماع أى شىء من الأموات .وعلى أى حال من الأحوال، فإن الأموات صامتون ولا يستطيعون أن يكلفوك بأى شىء جديد أن تكتبه . وهكذا ، فأنت تشغل بالك بأننى لم أستطع أن أتحرك و هذا بسبب أننى ليس لدى همتهم وأن المسئوليات العائلية لا تدع لك هذا المجال ...... وإلخ . ومادام الأمر كذلك إذن فليس لى إلا الذكريات وانتظار الفرج الموعود يأتى من عندهم . وأنا أقول إنك وأى شخص آخر مثلك ، يحولون ملكى إلى شهيد ، لأنه لم يكن شيئا آخر حتى يتساءل كل يوم لماذا أو لأجل أى شىء و تساؤلاته هذه كانت تحرك وجدانكم . إذا كان ملكى انفصل من حزب توده لوضعه الستالينى وأصبح مثل تيتو لديه قدرة فى أن يمسك زمام الحكم بيده فإنك تقبله عن طيب خاطر . نعم عزيزى . إن عيب ملكى بالنسبة لك أنه لماذا لم يستشهد ، أو لماذا لم يصل إلى الحكومة ، فى حين أنه فى نظرى أنا أنه حاليا فى أوج عظمته . وحسناته . وأنه لم يفقد مبادئه ولا عقله ولا قلبه من أجل التردد مابين الممكن والفعل . وفى نفس الوقت لم يصعب على نفسه الزمان والمكان من أجل تواجده فى الساحة بحيث يكون بعيدا عن عالمنا أو عن عالم الأحياء . ولكن طالما أن أفكاره التنويرية موجودة فسوف تكون دائما هى الشهادة وهى التى تقال وتكتب. فأحيانا تكون خطأ وفى أكثر الأحيان تكون صحيحة . ولم يقع مطلقا فى بئر البطالة ولم يسلم نفسه لليأس ويقول إنه إذا كان فى انتظار معجزة فإنه ينتظرها من واحد منا وليس من الذين ذهبوا ولن يعودوا فى يوم من الأيام وكثير من هذه الأقوال .

وفى النهاية ما الفرق بين الرجل العادى وبين مثل هذا الشكل من المستنيرين ؟ فكلاهما إما يخشى من القوة و أصحابها أو من الشهداء ؟ وهل يقرون بحرمة كليهما واحترامهما؟ إذن ما الفرق بين الإنسان العادى ومثل هذا الإنسان المستنير اللذين كليهما فى انتظار الظهور ، ويساقون إلى الموت عن طريق القوة والقدرة وهم لا يفهمون

شيئا ؟ فيقول ذلك الإنسان العادى وهو ينتظر الفرج الموعود وأنه لا أمل فى أى عمل أو كلام سوى الدعاء. ويقول ذلك الإنسان المستنير وهو فى انتظار هذا الفرج أنه لا يوجد أحد فى الميدان وكل عمل بلا كرامة . والطريف هنا أن حكوماتنا تكذب فى انتظار الفرج الموعود الأول . ولكنها تتفاخر بالفرج الموعود الثانى . وكل ثلاثة أو أربعة أشهر يجيرون على الحزب و يأخذون بعض المستنيرين إلى السجون و يقيدونهم بحجة انضمامهم إلى هذا الحزب ، حتى إنهم من ناحية العالم الجديد يجعلهم يعتقدون أن مساعداتهم لم تذهب سدى ومن ناحية أخرى يضعون أخطاءهم السياسية على أكتاف المقصرين ، وفى النهاية يعطون للمفكر أملا بأن أمله مازال حيا وأنه إمام زمانه ، ويجب أن يظهر . وعليه أن يفرح قلبه بأنه إن لم يكن رجل عمل ، لكن حزبه مازال حيا يعمل . فى ظل هذه الظروف وهذه الحكومات فإن ملكى ليس له مكان . وإن كان ملكى لم يوفق فى أن يكون رجلاً سياسيا محنكًا . فالدليل على هذا هو أنه وضع فى هذا المجال مجبرًا دون أن يحتويه هذا المجال على أعتبار أنه لا قول فى مقابل تلك المنظومة من الفكر والعمل التى وضعها ملكى .

لأن ملكى قبل أن ينفصل تيتو عن الأفكار الستالينية وقبل سنوات من مؤتمر الحزب الشيوعى قد عارض قول خورشوف وقبل أن تحدث مشاكل بين الصين وروسيا قبل كل هذا تحدث ملكى عن هذه الأحداث ومن هنا كان الذنب الأصلى لملكى فى نظر الحكومة وفى نظر المستنير المعاصر المسلوب الحيثية أنه محطم الأصنام قاطع الأمل من العالم العلوى . وعلى وجه الأخص فى حوزة المسائل السياسية و الاجتماعية . وهذا العالم العلوى سواء من سماء نيويورك أو موسكو أو بكين قطعا ، حتى يكون له صنم كنموذج على الأرض . قومى أو غير قومى محلى أو عالمى . يقول ملكى إن الزمان ليس زمن الأصنام والآيات والانتظار فى ظهور نبى كاذب . فالزمن هو زمن التنوير . هو زمن قبول المسئوليات زمن الحرية والاختيار. وبهذا الشكل أصبح ملكى صاحب نظرية فى الأمور الاجتماعية والسياسية ولم يكن موفقا فى هذا فقط ، بل كان صاحب مدرسة واليوم إذا كان أى شىء يقال عن ألف باء السياسة والاجتماع فى مجالس المستنيرين من ناحية تعريف الاشتراكية والشيوعية والاستعمار والاستعمار الجديد

والعالم الثالث ، كل هذا طرحه ملكى فى كتاباته . ليس غرضى أن أقلل من قيمة أعمال الآخرين فى هذا المجال . ولكن غرضى أن أراعى فضل الأسبقية و أراعى الاستمرار فى العمل والقدرة على إنجازه .

يوما ما كان يوجد حزب توده و كان له كلام وأقوال وثورات وكان ضد الاستعمار و كان يدافع عن حقوق العمال والفلاحين وكان يثير المشكلات والآراء وكنا نحن شبابا وأعضاء فى هذا الحزب ولم نكن نعلم بيد من كانت الأمور وكنا نطحن شبابنا ونتعلم التجارب . لكن جاء اليوم الذى أصبحت فيه عضوا للأمن و فى إحدى المظاهرات الحزبية التى أقمناها لأجل رسالة "كافتارادزه" لأخذ حقوق نفط الشمال (وكانت فى سنة ٢٣ أو ٢٤؟) خرجنا من باب الحزب فى (شارع الفردوسى) وذهبنا حتى تقاطع مخبر الدولة و كنت أضع شارة الأمن التى كنت أتفاخر بها على الناس ، لكن فى أول طريق شاه آباد وقعت عينى على ناقلات جنود الروس الذين كانوا يقومون بحماية المظاهرة على جانبى الطريق و هنا خجلت من نفسى و جرنى هذا الخجل إلى أن أذهب إلى زقاق سيد هاشم و أرمى الشارة عن يدى ، وبعد ذلك جاءت قضية سراب وبعد ذلك مذبحة زيربل جالوس ثم قضية أذربيجان ثم دفاع الحزب عن إقامة قوى الروس وبعد ذلك دخول الحزب فى حكومة قوام .

قضايا أخرى ، أدت إلى الانفصال . لكن حزب توده كان يؤدى عمله أى تكررت الأخطاء فى القضية القومية قضية النفط ، فى عدم الاهتمام بمسألة القرى وقضية الأرض حتى اليوم الذى تقرر فيه أن تكون هذه الدولة تحت نفوذ الغرب بالكامل . إذن بالإجبار قصرت يد الحزب من التدخل فى أمور الدولة . وبالأخص مع النفوذ الذى كان موجودا لهذا الحزب فى الجيش والمثير للأخطار . وبعد هذا قاموا بإلقاء القبض وسجن بعض الأشخاص والإعدام الجماعى وكره الرجل العادى تجاه هذا الحزب أو المستنير الذى رأيناه مع العلم أنه فى الوقت الحالى زعامة هذا الحزب فى المنفى ، إلا أنه مازالت هناك مجموعات ولهم مراكز - ضعيفة فى داخل المملكة و أكثرها فى خارج المملكة - ونسوا هذه الأخطاء أو أصلا لم يتذوقوا هذه التجارب المرة وكان لهم أمل

فقط فى الأخذ بثأر دم شهداء ذلك الحزب وخاصة أنه لا توجد أحزاب أخرى لم يكن مسموحًا لأى حزب غير حكومى العمل والنشاط . وهؤلاء السادة مع إصدار جريدتهم وندواتهم ومؤتمراتهم والألعاب الخفية والهمس الخفى ، وكأنه لم يكن فى يوم من الأيام أى اتفاق فى الحكومة بعد أحداث شهر مرداد ٣٢ بهذا الشأن وحتى هذا الوقت وهم جالسون فى انتظار الفرج الموعود . وهذا هو الواقع أمامنا . ومن ناحية أخرى يوجد واقع آخر وهو بسبب أن الصين قد ظهرت كقوة رفعت رأسها ، وبسبب أن أزمة الشرق والغرب - أى روسيا وأمريكا - خفت حدتها والقوى العظمى الكلاسيكية أجبرت إلى العيش بصورة سلمية مع هذه القوة التى ظهرت أخيرا ونمت وكتأثير لهذا الواقع السياسى العالمى فى إيران أن روسيا لم تدخل من الباب الخلفى إليها حتى تواصل الإغارة وهذا الدخول لم يكن بقصد التخريب أو بسط النفوذ فى الجيش. ففى الوقت الحالى وبصورة مباشرة فإن روسيا لها مع الحكومة كلام مفرح ولقاءات مبهجة وبيع وشراء أسلحة ومساعدات اقتصادية وفى الوقت الحالى جيشنا فى شيراز يتعلم كيفية استعمال السلاح الروسى من الروس أنفسهم ، وفى نفس الوقت تعلم كيفية استخدام الأسلحة الأمريكية من الأمريكان . والغاز والحديد وكل هذا أصبح شيئًا مفرحًا ومبهجًا و هذا هو الواقع الثانى . لكن يوجد واقع آخر وهو أن المملكة لا تزال على أصالتها . وهى أن الحكومة موجودة وتدافع عن مصالح الذين يتقبلون النفوذ الاستعمارى ولهذا السبب فإن النفط يذهب إليهم وتتظاهر بالدفاع عن منافع الأكثرية و لهذا السبب فهى مضطرة إلى الحبس والنفى وبالرغم من أنه لم يكن مثلما حدث بعد ٢٨ مرداد ، فقد فرضت الرقابة بشكل أكثر جدية . ونفس الطعام ونفس الطبق ونفس الاستعمار ولكن فى صورة جديدة . إذن فى مثل هذه الأوضاع ماذا يجب أن نفعل ؟ ألا يكفى أن تنتظر ذلك الحزب المقيد ؟

والذى لا أعلم متى سوف يصبح قانونيا (و أتمنى أن يكون كذلك) لأجل حرمة الذين قتلوا فى هذا الطريق و ماهى الحالة القانونية التى سوف يحصل عليها ؟ واضح أن الطريق فى هذا الموضوع يتغير يومًا بعد آخر وكل واحد من المستنيرين له وظيفة وملكى كان أحدهم كان دائما يكتب ويقول وعلى قدر المستطاع ترك أثرا وبالرغم من

أنه لم يشتهر فإن أقواله أصبحت على لسان الجميع. وأحد هذه الأقوال كان فى عدم احترام هذا الحزب أو فى توضيح أسباب فشله إلى أن وصلت القضية إلى الثأر والحقد . لأن الطرفين يرون أن فشلهما لأسباب أخرى . لأنه ليس هناك شك أنه مابين أعوام ١٣٢٠ حتى ١٣٣٢ كانت هناك فرص كثيرة لقطع أيدى الاستعمار إلا أن جميع هذه الفرص ضاعت وملكى وضع هذه الفرص الضائعة فى حساب سوء التصرف وعدم التجربة للحزب وفى نفس الوقت حزب توده يضع نتيجة عدم التجارب هذه على عاتق انفصال ملكى من الحزب . وكما ترون فالقضية ترجع إلى الانفصال . وبما أنه لم يبق من كل هذا الانفصال سوى ملكى فبناء عليه تكلم ملكى وقال كلامه الذى كان يريد أن يقوله : واضطر إلى إلصاق الفخر بنفسه، وهكذا فقد نسب كل الطرد واللعن والدعاء خلفه وشائعات ذلك الحزب إلى جميع أجهزته الإعلامية .

وفى وقت الانفصال عن حزب توده فى شهر آذار سنه ١٣٢٦ قمنا بعمل جماعى[1] وملكى كان رئيسنا. وقد قال مرارا و تكرارا: أنا فقط كنت لسان حال تلك الجماعة وأكبر الأعضاء سنا . وليس فقط أنا الذى قمت بهذا الانفصال أو بدأت مسيرته . وأنا سوف أتكلم قليلا عن هذه القضية لعل وعسى لا توجد أحقاد بينهم . لكن على أية حال فعندما تركناه بمفرده جميعا – وكل واحد بشكل ما – إذن هو قد تحمل وحده عواقب هذا الانفصال بحلوها و مرها. و لهذا أصبحت كلمة الانفصال ملازمة لاسم ملكى . وعلى الأخص أننا فى سنة ٣١ انقطعنا عن دكتور بقائى بانفصال جديد ، وأسسنا حزباً باسم القوى الثالثة بزعامة ملكى . و آخر مظاهرة غير انفرادية

(١) نشر الخبر الأول " انفصال " فى ١٦ آذر ١٣٢٦ بتوقيع ١٢ فرد هم : " خليل ملكى – أنور خامه أى – مهندس إسماعيل زنجانى – مهندس زاوش – دكتور رحيم عابدى – فريدون توللى – محمد على جواهرى – مهندس ناصحى – محمد سالك – محمد أمين رياحى – حسين ملك – جلال آل أحمد » وفى الخبر الثانى التحق عدد آخر بالانفصاليين هم : " مهندس محمود نوائى – أحمد آرام – عباس ديوشلى – حسن كوشة – إسماعيل زاهد – مجتبى ميرحسينى – مهندس منصور بلالى – عبد الرسول برويزى – مهندس أبو القاسم قندهاريان – محمد قلى محمدى – جليل مقدم – مهندس مسعود درويش – ميرحسين سرشار – على شاهنده – محمد مهدى عظيمى – مهندس مهرابى – مهندس جمشيد دارائى – ملكة محمدى – أحمد ساعتجى – مهندس يوسف ريب – على أصغر خبر زاده"

للانفصال ، أجريت في ديماه سنه ١٣٣٦ في طهـران و نشـرت فـي مقـالة تحت اسم " بعد عشر سنوات انفصاليو حزب توده يتكلمون " (و كانت هذه المقالة في ٤١ صفحة وكان ثمنها ١٠ ريالات) و كانت موقعة بإمضاء خليل ملكي و أنور خامه . وكانت تحتوى على عقائد بعض السادة الآخرين من الانفصاليين إلا أن الإمضاء كانت فقط لهذين الاثنين . مع أنه ابتداء من الاشتراك في النهضة القومية حتى فشلها (أي منذ سنة ١٣٢٩ حتى سنة ١٣٣٢) و بعد ذلك اشترك بعض الانفصاليين في إدارة مجلة علم وزندكي (من ١٣٢٩ حتى ١٣٣٩ مع توقف صدورها عدة مرات) و اشتركوا أيضا في تأسيس الحزب الاشتراكي للنهضة القومية في إيران (من سنة ١٣٣٦ حتى سنة ١٣٣٩) وبأشكال مختلفة . و لكن في كل مرة كان ملكي هو الشخص الأول وكان قدمه ثابتا ومستقرا و نحن كنا نأتي و نذهب . و حتى أنا نفسي كنت أذهب و أجيء بشكل موسمي كنوع من المرض المزمن . و كنت أحضر كل سنة مرة أو مرتين كنت أجدد اللقاء . وفي أغلب الأحوال كنت أشعر أنني في الصف الذي يحمي ملكي ويحتاج إلى وجودي معه . و مرة أخرى في تأسيس الحزب الجديد (زحمتكشان = الكادحين) بالاشتراك مع دكتور بقائي (أواسط سنة ١٣٢٩) وبعد ذلك فيما حدث عن انفصال بقائي (أواخر سنه ١٣٣١) وتشكيل حزب القوى الثالثة وبعد بقائي عن السياسة بسبب المؤامرة التي دبرها دكتور خنجي لوثوقي فقد فضل الآخرون السكوت (أوائل ١٣٣٢). و بعد ذلك في تجديد المجتمع الاشتراكي ومجلة علم وزندكي من سنة ١٣٣٦ : سنة ١٣٣٩ حيث توقف إصدار المجلة نهائيا في هذا العام، و بعد ذلك جاءت قضية ملكي وأعوانه ومحاكمتهم . وكان ذهاب ومجيء باقي الانفصاليين مع ملكي أحيانًا أقل مني أنا الذي كنت أذهب و أجيء بشكل موسمي . وألم يكن هذا دليلاً على أن الانفصال لم يوفق؟ وأحد الأسباب الأخرى إننا لم تكن لدينا جريدة حزبية، أو قد يكون بسبب آخر وهو أننا لم نستطع أن نتكلم بصراحة . بمعنى كنا قد أحسسنا أننا نشعر بالألم والعلة، إلا أننا مازلنا لم نستطع أن نسمي أنفسنا . أو قد يكون بسبب أن جميع وسائل الإعلام الروسية وحتى راديو موسكو ساندوا حزب توده . ولكن على أية حال فإننا انفصلنا عن حزب توده تحت عنوان الحزب الاشتراكي. و بناء على هذه الأسباب

التى سردتها لم نستمر أكثر من شهرين ربما لأن نظام الأحزاب لم يكن معروفًا بعد ؟ و ربما بسبب أن القوى الخارجية لم تكن تساندنا أو لم نكن نجلب أنظار الرجل العامى أو المستنير الذى قدمت مواصفاته ؟ على العموم منذ ذلك الوقت حتى الآن عشرون عاما مضت وملكى فى أية خطوة يخطوها لابد وأن تكون أحد أطرافها متجهًا إلى الاستعمار والحملة عليه و الطرف الآخر متجهًا إلى حزب توده . وأنه يجب أن يحارب فى الجبهتين . وكل هذا أدى إلى كل هذه الإشاعات التى قيلت عنه .

وقد كان أكبر عدو ملكى فى كل هذه الفترة هو الجناح الحاكم الرجعى (وأخرهم كان رشيديان الذى حتى فى أثناء محاكمة ملكى لم يقم بضبط نفسه) و الآخرين من حزب توده. و الذين كانوا يبررون تواجدهم. على كل ليس هناك شك من أن ذلك الحزب كان يظن أنه إذا كان ملكى لم يأخذ معه القدرات الشبابية و الفعالة ، فسوف يكون هذا فى صالحهم يوما ما . علاوة على هذا فإن لم يكن هؤلاء الانفصاليون - وبهذا الشكل الغريب و مع وجود ملكى على رأسهم - فربما أصبح قواد الجبهة الوطنية وبسهولة لعبة لتشكيلاتهم . و هذه الاحتمالات قد تكون صحيحة أو غير صحيحة ، وبالنسبة لى فإن الحقيقة الأخرى المسلم بها هى أن الانفصال هو الطريق الوحيد للحفاظ على عدد من مستنيرى الدولة - وأقلهم شأنا أنا كاتب هذه السطور - حتى لا نشترك فى هذا المصير الأعمى الذى صنعه قواد هذا الحزب ، ونبقى فى أمان . وألا يكفينا هذا الواقع وهو أن حزب توده - بعد أن قطعوا يده و لسانه وأصبح دون أى تأثير فى الناس- لم يكن يتحمل هذا العرض المختصر و البسيط لوجود أى انفصال؟ ويصبح مثل المرأة السوقية التى جاءوا لها بضرة . إذ إن عداوات و شائعات هذا الحزب مازالت تطارد كل واحد منا. والأمر الآخر أن هناك أشخاصا بشأن هذه القضية تولد لديهم إحساس جنونى بالجرى وراء معرفة الأحداث و نفضوا أيديهم عن كل شىء أو تنحوا جانبا أو هربوا من الميدان و الله يعلم فى أى ركن من أركان العالم نفوا أو ذهبوا أو ماتوا . والبعض الآخر لم يعط للموضوع أهمية أو أى استعداد لاحتمال حدوث شىء بل و إنهم قاموا بتقوية الأشخاص الذين كانوا يضربونهم . و أنا أعتقد أنه بقدر ما كان الانفصال شيئا فى محلـــه فـــإن الانصراف من الحزب بعد شهرين كان شيئا خطأ

وفى غير محله[1]. و أنا واحد من الذين هربوا من ذلك المجلس الذى تقرر فيه الانصراف وذهبت للبكاء فى خلوة ، و لكن سمعت أن أحمد آرام هو فقط كان معارضا للانصراف فى هذا المجلس. و غلطتنا فى هذا الأمر أننا قبل أن يكون لنا استعدادات كاملة للعمل قمنا بالانفصال . و قلت إننا لم نكن قد سعينا أن تكون لنا هناك صحيفة فى الوقت الذى كانت فيه مطبوعات هذا الحزب – راديو موسكو والمؤسسات التابعة له – منذ الوهلة الأولى قاموا بترويج إشاعات و تشويه صورتنا . و أما الخطأ الآخر هو أننا كنا نتكلم و نحن مترددين . ربما بسبب أننا مازال لدينا أنصاف كلام من الواقع الستالينى الذى كان لا يزال على أطراف ألسنتنا – فلم يكن لدينا الجرأة بصراحة لمجابهة الستالينية – ربما أن جبروت القضايا كان أكبر من هذا . و كان حدوث الانفصال فى الحزب الشيوعى الهندى ثم قضية تيتو بعد قصتنا و حصولنا على الكتب التى كانت تتكلم عن الاستالينية. والذين قاموا بها . على العموم فإن هذا الأمر كان بالنسبة لى تجربة شخصية لكى أترك على الفور طريقة الكلام المتقطعة و المترددة و أن أتحدث بصراحة. لأنك عندما تتحدث كلاما غير مفهوم فلو أنك قلته بطريقة صريحة سوف يفهم سريعا . وكنت ستجد فى هذا المكان البعيد سهمًا يطلق فى الظلام أو حتى تنجوا بنفسك فى النهاية سيظهر شخص ما يصفعك على فمك و يخبرك بالحقيقة .

ومعرفتى بملكى من خلال قضية الانفصال هذه أصبحت جدية . فقبل هذا أحيانا كنت أجلس للبحث والنقاش أو كنت قد قرأت شيئا له (وكانت له فى تلك الأيام ترجمة لپلخانف بعنوان نقش شخصيت در تاريخ) و لكن بعد قضية أذربيجان والمشردين

(١) خبر الانصراف عن تأسيس الحزب الاشتراكى لإيران الذى ضم الانفصاليين كان فى تاريخ ٢ بهمن ١٣٢٦ جاء بعنوان غير معتاد " قيام شرق " ومع عنوان " إعلامية در باره انتشارات بى بايه جند روز أخير " وبتوقيع هؤلاء الأشخاص : " خليل ملكى – جامة أى – زنجانى – زاوش – عابدى – ناصحى – جواهرى – ملك محمدى – آل أحمد – سالك – نوائى – آرام – كوشة – ديوشلى– زاهدى – ميرحسينى – برويزى – قندرهايان – قلى محمدى – مقدم – سرشار – شاهنده – عظيمى – سهرابى – دارابى – ملكه محمدى – ساعتجى – خبرَ زاده – داراب زند – إسماعيل – بيكى توللى .

وفشلهم الذى ألقى على أكتاف حزب توده و هروب قيادتهم الأولى وتجديد الانتخابات فى الحزب – وصل طبرى و كيانورى و فروتن إلى موقع القيادة وكونا نحن شباب طلاب الإصلاح هيئة الولاية، وتناقش مهندس ناصحى و حسين ملك و أنا من ناحية مع ملكى حديثًا جديا و من ناحية أخرى مع دكتور ابريم – هادفين الإصلاح الحزبى وتطهيره و الاستقلال السياسى . و كان دكتور ابريم قبل هذه الأيام قد نادى ببعض المطالب وأنا قمت بكتابتها وطباعتها ونشرها باسم حزب توده، وكانت هذه المقالة تحتوى على صفات الإنسان المتخلف و بعض الاقتراحات لتشكيل جماعة من قادة مقدمة الجيش لإدارة الحزب وكان التساؤل أيضا ماذا نفعل و لمن و أشياء من هذا القبيل ...... و فى مرة من المرات فى إحدى الندوات كنت قد تقدمت ببعض المطالب لرجال الحزب المحليين فى مدينة رشت فى شأن إصلاحات الحزب و تسرب الخبر إلى طهران فى تلك الأيام علاوة على أننى كنت مكلفًا بأداء بعض الأعمال. كنت رئيسا لدار النشر شعلة و كان دكتور بهرامى قد طلب منى أن أبيع المطبعة الحزبية فى رشت التى فشلنا فى إدارتها أنا وأحمد ساعتجي و لهذا السبب قمنا ببيعها. و قبل يوم واحد من ذلك هجم رجال المدينة على الحزب باسم الحزب الديمقراطى الذى أسسه قوام السلطنة وقاموا بتخريب و سرقة ما يمكن سرقته ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت تلك القضيتين حجة فى أيدى القادة ليجرجرونى إلى محاكمة حزبية . و كان قضاة المحكمة هم كيانورى ورادمنش و فروتن . و الثلاثة كانوا دكاترة و أساتذة جامعة و من شباب الإصلاح . وكنا نحن نفتخر بهم و كنا فرحين لأنهم أخذوا مكان بقراطى و روستا. وأنا أصلا لم أصدق . و المهم أن خلاصة محتوى المحاكمة فيما معناه أنهم قالوا لنا لا داعى لفعل مثل هذه الأشياء لأنها غير مناسبة لكم . و هكذا كانت الأسباب التى كانت بمثابة مقدمات للانفصال . و كان ناصحى مسئولاً عن التشكيل فى طهران وملكى مسئولا عن إعداد برامجه و أنا مسئول عن نشرها (فى أواسط سنة ١٣٢٦) وبالطبع كانت بعد أخذ رأى ملكى و ابريم . لدرجة أننا قلنا إننا نهتم بأنفسنا أكثر لدرجة أننا شكلنا حزبا آخر داخل الحزب و أقمنا ميادين داخل ميادين و انتخابات للناس وتوحيد للآراء والسبل . حتى إنه فى ليلة ما استدعى ناصحى الجماعة فى منزله على الفور فى وقت متأخر و قال :

علمت أنه إذا تحركنا بعيدا فإننا سوف نطرد جميعا بعد يوم أو يومين لأن مسألة تشكيلاتنا داخل تشكيلات الحزب أصبحت عالمية . وقد قدمت قائمة بأسمائنا جميعا لدكتور كشاورز وماذا يدور بخيالنا . ولهذا جلسنا للمناقشة على أن نجد سبيلا لحلها وفى نفس الوقت كتبت بيان الانفصال . بقلم ملكى وخامه وبإشراف الآخرين . وبدون حضور ابريم لأنه كان الأقلية الآشورية وكان شخصا لاجئا ويضع مصيره إلى پيرم خان وكان أمله الوحيد فى تحركنا نحن الشباب فى داخل الحزب . وفى منتصف الليل أعدت نشرة الانفصال وكنت مأموراً بطبعها حتى الرابعة صباحا فى دار النشر تابان (وكان مدير المطبعة أحمد ساعتچى) وطبعناها وفى الخامسة صباحا سلمناها لفراش قسم المطبوعات وانتهى الأمر هكذا . لا يحضرنى ماذا حدث فى هذا الاجتماع وكم استغرق من وقت ولكننى كنت أشعر أننا كنا فى عجلة من أمرنا وهذه الإشاعة قيدتنا ووضعتنا فى زمن محدود ولكن الشيء الوحيد الذى كان مفرحا لى هو أن عقلاء القوم كانوا جميعا متواجدين ويفهمون أكثر منك أنت الذى كنت شابا و ليس لك علم بخفايا الأمور و لم تعرف القيادات الخفية الأمر الذى اشتركنا فيه جميعا مؤخرا. لأننا لم نكن نتصور قط أن روسيا الشيوعية بكل عظمتها تقف وراء الأشخاص الذين ضيعوا الحزب فى رأينا نحن ولم يحافظوا على كرامته. قبل هذا قمت بذكر أخطاء الانفصال من الحزب. لكن الخطأ الأصلى فى هذا أننا نحن كنا المذنبين الأصليين وكنا نعرف قواد الحزب ولم نكن نعرف سياسة ستالين . وبالطبع لم يكن لدينا استعدادت لمواجهة هذه الجماعة . ولهذا فوجئنا بالحملة الشنعاء التى حلت علينا من جميع الأطراف وتحررنا منها فقد تحطمت رقبة هذا الصنم إلى الأبد ولكن مابقى لنا و لغيرنا أريد أن أعود إلى ما قاله الدكتور الصيدلى ، وهو :

إن السياسة حين تخفق تسقط فمعناه أن كلامك غير مناسب لهذا الزمان . وعلينا أن نعلم أن كل ما يقال عن السلطة ليس على حق- مثل أمريكا - أو أى نظام موجود ليس صحيحا - مثل حرب فيتنام أو الغارات الاستعمارية - وأن الحديث فى هذه الموضوعات له زمان وأوضاع معينة تخلق فى حينها و يصبح حدود أثر الفرد على المجتمع فى حدود الحدس والتخمين والتنبؤ وكذا نفوذ الشعارات والمطالبات والأحكام يكون بقدر معين . أى أن العالم الحقيقى ممكن بشرط أن تجعله رمزا لكلامك حيث

تكون قد قدرت عواقب كل ما يمكن أن يحدث من قدرة نفوذ كلامك. أو عن فاعليته أو نتائجه . وعلى كل فعندما تستطيع أن تكون مؤثرًا فى السياسة أو فى الأمور الداخلية للمجتمع ، فعليك أن تحسب مقدار تقبل أو رفض المجتمع لهذه الأمور نتيجة كلامك ولكى تصل إلى النتائج التى تريدها فعليك أن تتعرف على المجتمع نفسه وعلى تقاليده وتاريخه والعوامل التى شكلت اعتقادات العامة و تحركات الناس فى الشارع و أيضا سكوتهم و جلوسهم فى المنازل . وفى هذا المجال إذا هزم حزب توده وهزمت الجبهة الوطنية أيضا ، أى إذا وجدنا كلامهم فى الوقت الحاضر على لسان الحكومات ، فهذا دليل أصلى على أن جميع هؤلاء السادة دخلوا ميدان السياسة بأفكار مستوردة . وتكلموا عن الشيوعية و الاشتراكية (وما زال الأمر فى الخفاء و لم يصرح به) ولم يسعوا لتطبيق هذه الأفكار على مجتمعهم - على أساس أن تتطابق مع المعتقدات التراثية والقومية والخلاصة أن الأوضاع السياسية للدين ليس لها أى اعتبار - (والجبهة الوطنية التى كان لها نفوذ سريع فى الناس لمدة قصيرة ، كان هذا بسبب مساندة رجال الدين لها) وفى غياب طبقه كبيرة من العمال يكون الدفاع عن مصالح طبقة العمال نوعًا من التمثيل - ومع وجود الغالبية العظمى من الدهاقنة - لا توجد عناية أصلاً بالزراعة والاهتمام بالأرض - وقضايا أخرى خارجه عن مجال حديثنا وخليل ملكى مع اهتمامه بهذه النقاط أشار إلى كثير منها فى تصادم الآراء والمعتقدات وكذا فى مجلة "العلم والحياة" . وإذا اعتبرنا شخص خليل ملكى نقطة انعطاف عن الميول اليسارية الشديدة غير القابلة لتحمل لحزب توده ، وأوصل الجماعة إلى الحد الوسط "الجبهة الوطنية" وادعى الحرب ضد الاستعمار وهنا أوصل حزب توده مع الجبهة الوطنية لهدف واحد وهو التصدى للاستعمار . لكن لا نستطيع أن ننسى أنه كان رجل عمل ، وعلى الأخص فى مثل هذا المحيط المحكوم عليه كلية بالهزيمة. فالاهتمام بالشعارات المستوردة الغربية و الفرحة بها وجعلها رمزا للإصلاح الاجتماعى فى إيران طبقا للكلام المبجل لحكماء الغرب فماذا يمكن أن يحدث سوى الذى حدث ؟ فجميع الشعارات المستوردة لها نفس المصير . سواء فى إيران أو فى تركيا أو فى اليابان فمنذ بداية عصر الدستور حتى الآن تظهر فجأة مجموعة من المستنيرين مع المتفرنجين، بحيث إنها تنفذ من مكان آمن ولأنها غير مهيأة لمواجهة المشكلات الحقيقية

للمجتمعات فإن مصيرها إما أن يكون الفشل أو خيبة الأمل أو قد يفقدون رءوسهم أو قلوبهم أو يتركون هذا العمل من أساسه أو يأخذون آمالهم معهم إلى القبور. ولما كان القانون الأساسى للدولة ترجمة عن القوانين الفرنسية فقد أدى هذا إلى التضحية بالمصالح القومية من أجل الجامعة الدولية، وأصبح الجميع فى قالب واحد . وكان إحساس التخلف عن الغرب المسيطر على هؤلاء السادة هو المحرك الأساسى لكل شىء وإن لم نقل بأنها ماهى إلا رد فعل منطقى لكل هذا الانتظار للأوامر والدساتير التى كانت تتعب المستنير ، فجميع هؤلاء السادة اتجهوا إلى التقليد عن الغرب وتفرنجوا وهذه هى النتيجة : أن جميع آثار ميرزا آغاخان الكرمانى تقريبا بعد ما يقرب من مائة عام لا تزال غير منشورة . أما طالبوف وآخوندزاده فلم يكونا معروفين بدرجة كافية لدرجة أن الرجل العادى حتى الآن لا يعرفهما . وكسروى كان متعصبا فى مسألة الدين لدرجة أنه قتل فى المحكمة . وحزب توده والحرفيون كانوا يلعبون لعبة التضحية بحيث إن روسيا نفسها لم تتحمل مسألة حمايتهم . وكذا الجبهة الوطنية ظلت بعيدة عن عالم الواقع وعلى حد قول ملكى خدا ع الناس وأصبح هذا القول فى أفواه الناس حتى إنه تحول الى أمل . خمينى تحت اسم آية الله كان متطرفا شديدا بحيث إن بقاءه فى المملكة أصبح أمرا صعبا جدا فطردوه من البلد وهكذا كان مصير جميع الفرق والأحزاب السابقة إما الإعدام أو القتل . وما النتيجة ؟ إننا نحن بقينا ، ومصر والجزائر و كوبا نجحوا فى هذا . ربما لأنهم رأوا فشلنا أمام أعينهم ؟ وأنا تحدثت فى هذه الموضوعات بتفصيل فى الفصل الخاص بخدمة و خيانة المستنيرين .

أما فى قضية حزب توده فإن الخطأ الأساسى أو الخطأ الكبير الذى كان أكبر منا وحتى من ملكى هو أننا جميعا كنا نعلم وكذا الحكومة والشخص العامى أن أى شخص ملتحق بحزب تودة فهذا يعنى أنه شخص تقف سياسة ستالين من ورائه -وكلاهما لهذا السبب (الحكومة و الشخص العادى) كانا يعملان حسابا للحزب وكانوا يقبلون عضويته - وكانوا يرسلون المساعدات المادية لمطبوعات الحزب ونحن كنا دائما نسعى لكى نكذب هذا الواقع . وكنا نسعى دائما ونقول إن حزب توده صاحب أسمى الأهداف وأكثر الأحزاب فاعلية وهو كتاب مصلح وثورى وإذا كانت روسيا الشيوعية تدافع عنه فهذا لأنها أم الاشتراكية وأمل المعذبين وتتألم لكل الشعوب

المستعمرة . فى حين أننا رأينا بعد ذلك أن الحزب ما كان إلا آلة فى اليد وكان نوعا من الرؤية الكونية المستوردة . و أيضا كان عبارة عن جبهة ثانية لنشر هذه الأفكار . ونحن كنا مثل الذى يدق الماء فى المدق . وفى الحقيقة أننا كنا ندافع عن أنفسنا باسم ذلك الحزب وكنا نقول لأنفسنا إننا بشر منزهون (و هذا كان سنداً أعطاه لنا طبرى) وأصحاب أفكار ونظريات . ولم نكن نريد أبدا أن نكون آلة يدوية لأى شخص أو أى نظام أو حكومة . والانفصال لم يكن إلا الطريق الوحيد للوصول من جديد إلى الحقيقة الأولى التى كان يعلمها آباؤنا و جميع من حولنا و كانوا يضحكون على عقولنا. والوصول إلى الحقيقة الأولى هذه كان أمرا موحشا لدرجة أنه حتى فى البيان الذى كتب تحت عنوان "حل الحزب " لم نعترف بذلك . وبغض النظر عن أن كثيرا منا خافوا وكان من المقرر أن يأتى "قدوة" معنا و لكنه تشمم الأخبار و عندما أحس أن ملكى ليس له علاقة بالاشتراكية أخذ بعضه و ذهب ، أو نوشين الذى كان يريد أيضا أن ينفصل معنا لكنه انضم إلى السفرة التى كانت قد نصبت فى مسرح الفردوسى الحديث التأسيس وبقى فى الحزب . وفى الوقت الحالى "قدوة" يقوم بالتدريس فى ألمانيا الشرقية . "نوشين" فى موسكو وينثر أشعار فردوسى حتى يقوم حضرات المصورين والمخرجين الروس بتقديم فيلم يقولون فيه إن الأعمال الحماسية تمت على أيديهم وهؤلاء هم جسد التنوير فى المملكة . فلم يكونوا التفاح الأحمر المناسب فى يد الأعرج بمعنى "أنهم لم يكونوا فى أماكنهم الصحيحة ". والشىء الذى كان مؤلما بالنسبة لى فى تلك الأيام نتيجة عدم التجربة نظرا لصغر سنى فى تلك الفترة هو تصرف الدكتور ابريم، وهو أنه بعد فترة من الانفصال طلبنى ووضع أمامى مقاله مكتوبة من عشرين إلى ثلاثين صفحة لا أتذكر على وجه التحديد بالروسية وقال.

أنا كتبت هذا فى المكان الفلانى . إذ إننى ليس لى دخل بهذه القضية . وللأسف وإلخ . وفلان أيضا غير مقصر يعنى أنا . نعم . فى مثل هذه الأحوال التى تحمل ملكى فيها مسئولية الانفصال فى مقابل السياسة الستالينية و نحن وقتها لم نفهم ماذا نفعل. ربما أنه حتى ملكى نفسه لم يكن يعلم أنه يواجه عملا خطيرا . لكننى حاليا أرى أن ملكى بقبوله هذه المسئولية فى تلك الأيام تعرض لخطر مادى ومعنوى شديد وهذا الدكتور ابريم لم يكن رجلا جبانا ، و لم يكن عديم الحيثية و له حق كبير فى رقبتى .

و كان رجلا وقف صامداً أمام "ابتهاج" إبان سنوات سطوته وقوته فى البنك الوطنى، و بالرغم من أنه حاليا معلم فيأكسفورد ، فإن أننى أعتقد أنه حتى بعد عشرين سنه أخرى يجب على وزراء المالية فى الدولة أن يكونوا تلاميذ له . نعم . هكذا يقل حجم التنوير فى الدولة يوماً بعد آخر. شبابنا يتعلم التنوير و الثقافة حتى يعمل فى الغرب أو فى أمريكا أو روسيا و لكن لا يعمل على التئام جروح الدولة .

وأرجو ألا تتصور أننى بهذا الشكل أضحى بمفكرى الدولة لأجل ملكى . لكن ملكى فى الواقع أصبح فداء للجميع . لأن أى واحد منهم فى الوقت الحالى يعيش فى سلام و ملكى فقط هو الذى تتساقط عليه التهم حتى الآن ، لأنه فى وسط الحفرة ، ومازال يكتب ، ولازال يفكر ، ولا يزالون يخافون منه. ويطلقون الشائعات حوله، ولازالوا يربطونه بالحبال . ومازالت مجلته موقوفاً إصدارها و كذا كتبه ، صحيح أنهم عفوا عما بقى من أيام سجنه و لكنه حبيس فى منزله على أية حال فهو أحد الأشخاص الذين كانوا علامة إيجابية فى عمرى غير المهم و الذى استطعت أن أكون بجواره لمدة عشرين عاما و أخذت خلاصة تجاربه . و من إصراره وعناده تعلمت دروسا كثيرة .

ربما أستطيع بسهولة إن أقول أن ملكى فى جميع هذه المخالفات التى كانت مع حزب توده نتج عنها نوع من الأحقاد لدرجة أن الحاكم العسكرى فى المحكمة قال فى النهاية : إن هذا القضاء هو حكم أناس جلسوا حول السفرة وأخذوا ينتقدون ما طبخه صاحب المنزل . فإن لم نأخذ فى اعتبارنا أن العداوة من ناحية علم النفس ماهى إلا نوع من الدفاع فى مقابل القوة المسلطة التى تقصد أن تمحو إرادتك فعلينا أن نفترض أن ملكى عندما رأى سياسة ستالين "السياسة الشيوعية " من أجل نظام ظالم يعطى أهميه أكثر منه لأنهم مطيعون ولا ينطقون. هو أيضا كان يطيع ولا ينطق و ...... إذن . ماذا كان يحدث و من يكون ؟ إذا عدمت رمياً بالرصاص فأنت شهيد، وكنت مضطراً لأنك تخاف من السلطة أو من الشهادة أو من النفى إلى برلين الشرقية مثل بزرج علوى أو النفى لأى مكان غير معلوم مثل طبرى و كيانورى. مثلهم جميعا يبعد عن الساحة ويبقى بلا أثر و يصبح فى عداد النسيان . إن نجاح ملكى فى هذا أنه نجا من أخطر الأنواع التى ممكن أن تحدث لإنسان وهى أن يبقى بلا أثر. وأنا لا أعلم كيف تحمل ملكى فى داخله لعنة و اتهامات هذا الجهاز . ولأن كل إنسان له طريقته فى الدفاع

مقابل العداء أو العدوات التى تحيط به والتى تختلف عن الآخر . أما عن نفسى فأستطيع أن أضرب مثالاً بذاتى حين لم يكن لى عمل فى بعض الأيام ولم أتحمل فيها مطلقا هذه المسئولية التى كانت على عاتق ملكى . وغرضى من كل هذا أن أوضح أن سلوكيات حزبنا كانت تفرض ردود الأفعال هذه . وعليكم موازنة الأمور.

مثلا فى السنوات الأولى للانفصال (٢٧ أو ١٣٢٨ ؟) رأيت فى يوم ما صديقى " جهانبجلور" فى طريق ما وكان عائدا حديثا من الغرب ولم ير بعضا بعض منذ سنوات طويلة . وكنا قد أقمنا جمعية الإصلاح (على ما أظن ٢٢ و ٢٣) وبعد ذلك ذهبنا إلى حزب توده ، ثم سافر هو إلى الغرب للدراسة و فى هذه الفترة حدث الانفصال و قد قمت بكتابة القضايا له و بعد ذلك لم يراسلنى و أعقب ذلك إلقاء القبض والمحاكمات و القضايا الأخرى حتى ذلك اليوم الذى رأيته فيه ووقفت لأسلم عليه وتقربت منه لكى أقبله ولكننى رأيت أنه ليس لديه أى استعداد لتقبيلى .

قلت : تريد ألا نسلم على بعضنا ؟

قال :هذا أفضل

وهذا الموضوع فى خيالى منذ ذلك اليوم و لم نتقابل و لم يسلم بعضنا على بعض حتى مرت سنوات عديدة نسينا فيها الطرد و التكفير وأشياء من هذا القبيل ولكن مرارة ذلك اليوم بقيت فى قلبى إذ بعد يوم أو يومين من ذلك الوقت ضربت على الملأ العام أحد المنضمين لحزب توده و أعتقد أنه أرسلان بوريا فسب و ذهب . و أعضاء الحزب عندما كانوا يروننا فى أى مكان كانوا يسبوننا و كانوا يقولون إننا خونة ...... ومن هذا القبيل . و نحن حقيقة كنا على وشك أن نصدق أننا خونه . ولهذا السبب تعصبت و ضربته على إذنه لدرجه أنه وقع فى حفرة فى الشارع ومازلت حتى الآن استحى من هذا التصرف . و لا تتخيلوا أن الموضوع انتهى و لكن مازال الموضوع فى ذهنى حتى الآن .[1]

(١) أوردته تحت اسم النموذج الأول فى جزء من الملاحق . وقد أوردته باسم مستعار فى تلك الأيام فى الكتاب الشهرى كيهان .

ومثال آخر سوف أعرضه عليكم . وهو جديد جدا وكان قد جاءنى من ضفاف نهر التايمز . وهو أن السيد (بيتر أورى) الموظف السابق للنفط B.P فى مسجد سليمان، قبل التأميم بسنوات، ورئيس شركة "جان مولم " وبعد ذلك معلماً للغة العربية فى بغداد ونوا حيها ثم أصبح مستشرقًا ومعلماً للغات الشرقية (!) وأخيرا فى كمبردج حيث كتب (سنة ١٩٦٥) كتابا تحت عنوان "إيران الجديدة " وتحدث فيه عن أحزاب إيران فى ذلك الوقت و بعد ذلك تكلم باستفاضة عن حزب توده وكتب:-

من بين الأحزاب التى شكلت ، إحدى المجموعات الصغيرة المتطرفة التى تطلق على نفسها القوى الثالثة . وهو نوع من الحزب الفاشى ومثل حزب إيران ، المعارض لحزب توده .[١]

لقد أضاع ملكى عمره حتى يستطيع أن يدافع فى حزب القوى الثالثة بدون رياسة أو مضايقة شخص مثل دكتور بقائى ، الذى دافع عن مصدق وعن صراعه ضد الاستعمار و الاشتراكية و بهذه السهولة يأتى هذا المستشرق و يقول : إن القوة الثالثة هى حزب فاشى لأنه كان فقط معارضا لحزب توده ! ألا يذكرنا بهذا الشكل بالاسم الذى أطلقه المرحوم الدكتور مصدق " توده ، أى النفط" لأول مرة على ألسنة الناس بصرف النظر مرة أخرى عن الأغراض المريضة التى يروجها المستشرقون . وسوف أطرح نموذجا آخر. فى تلك الأيام فى أيام المحاكمة رأيت أحد الطلبة الإيرانيين ، الذين كانوا من الاشتراكيين و يدرسون فى الخارج و كان يجىء لرؤية أبيه و أمه ويعود.

قال : لقد ألقوا بملكى فى السجن ونحن مرفوعى الرءوس.

سألته : لماذا ؟

قال: تعلمون أن أعضاء حزب توده هنا كم من الاتهامات يوجهونها لشخصه !

(١) ارجعوا إلى كتاب Modern Iran بقلم Peter Avery طبعة - لندن سنة ١٩٦٥ ناشر ص ٤٣٢ Ernest Benn

مثال آخر : حدث إطلاق رصاص بعد عدة أيام من الخامس عشر من شهر بهمن سنة ١٣٢٧ فى الجامعة وجرح الرجل الأول فى الدولة ، كتب خبر وسط الصفحة الأولى فى جريدة إطلاعات وكان بإمضاء ملكى وعابدى وأنا وأنور خامه وحسين ملك ودكتور ابريم . فيما معناه أن حادث الاغتيال هذا هو حادث خيانة ونحن نأسف لهذا الحدث وإلخ ..... لكن قولوا لنا لماذا ؟ فى نفس الليلة اجتمعنا حتى صباح اليوم التالى وذهبنا إلى مدير الجريدة وأعطيناه نص الخبر . وأنا أتذكر جيدا أن" ابريم" كان قد أصابه الجنون وعابدى كان يتلعثم فى الكلام وخامه إى كان فى حالة غضب شديد وكان نص الخبر بقلم لونه أخضر و الإمضاءات بألوان مختلفة ، لكن بنفس القلم . ومدير جريدة الإطلاعات لم يجد حرجا فى ذلك وقد اعتقد أنه سوف يقدم خدمة للجهاز الحاكم ولنا . وقام بطباعة الخبر وتقاضى أجره عن ذلك. وحينئذ ماذا حدث ؟ كان يجب أن نكون على قدر كافى من الشجاعة بحيث إننا نكذب هذا الخبر فى تلك الأيام لكن قمنا بهذا العمل دون أن يكون لدينا الشجاعة الكافية أى فيما معناه أنه بالرغم من أننا كنا ضد الإرهاب والخيانة فإن هذا الخبر كان خطأ و هكذا . ولا أتذكر بالطبع إن كانت الجريدة موجودة .(١)

وأنتم قولوا لى فى مقابل هذه العدوات والإشاعات ماذا يجب أن نعمل ؟ أنسكت ، سكتنا مرة بعد الانصراف وذقنا طعم السكوت . "جوبلز" أيضا لم يسلك هذا الطريق الذى سلكه هؤلاء السادة قادة حزب توده فى تلك السنوات . وكل هذا لماذا ؟ فى تلك الأيام لم نكن نعرف أن غيابنا عن الحزب سبب لنا مشكلة كبيرة ولم نكن نعلم كل هذه الإشاعات وهذا الطعن و اللعن الذى قام به حزب توده لمنع كلامنا من النفوذ و إرهاب الآخرين وحتى لا يهرب الباقون وبنفس هذا القدر من الإشاعات لحزب توده حيث كان لها ميكانيكية دفاعية من نوع معين لحفظ شخصياتنا من التزلزل أو السقوط وأنا فهمت هذه الأشياء الآن . فى تلك الأيام كنا نعمل دون تفكير نحن وهم وما النتيجة ؟ تشتتنا حتى يضربوننا.

(١) ارجعوا إلى جريدة إطلاعات ، الأربعاء ٢٠ بهمن ١٣٢٧ بخصوص إعلان السادة ، والأحد ٢٤ بهمن ١٣٢٧ بخصوص جوابنا وكلاهما كانا فى الصفحة الأولى للجريدة .

إن الذى لم يجرب هذه الأشياء ، كيف يعرف معنى صنع الأخبار ؟ حتى إن الكراهية المتوقعة لملكى أصبحت فعلاً أساسيا لبقاء شخصيته . إذا كنت قد نجيت من شر هذا المرض (و أنا غير متأكد) فإن السبب الأول هو أننى لجأت إلى هذا القلم والسبب الثانى هو كتاباتى لمدة عام فى مجلة الشاهد تحت عنوان التحقيق و التفسير للجرائد من (٢٩-٣٠ سنة) و كنت قد انتزعت جميع السموم من هذا المرض وسودت بها الصفحات دون توقيع.

إن معرفتى بملكى بدأت بقضية جريدة الشاهد وكانت علاقة أكثر جدية . وكان هذا فى أواسط سنة ١٣٢٩ وكنت حديث الزواج من "سيمين" ولم تكن رواتبنا البسيطة تكفى متطلباتنا البسيطة وكنت أبحث عن عمل آخر بحيث إأنه تصادف أن تعرفنا بالسيد مير صادقى وطلب منى أن أعمل فى جريدة الشاهد بثلاث مائة تومان فى الشهر . وكان نشاط الجبهة الوطنية فى ميدان السياسة قد ظهر حديثا على الأضواء وكانت جريدة الشاهد جريدة نصف شهرية وهكذا أصبحت صحفيا نتيجة ما كنت فيه من حاجة وفقر. فى الشهر الأول عملت بالجريدة ولم أتقاض أى أجر وهكذا الأمر فى الشهر الثانى والثالث وأصبح المرتب مجرد أقوال ووعود وكنت أجلس صابرا فى انتظار تحقيق هذا الأمل فى الأيام الأخيرة من الشهر أى من ٢٦-٢٩ وفى تلك الأيام كان بقائى و ملكى يقومان شخصيا ببيع الجرائد فى الشوارع و كان هذا الأمر فى بداية ظهور حزب الجبهة الوطنية. ولهذا السبب بموافقة سيد مير صادقى ذهبت للسؤال عن ملكى. وكان هذا السيد محل ثقة فى الرجوع إليه وسأل :

إذن لماذا أنتم متوقفون ؟ فملكى بدأ . فى البداية بدأ بكتابة مقالة بدون إمضاء وبعدها ظهرت مقالاته فى موضوع تأميم صناعة النفط وقد قمنا سيد وأنا بترتيب المقالة وطباعتها . إلا أن باقى أعمدة المقالة بقيت على منضدة المطبعة لمدة أسبوع وبقيت فى مطبعة موسوى (فى شارع خدابندة لوها فى حى الناصرية) لماذا هل لأن القضية كانت جدية جدا ؟ أو المسائل كانت بشكل جدى ؟ ولذلك كان الدكتور يأتى فى نهاية الليلة ويرى هذه المقالات . لا أتذكر جيدا ولكنى أعتقد أنه فى تلك الأيام أن رزم آرا قُتل وعلاء كان موجودا فى العمل . والدكتور مصدق كان فى بدايات تهيئة الجولة للمجىء إلى الحكم و لكن رأينا (أن ركوب الجمل لا ينفع وأنت تنحنى) لهذا

قلت" لسيمين" فى يوم من الأيام جهزى عشاءك وقمنا بدعوة ملكى والدكتور بقائى وزهرى فى منزلنا بالإيجار فى شارع أول حشمت الدولة ، وجلسنا للمناقشة والكلام والضحك وبدأنا نهيئ الأرضية لأن ملكى أصبح قلمه أكثر فاعلية وفى الغد يتصدّر موضوع تأميم صناعة النفط مجلة الشاهد . وهو الشعار الذى لا ننساه حتى الآن وبعد ذلك تغيرت مفاهيم ملكى عن حزب توده وأصبح هو المفكر الأول للصفوة. وبعد ذلك كتب فى مجلة الشاهد مقالة تحت عنوان (اختلاف العقائد والآراء) فى شكل حلقات. وبعد ذلك أصبح التعاون جديا أكثر مع الدكتور بقائى وتأسس (حزب الكادحين) وقد تم الانفصال ومن حارة (خدا بنده لوها) انتقلنا إلى (أول شارع أكباتان) وقضايا أخرى.

وبعد ذلك جاءت انشقاقات أخرى : ملك وآل قندهار ووثوقى وديوشلى وسرشار وإرتقى . وإذا كانت الجبهة الوطنية رفعت رأسها إلى حد ما فى تلك السنوات وإذا كان هناك قليل من الحرية فى ذلك الوقت ، فإن السبب الأول فى هذا هو التعارض الفكرى الشديد بين الجرائد الحزبية وما يحدث فى الواقع بداية من (شاهد حتى علم وزندكى والقوى الثالثة) وبقية الجرائد والكتب . وليس هناك مجال للدهشة إذا كان هذا الحزب ومازال يتهم ملكى بسبب هذه المسائل لأنه كان مديرا لهذه المواجهة وكانت تحت رياسته . وكان دكتور مصدق فى المقدمة . وكان يواجه القوى الخارجية وكان يرى أن الروس يماطلون فى إعادة الذهب الذى أخذوه بحجة الحروب لديهم حتى يمشى مصدق ويعطوه لمن سوف يأتى بعده . ومع كل هذه الأصوات العالية أصبح الحزب مثل خيال المآته فى يد الشركة و لا أحد يعلم نتيجة هذه اللعبة ، ولكن حتى نهاية الأمر كانت هذه الشجاعة فى المسائل الداخلية والمسائل القومية فى يد ملكى الذى كان يتصادم مع رقيبه الداخلى ولم يكن يهمه الأسلوب الملكى الذى لايزال يتعلق به الكثيرون . ولا أنسى أنه خلال يوم أو يومين بعد اليوم الثلاثين من شهر تير ١٣٣١ فى الجلسة العمومية لقيادة حزب الكادحين حدثت محاكمة وسمعنا أن دكتور عيسى سبهبدى فى صباح ذلك اليوم أى يوم البلوى ذهب لرؤية قوام السلطنة وكنا نريد أن نعرف هل هو ذهب بمفرده أم ذهب بأمر من الدكتور بقائى الذى كان رئيسا للحزب وملكى كان موجودا معه وكان يجلس فى الظل ولم يظهر . وكانت غرفة الاجتماعات مليئة بأعضاء الجماعة ورؤسائها كانوا

جالسين وطرح الموضوع. ولا أتذكر من الذى طرحه لكن أتذكر الأسئلة التى دارت والأجوبة كانت بهذا الشكل .

السؤال :هل ذهب هذا الشخص بموافقتك - دكتور بقائى - لرؤية قوام السلطنة فى ذلك الصباح .

الجواب : السكوت

وبعد ذلك حدثت همهمة . ثم سمعوا صوت خروج (اذهبوا) و بهذا الشكل كان بقائى يخاف منا . و بعد قليل رتبت الأمور بحيث إننا انفصلنا عنه بقيادة ملكى . بمعنى أنه فى عصر ذات يوم كانت الجماعة مشغولة بأمور الحزب العادية ثم يفاجئون بهجوم عليهم من جماعة من حاملى السلاح الأبيض إذ يهجمون على الحزب و يخرجون السادة من باب الحزب مع ضربهم على القفا .

و قد مرت علىّ أيام لدرجة أننى كنت أتوارى من الجميع - لا أذكر لماذا لكنه كان نوعًا من اليأس وبالرغم من أننى لم أكن موجودا فإننى عندما سمعت الموضوع تعصبت كثيرا و النتيجة ذهب اليأس منى و أصبحت فى وسط المعركة من جديد . وكان هذا نتيجة جبرية لهذا الانقلاب الداخلى للحزب . إلا أننا شكلنا (القوى الثالثة) وانتقلنا من شارع أكباتان إلى مكان آخر فى شارع سعدى . و كنت مع السادة حتى شهر اردبيهشت ١٣٣٢ حتى تنحيت عن (القوة الثالثة) أيضا و كنت قد ذكرت فى الملحق الثالث لماذا حدث هذا التنحى .

لا أعلم لماذا ، لكننى أعلم أننى أحب ملكى و أنجذب له . لا أعلم لماذا أيضا ؟ هل لأنه دائما يمر بالخاطر ؟ و هل لأنه وحيد يعيش بمفرده ؟ فهو حقيقة إلى هذا الحد قد يكون أبى : من ناحية السن أو من ناحية الشخصية ربما لأننى كنت أعتبره مثل والدى و جعلته فى مقام الأبوة ولأننى كنت قد هربت فى شبابى من أبى فى ذلك الوقت . لكن ملكى كان يرى لهذا الموضوع شكلاً آخر . لأنه كان يعتقد أننى أبحث عن كل ما بداخله . و دائما كان يسعى أن ينبهنى إلى هذا الخطأ سواء بالتفصيل عن طريق الكتابة التى كنا نتبادلها . و لكن المسألة هنا بصرف النظر عن الانجذاب الروحى وبدون أن تستطيع أن تفهم أو تقلل من قيمته فأنا لم أكن أعتبر ملكى فى منزلة أبى أو قدونى -

وكنت أعتبره رمزا للتنوير الباقى من زمنه ولم يشترك فى الرذالة ولم يستسلم للحرامية أو قاطعى الطرق ولم يسكت . فمع هذا كنت قليل التردد عليه وكان هذا التردد بصورة متناوبه بيننا وليس بصفة دائمة . وكلما كنا نشتاق لبعضنا بعضا كنا ندفع بعضنا بعضا إلى أن نبعد أكثر وكلما كنا نبعد ننجذب لبعضنا مرة أخرى . وهذا إما بسبب شخصيته ؟ أو بسبب وحدتى ؟ لا أعلم إلا أن عشرين سنة مضت هكذا والأشياء الأخيرة أصبحت أكثر . فى البداية عندما كنت شابا و كنت أصدق و أتقبل كل شىء – كان البعد بيننا أقل – ولكن حاليا وأنا أودع مرحلة الشباب ومثلا كنت أعتقد أن على آباد صار صديق مدينتى . وأحيانا كانت الاختلافات فى وجهات النظر بيننا حادة وإحدى هذه الاختلافات قضية إسرائيل والحروب والاضطرابات التى حدثت من تحت رأس تلك المملكة إذ أننا وبتوجيه من ملكى فى يوم ما كنا نرى أن الكيبوتس الإسرائيلى سوف يأخذ موقع المجتمع الزراعى التعاونى الروسى. ولم يكن لدينا أى اهتمام بالدين و لم نعتبره شيئا أساسيا لكى نتطلع إليه أو نعرفه فى السمات السياسية للمجتمع الذى نعيش فيه . وكان ملكى يقول ليإنك أصبحت عالما دينيا أو يقول إنك "فوضوى " وأشياء من هذا القبيل و لم تكن الظروف مهيأة لى أو له – ولم نجد فرصة لطرح اختلافاتنا فى وجهات النظر – وعلاقتنا بالناس كانت مقطوعة وأن الاختلافات كانت تبقى كما هى و لا تحل و تؤدى إلى البعد أتذكر أنه ذات مرة حدث نقاش على موضوع انقلاب شباب أمستردام . أنا قلت إن هذا هو بداية الحب . وهو أفضل ! فالبلاء الذى أنزله هؤلاء الشباب على أهالى إندونسيا فى الوقت الحالى ينزل على أهالى مملكتهم ومن هذا القبيل ... لكن ملكى غضب وتعصب كثيرا و قال أنت (فوضوى) وإلخ ...... ودائما كان نفس الدفاع الدائم عن أوروبا وعن المدينة إلخ .... ملكى مثل أى معلم آخر فى وجود المستمع له يرى فيه صورة المتحجر الشاب الذى كان فى يوم ما تلميذا له . وليس أيضا جميع الشباب بهذا الشكل فشباب من عشرين إلى ثلاثين سنة يبحثون عن الحقيقة و يبحثون عن اسم وفى حضور ملكى يلمسون الحق ويلمسون الواقع وبعد كل واقعة . يذهبون إلى السجن أو يوقفون لمدة أيام . أو أنهم يدركون أنه تحت قيادة ملكى لا يمكن الوصول إلى الأموال والعقارات والممتلكات وبعد ذلك الهروب. فحكوماتنا فى نفس الوقت لا تمتلك ما امتلكه ملكى من مخازن التجارب حتى ترجحوه. وبهذا الشكل

رأيت أن ملكى ينطبق عليه هذا الشعر كثيرا الذى يقول : لا يوجد أحد أفضل منى فلنتعلم وإلخ ، فى هذا الأمر فإن كثرة الجلوس مع الشباب لـه محاسنه وبصعوبة نستطيع أن نقول إن ملكى أصبح عجوزا . فهو الآن فى حدود السبعين سنة عمرا وعينه لا ترى جيدا إلا أن له نفس الرأس الصلعاء ونفس القامة الطويلة ونفس السكينة فى كلامه وأسلوبه ونفس طريقة الحديث والانفعالات فى النقاش والبعد عن السفه . لكن فى نفس الوقت الجلوس مع الشباب أيضا له عيوبه . وذلك أن ملكى أحيانا كان يترك نفسه للشباب وكذا إذنه وإرادته . وكان يجلس فى البيت – ليس كمرجع أمر أو صاحب مجلة أو رئيس حزب – إذ يصل إليه شاب أو اثنان أو ثلاثة معا . ولم يخطر ببال ملكى أن تحيات الشباب لم تكن سوى نوع من طلب الرئاسة عليهم . فأحيانا يكون معهم بأسلوب هل من مبارز وادعائه الوجود وفى ذلك يتحدثون . وفى هذه الأيام المليئة بالتفوهات والرقابة الحكومية حدث كثيرا أننى رأيت أنه قد يتعلق بخبر من شاب غير معروف ويصدقه وعندما يبدو الخبر واهيا ، فإنه يشك فيه حتى يعود إليه هذا الشاب مرة أخرى ويغير قوله ويكذبه . إسلام كاظمية أحد شبابه البارزين يقول فى هذا الموضوع قولاً حسنا يقول :

إن الشباب الذين رباهم ملكى من كثرة ما يهتم بهم كانوا يتصورونه شيئًا مدهشا.

وعندما يبلغ بهم سن الرشد فبدلا من أن يذهبوا لحماية ملكى كانوا يقفون فى وجهه و يخالفونه.

وبهذا الشكل ملكى أصبح هو الكوبرى الذى يعبر عليه شباب سن العشرين والثلاثين من الذين هم فى مثل عمرنا. وحيث كنا نمتحن قدراتنا مع هذا الشخص وعندما كنا نطمئن أننا تعلمنا ننسى هذا الكوبرى . على الأخص فى مثل هذه الأوضاع الزمنية والوقتية لحكوماتنا التى ليس لها مثل تجارب ملكى ويكون من الأفضل لها أنها تهتم بالكتاكيت التى فقست من بيض الغرب . لكن ملكى كان يعلم أن لديه بضاعة وكان يمنى نفسه بالصبر لأن المشترى سوف يأتى فى النهاية إلى دكانك ومحلك ليشترى منك .

فإذا كان ذكاء ملكى الأصلى فى أنه كان دائما يجد طريقا ثالثا ويضعه أمام المفكرين ربما لأنه كان ينظر إلى مبادئه بنظرة عملية وكان دائما فى تردد مابين النظرية والعمل لذا كان من الأفضل له أن يضع مبادئه إلى جنب وفى زمانه يركن إلى عمل ما وكم سنة فى كم سنة يوضع فى منصب مهم و يقول كلامه . ونظراً لأن كلامه لم يكن ينفع زمانه فكان يترك على الرف أو يحال إلى التقاعد وبحجة أنه لا يوجد كدر كافى تحت يده أو أن الجو غير مهيأ لكلامه فكان يترك جانبا وبهذا الشكل كان يحس بإحساس اليأس والغضب والفشل . ويجلس وينظر إلى الأعمال التى يعملها الآخرون لكن فى الوقت الحالى جلس جانبا لكن ليس لديه إحساس غرور المتفرج الذى ينظر إلى الأشخاص الذين لا يفهمون ماذا يفعلون . و نموذج آخر تنطبق عليه هذه الأوصاف هو الدكتور مصدق كان رجلاً متردداً ما بين العمل و النظرية لكن كان لديه القدرة و الذكاء بحيث إنه لا يقع فى أيدى الأشخاص الذين قد يتحججون له بحجه قلة الوسائل و عدم وجود الكدر الكافى أو الظروف المناسبة للقيادة و لذلك فهو بكل ذكاء و بكل عبقرية أصبح سياسيا محنكًا . فشل وبل وبالعكس علق فشله فى رقبة الانقلاب الذى فشل نتيجة المبادرة الدولية للنفط[1] والقضايا الأخرى التى لايستطيع أى إنسان عادى أن يقوم بها - حتى لو كان رئيسا للوزراء - وبهذا الشكل خرج من مقام رئاسة الوزراء - واستند إلى مسند آخر وهو الوجدان التاريخى القومى للشعب . لكن ملكى كان سلسا جدا ولم يكن قويا ومسلطا وليس لديه القدرة أن يكون فى وجدان التاريخ . ملكى من أفضل الأمثلة للتنوير الأصولى الذى جاء لتبديل الدنيا ويتقبل أى مفاوضات لكن للأسف لا تزال النسخة الغربية فى يده لذا كان من مصلحته أن يقتنع بعالم النظريات ويكتب وينشر كتاباته . وماذا يكون أفضل للإنسان من الكتابة ومن أن يتكلم فى الإمكان وفى المستقبل . حتى يقترب من الواقع العملى و ينظر إلى الحياة بطريقة أبسط

(١) ارجعوا إلى صفحات ١١٠ ، ١١٤ من كتاب " حكومت نامرئ " بقلم " ديويدوانيز " و : توماس راس " من نشريات " راندوم هاوس " نيويورك وجاء ترجمة لهذا الفصل من الكتاب فى مجلة سوسيا ليسم طبعة باريس . آبان ١٣٤٤ العدد ٥ صفحات ٦٥ حتى ٦٨ وهذا هو اسم الكتاب بالإنجليزية :

Invisible Government By. David Wise. Thomas B. Raas .

وأسهل عما هى عليه . الخطأ الأصلى لملكى من وجهة نظر الناس العملية هو الانفصال وقد رأينا كيف و لماذا كان صحيحا وكل الأخطاء الأخرى أيضا وضعت بهذا الشكل ونستطيع أن نفتدها - منذ الاشتراك فى الماضى لثلاثة وخمسين شخصا حتى العقل المفكر لحزب توده والجبهة الوطنية كان ملكى مضطرا أحيانًا للجوء إلى العقائد والأفكار المثالية ويفتح طريقًا للاتصال والمباحثة مع الجهاز الحاكم فربما يكون من نتيجة هذه الأعمال حدوث نوع من الخجل من هؤلاء السادة وفى نفس الوقت إظهار لواقعية الحكومات . وبتعبير آخر فإن ملكى بالحيل وبالخوف من تلك العداوات التى حدثت فى آواخر أيام حكومة دكتور مصدق و بالخوف من أن يتذكر الجميع لهم أيام "ديمقراطى فرقة سى" اضطر إلى أن يناقش الجناح الخاص بالنظام الحاكم الأكثر وضوحا وعطاءً ولهذا السبب أصبح بريئًا براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وربما من أجل هذا الخطأ تقدمت الجبهة الوطنية لمحاكمته فى شهر تير سنة ٤٤ وهو فى هذا السن الكبير و ألقته فى السجن وحاكمته .

ربما أن هذا التردد مابين العمل والنظريات لملكى كان نتيجة أخطاء أخرى والتى كان يقوم من خلالها بتعريف السياسة . فقد كان يعرف السياسة على أنها علم مثل علوم الرياضة تستطيع أن تحل مشاكل المجتمع . وهذه الأشياء كنا قد سمعناها وقرأناها عنه مرارا و تكرارا . وهذا هو نفسه هو النسخة الغربية المكتوبة للمستعمرات . فى حين أن السياسة لو كانت علما ، فهى شىء ما فى حدود العلوم الإنسانية وأسسها مغروسة فى الوجدان الخفى للجماعات من الدين حتى الأسلوب الخرافى ومن اللغة حتى أدب المعاشرة - وغير قابلة للمقارنة مع العلوم الدقيقة مثل الرياضيات والفيزياء . ومثل أنصاف العلوم هذه فهى نسبية بدرجة شديدة ومطاطة ولا تقبل الأحكام الجازمة. إذن لماذا اخطأ ملكى بهذا الشكل فى هذا الفكر ؟

لو أننا أردنا أن نجد تفسيرا لهذا يجب أن ننظر إلى حياته السابقة . بعد السجن فى فلك الأفلاك وبعد المقالات التى كتبها فى مجلة الفردوسى والتى سببت انتشار هذه المجلة بين الناس والتى كان يوقع مقالاتة فيها بهذا اللقب " طالب علوم

اجتماعية[1] " لأن الرقابة لم تكن تتحمل أن يوقع باسمه الأصلى . ومازالت لاتريد ذلك الأمر وأنتم فى كل فترة تقرأون فى صباح يوم ما مقالة مطبوعة أو كتابا كتبه ملكى ، لكن بدون إمضاء أو بإمضاء مستعار . وأنا أؤيد ملكى إذ كان يوقع باسم طالب العلوم الإنسانية فهذا الأمر يعتبر أمرا طبيعيا و صحيحا لأنه كان يوافق نظرياته وأنا بهذا أرسى قواعد صلبة لهذا الاستدلال و هو أن ملكى مهما كان محنكا و موفقا فى ذلك التعريف الجزمى الذى يقول إن السياسة علم ، فإنه بذلك يبعد أكثر . دليل آخر وهو أنه فى هذا السجن الأخير كان قد كتب ترجمة لأكبر قاموس لغوى سياسى و اجتماعى . وهذا يعنى أنه لا يزال فى البحث عن الكلمة أو الدقه العلمية فى الأمور السياسية والاجتماعية . وإذا ما أخذنا فى اعتبارنا مشكلة لغته الأم أى اللغة التركية سوف يتضح لنا أمر آخر فى هذا الشأن . فملكى أذربيجانى ولغته التركية وذهب إلى الغرب ودرس هناك بالألمانية . وعاد إلى اللغه الفارسية وقرأها وجاء لكى يكتب فى هذه النقاط . وقد تكلمت عن هذا فى مكان آخر بتفصيل ووضحت هذا الأمر [2]. وإذا انتبهنا إلى هذه المسألة سنجد أن كثيراً من إخضاعات كسروى سوف يتضح لأن كسروى كان يريد أن يكتب بلغة نظيفة حتى يفهمها هو قبل الآخرين . وكان دكتور شفق أيضا لديه نفس المشكلة . وكذا جمال إمامى كان لدية نفس المشكلة وهو فى مقدمتهم ويشه ورى وكثيرون آخرون وكم من الرجال الأذربيجانيين أبعدوا عن اللغة الأم وأجبروا على الاتجاه نحو الاهتمام باللغة الفارسية وحطوا رحالهم فى طهران وأن يصولوا ويجولوا فى لسان لم يتعلموه من الصغر.

واسمحوا لى أن أتكلم و أوضح أكثر قضية أن السياسة علم لو نظرنا بصفة عامة على أن السياسة علم يدرس ، فهذا يعنى أن كل شخص لم يتعلم أصولها وقواعدها فى

(١) وتذكر أن السيد تقى زاده أحيانا كان يوقع على مقالاته فى مجلة " كاوة " برلين بكلمة " محصل " وهو ما تشابه ملكى فيه مع تقى زاده بصرف النظر عن اختلاف العقائد السياسية وإلخ .. كما أن كليهما كان أذربيجانيا ويتحدث الفارسية والتركية وأيضا كان كلاهما يعانى من النسخة الغربية وبهذين الدليلين أو الثلاثة فإن كليهما كانا مكرهين من السياسيين

(٢) الذى كان تقريرا مكروهين عن سفر أو اثنين إلى تبريز ولم ينشر حتى الآن .

المدرسة ، فليس لديه الحق فى إبداء رأيه فى هذا الشأن . فى ذلك الوقت كيف يتسنى لأى إنسان عادى أمى لم يذهب إلى المدرسة أن يعطى رأيه فى الديمقراطية؟ بمعنى أن تكون موافقته ومخالفته مع الأمر السياسى الفلانى أو الاجتماعى ليست بالأمر المهم؟ وتلاحظون أن هذا الحكم يمكن أن يكون وسيله فى أيدى الحكومات الاستبدادية والاستعمارية حتى يعاملوا الإنسان العادى ولا يسمحوا له بالتدخل فى السياسة ويجعلون السياسة نوعًا من الرموز ويحرمونها ويقدسونها ويجعلونها للطبقات الخاصة والمختارة . هذا هو التوضيح الكلى لهذا الحكم . أما بالنسبة لملكى فنحن نعلم أنه كان يدرس فى ألمانيا الكيمياء وهى من العلوم الدقيقة. وكان من الممكن أن يصبح كيميائيا كبيرا. إلا أنهم لم يتركوه يتم تعليمه فى ألمانيا [1] وترك علمه وعاد مرة أخرى وقالوا إن هذا العلم الذى لم يتم يستطيع أن يعلم به ويصبح معلما فى المدارس . أولا هل الإجبار على العودة – الذى اعتبره ملكى نوعًا من عدم العدالة ونوعًا من السلوك غير العادل بالنسبة للطلبة الذين يدرسون فى الخارج وعلى الأخص فى ألمانيا ، ألم يكن السبب الأساسى هو التحاق ملكى بمجموعة ال ٥٣ نفرا ؟ وبعد ذلك السجن ثم فى سنوات الاضطرابات بعد شهر يور سنة ١٣٢٠وضياع أى فرصة للتعليم وبعد ذلك حزب تودة والإجبار اليومى على الاجتماعات وتشكيل الجلسات ، وكتابة المقالات ومسائل أخرى . لهذا لم يكن لديه الوقت الكافى لكى يصبح مدققا علميا . ملكى فقط كان يتكلم . ولم يكن لديه الوقت على الأخص فى عالم السياسة والاجتماع . إذا لم يتركوه يكمل تعليمه ، فلماذا لا تطبق هذه المقدمات العلمية على السياسة والاجتماع ؟ والنصوص أمامنا تترجم كما كتبت – إن مشكلة من هم أتراك ويتكلمون الفارسية ويكتبونها مشكلة باقية على الأخص بالنسبة لهذه الأعمال الثقيلة . أيضا فى تلك السنة والنصف فى سجنه الأخير أنجز أربعة أو خمسة أعمال أخرى . دفاعاته التى كتبها فى (مائتى صفحة) وهذا القاموس اللغوى الذى كتبه فى (أربعمائة صفحة) كما قام بترجمة (من الذى يحكم فى واشنطن) التى كتبها فى (أربعمائة صفحة) مذكراته فى (مائتى صفحة

(١) ارجعوا إلى دفاع ملكى فى سجنة الأخير . إطلاعات أو كيهان ١١ – ١٢ حتى آخر اسنفد ١٣٤٤ .

رأيتها أنا) كما قام بالكتابة عن المستنيرين وكيفية إدارتهم لمجتمع مثل إيران وكان وقتها قد خرج من السجن حديثا.(١)

ملكي رجل حساس يتظاهر بأنه منطقي لكنه عاطفي جدا وهو كاتب أكثر منه سياسي ومع وجود مشكلة التركية والفارسية فهو بأي شكل من الأشكال له قدم ثابتة فهو من أعظم الكتاب السياسيين والاجتماعيين المعاصرين . ملكي مثالي جدا يسعى بشدة لأن يكون رجلا عمليا وواقعيًا ويبقى هكذا . وهو بسيط جدا ويتظاهر أنه ذكي ويتنقل ما بين الكتب ويدعي تطبيق الكتب في موقعها ومحلها ويتبع الأصول بشدة ونزاهة ويطالب بالنزاهة .وبهذا الشكل دائما لا توجد فواصل عنده بين الأفكار والآراء والعمل وبهذا الشكل نستطيع أن نقول إنه إنسان مثالي وواقعي ومعاصر . وهذا الأسلوب اللائق به هو الذي أعطاه الفرصة لكي يكون شهيدا في نظر الناس وأن يجعلوا منه وليا من أولياء الله ولم يتلوث بالسلطة الحكومية حتى يجعلوا منه وزيرا . وبهذه الأدلة فشخصيته ليست كلاسيكية مثل تقي زاده أو كسروي حتى إنهم يعرفون كيف يتعاملون معه ولا يزال يقال عنه القصص والحواديت لأنه لم يكمل عمله ولا يزال لديه رصاصات أخرى في جيبه .

إنني أعتقد أن محاكمة ملكي وأعوانه (سنة ٤٤) من وجهات نظر عدة يجب أن تقاس فيما بينها وبين محاكمة آراني وأعوانه سنة ١٣١٧ وهذه المقارنة سوف تظهر أشياء وتوضحها ، إذ إنني أعتقد أنني بهذا الشكل أريد أن أجد سندا لحزب ملكي .

في البداية ملكي كان الوحيد المشترك في المحاكمتين . وفي المرتين اتهم بالثورة والتآمر على أمن الدولة . وفي المرتين حكم عليه أي أنه في الفترة ما بين

(١) من آثاره الأخرى – دون الرجوع إلى أية مراجع وبالاستناد على الخاطر : " نقش شخصيت در تاريخ – ترجمة عن بلخانف " – " برخور وعقايد وآراء " – " سوسياليسم وكاپيتاليسم دولتي " – " جهاني ميان ترس واميد ترجمة عن تيبورمند " – " انقلاب ناتمام – ترجمة عن دويجر " – " حزب توده چه مى كفت وچه مى كرد ؟ " – ما يقرب من عشر سنوات عمل في مجلة " علم وزندكى " – مجموعة مقالاته في " رهبر " – " مردم " – " مهركان " – " فردوس "

١٣٤٤،١٣١٧ رجل غير مرغوب فيه من قبل الحكومة . أى أنه هو رجل التحول المنطقى من الثورة السابقة إلى تلك الثورة أى ما يقرب من ثلاثين سنة والفرق بينهما أنه فى المرة الأولى اتهم بالشيوعية وفى المرة الثانية أتهم بالاشتراكية وبمرور الأيام وصل إلى ذلك . ومن هذه النقطة الأولى سوف نصل إلى نتيجتين فرعيتين هما :

وهى أن ملكى مفكر سياسى ورمز للتحول فى الثلاثين سنة الأخيرة من الشيوعية إلى الاشتراكية الديمقراطية . وهذا التحول حدث فى إيران وفى أنحاء أخرى من الدنيا .يعنى ملكى كشخصية هو شخص سياسى حى وحاضر لزمانه وجميع أعماله وآثاره دائما فى معارضة[1] للحكومات .

إن درجة ذوبان التحمل للحكومة فى إيران الحد الأكبر لها هو الشيوعية الاستالينية فى ثلاثين عاما مضت والحد الأصغر لها هو الاشتراكية الديمقراطية . بمعنى أنه كلما اتجه مستنير الدولة إلى الأمور الداخلية والاجتماعية فى إيران كلما أصبح خارج القرارات والمقررات والدساتير والأشياء التى ترد من الخارج والحكومة الإيرانية لا تلقى بالأمور الداخلية وتهتم أكثر بالنسخ القادمة من الغرب .

ثانيا : محاكمة آرانى و أتباعه الاثنين والخمسين نفراً - بشكل ما كانوا يحاكمون وبالرغم من أن هذا الأمر كان بعد شهر يور سنة ١٣٢٠ و مع تواجد القوى الاستعمارية التى كسبت قدرات معينة وفى مدة قليلة جدا أصبح لها زمام الأمر والنهى . وإن هذه المجموعة لم تكن لديها أسس قوية كريشه لا جذور فى الأرض لها ؛ فجفت وأصبحت مثل حب يتأرجح على حبال المشنقة . وبهذا الشكل كثرت اللطمات على وجه قدرة التنوير فى الدولة . لكن ملكى هو أحد المفكرين الذين لا يحتاجون إلى تعريشة حتى يقفوا على أرجلهم لأن ملكى كان له جذور وهو من هذه الأرض ومن هذا التراب ومن هذا الهواء والماء يعيش فى هذا المكان . لهذا فهو نقطة انعطاف ما بين الشيوعية الستالينية والاشتراكية الديمقراطية . وهذا هو التعديل الأصولى الذى اضطر مفكروا

(١) Opposition

الدولة أن يتقبلوه وإذا تقبـل هـؤلاء المفكرون هـذا التـعديل سـوف فـإن الحكومـات لن تتقبلهم .

ثالثاً : الثلاثة والخمسين شخصاً الذين اتهموا بالشيوعية كانوا يحاكمون فى الزمن الذى كان يتولى الحكم فى روسيا "ستالين" ويحكمون الممالك المجاورة المعروفة بالستار الحديدى بحكومات عسكرية صارمة وشديدة. كانت تخاف حتى من مجرد التفوه بكلمة الحرية . أما ملكى وأعوانه فقد حوكموا فى زمن لم يكن فيه ستالين فى روسيا وعلى الأقل تلاشت فيه القدرات الستالينية ولم يكن الستار الحديدى فى الدول المجاورة قد بقى حديدا - كانت لديها حكومات تدعى الاشتراكية . فى ذلك الزمان كانت الحكومات المجاورة لروسيا وسائل حماية لما يمكن أن تصدره روسيا من أفكار ومعتقدات. إلا أن تلك الحكومات حاليا أصبحت وسائل لطرح الأفكار لأنها أصبحت من ضمن الأساسيات فى اقتصاد روسيا ولتوضيح الأمر بصورة مبسطة فى ذلك الوقت كانت ألمانيا تقوم بتشييد خط حديدى وإقامة نظام للعدل فى إيران. وكان الروس هم الذين يقومون بصناعة الحديد والصلب .

رابعا : الثلاثة والخمسون شخصاً حوكموا فى أوضاع كانت أفكار الشعب فى إيران على النحو الآتى فلم يكن لديهم أى معلومات عن الماركسية والاشتراكية وعلى هذا فلم تكن الأوضاع مناسبة ولا الظروف مواتيه للأنشطة الذهنية لثلاثة وخمسين شخصا وربما لهذا السبب نص المحاكمة لم ينشر حتى وقعت القضايا التى حدثت قبل شهر يور سنة ١٣٢٠ وهى أن تلك الحرب صنعت من هذه المحاكمة أسطورة وحدوتة. لكن هذه المرة فإن ملكى وأعوانه كانوا يحاكمون فى وضع كانت الاشتراكية والماركسية منتشرة فى الكتيبات الصغيرة الجيبية والحكومات نفسها كانت مجبرة لدفع الخطر عنها أو لتغير الأمور كانت مضطرة إلى نشر نص مدافعات ملكى فقط بالجرائد - رغم أنه نشر بصورة غير كاملة وناقصة - إذن لا توجد فرصة لكى نجعل منه قصة وحدوتة وأسطورة ونجعل منه بطولات وهذا الأسلوب كان مخالفا لرأى ملكى نفسه .

النقطة الأخيرة أنه سواء الذى ظهر فى هذه المحاكمة أو غيرها فإن مفكرى المملكة فى مسألة كل أصل وكل اعتقاد لا يزالون يعيشون فى إطار مبدأى القضاء والقدر الذى

تريده الحكومات. أو نسيان الآراء والأصول والانجذاب إلى القدرات والدوران مع تيار الحكومة والموافق لرغبة السياسات الاستعمارية المؤثرة فى المجتمع ، أو يقومون بالانزواء مثل لاجئ فى زاوية مظلمة أو انحسار تأثيرهم وتأثرهم داخل جمع قليل من أصدقائهم أو فى مجتمعات سرية أو دوائر سرية على أسلوب الباطنية . وهذا هو معنى التحجر التاريخى ، الذى كان منذ ألف عام مثل دائرة مغلقة تتحكم فى محيطنا التاريخى والجغرافى . والكلمة الأخيرة لملكى أن هذا المفترق وهذه الدوائر المغلقة يجب أن تزول . فهو يقول إن الواقعيين يرون الطريق الأول فقط والمفكرين يرون الطريق الثانى فقط . ولكن هو نفسه فى هذه الدائرة أيضا اختار طريقا ثالثا وكما هو معروف فى السياسة العالمية . بسبب الانفصال بين القوتين روسيا وأمريكا اختار طريقا ثالثا من قبل أن تدعو مؤتمرات باندونج والقاهرة أعضاء المنظمات غير الحكومية إلى طريق ثالث، ظهرت فى إيران قوة ثالثة ، يعنى قوة الأمم الفقيرة المستعمرة وقد أوضحت أنه يجب على مستنير المملكة أن يختار طريقا ثالثا فى الأمور الداخلية وبغض النظر عن ذلك المفترق القضائى و القدرى ويتجه إلى طريق ثالث وهو ليس طريق جذب إلى قدرة العمل والفعل وعالم الأمر وليس طريق الانزواء والفرار تجاه اللا أثر والانزواء . يقول ملكى إن هذا المصير الثنائى لا يليق بالمستنير . يقول إن المستنير فى حضور كل هذه الوسائل الكبيرة من وسائل كسب الخبر والعلم لا يستطيع أن يفرض نفسه على الحكومات التى تريد أن تكون كل وسائل النشر والاطلاعات والأخبار فى قبضة الرقابة ولا يستطيع أن يترك مستقبله لغد مجهول وانتظاراً لكل وعد طالما يرضى به . يقول تقويم كل ما يصدر من السلطة الحكومية بصورة دائمة، من الظلم وعدم النظام، ورد فعل لكل انتفاضة موجودة ، أو محتمل وجودها فإن عمله تخريب اللانظام ويدعو المستنير الحر أيا كانت عقيدته إما إلى الانزواء أو الجلوس فى البيت و السجن و النفى أو يدعوه إلى الاشتراك فى التصدى . وأنا فى هذا الشأن أقول إن ما لدى وما أقوله كله تعلمته منه .

الفصل الثامن

المستنير والوضع المعاصر

أشرت فى كتاب نزعة التغريب على وجه السرعة إلى أن إعدام الشيخ فضل الله نورى كان علامة على استيلاء الغرب على هذه المملكة و أريد أن أضيف هنا أنه بالرغم من أن إعدام هذا العظيم فى الظاهر يعتبر علامة لانتصار الثورة الدستورية ، ولكن بسبب القضايا التى أتت بعد ذلك وثورة سنة ١٢٩٩ والاتفاقات الأخرى فى ظل الأربعين سنة الأخيرة ، برزت هذه الحادثة كعلامة بارزة على سقوط الثورة الدستورية وفى نفس الوقت إذا افترضنا أن الفكر والتفكير أيام الثورة الدستورية كانا مستمدين من المستنير المتأورب وإن التغييرات الاجتماعية كانت نتيجة إثارة رجال الدين إلا أن تلك الحركة العظيمة والوضع الاجتماعى المفترض حدوثه نتيجة الثورة الدستورية لم يثمرا شيئا - أى لم تحل طبقة جديدة مكان الطبقة الحاكمة - أى أن البرجوازية القومية الحديثة - ظلت منفذة لأوامر الأشراف الذين كانوا أنفسهم هم المحركين للثورة، وعلى الأخص إن الثورة الدستورية لم تثمر شيئا، ومن هنا منيت الثورة الدستورية بالهزيمة نتيجة المؤثرات الذهنية والاجتماعية آنذاك . وحقيقة أنه فى أثناء الثورة وما بعدها خرج المستنير من المعركة ، وكذلك رجال الدين ، والألعاب التى ذكرتها من قبل هدأت وحل (التغريب) محل الدين وحل الجيش محل هاتين الفرقتين الاجتماعيتين ومازال على ما هو عليه حتى الآن . والسبب فى هذا أن معظم أفراد المملكة كانوا أميين وبالطبع كانوا مذهبيين وكانت عقائدهم فى يد المنبر والمحراب وكان تأثير رجال الدين يملأ وجدانهم و يشكله ، وكانوا منفصلين عن المستنيرين وعن رجال الدين بنفس النمط ، لأنهم لا يملكون وسيلة للوصول لآراء المستنيرين كما أن تشدد الحكومة تجاه رجال الدين أضعف أثر هذه المجموعة فى أذهان الناس وفى هذا الفضاء الذهنى تصدر الراديو الميدان بمساعدة الحكومة المتكبرة والمغرورة والعسكرية ولو أن فترة عشر أو اثنى عشر عاما (من ١٣٢٠ :١٣٣٢) كانت مجالا متجددا للمستنيرين وأيضا لرجال الدين ليتركوا أثرا فى المجتمع أن ذلك لم يحدث

بسبب الاختلافات الداخلية والمعارضات الخاصة التى كانت تحكم صفوفهم حتى يصل الأمر في النهاية الى نوع من الهرج و المرج ، ونتيجة كل هذه المؤثرات أن حكوماتنا الآن مع الآراء التنويرية فى ناحية أخرى مع الآراء الدينية. والثروة النفطية من وراء ذلك ، دخلت ميدان الزعامة بمفردها . ومن ناحية أخرى ليست فى حاجة إلى الدين أو التنوير وفى كل مقام و كل منصب لكل واحد من هؤلاء الذين يريدون العون فمنهم أيضا صف طويل من منتظرى الأعمال التنويرية أو الدينية الذين يحضرون أعمالهم للحكومة لتبا ع عن طريقها . والمجموعة التى لا تقبل عمولة الحكومة سواء كانت فى شكل المستنير أو فى شكل رجل الدين ، فإن أعمالهم تقع تحت رقابة الحكومة أو يواجهون بالحبس أو الترحيل أو بالصمت الإجبارى علاوة على ذلك فان حكومتنا تقوم بدور المخرب بين المستنير ورجل الدين ومن حيث وقوع المستنير تحت رقابة الحكومة فإنهم يدفعونه إلى الانزواء أو الذبول حتى يرضى فى النهاية بالعمولة . وكما أنهم من ناحية أخرى يشجعون على الاستغراب وأخذ المواقف مقابل الدين ، ويعملون على تزايد كراهية رجال الدين تجاه المستنيرين ومن ناحية أخرى فإن تشدد رجال الدين تجاه المستنيرين يوما بعد يوم يبعدهم عن الساحة. ويدخلهم أكثر من ذى قبل فى دنيا من الحقد والضغينة ومعتقدات القرون الوسطى ولأن أمور أجهزة الثقافة والإعلام لحكوماتنا فى يد المستنيرين العملاء ، حتى وصل الأمر الى أن رجل الدين اعتقد أن المستنير هو عدوه الوحيد لا الحكومة .

واسمحوا لى أن أقدم مثالين للبرهنة على مثل هذه الأوضا ع . المثال الأول أورده من ادعاء النائب العام (سرهنك فخر مدرس) ضد ثورة الحرية فى إيران إذ وقعت محاكمة قادتهم فى أواخر سنة ١٣٤٢ فى حامية عشرت آباد. ففى مقدمة هذا الادعاء أن جماعة من أحد عشر نفرا[١] من المستنيرين و رجال الدين حكم عليهم بالسجن لمدة تتراوح من سنتين إلى عشر سنوات جاء بهذا الشكل :

(١) أسماؤهم تبعا لترتيب أحامهم : مهندس بازر جان : أستاذ الجامعة عشر سنوات – سيد محمود طالقانى إمام مسجد إسلامبول: عشر سنوات – دكتور يد الله سحابى والأستاذ الجامعى : أربع سنوات – مهندس عزت الله سحابى : أربع سنوات – دكتور عباس شيبانى : ستة سنوات – عباس رادنيا : سنتان – أحمد على بابائى : ست سنوات – أبو الفضل حكيم : أربع سنوات .

السيد مهندس بازرجانى وأتباعه وقرناؤه فى الفكر كانت لهم أنشطة فى أثناء الثورة الشعبية ، كانت لهم نشاطاتهم أيضا خارج الثورة ، إلا أنشطتهم فى أثناء المؤتمرات الإسلامية المختلفة انطوت تحت لواء الجمعيات الإسلامية المختلفة مثل الجمعية الإسلامية للطلاب والمعلمين، وسعوا تحت ستار تشكيل الجلسات المذهبية لتفريق مؤيديهم، وشكل السيد مهندس بازرجانى جناحًا خاصا فى أنشطة الجبهة الوطنية ، داخل الجبهة الوطنية وفعالياتها . و كان لبعضهم مع سائر زعماء هذه الجبهة اختلافات فى وجهات النظر وبشكل عام كانوا يعتقدون بوجوب إحداث فعاليات أكثر حدة وكذلك القيام بعمليات شديدة الرهبة ونتيجة لاختلاف الأذواق وأشياء أخرى من الاختلافات فإن السيد مهندس بازرجانى وعددا من قرنائه فى الفكر صمموا على تشكيل حزب مستقل فى النصف الأخير من اردبيهشت سنة ١٣٤٠ – تشكيل جمعية نهضة حرية إيران (جبهة تحرير إيران) بمساعدة سبعة أفراد على اعتبار أنهم الهيئة المؤسسة: آقاى مهندس بازرجانى – السيد محمود طالقانى – دكتور يد اللة سحابى – مهندس منصور عطائى – حسن نزيه –عباس سميعى – رحيم عطائى و أعلن ذلك رسميا(١)

ما الدور المخرب الثنائى غير ذلك ؟ أخذوا الزعماء من أحد الأحزاب الموالية للجبهة الوطنية وحاكموهم وادعوا أنهم متهمون بإحداث انقلابات داخل الجبهة الوطنية ! والآن المثال الثانى :

نحن نعلم أن المطبوعات تنشر تحت إشراف الرقابة . لكن على أية حال فهذه المطبوعات المراقبة أيضا هى نتاج فكر وعمل وشعور تلك المجموعة من المستنيرين الذين رضوا بأن يكونوا عملاء للحكومة . ونشر نفس هذه المطبوعات فى سنة ١٣٤٢ بمناسبة تنصيب بابا الروم كما كتبت مقالات وأخبار وتفسيرات فيما لا يقل عن عددين واحتوى كل عدد على ما لا يقل عن ٥٠٠ الى ١٥٠٠ كلمة (حسبتها بدقة) هذا أيضا مع التفصيلات العكسية وكلها ترجمات من منشورات غربية وأمريكية وتزامن حدوث

(١) نقل عن الصفحة الأولى " لنص دفاع المهندس مهدى بازرجان الأستاذ الجامعى " خرداد ماه ١٣٤٣ – فى ٧٧ صفحة .

هذه الواقعة فى الحقيقة مع ترحيل السيد الخمينى مرجع عالم التشيع ولم نجد أيا من المطبوعات يذكر ولو حتى كلمتين بخصوص هذا الموضوع ، بل إنه فى الأيام القليلة الماضية قبل ذلك الأمر وبمناسبة موت السيد بروجردى وتنصيب حضرت الخمينى إلى هذا المقام لم يتذكر خبرا ولو بسيطا عن ذلك الأمر .

هذا الدور المخرب الثنائى الذى تقوم به الحكومة يشبه كثيرا للتخريب الثنائى الذى كان يقوم به حزب توده . فهو من ناحية يتهم الحكومة على اعتبار أنها تمثل الطبقة الحاكمة (وهذا كان الدليل الوحيد وهذه كانت طريقة توسعه) ومن ناحية أخرى يضرب أى نهضة فكرية أو إيمانية أخرى (وكان هذا مصدر ضعفه و علة سقوطه) بمعنى أنه كان معارضا لأى نوع من النظم الحكومية وأيضا مع أى نوع من المبادئ الفكرية غير التى كانوا يبلغون به فقط . وبدلا من كليهما كانوا يبلغون بنظام فكرى واحد والمعروف بنظام ستالينى . وحتى إنه لم يكن له علاقة بالحزب الشيوعى والاشتراكى وحزب توده كان يناضل مع السيد ضياء وحزب الإرادة الوطنية – والنتيجة أن حزب إيران أيضا أجبر على الاشتراك مع الحكومة الائتلافية لقوام – وأيضا كان كما ناضل ضد الانفعالات والقوى الثالثة بحيث إنهم كانوا يبلغون عن اشتراكية منافية لاشتراكية موسكو – بطريقة غير لائقة ومع إن حزب توده غير اللائق دخل معه من باب المخالفة، ومجموعة الجبهة الوطنية هى التى كانت تقود حركة عظيمة ضد الاستعمار مما دفع حزب تودة إلى الانزواء جانبا وعزله عن المجتمع . النظام الفكرى الآخر الذى رفضه الحزب هو رجال الدين ، وكان على هذا النمط بحيث إنه ما استطاع أى حزب آخر أن يستمر أمام حزب تودة ويقاومه، وبحيث أنه فى الوقت الذى يخرج فيه هذا الحزب من المعركة يستطيع رجال الدين أن يكونوا بمثابة بديل له وهذا ما حدث بحيث إن المستنيرين بأنفسهم علقوا بحبالهم وفاز بدلا منهم العسكريون . وللآن منذ سبع عشرة سنة هم أساس كل الأمور وحتى إنهم أيضا المشرفون بجانب الرقابة على أعمال هذه المجموعة من المستنيرين ومن هنا سقطوا فى القاع . ولكن أيا من هؤلاء الذين وقعوا فى البئر أو سقطوا فى القاع أو من المعروفين بالحد الأقل للتنوير أو الذين لهم الدور الأكبر من التنوير ، لهم سمات واحدة ويعيشون فى الوضع الذى سوف أقوم بذكره الآن :

١) المستنير الإيرانى الوارث للتعليمات غير المنظمة لصدر الثورة الدستورية أى الوارث لتعاليم القرن الثامن عشر والتاسع عشر أى فترة التبعية السياسية بمعنى أن الشىء الذى كان مقبولا فى حوزة الدول المستعمرة ، فى حوزة الدول المستعمرة لا يمكن أن يكون مقبولا . لدرجة أن المستنير الإيرانى لم ينتبه إلى أنه يعيش فى جو استعمارى وعلى هذا فلابد أن يكون أول رد فعل له هو أن يكون له موقف تجاه الاستعمار ، ولا يترتيب أى أثر لوجوده .

٢) وحقيقة أن المستنير الإيرانى حتى الآن بعيد عن المجتمع العام . وليس له أية علاقة بالناس . والنتيجة أنه لا تأثير له . فهو يفكر فى أمور بعيدة عن بيئته ، أى أمور مستوردة لدرجة أن المستنير الإيرانى لا ينشغل بأمور البيئة المحيطة ولا يكون مفتاحاً لحل المشاكل القومية ويبقى الوضع كما هو.

٣) المستنير الإيرانى يريد أن يكون قدوة أصلية للتنوير يكون وسيلة للديمقراطية ، ولكنه للأسباب الآنفة يعيش فى بيئة ليس لديها أى علم بالديمقراطية ، أى البيئة التى غاب عنها جمع كبير من القراء والمتقبلين لأى شىء عن التنوير ويحل محلهم من يعملون فى جهاز المراقبة الحكومية . وسيظل هذا الوضع باقياً حتى يعرف المستنير أين مكانته فى العلاقة بين الشعب والحكومة فى بيئة استعمارية .

٤) بهذا الترتيب فإن المستنير الإيرانى سيظل شخصاً لا جذور له وبالطبع يبقى طفيليا . وكذلك الحكومات التى سلبته حقه قد وضعته فى أجواء سامية كاذبة قائمة على أساس التمدن والرفاهية والاستهلاك ، وحصروه حتى يكره السياسة ويمل من الناس ، مثل دودة القز التى تنسج حول نفسها خيوطا حتى تنتهى عصارة روحها. إن الرفاهية النسبية للمستنير نوع بديل للرفاهية التى يوفرها مأمور شركة فى بيئة استعمارية لنفسه .

٥) وبهذا الشكل يصبح المستنير الإيرانى ، فى حالة هلوسة أو إدمان أو مستهترا أو متحضرا أو مجنونا أو متفرنجا وعلى أية حال فإنه لا تأثير له وهو فقط مجرد مستهلك للصناعات المعنوية والمادية الغربية وغير منتج لأى شىء ممكن أن يحتاجه

مجتمعه . وبهذا الدليل فهو حينا بعد حين ينسى كل أفكاره ومثله التنويرية. ولا يكون له أى وضع أو تأثير فى المجتمع ويصير عقيماً.

٦) بكل هذه الدلائل المذكورة يكون المستنير الإيرانى مهملاً فى مجتمعه القومى. وبالطبع يكون غير راض ، وفى حالة بحث عن معيشة أفضل . صحيح أنه ليس لديه الجرأة على العمل و يشعر بالخوف ، ولكن عندما تصل القطة إلى درجة كبيرة من الخوف، فإنها تهبش وجه النمر بأظافرها. وهذا المستنير الذى هو نفسه الخادم يصبح كنمر مفترس وبالطبع يجب على الحكومة أن تفهم كيف تجعله مستأنسا ولا تأثير له أو خوف منه.

٧) وخاصة فإن المستنيرين مسلوبى الحيثية الذين يعيشون فى جوار الحوزة الأصلية للحكومة بقاعدة بدائية يحققون سماتهم المعنوية بالحكومة أى بالخوف وعدم الجرأة والتنبلة وحب الرفاهية وهذا التبدل الروحى أو المعنوى يتجه ويعمل فى الطريق الذى يريده مستنير الحد الأكثر ولننتبه إلى النقطة التالية :

٨) وهى أن أكثر المستنيرين مسلوبى الحيثية والمشتركين فى الحكومة أو الذين يعيشون فى جوار المجال المغناطيسى معظمهم غير فنيين أى أن معظمهم درس العلوم الإنسانية : الحقوق و علم الاجتماع و التربية و التعليم . وبهذا الشكل فهم بعيدون جدا بحيث إنهم يستطيعون أن يصنعوا من الحكومة، أجهزة منظمة من أجل الإشراف على الآراء و العقول . ولأن معظمهم يعرف العلوم الإنسانية فإن معظمهم ينفر من الديكتاتورية . وبهذا الشكل ، فإننا سريعاً لن نكون مضطرين أن تكون طبقة واحدة مع التكنوقراط الذين عدة عملهم هى **I.B.M**

٩) وخاصة إذا انتبهنا إلى أن المستنيرين الإيرانيين كما أشرت إليهم من قبل ، ليسوا من إنتاج مصنع واحد كنظيره مثلا فى الهند أو فى روسيا أو فى الصين فالمستنيرون الإيرانيون كل مجموعة منهم تتجه نحو نمط فكرى وثقافى خاص. فمجموعة منهم تسير على نهج فرنسى ، وأخرى على نهج إنجليزى وثالثة على نهج أمريكى و هكذا . وهذا هو نفسه أكبر مانع لتكوين نسيج واحد فى آرائهم وعقولهم.

فالهند بتعدادها ال ٤٠٠ مليون تدار على يد ٧ أو ٨ آلاف مستنير ، بدليل أنهم تخرجوا من جامعة أكسفورد و كمبردج .

١٠) وبهذه الأدلة والقرائن فأنا متفائل لمستقبل التنوير فى إيران وربما يقظة المستنيرين واتخاذهم موقفا متشدداً ضد الاستعمار وجميع مظاهره .

١- المجتمعات الخاصة بالمستنيرين

على مدى الخمسين أو الستين عاما الأخيرة و المستنيرون وجدوا لهم أماكن ومصانع لصناعة التنوير مثل (الغرب - أمريكا - الجامعات - المدارس - إلخ) وقد أحرزت لها تألقا ورونقا ، والمستنيرون بسبب هذا الانفصال عن معظم المجتمع ، كانت لهم دائمًا أماكنهم الخاصة ومقابلاتهم المعينة، ربما نستطيع أن نسمع خبرا عن المستنيرين و تواجدهم داخل الجبهة الشعبية الكبيرة لعدة سنوات بعد الثورة الدستورية ثم بعد ذلك فى تغيرات الحرب العالمية الثانية و ظهور الأحزاب على الساحة و ربما بعد سنتين أو ثلاثة فى تأميم النفط، و لكن الأمر الذى يثير انتباهنا أنه خلال المراحل الثلاث هذه القصيرة أيضا و الفضاء السياسى لإيران مرتبط بثقل المغناطيس للسياسات الخارجية . فأثناء الثورة الدستورية كان ثقل المغناطيس منجذبًا تجاه السياسة الإنجليزية . وفى أثناء الحرب كان الثقل الأصلى للسياسة الحاكمة متجهًا كلية لروسيا السوفيتية وفى أثناء تأميم النفط كانت هناك أقوال عن الانجذاب نحو الدولار الذى كان يريد أن يحتل مكان الجنيه الإسترلينى.

وبهذه الطريقة نستطيع أن نرى أن المستنير الإيرانى بالأدلة التى مضت يكون مساويًا للفضاء الحياتى لمحيطه القومى أى إيران فى الستين سنة الأخيرة وهكذا كان لهم ثلاث فرص متكررة لتواجدهم بقوة ومتصلة بالجماهير . هذه المراحل الثلاثة فقط هى التى خرج فيها المستنير من عزلته وأصبح له ارتباط مستمر مع الشعب استرد فيها ثقته بنفسه وأيضا فى كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث القصيرة ففى تاريخ

الثورة الدستورية يمكن أن نحصل على أخبار مستنيرى العصر وهم إما فى مجتمعات مغلقة أو فى دوائر خاصة محددة. ربما يمكن أن يكون هناك تشابه من هذا الواقع بين المستنير الإيرانى و المستنير الإنجليزى الذى ذكرته فى بداية هذا الكتاب ، فقد كتبت صفحة فى شأنهم نقلا عن سارتر .

لكن علينا ألا ننسى أن المستنير الإنجليزى فى هذه المجتمعات المغلقة وفى الأشراف كان صاحب أسلوب خاص فى النوادى الخاصة التى كان محبوسا فيها . ولهذا السبب فإن حركة المجتمع دائما فى يده وهو من أجل التفنن وتجديد النشاط كان يبعد لساعات قلائل يوميا عن زحام العامة فى هذه النوادى المغلقة. والمستنير الإيرانى على خلافه لا يتدخل فى أى من شئون المجتمع ومفتاح الحركة فى مكان آخر وبيد أخرى . هو فقط يساعد على الحركة وإذا كان يتجه إلى هذه النوادى بسبب انقطاعه عن عامة الناس فذلك من أجل إيجاد محيط آمن لنفسه ومن أجل إيجاد نوع من فضاء ومحيط مصنوع يستطيع أن يتنفس فيه . لأنه لا يستطيع أن يتنفس فى فضاء محيطه القومى .

أذكر هذه النوادى

(١) وللحديث عن أول نادى للمستنيرين يلزم أن أتحدث عن البهائية ونهتم بشىء ولو عن طريقة سلوك وتفكير البابيين والأزليين الذين قادوها ووضعوها أساس هذه الطريقة . ونهتم خاصة بأنواع الثورات المسلحة[١] التى قاموا بها . إذ إن هؤلاء السادة كانوا من أوائل مستنيرى العصر بلا جدال قبل الثورة الدستورية إذ إنهم دققوا فى أداء الثورة الفرنسية الكبرى وعادوا للحكومة وبدءوا الهجوم عليها . لكن البهائيين الذين أخرجوا هاتين الفرقتين من العمق نسوا الوقوف أمام الحكومة واقتنعوا فقط

(١) ارجعوا إلى " بهاى كرى " لكسروى وبعد ذلك إلى " قيام حرب "

بموقفهم مقابل رجال الدين اعتقادا منهم أن رجال الدين فقط هم العقبة فى طريق تقدم الدولة و غافلون عن أن هناك استعمارا وحكومات عميلة، يسببان خللا فى النظام الاقتصادى وعدم التقدم. والآن هم بعيدون عن الناس وتحولوا إلى فرقة مغلقة ومحظوره مقيدة إذ إنها يجب أن تحصل على تصريح لجمع أعداد من الناس من أجل إحياء ذكرى شهداء البابية والأزلية . والجمود الفكرى لهؤلاء السادة والهزليات التى يتحدثون بها فى الغربة (أن مثلا جميع الأمريكين بهائيون .... إلخ) وكذلك يحكى عن مرض روحى وعن التقليد الذى أخذوه من أصول وفروع المذاهب كما هو هكذا واضح وظاهرة الاستغراب الموجودة فى أسلوبهم ايضًا واضحة ومساندتهم لظلم الحكومة الموجودة كل هذا واضح ولا يحتاج لشرح وتفصيل . بعد سنوات الاختناق وتخريب المعبد وقضايا أخرى ... وبعد هذه السنوات وبعد قضية تأميم النفط العالمية ولان حكوماتنا تضيق الخناق على المذاهب ونظر اللحاجة الكبيرة إلى التغريب ، فقد وجدوا الفرصة سانحة للضغط ومثل أى أقلية حديثة أخرى لأن يصولوا ويحولوا اتجاهاتهم وأنا أخشى على مستقبلهم . فأنتم بالطبع تعرفون قضية تحريم البيبسى كولا والتليفزيون . ولكن ما لا تعرفونه هو :

فى ليلة الخامس عشر من شعبان بسبب حدوث أعطال فى حركة جهاز فتح وإغلاق أبواب سد (دز) أو بسبب آخر قطع التيار فى آن واحد عن خمس مدن كبيرة لخوزستان (اهواز – آبادان – انديمشك – دزفول – خرمشهر) ، المدن التى يعيش بها الشيعة و السنة و بالطبع الشيعة لها أغلبية فى هذه المدن وتظاهروا ، لذا شاع أن مديرى هذا السد بهائيون [١]

ألا تظنون أنه بهذا الشكل أضيف وضع آخر وأرضية أخرى لهذه العدوات؟

٢) الألعاب الكسروية كانت هى نفسها أحد هذه النوادى . هذا إلى جانب ورجاوندينيا مقرهم ونادى المستقلين وأسماء أخرى . ولأننى أشرت من قبل إلى هذه القضية فسوف أعود بكم مرة أخرى إلى نفس المكان .

(١) ارجعوا إلى كار نامه سه ساله – صفحة ٨٣ لنفس القلم طبعة ٣٤٧ – الناشر " زمان "

٣) النادى الكبير الآخر للمستنيرين خاصة فى صدر الثورة الدستورية هو الماسونية إذ إنه أضم بعد ذلك تفوهوا كثيرا بشأنه وصنعوا من التبن جبلا ، وأنا شديد الأسف حتى أنى هنا أحرّم كل شىء حتى الورق.(١)

ولكن بدليل أننى مضطر إلى أن أتحدث عن اسم من أسمائهم وذكر أقوالهم (أو أى شخص له مطلب آخر) وهذا فى حد ذاته نوع من المساعدة والترويج لهذه الأقاويل المليئة بالأسرار ويلزمنى أن أشير إلى أن هذه الفرقة المبهمة بأفكارها الخفية فى أهدافها ومقاصدها هى رغم ذلك أحسن نموذج لأحد النوادى التنويرية الذى هو نوع من المجالس للأشخاص الذين يعتبرون أنفسهم صفوة المجتمع ويصنعون لأنفسهم مجلس أنس تقليدا للقرامطة أو الإسماعيليين أو المانويين . ولو أن هذه الفرق القديمة التى ذكرتها كل واحدة منهم كانت فى عصرها سببا فى إيجاداو التخريب الإيمانى ومن هنا كانت هذه الفرق تساعد على وضع نظام فكرى أو عملى جديد، السادة الماسونيون ومع وجودهم الخفى فى كل عصر لم يقوموا بأى عمل سوى حماية من الوضع الاجتماعى الفاسد المهترى الذى كان يجب أن يزال قبل ذلك بكثير والأثر الوحيد الذى ترتب على أعمالهم هو أنهم رتبوا للثورة الدستورية وبعد ذلك رتبوا لتغيير النظام بحيث لا يمسهم ولا يمس ألقابهم . والرجال الذين كانوا فى مرحلة العشرين من عمرهم والذين كانوا أثناء الثورة الدستورية قبل ذلك كانوا على رأس الأحداث . كانت هذه المجموعة من المستنيرين أكثر غربتة بالنسبة لمحيطهم القومى . وكانوا العملاء الأوائل للسياسات الأجنبية ، وكانوا الطريق غير المباشر للاستعمار الذى رأيناه ، فقد كانوا العملاء الأوائل للسياسات الأجنبية وكانوا بمثابة عمدة القرية الذى كان دائما طرفا للتدخل الاستعدارى ، أصبح لهم نوع من الاعتبار الخفى والشىء الذى لا أعرفه أنه فى عصر سلطة المضبوعات والراديو ماذا يبقى بعد ذلك منهم .

(١) آخر كتبها فى هذا الشأن أحدهما " محمود كثيرايى " والآخر لفريدون آدميت بعنوان " فكر أزادى " ومقالاته فى شأن " جامعة إنسانيت " أو نشر مذكرات ملكم خان فى مجلة سخن .

٤) النادى الكبير الآخر من نوادى المستنيرين فى فترة الخمسينيات والستينيات الأخيرة لسنوات الثورة الدستورية هو الأحزاب . وفيما يتعلق بجيل أو جيلين ماضيين، ارجعوا إلى " تاريخ الأحزاب السياسى " لملك الشعراء بهار ترون أن كل واحد من هذه الأحزاب الأولى به مكان محدود لأربعة أشخاص .

أما فيما يخص عصرنا نحن فيجب أن نتحدث عن حزب إيران وعن حزب توده وبعد ذلك نشير إلى الحزب الاشتراكى للقوة الثالثة ثم إلى الجبهة الوطنية التى كانت تجمع كل الأحزاب والتى كان لهم موقف مقابل الاستعمار ومن الأفضل أن ننسى بقية الأحزاب الدستورية فى هذه الآونة الأخيرة التى لا يمكن اعتبارها سوى مجرد تجمعات صغيرة .

كان حزب إيران نموذجا كاملا لجمع الأشخاص الشرفاء وغير المستقلين. فالمستنيرون الذين ليس لديهم علم بالتضحية بعيدون عن الثورة والشوق ، المتألمون من المتاعب . كل تفكيرهم فى أمور معيشتهم الشخصية ، وهم النماذج الكاملة للحد الأقل للتنوير . فهو حزب ليس لديه هدف لا يعرف الطبقات و المنافع المضادة لها، أهداف غير واضحة ، لا يعرف التنظيم و ليس لديه دراية عن الأصول والتشكيلات ولهذا كان دائما تابعا للأحداث و كان يعرف نفسه بكل الألوان والصور على أنه ثانى حزب سياسى كبير فى السنوات من ٢١ حتى ٢٧ ، بسبب اتباعه لحزب توده ، بعد انتهاء أثر التدخل الاستعمارى الشمالى ، وأصبح من الصعب أيضا استمرار هذا الحزب .

ولكن حزب تودة الذى كان يجلب وراءه مثل هذه الأحزاب كما أنه كان هو نفسه يميل لتلك الجاذبية المغناطيسية أى الاستعمار ، وبالرغم من أنه ظهر فى فترة قصيرة فى شكل نادى تنويرى ، وبالرغم من أنه تداخل مع الناس ، فإنه لم يستطع أن يعطى لنفسه صورة قومية ومحلية ، ويحل مشكلات الناس ، فبدت بالطبع صورته الشعبية بشكل ظاهرى فقط ولا أثر له فى داخل المجتمع . وكان يشيع وحدة العمل والنظر بكل هذه الأصول التى لديه وكان يعرف الطبقات ويظهر بشكل عام وينشر مطبوعاته وتنظيماته والأثر الوحيد الذى تركة ذلك الحزب فقط فى الفكر السياسى لأفراد المملكة ،

لم يكن لهذا نظير على مدى العصر الدستورى . ولأنه بسبب انجذابه تجاه الجاذبية المغناطيسية للسياسات المسلطة على العصر ، لم يكن قادرا على حل أى مشكلة من مشكلات الدولة . ولكنه نفسه كان يقوم بطرح كثير من مشاكل الدولة .

إلا أن الجهة الوطنية كانت محل تجمع الأحزاب المعارضة للاستعمار وكان أول تنظيم سياسى بعد الثورة الدستورية التى ردت لرجال الدين اعتبارهم ولهذا السبب كان له مكانة ونفوذ أكبر داخل المجتمع وللأسف كانت أهدافه غير واضحة، ليس له تنظيمات أو تشكيلات ولا علم له بالمبادئ الأساسية، لهذا كان موقفه دائمًا اكتفى قادته بمالهم من نفوذ عند الناس حفظ هذا النفوذ الأخلاقى كان تدخله فى الساحات العملية قليلا وتدريجيا بدا كالشعلة التى ترى من بعيد وكلما اقتربت منها ترى وجودها قليلا .

والقوى الثالثة التى كانت قبلهم جميعا أكثر قربا للجبهة الوطنية وأيضا كانت أكثر معرفة بالوضع الذى كانت عليه الجبهة الوطنية وبالرغم من أنها كانت تجتهد من أجل وضع تنظيمات ووضع أصول للأقوال فإنها بسبب الخلافات التى كانت فى الداخل والمخالفات التى كان يقوم بها حزب تودة مع الآخرين والصراعات التى كانت تجرى داخليا بين هذين الفريقين أو الثلاثة والتى كنت قد تحدثت عنها قليلا فى الفصل السابق ، فلم تكن نتيجة عمل هذه الأحزاب حتى اليوم سوى الصفر . وعلى الأخص إذا أخذنا فى اعتبارنا أن هذا كان بسبب ذلك الإحساس الانزوائى .

ففى الممالك الصغيرة كان للأحزاب الجماهيرية شكل خاص . فزعماء هذه الأحزاب مجموعة منتقاة مفصولة عن الحزب يعيشون فيما بينهم فى مجتمعات محدودة جدا . خلافا لما نعرفه عن أحزاب الدول المتقدمة التى يكون من الصعب فيها الدخول فى هذه الزعامة المغلقة. لأن المسافة بعيدة جدا بين القائد والعضو العادى . فالعضو العادى من نظر التنوير ومن نظر التخصص فى حدود قابلة للمقارنة مع عضو عادى فى حزب ما لدولة متقدمة. لكن عضوها البسيط أيضا يعيش فى مجتمعه المحلى والعتيق بثروته العتيقة وسلطة الترابط الأسرى والقبلى والدينى والرأسمالى .(١)

(١) نقل عن صفحة ١٨٩ من كتاب " در آمد به سياست " بقلم " موريس دو ورزه " طبعة باريس ، ١٩٤٦ . وهذا هو اسم الكتاب الأصلى : Introducation a la politigq par. M. Duverger Ed. Idea Gallimond

٥) النادى الآخر للمستنيرين ، المجامع الأدبية و الفنية . المجالس الأدبية القديمة والحديثة – معارض الفن التشكيلى – الحفلات – نوادى الأفلام – المراكز التجارية – النوادى الخاصة . ففى مثل هذه الأنواع من المجامع التى تعتبر بشكل أو بآخر أماكن للتنفس بحرية ، أماكن للمستنيرين يريدون أن يبعدوا لحظة عن زحام العامة وينسون أنفسهم و همومهم أو يعيشون بصور الحياة القديمة مع عدد من الشعراء والكتاب إذ إن جميعهم هم القراء و هم المستمعون فى نفس الوقت . أو بصورتها الحديثة فهم جميعا العازفون أو هم الممثلون والمشاهدون فى نفس الوقت . أو إما هم مجلس الآباء من فحول قدماء الشعراء الذين يقرءون ويسمعون أشعار بعضهم بعضا أو يكونون كأحد معارضى الفن التشكيلى الذين يرون أعمال بعضهم أو يكونون كناد للأفلام يشاهدون آثار و أعمال بعضهم وأمثالهم من الأوروبيين والأمريكيين وهؤلاء جميعهم يستطيعون أن يكونوا فى النهاية فقط على حد قول يونجر فى " العبور عن الخط " مثل الواحة أو الوادى الأخضر الذى يجلب معه لحظة من السرور أو الانتعاش إلى حد ما لهذه الفئة الاجتماعية . ومما لا شك فيه أننا لا نستطيع مع وجود مثل هذه النقطة الوحيدة العامرة أن نحكم بعمار الدولة ، الدولة المنفصلة عنهم وعن كلماتهم الخاصة المقيدة وهذا الأمر إما فى يد وسائل الإعلام أو فى يد منبر ومحراب رجال الدين ؟ وفى كلا الحالتين فى يد الرقابة الحكومية .

٦) ناد آخر تنويرى ، والذى لا يخلو أيضا من السخرية ، فهذه نوادى أو مجتمعات القمار والتى لا يمكن أن نسميها باسم آخر سوى محافل الأنس للمستغربين والتى لا تليق بهم وأقصد بها (نوادى الرقص) والمحلات المجاورة لها . والأسماء فقط فى هذا المجال أفضل مفسر للأمور . ولاينز كلاب (والذى يضعون علامته على صدورهم مثل (لزيون دونور!) (كى كلاب = نادى الكروكيه) (– بولينك كلاب = نادى البولينج) ومما يثير الانتباه أن المستنير المتأورب يمارس الرياضة أيضا فى هذه النوادى ، يمارسها فى شكل الرقص البندرى وكذا ريس كلاب ...... إلخ . ومن المعلوم أن هذه الأسماء هبطت علينا من أى سماء . إذا كان أيام الماسونيين الذين كانوا ينسبون أنفسهم إلى السياسة الإنجليزية ، فاليوم هو عصر سيطرة السياسة الأمريكية

وها هى أيضا صور مجتمعاتها ! على كل فليس لدى وصف آخر لهذا النوع من التجمعات سوى مراكز الإسراف والفسق والفجور المتدمدين ! حيث إن ما يحدث بها حقيقة مثل أى محفل آخر يمارسون فيها معاملاتهم وتفنناتهم وألعابهم السياسية وأكثر هذه الأنواع من امتاعا تلك النوادى التى بها حمام البخار وتدليك من أجل إصلاح النظام الغذائى للسادة المستنيرين الذين فاقوا الحد المعقول من ثقل الوزن ويكون بواساتهم للطاقة مجلبة للأمراض وهذا الهم هو الهم الوحيد الذى يشارك به هموم الناس العاديين .

٧) آخر نادٍ للمستنيرين الإيرانيين هو المطبوعات . وكنت قد أشرت عن إفلاس المطبوعات وإفلاس هذا النادى الأخير . ولو صرفنا النظر عن الجرائد اليومية أو المجلات الأسبوعية التى تعمل فى إطار من الرقابة فإن المستنير هو الذى جمعها ، إلا أنه هو نفسه لم يقرأها - وجاءت أعمالهم أيضا فى هذه المقالة - ولو قطفنا زهرة من سلة مطبوعات مستنيرى الأربعين والسنوات الأخيرة الماضية فلنأخذ مجلتين مهمتين إلى حد ما - وأيضا لو نأخذ واحدة من هاتين المجلتين وهى مجلة مهر فى السنوات ما قبل شهر يور سنة ١٣٢٠ والثانية مجلة سخن فى سنوات بعد ذلك التاريخ - فإننى اعتقد أننا سوف نرى فى المستقبل القريب حمل بصير من الأمثلة . ومجلة مهر التى كانت تصدر قبل شهر يور فى العشرين فى فترة تلك الألعاب التى ذكرتها من قبل ، فى الواقع كانت ملجأ للمستنيرين الذين يقومون بنبش القبور والذين لا يرون أية علاقة بين نسل الشباب ومستنير عصره مع العصور القريبة المعاصرة ، أى لا يرتبطون بأية إشارة بسيطة أو حتى كناية بالعصور القاجارية . وجميعهم فى بحث عن نبش القبور القديمة جدا لأن هناك احتياجًا لوجودهم فى هذه الألعاب . وأما مجلة سخن التى كانت ملجأ لمستنيرى الفترة التالية لذلك ، وكانت مشبعة بالتغريب لأن العصر كان عصر التغريب إلا أن المجلة كانت مكتظة بالترجمات ولا يوجد بها سوى موارد نادرة جدا مليئة بالخدع الغربية وغالبا بعيدة عن المسائل الحيوية لأدب وثقافة وسياسة المملكة ومأخوذة عن أبعد آراء وآثار وأخبار الغرب . وهاتان المجلتان اللتان كانتا كل واحدة منهما إلى حد ما صوتا عاليا دون رمق أدبى وفلسفى وتاريخى لمستنيرى عصرهما

وبدلا من أن يكونوا محركين للأمور وزعماء مجتمع وزعماء جامعة ومؤسسى أفكار فى الفكر أو العمل أو على الأقل مساعدين لخلق شعور فى اتخاذ القرار المناسب أمام الأخطار الكبيرة التى تواجه العصر . ولهذه الأسباب التى ذكرتها كانت كل واحدة من هاتين المجلتين ملجأ فقط - ومركز تجمع - فضاء ضيقا لتنفس المستنير العاجز عن العمل والقيادة. والخلاصة أنه خلال الفترة السابقة لشهر يور سنة ١٣٢٠ فإن كل الربان قاموا بالتحدث بكثرة عن الغربة عن كوروش و داريوش وفردوسى ، ومجلة مهر أيضا كانت مليئة بنبش القبور التى نستطيع أن نفخر بها . وبهذا الدليل ومع العلم أن مهر كانت مجلة أدبية إلا أن أدبيات هذا العصر قبل شهر يور سنة ١٣٢٠ كانت تأخذ صورة خارجة عن دائرة صفحات تلك المجلة . ارجعوا إلى مجلة الموسيقى وأعمال هدايت ونيما وتندركيا ومحمد مسعود وآخرين وآخرين ، فلا يوجد لأحد منهم صلة بمجلة مهر . ولكن فى فترة ما بعد شهر يور سنة ١٣٢٠ فان كل الأصوات كانت تنادى بالاستغراب ولم يكن هناك أى احتياج لنبش القبور ، ثم توقف إصدار مهر وحل محلها "سخن" التى كانت مخزنا للتراجم . وجميع الأخبار عن الغرب. وبالرغم من أن سخن نفسها كانت تنادى بضرورة استرجاع فكر الماضى فإنها كانت مصابة بداء آخر وهو الاستغراب . وبالطبع فإنها مثل مهر بدلا من أن تتبنى قضية ما أو شخص ما صارت نفسها قيادة. إلى حد أنها كانت فى السنوات الأولى مثل كثير من مظاهر التنوير، كانت تتبع حزب تودة بصورة واضحة . ولو كان من الواجب علينا الإنصاف فإن مجلة سخن على أية حال كانت أحد المطبوعات المنتظمة و الجدية بعد شهر يور سنة ١٣٢٠ مع إيقافها أو تعطيلها مرة أو مرتين بصورة اختيارية - فى حين أن المجلات المشابهة لها مثل مجلة "مردم" أو مجلة "علم وزندكى" بسبب أن كلا منهما كانتا محركتى أمر وصاحبتى هدف وكانت لهما مواقف فى المسائل الحيوية فقد كان تعطيلهما يتم لأسباب سياسية - على أية حال فالآن ومع مرور سريع لفترة إصدار مجلة "سخن" نستطيع أن نرى أن فترة ازدهار هذه المجلة هى نفسها الفترة التى كان فيها صادق هدايت مثل شمعة والجميع يشهد على ذلك وتنعكس آراء وآثار جمع كبير من أصدقائه عليها [١]

(١) أسماؤهم موجودة فى إحصائية ارجعوا إلى عدد شهر تير ١٣٣٢ لهذه المجلة التى تشبه لورثة عمل تلك المجلة وهى تحت إدارة مديرها حتى الوقت الذى دخلت فيه الحكومة وكم من الأوضاع المقدمة والمؤخرة فى هذه الواقعة .

والحقيقة أن هذه الجماعة التى أسست شيئا ما باسم سخن . وظهر منها شخص باسم دكتور خانلرى ومع أن كثيرًا من المستنيرين والكتاب والشعراء يقومون بنشر آثاره فى تلك المجلة – فإنه لا يوجد أى ملجأ آخر تتمتع بهذه الاستمرارية والأمن من الرقابة – كما يجب الإنصاف أيضا فإن النصيب الأعظم من ازدهار النظم والنثر الفارسى كان فى سنوات بعد شهر يور سنة ١٣٢٠ بعيداً عن نطاق عمل مجلة سخن أو على وجه الأخص منذ أن تحولت مجلة سخن إلى درجات سلم تحت أمر من يريد الوصول للمقامات الحكومية (١). وإذا لم نتحدث عن نيما ومسعود وفرزاد وتندركيا الذين هم أنفسهم ممن تربوا قبل شهر يور ومع كل هذا لا يوجد أى أثر عنهم فى كل فترات صدور مجلة سخن – شاملو وداريوش وأميدو وفرخ آزاد و كل جماعة الشعراء والشباب وساعدى وفرسى وأفغانى وجلستان ومدرسى وبيضانى وإبراهيمى ورادى وكل الكتاب الشباب خرجوا من الأبواب بكتى لـ"سخنى" سبيل إليها . وهناك نوافذ أخرى مثل علم و زندكى ومردم وبيام نو و بيام نوين و شيوه و جنك (حسين رازى) وصدف وانديشة وهنر وقبلها انديشة و فى الفترة الأخيرة هناك كتاب هفته و كتاب ماه كيهان وآرش وانتقاد كتاب نيل و جهان نو والحروب الصغيرة الطهرانية و الولاية التى روجت بهذا الشكل بعد سنة ١٩٤١ , وأسماؤها جنك طرفة – جزوة شعر – جنك أصفهان – جنك بارت – بازاررشت – برجم خاورميانة جنوب وآخرون وآخرون . خذوا أى واحدة من التى ما زالت موجودة وتصفحوها – ولو أنه ليس هناك اطمئنان لاستمرارية أى واحدة منهن لأسباب سياسية و اقتصادية . فلا يوجد أى أثر فيهم عن نبش قبر مجلة مهر التى رحلت منذ سنوات إلى دنيا الفناء و لا يوجد أى أثر عن ازدهار المكتبات التى كانت فى ذكرى عباس اقبال أو حتى الآن موجودا فى وحيد ويغما ولا يوجد أى أثر عن استغرابات مجلة سخن وكل واحدة منها مليئة بالثورة والشوق وثورة الشباب ومضامين

(١) عدد خردات ١٣٣٤ لنفس المجلة بمقالة افتتاحية لمديرها بعنوان " دوستان جوانم = صديقى الشاب " فى شرح كيفية قبول معاونة "أسد الله علم " وقضايا أخرى .

عن الفهم السياسى المشترك و النظريات الأدبية العالمية والمواقف الصريحة أو التلميحات السياسية التى كانت تنتهى أحيانا باستشهاد الشباب المبكر و لكن للأسف فإن أيا من هذه المجلات وبالرغم من أن جميعهم يأخذ موقفا معارضا لمجلة سخن ، إلا أن معظمهم يعانى من ذلك النقص الأصلى وهو بعدهم من دائرة السياسة وحتى إذا استطاعوا أن ينشروا مرتين أو ثلاثة. فتكون كل واحدة منهم بمثابة حفلة أنس لمجموعة صغيرة فقد ظنوا أنه لا مجال لهم فى الحفلات الرسمية الأدبية ، وأعدوا لأنفسهم حفلة صغيرة . وجميعهم مشتركون فى هذه السمة إذ ليس لهم تعامل مع الجماعات الكبيرة ولا قدوة لهم فيها. والحكومة التى تراقب المطبوعات المشهورة . تعطى أحيانا تصريحا بنشر أعداد غير مرتبة لهذه المجلات وفى نسخ معدودة كصمام أمان . ومما لا شك فيه أنه كلما كان تعداد هذا النوع من المجلات كثير ، كلما ارتفعت الحالة المعنوية للمفكر والمستنير . وكلما كانت المجلات متنوعة ، فإن أفكارهم وآثارهم أصبحت بعيدة عن اتحاد الهدف . لأننا فقط نقرأ حكم الحاكم فى أى مكان بلغة واحدة وبأسلوب واحد . أما هذه المجموعة من المستنيرين الشباب فإنهم يتقوقعون على أنفسهم ويحبون حياة اللامبالاة وقتل الوقت وانهدام المنابع الحديثة فإنهم كل شهرين أو ثلاثة يصدرون مائة صفحة مرة واحدة من المطالب مع قطع من الشعر وقصتين أو ثلاث وورقة أو ورقتين عمل باسم النقد وبحث أو بحثين عن القضايا التى لا علاقة لها بالبيئة التى يعيشون فيها، وما النتيجة ؟ ولو أن هذا يكون فى مقابل المحافل الرسمية الأدبية فهو على أية حال إشارة إلى وجودهم وحقيقة أنه مجرد إحساس بوجود جماعة ، إلا أنها تعتبر منبعًا خطرًا للشخص الذى يتكلم فى المسائل التى تخص الحكومة أما الخطر الأكبر فى ذلك فيتمثل فى أن إحدى الجماعات الكبيرة الصامتة لديها أفكارها. واختيار أحد هذين الطريقين فى يد المستنيرين أنفسهم وبعلمهم . ولكن وللأسف لو وضعوا كل مجموعة بمفردها حتى تنقطع أعمالهم وأرضوهم عن طريق إعطائهم عددا من الصفحات ليكتبوا فيها، بهدف إلهائهم فكل هذه المطبوعات الموسمية التى ذكرتها، تمثل نفس القصة التى توضح الحد الأدنى من التعاون ووحدة الفكر! إذ إن التعهد والمسئولية

واتخاذ المواقف فى مقابل الغرب ماذا يعنى ؟[1] هذه الصورة من كل الأسماء التى ذكرتها تخرج عن صورة النوادى التنويرية وتتحول إلى وحدات متفرقة من الجمع الكبير الذى لا يريد لجماعته أن تتصدى لخطر محدق - إنهم يريدون إبقاءهم فى الظاهر كجزر - متفرقة منتشرة فى عمق المجتمع.

مصدر رزق المستنيرين

فى هذه النوادى التى ذكرتها يجب على المستنيرين الذين ينتمون إليها أن ينفقوا من مالهم الخاص ومن المؤكد أن التمتع بمثل هذه الإشرافية سوف يكلفهم الكثير . ولكن من أين يأتون بهذا المال ؟ والواضح أنه لا بديل لهم إلا الاستعمار وهذا يقابله التستر على هذا العمل وحرمان أكثر الناس علاوة على من يأخذونه من دخل مؤسسات التخطيط والنفط ومن أصحاب المناصب العليا فى الدولة وكان دخل الأستاذ حينئذ يساوى أربعة ألاف إلى خمسة آلاف تومان مع أن نظيره الهندى كان يحصل على ثلاثمائه وأربعمائه روبية (وكل روبية تساوى سبعة أو عشرة ريالات) وليس من الصعب ذكر اسم طبيب أصبح مليونيرا بسبب المرتبات والدخل المرتفع ولو سمحتم لى أن أذكر لكم مصادر الرزق الأصلية ولكن لا تنسوا أن هذه المجموعة من المستنيرين شقت طريقها فى هذه المصادر التى استسلمت لها الحكومات بلا أى مراقبة فيها .

(١) أنقله عن سارتر وهو هنا يتحدث على أنه أحد الأوروبيين " هل المستنير الإيرانى مثل السلطانية أشد حرارة من الطعام ؟ أنتم تعلمون جيدا أننا مستثمرين . أنت متعلمون جيدا أننا أخذنا ذهب وفلزات ونفط القارات الأخرى وجلبناه إلى العواصم القديمة لنا والحقيقة أن النتائج عالية جدا : القصور - الكنائس المراكز الصناعية - وبعد ذلك ففى أى وقت يواجهنا الخطر فيه فإن الأسواق الاستعمارية هنا حية وحاضرة من أجل دفع الخطر عنا وأوروبا المليئة بالثروات حقيقة استطاعت أن تؤمن الحقوق الإنسانية لكل فرد من سكانها ، لكن كل إنسان فى بلادنا هذه هو أحد الشركاء فى الجرم لأننا كلنا أخذنا النصيب من استثمار الأخرين من مقدمة كتاب "نفرين شده هاى زمين " بقلم فرانتس فانون وهذا هو اسمه الأصلى :

Frantz Fanon. Les danmees de la tarre. Ed Maśpero Paris 1961 P.P 22.3

وأصبحت كأنها مائدة مباحة لكل عابر سبيل يستطيع أن يأخذ منها ما يريد وهكذا أصبحت البرجوازية الحديثة تأخذ شكلاً معينًا والآن فإن هذه المصادر هى :

١- مؤسسة التخطيط وما يتبعها من مؤسسات الماء والكهرباء والإحصاء وكل مؤسسة تضم ألفا أو ألفين من الدكاترة والمهندسين العائدين من أمريكا وأوروبا وأغلبهم متزوجون من أجنبيات وقد أدى هذا إلى وضع سبعة أنواع من المصادر الاقتصادية تحت طوع هؤلاء المستغربين مما أباح لهم الدخل الكبير فى المرتبات والبذخ فى شراء الكماليات المبالغ فيها وتكاليف السفر والإقامة الذى أصبح من مظاهر التغريب فى الولاية مما جعلهم يحاكون نواب مجالس الوزراء فى كل شىء .

وهنا يلوح لنا تساؤل لو أن هؤلاء النواب وغيرهم من أصحاب المقامات العليا استطاعوا أن يقوموا بشىء فلماذا سمحوا لأشخاص آخرين ؟ ولماذا لم يكونوا أنفسهم المسئولين عن هذه الأعمال ؟ ويتجلى هذا التساؤل إذا اعتبرنا أن هؤلاء النواب كانوا مجرد ساتر بعمل هؤلاء المستنيرون من خلفه ليس إلا .

٢- شركة النفط ثانى المصادر الممولة التى تدر دخلاً كبيرًا والتى كانت تحل محل الاستعمار مما يؤدى إلى التصادم مع المصالح القومية وبذلك يتضح أن المستنيرين فى مؤسسة التخطيط أو النفط قد حققوا واحدا من اثنتين إما مساعدون للمستشارين الغربيين وبذلك يمكنهم العمل كممثلين لهم أو أنهم يفخرون بأنهم جلسوا فى أماكنهم.

٣ - ومصادر التمويل الأخرى مثل إدارة وتصدير القار الذى ينتج عن آبار البترول ورصف الطرق والمطارات وبناء المدارس والمستشفيات ومد أنابيب الماء والكهرباء للمدن الجديدة وكان يدير هذه المناقصات الكبار من المستنيرين الذين كان منهم النواب لمجلس الشيوخ أو النواب أو كانوا أعضاء فى حزب توده وحزب إيران مما جعلهم يستغلون هذه الخبرات فى رسو المناقصات عليهم وإعطائها لغيرهم لكى يحصلوا على نسبة ٢٠٪ أو ٣٠٪ من مكاسب هذه المناقصات .

٤ - المصدر التالى لذلك هو المؤسسات الإعلامية للمملكة - الراديو - التليفزيون - المطبوعات الكبيرة ودور النشر الكبيرة . وبصرف النظر عن المستنيرين حديثى العهد

بالعمل فإنهم من أجل الالتحاق بعمل حكومي يجب أن يتمرنوا جيدا فترة فى هذه المؤسسات والحمل الأصلى لهذه المؤسسات دائما يقع على عاتق القائمين مقامهم .

وهم الذين يتحكمون فى العمل فى هذه المراكز ، ويسيرون على نفس النمط الذى ذكرته من قبل فى مصادر الرزق السابقة .

٥ – المؤسسات الثقافية أو المجامع الثقافية والتى ينتظر الشعب منها أن تجعل المدارس والكليات الخاصة أو القومية ملكا للشعب كله بطريقة رسمية ولا تجعلها فى يد أصحاب النفوذ الذى يستغل خبراته وخدمته فى الحكومة لصالحه الخاص وذلك بتقسيم المؤسسات الثقافية إلى قطاعات خاصة تعود بالنفع على أفراد معدودين لا يملكون سوى رواتبهم الخاصة ولذلك فى سنة ١٣٤٤ أعلنوا بأنفسهم أن رأس مالهم وصل إلى ٢٥ مليون تومان وفى هذه السنة كانت أعداد الطلاب بالجامعة الوطنية بطهران يصل إلى ٤٠٠ طالب فقط مع أن الميزانية كانت ثلاثين مليونًا تومان وكانت وزارة الثقافة تدفع تسعة ملايين من هذه الملايين وشركة النفط تدفع سبعة ملايين ومؤسسة التخطيط تدفع ثمانية ملايين والباقى من الطلاب أنفسهم مع أن مؤسسة بهلوى التى كانت تفتخر بتأسيس إدارة الجامعة لم تنفق فى هذه السنة ولا عمله واحدة ، أما جامعة شيراز ذات الألف طالبا فقد كانت ميزانيتها فى هذه السنة خمسا وأربعين تومانا فى حين إن جامعة طهران على سبيل المثال والتى تضم أربعة عشر ألف طالب فقط كانت ميزانيتها مائة مليون تومان .

٦ – المصدر التالى لتلك المؤسسات الصحية الخاصة . المستشفيات – المعامل – المستشفيات الكبيرة – المستوصفات والعيادات الخاصة. مثلما رأينا فيما يخص المؤسسات الثقافية، فبسبب قلة الميزانية وبسبب عدم استطاعة الدولة فى توفير احتياجات الناس فقد أعطتهم بالطبع حرية العمل بالمؤسسات الخاصة فى مجال الثقافة والصحة ، لأن ميزانية الثقافة فى المملكة تعادل ربع أو ثلث ميزانية الجيش وميزانية الصحة تعادل عشر ميزانية الجيش. وهنا ترون أنه فى الخمسة عشرة سنة الأخيرة كم من المؤسسات العظيمة أصبحت مسئولة عن سلامة جسد وروح الناس فى

المملكة وكم من الرقابة على أعمالهم وكونت من أصحاب الملايين. حقيقة أنه فى أثر المنافسات الخاصة فى هذا المجال الحر للثقافة والصحة ! قدمت أعمالا قيمة وظهرت مؤسسات منظمة لدرجة أن حكومتنا لم تستطع تحقيق مثل هذه الأعمال ، ولكن البحث فى أنه عندما يكون ال ٨٠ ٪ من الناس أميين وأكثر من ذلك لا توجد لديهم الوسائل الأولية للصحة وما زالت القرى تعالج الكسر العظمى فى الظهر أو الرجل أو اليد بالجبيرة ، وماذا تكون هذه المؤسسات النظيفة وأحدث النماذج الثقافية والصحية التى انتشرت فى المدن الكبيرة سوى مصادر للدخل ؟ وفيها وعن طريقها فقط يشعر الناس بمظاهر التقدم ويشعر فقط بالأمان البرجوازى الحديث عاشق الرفاهية ؟ ثم إن فيها أيضا وعن طريقها يصل جماعة المستنيرين إلى العيش والرفاهية لدرجة أنهم من هذا الطريق ينتهى بحثهم فى اللاهوت والناسوت و المشاكل الاجتماعية وينشغلون بحساب الفائدة والمكسب والخسارة للشركات والمؤسسات . وهذا أيضا فى الوقت الذى تكون فيه الثقافة والصحة مجانية للجميع حتى إن الكويت قامت بذلك أيضا مع أنها لم تكن منذ عشر سنوات سوى صحراء قاحلة.

الكلمة الأخيرة فى هذه الرسالة

والكلمة الأخيرة لهذه الرسالة وهو أنه فى عصر الطائرة النفاثة والقنبلة الذرية وجدول الكلمات المتقاطعة والسماء وكل ذلك متأثر بالغرب وعلى وتيرة واحدة وبشكل من عدم الاعتبار لمستنيرين تربوا لا فى محيط قومى ولا من أجل حل المشاكل القومية بل إنهم تربوا فى محيط " نصف استعمارى " أو بمعايير نصف استعمارية ومن أجل تطبيق الأجواء القومية ومشاكلها مع الأجواء نصف الاستعمارية ومشاكلها . ولا سيما أن وسائل معرفة الخبر وبث الآراء والآثار من (راديو - سينما - تليفزيون - صحف) فى ممالك متفرنجة ولا يوجد بها علاقة بين أناس كثيرين وبين المستنيرين أصبحت وسيلة لتنفيذ أعمال الحكومات العميلة . إذ إنها تعمل فى كل مكان بطريقة واحدة . فالحكومات التى تستند على قدرات عسكرية وأسلحة غربية وتتظاهر بالديمقراطية

البحتة وتحافظ على المستوى الأمنى من أجل الحفاظ على صادرات وواردات البضائع التجارية الاستعمارية . ومستنيرو تلك الممالك المستغربة - أو المستعمرة - ليسوا إلا دلالين أو سماسرة أو مترجمين فى مثل هذه الأسواق المضطربة . وهل كان هذا هو آخر حدود حدارة التنوير ؟ فانتشار سلطة الحكومات النظامية فى هذا النوع من الممالك تطالب بإيجاد حزام أمنى فى كل الأنحاء وذلك من أجل تأمين صادرات وواردات الاستعمار كما أن المراكز الإدارية الناتجة عن مثل هذا النوع من السلطات الحكومية فى كل يوم أكثر من ذى قبل يسيطر على عقائد وأفكارهم وكل يوم أكثر من ذى قبل يطبع على المستنيرين صفة الأجراء ويلتحقون بذلك الصف الطويل من الموظفين المجبرين على الصمت ويمنعون من فتح لاهوت التساؤل وتوجيه وتفسير القضايا الاجتماعية والسياسية الحادة . وتدريجيا سوف يأتى اليوم الذى يتحول فيه المستنيرون الواقعيون فى مثل هذه النوعية من الممالك إلى نوع من الحيوان الأسطورى إذ أن وجودهم إن لم يكن فى المتاحف وحدائق الحيوان يجب أن يكون فى المستشفيات فقط، ولماذا هذا:

إنها الملجأ الوحيد لجميع هذه العوامل الاجتماعية الغربية عن زماننا ووجودها العقلانى والمادى مصدر تهديد للواقع، إنه تاريخ والأعلى من ذلك كله أنه تاريخ ملجأ المستنيرين الذين يشعرون أن جميع آمالهم قد تحطمت وحقوقهم قد سلبت (احتيالاً) وأنهم لا تأثير لهم فى التطورات السياسية [.....] أصبح هذا تقديرا عاما إذ أسهم فيه جميع المستنيرين الأوربيين . كما أن نهضة التنوير والثورة ، كانت قد شجعت كل هذه الجماعة لكى تصل إلى آمالها البعيدة والطويلة. وعلينا أن نأخذ فى اعتبارنا أن هذين العاملين كانا قد تعهدا بأنهما سوف يضمنان الحكم المطلق للعقل والحكم الكامل الذى يتضمن سائر المفكرين والكتاب . كان الرواد فى القرن الثامن عشر الميلادى هم كتاب التنوير الغربى وفى الوقت نفسه كانوا المحركين للثورات الإصلاحية [......] ولكن نهاية الثورة غيرت كل شىء والمستنيرون الآن يعتبرون أنفسهم هم المسئولين عن لماذا أخذت الثورة طريق الإفراط ! ولماذا أهملت . ولم يستطع المستنيرون فى مرحلة الجمود والكسوف الفكرى أن يحتفظوا بمقامهم حتى إنهم بعد ذلك دخلوا من باب المسألة مع

القوى الرجعية. وربطوا أنفسهم بإخلاص لخدمتهم. ولم يستطيعوا فى أثناء تلك الخدمة أن يحصلوا على الرضا كالذى حصل عليه فيلسوف القرن الثامن عشر. وأغلب مستنيرى هذا الزمان يرون أنهم محكوم عليهم باللا أثر المطلق ويشعرون بالسطحية . ومضطرون أن يلجئوا إلى الماضى ويرون أنه هو المكان الوحيد الذى فيه تتحقق جميع آمالهم . (١)

كتب هذه السطور آرنولد هاوز الناقد وخبير الفن الأمريكى المعاصر و ذلك فى شأن المستنيرين الغربيين . ألا ترون أن هناك تشابها بين هذه السطور ووضع المستنير الإيرانى اليوم ؟ مع الفرق فى أن المستنير الغربى يعيش محيط "متروبل" (أى التبعية السياسية) والمستنير الإيرانى يعيش فى محيط نصف استعمارى ، إذن فإن صعوبة عدم تأثيره فى هذه الأجواء مضاعف نسبة للأجواء السابقة . و حقيقة أن المستنير الإيرانى لا يعيش فى ظروف يعيشها المستنير الأفريقى أو الهندى أو المستنير الأمريكى الأسود ، إذ إنه لم يكن فى مواجهة مباشرة مع الاستعمار و لهذا السبب تلقى أقل صفعة وإحساسه بالخطر أقل منهم . إن المستنير الإيرانى على حد قول صادق هدايت مثل جذع الشجرة السميك الذى بقى بجوار الموقد وأسود لونه وبقى هكذا فهو لايساعد على اشتعال النار التى تحت القدرة ولا بقى سالمًا . إن المستنير الإيرانى فى هذه الأيام له وضع يشبه تماما وضع قبائل قشقائى التى تركتها الحكومة والدولة تعيش فى فقر وتشرد حتى أفسدت ما بداخلها. أو يطأطئون رءوسهم حتى يستفيدوا من نعمة الرفاهية التى بها مرتع الرشوة النابعة من النفط و على هذا فإن عملهم يقتصر دوما على الإشادة بكل خطوة و كل قلم و كل عمل الحكومات .

فالمستنير الإيرانى إذا كان لا يزال يريد أن يقيس نفسه ومحيطه القومى بمقاييس غربية فلا حيلة له إلا القبول بتلك العاقبة التى تكلم عنها هاورز ولكن فى اعتقادى أنا

(١) Arrnold Hauser - The social Hostory of art (vintage Book) New York 1958 - V.III P. 1.73

أنه قد حان الوقت لكى يرى المفكر الإيرانى ويدرك أن حسابه ومقارنته مع المستنير الغربى شىء منفصل . فإذا كان هاورز قد كتب هكذا كما رأينا فهو يستند على هذه العلة أيضا وهى أنه يشعر بنوع من الغربة إذ إنه بنفس النسبة التى انتقل بها مركز ثقل عالم الوجود من أوروبا التى كانت مهد التنوير وانتقل من هذه الناحية إلى روسيا والعالم الاشتراكى ومن ناحية أخر إلى أمريكا - فلا مناص من أن المستنير الأوروبى أيضا لا يرى نفسه مركزا لعالم الإبداع الفكرى ، أما الآن وأوضاع الكواكب تنبئ عن أخبار أخرى مفادها أن مركز عالم الوجود يريد أن ينقل المكان مرة أخرى . أى أن يجمع ثيابه من روسيا وأمريكا ويفرش بساطه فى الصين . فى مثل هذا الوضع هناك آمال كثيرة لمستقبل التنوير فى ممالك شبيهة لإيران . إذ إنه اليوم وتحت أنظاره قد سلبت الحيثية مرتين من المستنير الغربى (مع أن أمثال سارتر يقومون بأعمال حادة تحت مسمى الوجدان الأوروبى المريض) . وكذا المستنيرون المتأوربون مع تقليدهم لملكات المستنير الغربى والانهزامات التى حدثت له داخل إيران . والأهم من هذا كله أن المستنير الإيرانى غير مجبر أن يشعر بحد الحرية الأمريكية على رقبته بسبب جواره للاتحاد السوفييتى . إذ إن المنافس المشترك لهاتين السلطتين السياسيتين الكبيرتين فى العالم الآن (أقصد الاتحاد السوفييتى - أمريكا) هو جمهورية الصين الشعبية فهى جالسة فى منتهى الشرق القديم وآسيا ككمين أصول و فروع المعتقدات لكل السلطات المتسلطة الغربية . وبسبب رفع خطر الجوار مع الاتحاد السوفييتى فليس هناك حاجة لهذا التسلح العسكرى ولا سيما من وجهة النظر هذه و هى أن مستنير المجتمع الإيرانى نهض من الطبقات الأدنى وذلك عن طريق إجبارها لتأدية الخدمة الاجتماعية والتعليمات العامة ، و تصبح بديلا للإشرافية التى لم تستطع حتى الثورة الدستورية إبعادها عن الساحة . ففى مثل هذا الوضع إذا استطاع المستنير الإيرانى أن يغض الطرف عن تسليم رأسه للحكومات من أجل الوصول إلى المقام الذى يستحقه وإذا استطاع أن يستند إلى الحرية وإلى أناس كثيرين يتخذون قرارا تدريجيا فى مسألة التأثير والتأثر بالتنوير ، وإذا استطاع أن يظهر جدارته وقدرته على حل المشاكل القومية - بداية من النفط حتى الدين ومن القبلية حتى الأمية - ومن هنا يجد طريقا

لوصوله إلى أناس كثيرين ويجد الطريق الصحيح لتأثير أقواله فيهم. وعلى هذا النسق والآن يوجد هذان الطريقان الأصليان الكبيران أمام المستنيرين وهما إما القضاء على التغريب وإحلال المحيط القومي والمشاكل القومية المعروفة محله والانحياز لها و ذلك بقصد حلها بجهد لائق للتنوير والاستفادة من الأساليب العلمية الحديثة والدنيوية.

أو الوصول بالتغريب إلى النهاية أي الرضا بالتطبيق الكامل لكل الملكات الأخلاقية والسياسية والاجتماعية الاستعمارية على هذا المحيط القومي . أي الانمحاء من صفحة العالم من الناحية الدينية والقومية والتقليدية أو بتعبير آخر إما مواجهة الاستعمار أو الاستسلام له، والطريق الثاني دون شك طريق قصير جدا وأي نقم يمكن الحصول عليها من السير فيه والطريق الأول طريق طويل يستلزم التضحيات .

المؤلف فى سطور :

جلال آل أحمد

- ولد فى طهران عام ١٩٢٣م .. ودخل إلى عالم الكتابة وهو فى سن السادسة عشرة .
- أنهى دراساته الجامعية فى مدرسة المعلمين العليا وانتهى من دراساته العالية عام ١٩٤٦م .
- انظم إلى أحزاب سياسية مختلفة منها حزب " تودة " وذلك منذ عام ١٩٤٣ .
- عاش ستة وأربعين عامًا قضى منها ثلاثين عامًا فى الكتابة خلف بعدها أربعين مؤلفًا .

المترجمة فى سطور :

سلوى عباس محمد على أبو غزال

- من مواليد ١٩٥٩/٨/١٧ - الجيزة .
- حصلت على ليسانس الآداب عام ١٩٨١م بتقدير جيد - كلية الآداب - جامعة القاهرة - قسم اللغات الشرقية - فرع لغات الأمم الإسلامية .
- حصلت على الماجستير عام ٢٠٠٣م بتقدير امتياز .
- تشغل منصب موجه بالتربية والتعليم .

المراجع فى سطور :

السباعى محمد السباعى

- من مواليد المحلة الكبرى – محافظة الغربية .
- حصل على ليسانس الآداب عام ١٩٦٣ بتقدير جيد جدا مع مرتبة الشرف من كلية الآداب – قسم اللغات الشرقية – فرع لغات الأمم الإسلامية .
- عين معيداً بقسم اللغات الشرقية بالكلية فور تخرجه عام ١٩٦٣م .
- حصل على الماجستير من القسم نفسه عام ١٩٦٨ بتقدير جيد جدا فى موضوع " جلال الدين الرومى وكتابه فيه ما فيه " .
- حصل على الدكتوراه من الكلية نفسها عام ١٩٧٢م بمرتبة الشرف الأولى فى موضوع " عطا مالك الجوينى وكتابه تاريخ جهاى كشاى " .
- عين مدرساً عام ١٩٧٢ بكلية الآداب – جامعة القاهرة .
- ثم أستاذاً مساعداً عام ١٩٧٧م .
- ثم أستاذاً عام ١٩٨٢م .
- شغل منصب رئيس قسم اللغات الشرقية من سنة ١٩٨٣م إلى ١٩٨٩ وفى الوقت نفسه شغل منصب وكيل كلية الآداب – بنى سويف ثم عميداً لها من عام ١٩٨٦ إلى ١٩٨٩م .
- ثم عميداً لكلية الآداب – جامعة القاهرة فرع بنى سويف من ١٩٨٦ إلى ١٩٨٩م .
- ثم رئيساً لقسم اللغات الشرقية مرة ثالثة من سبتمبر ١٩٩٢م حتى سبتمبر ١٩٩٥ .

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	پيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	پيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنچامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وچون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوييا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوڤاليس وس . روچسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	چوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٣)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

العنوان	المؤلف	المترجم
١١٣- راية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	چوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنينل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديڤى	سمحة الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيڤال (مسرحية)	ريتشارد ڤاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالرءوف البمبى
١٤٧- مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان بروديل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	چى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان بروديل	بشير السباعى
١٥٩- الأيديولوچية	ديڤيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	پول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألڤين كرنان	بدر الديب

١٨٩- العمى والبصيرة: مقالات فى بلاغة النقد المعاصر — بول دى مان — سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس — كونفوشيوس — محسن سيد فرجانى
١٩١- الكلام رأسمال وقصص أخرى — الحاج أبو بكر إمام وآخرون — مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١) — زين العابدين المراغى — محمود علاوى
١٩٣- عامل المنجم (رواية) — پيتر أبراهامز — محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث — مجموعة من النقاد — ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤ (رواية) — إسماعيل فصيح — محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة (رواية) — ڤالنتين راسپوتين — أشرف الصباغ
١٩٧- سيرة الفاروق — شمس العلماء شبلى النعمانى — جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى — إدوين إمرى وآخرون — إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية — يعقوب لانداو — جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل — چيرمى سيبروك — فخزى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة — جوزايا رويس — أحمد الأنصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤) — رينيه ويليك — مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية — ألطاف حسين حالى — جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم — زالمان شازار — أحمد هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات — لويجى لوقا كافاللى- سفورزا — أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علمًا جديدًا — چيمس جلايك — على يوسف على
٢٠٧- ليل أفريقى (رواية) — رامون خوتاسندير — محمد أبو العطا
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى — دان أوريان — محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح — مجموعة من المؤلفين — أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى (شعر) — سنائى الغزنوى — يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فردينان دوسوسير — جوناثان كلر — محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان — مرزبان بن رستم بن شروين — يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر — ريمون فلاور — سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع — أنتونى جيدنز — محمد محيى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢) — زين العابدين المراغى — محمود علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم — مجموعة من المؤلفين — أشرف الصباغ
٢١٧- مسرحيتان طليعيتان — صمويل بيكيت وهارولد بينتر — نادية البنهاوى
٢١٨- لعبة الحجلة (رواية) — خوليو كورتاثار — على إبراهيم منوفى
٢١٩- بقايا اليوم (رواية) — كازو إيشجورو — طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون — بارى پاركر — على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافى — جريجورى جوزدانيس — رفعت سلام
٢٢٢- فرانز كافكا — رونالد جراى — نسيم مجلى
٢٢٣- العلم فى مجتمع حر — باول فيرابند — السيد محمد نفادى
٢٢٤- دمار يوغسلافيا — برانكا ماجاس — منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥- حكاية غريق (رواية) — جابرييل جارثيا ماركيث — السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى — ديڤيد هربت لورانس — طاهر محمد على البربرى

العنوان	المؤلف	المترجم
٢٢٧- المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركي	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ماري تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمري
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣١- الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمي سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣٣- فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي	آرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤- الإسلام في السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥- ديوان شمس تبريزي (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٣٦- الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧- مصر أرض الوادي	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربي مدبولي أحمد
٢٣٩- العربي في الأدب الإسرائيلي	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاي حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١- في انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزي	ابتسام عبدالله
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبري محمد حسن
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفي بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤- الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥- نساء مقاتلات	إليزابيتا آديس وآخرون	توفيق علي منصور
٢٤٦- مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	علي إبراهيم منوفي
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحداثة في مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوي
٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩- لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠- علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	علي بدران
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومي
٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودي جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودي جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦- أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلي رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨- الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمني عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
٢٦١- رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكي نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن	چون جريين	علي يوسف علي
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلي	لويس عوض

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	چوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س. إليوت شاعرًا وناقدًا وكاتبًا مسرحيًا	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧-	الجينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرءوف البمبى
٢٨٤-	هرقل مجنونًا (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديڤيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	چورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روچر آلن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	چوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	چين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	أقدم لك: فنجنشتين	چون هيتون وجودى جروڤز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣-	أقدم لك: بوذا	چين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤-	أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥-	الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦-	الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧-	أقدم لك: الشعور	ديڤيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكى
٣٠٨-	أقدم لك: علم الوراثة	ستيف چونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩-	أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٣١٠-	أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٣١١-	مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢-	روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣-	أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٣١٤-	مارسيل دوشامب: الفن كعدم	چانيس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥-	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٣١٦-	محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧-	بلا غد	س. شير لايموڤا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨-	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩-	صور دريدا	جايترى سبيڤاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠-	لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليڤى برو ڤنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢-	وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو يوچين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣-	فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٣٢٤-	اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٣٢٥-	عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦-	المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨-	يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٢٩-	رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠-	كل شىء عن التمثيل الصامت	مارڤن شبرد	سامى صلاح
٣٣١-	عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢-	شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣-	الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤-	لقطات من المستقبل	أرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣٥-	عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦-	متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧-	فلسفة الولاء	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨-	نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٣٣٩-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠-	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

٣٤١-	قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا ريلكه	حسن حلمى
٣٤٢-	سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٤٣-	العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤-	الموت فى الشمس (رواية)	پيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٣٤٥-	الركض خلف الزمان (شعر)	يونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٣٤٧-	الصبية الطائشون (رواية)	چان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٣٥١-	مبادئ المنطق	چوزايا رويس	أحمد الانصارى
٣٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣-	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٤-	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٥-	التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حچت مرتجى	محمود علاوى
٣٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧-	متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٣٥٨-	أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩-	محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه چاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٣٦١-	التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢-	تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد چيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤-	حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥-	سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦-	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧-	القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨-	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	چيرالد پرنس	عابد خزندار
٣٦٩-	المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠-	الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢-	عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣-	كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤-	اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥-	الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦-	الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	چان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٣٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨-	المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩- ملك فى الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠- حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١- أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢- تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد اسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣- هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥- مشترى العشق (رواية)	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩- تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. فى. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١- الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣- فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون	پول ديڤيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥- آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦- السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٣٩٧- أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨- أقدم لك: سارتر	فيليپ تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩- أقدم لك: كامى	ديڤيد ميروفتش وآلن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات	زياودن ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى	ديڤيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر	چوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضى	چينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليڤى بروڤنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوڤا	أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	چَين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبى للإسكندرية	چون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	ڤولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سپنسر وأندزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكياڤللى	پاتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديڤيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وچودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى (رواية)	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	ملحمة السِّيد	تراث شعبى إسبانى	الطاهر أحمد مكى
٤٤٨-	الفلاحون (ميراث الترجمة)	الأب عيروط	محى الدين اللبان ووليم داوود مرقس
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	چان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكآن	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	ڤيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النتة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	ڤرچينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهـــى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	إدموند هُسِّرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	چى ڤارچيت	محمد رفعت عواد

-٤٩٣	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
-٤٩٤	كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
-٤٩٥	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
-٤٩٦	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوانو بانولى	مجموعة من المترجمين
-٤٩٧	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
-٤٩٨	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
-٤٩٩	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
-٥٠٠	فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
-٥٠١	تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	آرلت جولد هامر	سحر فراج
-٥٠٢	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
-٥٠٣	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
-٥٠٤	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
-٥٠٥	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
-٥٠٦	ربما كان قديسًا (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
-٥٠٧	سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
-٥٠٨	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
-٥٠٩	الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
-٥١٠	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
-٥١١	كوكب مرقَّع (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
-٥١٢	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
-٥١٣	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
-٥١٤	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
-٥١٥	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
-٥١٦	إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	آرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
-٥١٧	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
-٥١٨	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
-٥١٩	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
-٥٢٠	الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
-٥٢١	قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
-٥٢٢	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
-٥٢٣	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
-٥٢٤	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
-٥٢٥	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
-٥٢٦	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
-٥٢٧	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
-٥٢٨	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفل إيفانز	جمال الجزيرى
-٥٢٩	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
-٥٣٠	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١-	ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢-	المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣-	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوى
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٣٧-	للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨-	النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١-	هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلانى كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدى الجابرى
٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١-	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦-	أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين ڤان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤-	عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧-	الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩-	موقع الثقافة	هومى بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسى	سير روبرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١-	تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤-	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعى
٥٧٥-	الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الرءوف
٥٧٩-	أقدم لك: تشومسكى	چون ماهر وچودى جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف الدولية (مج١)	چون فيزر وپول سيترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١-	الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤-	سفر (رواية)	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى آرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨-	أمنحوتپ الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩-	تمبكت العجيبة	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١-	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	پول ڤاليرى	بكر الحلو
٥٩٤-	القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦-	الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوى
٦٠٠-	الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان ڤوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢-	ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣-	النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (مج١)	پاتريك ل. آبوت	توفيق على منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦-	قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧- قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨- قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩- الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠- العمارة المدجنة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١- النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢- رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣- السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤- بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥- عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١١٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦- أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧- الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨- نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩- مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠- السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١- رباعيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباعى
٦٢٢- أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣- نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤- شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الحلوانى
٦٢٥- الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦- مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧- حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨- أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩- قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠- سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١- مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢- المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣- الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤- مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥- التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦- حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧- مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨- الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩- فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠- ألكسياد	الأميرة أنّاكومنينا	حسن حبشى
٦٤١- برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢- أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين ڤان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣- سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤- العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥- السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية — تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف — عبد الوهاب علوب
٦٤٦- قصة الثورة الإيرانية — سيهر ذبيح — عبد الوهاب علوب
٦٤٧- رسائل من مصر — چون نينيه — فتحى العشرى
٦٤٨- بورخيس — بياتريث سارلو — خليل كلفت
٦٤٩- الخوف وقصص خرافية أخرى — چى دى موباسان — سحر يوسف
٦٥٠- الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط — روچر أوين — عبد الوهاب علوب
٦٥١- ديليسبس الذى لا نعرفه — وثائق قديمة — أمل الصبان
٦٥٢- آلهة مصر القديمة — كلود ترونكر — حسن نصر الدين
٦٥٣- مدرسة الطغاة (مسرحية) — إيريش كستنر — سمير جريس
٦٥٤- أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١) — نصوص قديمة — عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥- أساطير وآلهة — إيزابيل فرانكو — حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦- خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان) — ألفونسو ساسترى — ممدوح البستاوى
٦٥٧- محاكم التفتيش والموريسكيون — مرثيديس غارثيا أرينال — خالد عباس
٦٥٨- حوارات مع خوان رامون خيمينيث — خوان رامون خيمينيث — صبرى التهامى
٦٥٩- قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية — نخبة — عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠- نافذة على أحدث العلوم — ريتشارد فايفلد — هاشم أحمد محمد
٦٦١- روائع أندلسية إسلامية — نخبة — صبرى التهامى
٦٦٢- رحلة إلى الجذور — داسو سالدييار — صبرى التهامى
٦٦٣- امرأة عادية — ليوسيل كليفتون — أحمد شافعى
٦٦٤- الرجل على الشاشة — ستيفن كوهان وإنا راى هارك — عصام زكريا
٦٦٥- عوالم أخرى — پول داڤيز — هاشم أحمد محمد
٦٦٦- تطور الصورة الشعرية عند شكسبير — ولفجانج اتش كليمن — جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧- الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى — ألفن جولدنر — على ليلة
٦٦٨- ثقافات العولمة — فريدريك چيمسون وماساو ميوشى — ليلى الجبالى
٦٦٩- ثلاث مسرحيات — وول شوينكا — نسيم مجلى
٦٧٠- أشعار جوستاف أدولفو — جوستاف أدولفو بكر — ماهر البطوطى
٦٧١- قل لى كم مضى على رحيل القطار؟ — چيمس بولدوين — على عبدالأمير صالح
٦٧٢- مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال — نخبة — إبتهال سالم
٦٧٣- ضرب الكليم (شعر) — محمد إقبال — جلال الحفناوى
٦٧٤- ديوان الإمام الخمينى — آية الله العظمى الخمينى — محمد علاء الدين منصور
٦٧٥- أثينا السوداء (جـ٢، مج١) — مارتن برنال — بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦- أثينا السوداء (جـ٢، مج٢) — مارتن برنال — بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج١) — إدوارد جرانڤيل براون — أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨- تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج٢) — إدوارد جرانڤيل براون — أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩- مختارات شعرية مترجمة (جـ٢) — وليام شكسبير — توفيق على منصور
٦٨٠- المدينة الفاضلة (ميراث الترجمة) — كارل ل. بيكر — محمد شفيق غربال
٦٨١- هل يوجد نص فى هذا الفصل؟ — ستانلى فش — أحمد الشيمى
٦٨٢- نجوم حظر التجوال الجديد (رواية) — بن أوكرى — صبرى محمد حسن

٦٨٣- سكين واحد لكل رجل (رواية)	تى. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤- الأعمال القصصية الكاملة (أنا كندا) (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥- الأعمال القصصية الكاملة (الصحراء) (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦- امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧- محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨- الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩- الملف (مسرحية)	تادروش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠- محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١- ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢- أقدم لك: الوجودية	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	حمدى الجابرى
٦٩٣- أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	حائيم برشيت وآخرون	جمال الجزيرى
٦٩٤- أقدم لك: دريدا	چيف كولينز وبيل مايبلين	حمدى الجابرى
٦٩٥- أقدم لك: رسل	ديڤ روبنسون وچودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦- أقدم لك: روسو	ديڤ روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧- أقدم لك: أرسطو	روبرت ودفين وچودى جروڤس	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨- أقدم لك: عصر التنوير	ليود سبنسر وأندرزيجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩- أقدم لك: التحليل النفسى	إيڤان وارد وأوسكار زارايت	جمال الجزيرى
٧٠٠- الكاتب وواقعه	ماريو بارجاس يوسا	بسمة عبدالرحمن
٧٠١- الذاكرة والحداثة	وليم رود ڤيڤيان	منى البرنس
٧٠٢- مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى (ميراث الترجمة)	جوستينيان	عبد العزيز فهمى
٧٠٣- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانڤيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤- فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥- فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مدكور
٧٠٦- الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	چونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧- أقدم لك: ڤالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨- فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رءوف عباس
٧٠٩- معنى الحياة	ألفريد آدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠- الأطفال والتكنولوچيا والثقافة	إيان هاتشباى وجومموران - إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١- درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢- الإلياذة (جـ١) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣- الإلياذة (جـ٢) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤- حديث القلوب (ميراث الترجمة)	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥- سر تقدم الإنكليز السكسونيين (ميراث الترجمة)	إدمون ديمولان	أحمد فتحى زغلول
٧١٦- جامعة كل المعارف (جـ٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧- جامعة كل المعارف (جـ٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨- جامعة كل المعارف (جـ٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩- مسرح الأطفال: فلسفة وطريقة	م. جولدبرج	جميلة كامل
٧٢٠- مداخل إلى البحث فى تعلم اللغة الثانية	دونام چونسون	على شعبان وأحمد الخطيب

٧٢١-	فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى
٧٢٢-	الصفيحة وقصص أخرى	يشار كمال	الصفصافى أحمد القطورى
٧٢٣-	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار الفرويدى	بول روبنسون	عبده الريس
٧٢٥-	الاضطراب النفسى	چون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦-	الموريسكيون فى المغرب	غييرمو غوثالبيس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧-	حلم البحر (رواية)	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨-	العولمة: تدمير العمالة والنمو	موريس آليه	أميرة جمعة
٧٢٩-	الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠-	حكايات من السهول الأفريقية	آن جاتى	عزت عامر
٧٣١-	النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢-	قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣-	مأساة عطيل (مسرحية)	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤-	بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥-	فن السيرة فى العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ١)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧-	الكوارث الطبيعية (مج٢)	باتريك ل. آبوت	توفيق على منصور
٧٣٨-	دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية	چيرار دى چورچ	محمد عواد
٧٣٩-	دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر	چيرار دى چورچ	محمد عواد
٧٤٠-	خطابات السلطة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١-	الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢-	أرض حارة	خوسيه لاكوادرا	رزق بهنسى
٧٤٣-	الثقافة: منظور داروينى	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤-	ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥-	المآثر السلطانية	بيك الدنبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج١)	چوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧-	الاستعارة فى لغة السينما	تريڤور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨-	تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩-	إيكولوچيا لغات العالم	ل.ج. كالڤيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠-	الإلياذة	هوميروس	بإشراف: أحمد عتمان
٧٥١-	الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢-	ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عاروى
٧٥٣-	التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤-	الشرق والغرب	أنّا مارى شيمل	عبدالسلام حيدر
٧٥٥-	تاريخ الشعر الإسبانى خلال القرن العشرين	أندرو ب. دبيكى	على إبراهيم منوفى
٧٥٦-	ذات العيون الساحرة	إنريكى خارديل بونثيلا	خالد محمد عباس
٧٥٧-	تجارة مكة	باتريشيا كرون	آمال الروبى
٧٥٨-	الإحساس بالعولمة	بروس روبنز	عاطف عبدالحميد

٧٥٩- النثر الأردى	مولوى سيد محمد	جلال الحفناوى
٧٦٠- الدين والتصور الشعبى للكون	السيد الأسود	السيد الأسود
٧٦١- جيوب مثقلة بالحجارة (رواية)	فيرچينيا وولف	فاطمة ناعوت
٧٦٢- المسلم عدوًا و صديقًا	ماريا سوليداد	عبدالعال صالح
٧٦٣- الحياة فى مصر	أنريكو بيا	نجوى عمر
٧٦٤- ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	غالب الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٥- ديوان خواجه الدهلوى (شعر تصوف)	خواجه مير درد الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٦- الشرق المتخيل	تييرى هنتش	غازى برو وخليل أحمد خليل
٧٦٧- الغرب المتخيل	نسيب سمير الحسينى	غازى برو
٧٦٨- حوار الثقافات	محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى
٧٦٩- أبناء أحياء	فريدريك هتمان	رندا النشار وضياء زاهر
٧٧٠- السيدة بيرفيكتا	بينيتو بيريث جالدوس	صبرى التهامى
٧٧١- السيد سيجوندو سومبرا	ريكاردو جويرالديس	صبرى التهامى
٧٧٢- بريخت ما بعد الحداثة	إليزابيث رايت	محسن مصيلحى
٧٧٣- دائرة المعارف الدولية (جـ٢)	چون فيزر وبول ستيرجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٧٧٤- الديموقراطية الأمريكية: التاريخ والمرتكزات	مجموعة من المؤلفين	حسن عبد ربه المصرى
٧٧٥- مرآة العروس	نذير أحمد الدهلوى	جلال الحفناوى
٧٧٦- منظومة مصيبت نامه (مج١)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٧٧٧- الانفجار الأعظم	چيمس إ. ليدسى	عزت عامر
٧٧٨- صفوة المديح	مولانا محمد أحمد ورضا القادرى	حازم محفوظ
٧٧٩- خيوط العنكبوت وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشى
٧٨٠- من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٣٠	غلام رسول مهر	سمير عبد الحميد إبراهيم
٧٨١- الطريق إلى بكين	هدى بدران	نبيلة بدران
٧٨٢- المسرح المسكون	مارڤن كارلسون	جمال عبد المقصود
٧٨٣- العولة والرعاية الإنسانية	ڤيك چورج وبول ويلدنج	طلعت السروجى
٧٨٤- الإساءة للطفل	ديڤيد أ. وولف	جمعة سيد يوسف
٧٨٥- تأملات عن تطور ذكاء الإنسان	كارل ساجان	سمير حنا صادق
٧٨٦- المذنبة (رواية)	مارجريت أتوود	سحر توفيق
٧٨٧- العودة من فلسطين	جوزيه بوفيه	إيناس صادق
٧٨٨- سر الأهرامات	ميروسلاف فرنر	خالد أبو اليزيد البلتاجى
٧٨٩- الانتظار (رواية)	هاچين	منى الدروبى
٧٩٠- الفرانكفونية العربية	مونيك بونتو	جيهان العيسوى
٧٩١- العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة	محمد الشيمى	ماهر جويجاتى
٧٩٢- دراسات حول القصص القصيرة لإدريس ومحفوظ	منى ميخائيل	منى إبراهيم
٧٩٣- ثلاث رؤى للمستقبل	چون جريڤيس	رءوف وصفى
٧٩٤- التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ٢)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٩٥- مختارات من الشعر الإسبانى (جـ١)	نخبة	على عبد الرءوف البمبى
٧٩٦- أفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن	نعوم تشومسكى	حمزة المزينى

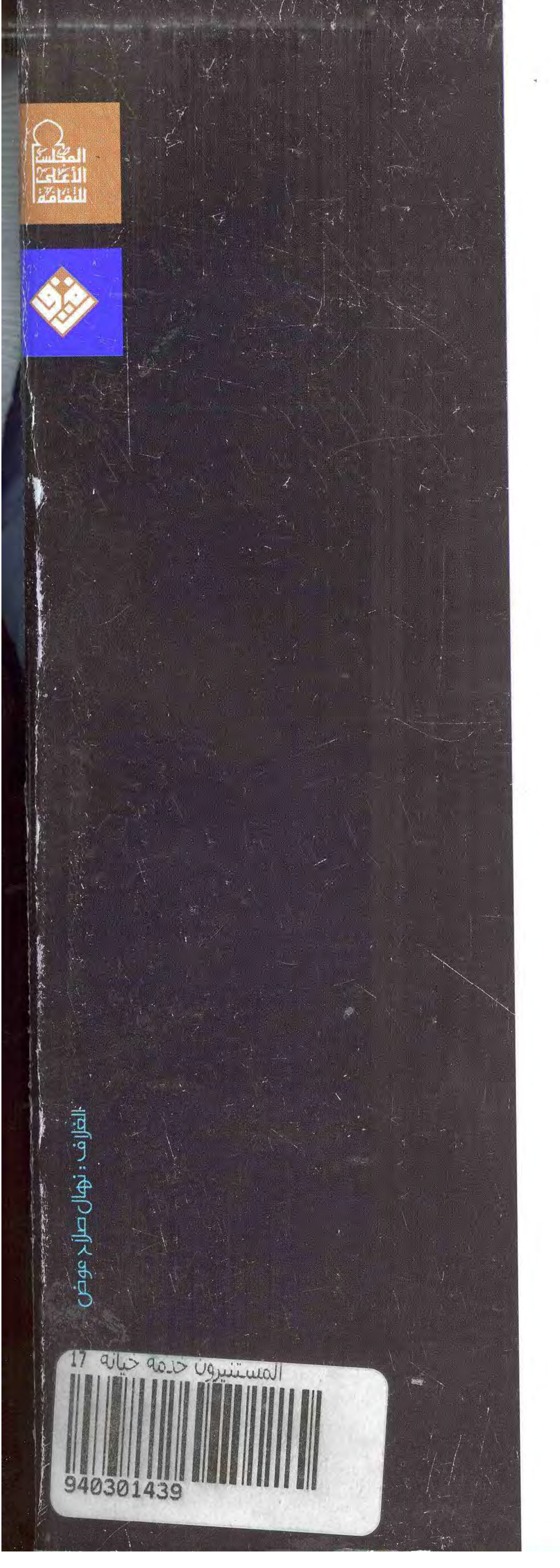
٧٩٧- الرؤية فى ليلة معتمة (شعر)	نخبة	طلعت شاهين
٧٩٨- الإرشاد النفسى للأطفال	كاترين جيلدرد ودافيد جيلدرد	سميرة أبو الحسن
٧٩٩- سلم السنوات	آن تيلر	عبد الحميد فهمى الجمال
٨٠٠- قضايا فى علم اللغة التطبيقى	ميشيل ماكارثى	عبد الجواد توفيق
٨٠١- نحو مستقبل أفضل	تقرير دولى	بإشراف: محسن يوسف
٨٠٢- مسلمو غرناطة فى الآداب الأوروبية	ماريا سوليداد	شرين محمود الرفاعى
٨٠٣- التغيير والتنمية فى القرن العشرين	توماس پاترسون	عزة الخميسى
٨٠٤- سوسيولوجيا الدين	دانييل هيرڤيه-ليجيه وچان بول ويلام	درويش الحلوجى
٨٠٥- من لا عزاء لهم (رواية)	كازو إيشيجورو	طاهر البربرى
٨٠٦- الطبقة العليا المصرية	ماجدة بركة	محمود ماجد
٨٠٧- يحى حقى: تشريح مفكر مصرى	ميريام كوك	خيرى دومة
٨٠٨- الشرق الأوسط والولايات المتحدة	ديڤيد دابليو ليش	أحمد محمود
٨٠٩- تاريخ الفلسفة السياسية (جـ١)	ليو شتراوس وچوزيف كروپسى	محمود سيد أحمد
٨١٠- تاريخ الفلسفة السياسية (جـ٢)	ليو شتراوس وچوزيف كروپسى	محمود سيد أحمد
٨١١- تاريخ التحليل الاقتصادى (مج٢)	جوزيف أ.شومبيتر	حسن النعيمى
٨١٢- تأمل العالم: الصورة والأسلوب فى الحياة الاجتماعية	ميشيل مافيزولى	فريد الزاهى
٨١٣- لم أخرج من ليلى (رواية)	آنى إرنو	نورا أمين
٨١٤- الحياة اليومية فى مصر الرومانية	نافتال لويس	آمال الروبى
٨١٥- فلسفة المتكلمين (مج٢)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبدالغنى
٨١٦- العدو الأمريكى	ڤيليپ روچيه	بدر الدين عرودكى
٨١٧- مائدة أفلاطون: كلام فى الحب	أفلاطون	محمد لطفى جمعة
٨١٨- الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ١)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وپاتسى جمال الدين
٨١٩- الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ٢)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وپاتسى جمال الدين
٨٢٠- هملت (مسرحية) (ميراث الترجمة)	وليم شكسبير	طانيوس أفندى
٨٢١- هفت بيكر (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٨٢٢- فن الرباعى (شعر)	نخبة	محمد نور الدين عبد المنعم
٨٢٣- وجه أمريكا الأسود (شعر)	نخبة	أحمد شافعى
٨٢٤- لغة الدراما	داڤيد برتش	ربيع مفتاح
٨٢٥- عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة)	ياكوب بوكهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٦- عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة)	ياكوب بوكهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٧- أمل مطروح: البدو والمستوطنون والذين يقضون العطلات	دونالد پ.كول وثريا تركى	محمد على فرج
٨٢٨- النظرية النسبية (ميراث الترجمة)	ألبرت أينشتين	رمسيس شحاتة
٨٢٩- مناظرة حول الإسلام والعلم	إرنست رينان وجمال الدين الأفغانى	مجدى عبد الحافظ
٨٣٠- رق العشق	حسن كريم بور	محمد علاء الدين منصور
٨٣١- تطور علم الطبيعة (ميراث الترجمة)	ألبرت أينشتين وليوپولد إنفلد	محمد النادى وعطية عاشور
٨٣٢- تاريخ التحليل الاقتصادى (جـ٣)	جوزيف أ.شومبيتر	حسن النعيمى
٨٣٣- الفلسفة الألمانية	ڤرنر شميدرس	محسن الدمرداش
٨٣٤- كنز الشعر	ذبيح الله صفا	محمد علاء الدين منصور

٨٣٥- تشيخوف: حياة فى صور	بيتر أوربان	علاء عزمى
٨٣٦- بين الإسلام والغرب	مرثيدس غارثيا	ممدوح البستاوى
٨٣٧- عناكب فى المصيدة	ناتاليا ڤيكو	على فهمى عبدالسلام
٨٣٨- فى تفسير مذهب بوش ومقالات أخرى	نعوم تشومسكى	لبنى صبرى
٨٣٩- أقدم لك: النظرية النقدية	ستيوارت سين وبورين ڤان لون	جمال الجزيرى
٨٤٠- الخواتم الثلاثة	جوتهولد ليسينج	فوزية حسن
٨٤١- هملت: أمير الدانمارك	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٨٤٢- منظومة مصيبت نامه (مج٢)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٨٤٣- من روائع القصيد الفارسى	نخبة	محمد علاء الدين منصور
٨٤٤- دراسات فى الفقر والعولمة	كريمة كريم	سمير كريم
٨٤٥- غياب السلام	نيكولاس جويات	طلعت الشايب
٨٤٦- الطبيعة البشرية	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٨٤٧- الحياة بعد الرأسمالية	مايكل ألبرت	أحمد محمود
٨٤٨- تاريخ الدولة العربية (ميراث الترجمة)	يوليوس فلهاوزن	عبد الهادى أبو ريدة
٨٤٩- سونيتات شكسبير	وليم شكسبير	بدر توفيق
٨٥٠- الخيال، الأسلوب، الحداثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٨٥١- الطب التجريبى (ميراث الترجمة)	كلود برنار	يوسف مراد
٨٥٢- العلم والحقيقة	ريتشارد دوكنز	مصطفى إبراهيم فهمى
٨٥٣- العمارة فى الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج١)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٨٥٤- العمارة فى الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج٢)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٨٥٥- فهم الاستعارة فى الأدب	چيرارد ستيم	محمد أحمد حمد
٨٥٦- القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى	فرانثيسكو ماركيث يانو بيانويا	عائشة سويلم
٨٥٧- نادچا (رواية)	أندريه بريتون	كامل عويد العامرى
٨٥٨- جوهر الترجمة: عبور الحدود الثقافية	ثيو هرمانز	بيومى قنديل
٨٥٩- السياسة فى الشرق القديم	إيف شيمل	مصطفى ماهر
٨٦٠- مصر وأوروبا	ڤان بملن	عادل صبحى تكلا
٨٦١- الإسلام والمسلمون فى أمريكا	چين سميث	محمد الخولى
٨٦٢- ببغاء الكاكادو	أرتور شنيتسلر	محسن الدمرداش
٨٦٣- لقاء بالشعراء	على أكبر دلفى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٤- أوراق فلسطينية	دورين إنجرامز	عبد الرحيم الرفاعى
٨٦٥- فكرة الثقافة	تيرى إيجلتون	شوقى جلال
٨٦٦- رسائل خمس فى الآفاق والأنفس	مجموعة من المؤلفين	محمد علاء الدين منصور
٨٦٧- المهمة الاستوائية (رواية)	ديڤيد مايلو	صبرى محمد حسن
٨٦٨- الشعر الفارسى المعاصر	ساعد باقرى ومحمد رضا محمدى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٩- تطور الثقافة	روبن دونبار وآخرون	شوقى جلال
٨٧٠- عشر مسرحيات (جـ١)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧١- عشر مسرحيات (جـ٢)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧٢- كتاب الطاو	لاوتسو	محسن فرجانى

٨٧٣-	معلمون لمدارس المستقبل	تقرير صادر عن اليونسكو	بهاء شاهين
٨٧٤-	النهر الخالد (مج١)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٥-	النهر الخالد (مج٢)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٦-	دراسات فى الموسيقى الشرقية (جـ١)	هنرى جورج فارمر	أمانى المنياوى
٨٧٧-	أدب الجدل والدفاع فى العربية	موريتس شتينشنيدر	صلاح محجوب
٨٧٨-	ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ١)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٧٩-	ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ٢)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٨٠-	الواحات المفقودة	أحمد حسنين بك	عبد الرحمن حجازى وأمير نبيه
٨٨١-	المستنيرون : خدمة وخيانة	جلال آل أحمد	سلوى عباس

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٢٨٦٢ / ٢٠٠٥



إلى أى حد يؤثر المستنيرون فى المسائل المستقبلية فى دولة ما؟ أو لماذا أصبح المستنيرون فى عصرنا على القدر نفسه من عدم التقدير الذى يحظى به الملوك والدول والممالك؟ أو لماذا أهمل المستنيرون المثل العليا؟ أهو بسبب الطعام والشراب؟...

وغير ذلك من أسئلة يطرحها جلال آل أحمد من خلال هذا الكتاب، ولو فى شكل مقترحات عامة، محاولا رصد ما فى المجتمع من نقائض ومظاهر فساد واستبداد وسيطرة غربية لإيقاظ الوعى القومى.